

خمساً نصّاً السور والديكّ المدرّسة

ضوابطها ومقاصدها

تأليف

د. عادل محمد صالح أبو الحسن

غفر الله له ولوالديه

جامعة الملك عبد العزيز

كلية الآداب

قسم الدراسات الإسلامية

مؤسسة علوم القرآن
بيروت

دار القبلة للثقافة الإسلامية
جدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْتَنَا
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ..

"البقرة ٣١"

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلهاء

أهدي مرة جهرى هذا إلى ..

جهرى الجليل سيري الشيخ محمد حسين أبو العلاء أطال الله عمره
وسيري الولد العزيز الشيخ محمد صالح أبو العلاء حفظه الله
اللذين كانا لثوبيهما السدير الأكبر لله في مولا صلي
الطيب العالم واللذين وجها في الوجهة الصحيحة
للسير في طريق الحياة - وفاء وتقديرًا ..

فجزاهما الله حتى خير الجزاء
وأناهما أحسن الثوبية

تقريظ الامين احكام لرابطة العالم الاسلامي معالي الدكتور عبد الله بن عبد العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم وقضى بالنجاح لذوى العزائم والهمم ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على هادي الأمم سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه المخصوصين بجزيل النعم . وبعد :

فلقد كان من توفيق الله أن هدى ابننا البار ابن جامعة أم القرى النجيب الشيخ عادل محمد صالح أبو العلا إلى مطالعة قراء العربية بمؤلف جديد نافع مفيد إن شاء الله يضاف إلى ما فى خزائن الكتب الإسلامية من نفائس غالية ثمينة ويحل معها منزلة الأعز الأكرم .

وإذا كان شرف الكتابة وقدرها بشرف وقدر موضوعها وهو قول ثابت وسديد فإن ما خطه السيد/ عادل أبو العلا يمينه له وزنه وقدره لأنه يتصل بعلوم القرآن الكريم بل هو منها فى الصميم . كيف لا وعنوان الكتاب — والكتاب يقرأ من عنوانه — (خصائص السور والآيات المدنية ومقاصدها) فى كتاب الله المبين . وغير خاف أن تبيان خصائص المدني من آي الذكر الحكيم يقف القارئ الكريم إذا أصغى سمعه وألقى قلبه على كثير مما ينبغي أن يفقهه طالب العلم من مصدر التشريع الإسلامى وفى طليعة تلك الخصائص تبين الناسخ والمنسوخ أولاً وتعيين ميقات طلب العبادات فى مستهل نزول الوحي السماوي بها من لدن حكيم خبير . وما يضاف إلى ذلك من سمات ومميزات السور والآيات المدنية من حيث لون الأسلوب فى هدوئه وطول النفس معه وإرخاء العنان فيه والمجادلة بالتي هى أحسن . وتوخى المنطق وإقامة الأدلة والبراهين وما إلى ذلك مما أفردت له أسفار ومجلدات قديماً وحديثاً جعلها الكاتب بين يديه ونصب عينيه فأفاد منه وأضاف إليها ما ترك الأول للآخر .

كل أولئك في تنسيق وترتيب يغط عليه مع مقدمة فيها . وفي الخاتمة فهارس
تيسر للمطلع عليها مهمة الإفادة منها وتجعلها ثمرات سهلة التناول دانية
القطوف .

والله يزيد في الخلق ما يشاء ، ويؤتي الحكمة من يشاء إنه واسع الفضل
والعطاء . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه النجباء .

د . عبد الله عمر نصيف

الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي

حرر في يوم الاثنين الموافق للخامس من شعبان عام
ألف وأربعمائة وستة من الهجرة النبوية المباركة .

تقرير العلامة قاضي لقضاة فضيلة الشيخ محمد رشيد المنشي الكشناوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن بأيسر الوجوه ، وأفصح اللغات ، وفصل آياته وأتقنه وأحكمه ، وتعبّدنا بتحريره وإتقان قراءته وتدبره ، وجعل ذلك من أعظم القربات ، وأسبغ علينا نعمه وأفاض لدينا منته ، وجعلنا من خدام شرعه الذي علّمنا فروضه وسننه ، وخصّنا بإرسال أكرم الخلق عليه الذي طهّر قلبه وأظهر لسانه وجعل خير الناس أمته . وخير القرون قرنه الذي بوجوده شرفه أبو القاسم سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله عبده ورسوله صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم البررة الكرام والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين .

أما بعد : فإن أولى ما أفنى فيه المكلف عمره وعلّق خاطره . وأعمل فيه فكره تحصيل العلوم النافعة الشرعية واستعمالها في الأعمال المرضية ، وأهم ذلك علم كتاب الله تعالى الذي تولى سبحانه حفظه بفضله وأعجز الخلائق أن يأتوا بمثله ، وجعل ذلك برهاناً لتصديق رسالة من أنزل عليه . ثم إن العلوم المتعلقة به كثيرة وفوائد كل علم غزيرة . وإن من أجلها وأفضلها علم (علوم القرآن) الذي تعددت مباحثه وتشعبت فروعه ، وكلها لازمة للمشتغلين بكتاب الله عز وجل تفسيراً واستنباطاً للأحكام . وكتاب (خصائص السور والآيات المدنية) الذي صنّفه الشيخ الجليل والخبر النبيل الأستاذ الكامل والولد الفاضل المرجو له كل الخير والبركة ، محي السنة وناصر الحديث ظهير الدين عادل محمد صالح أبو العلا حفظه الله تعالى وأمد عمره في طاعة الله تعالى (آمين) .

(رسالة مقدمة الى قسم الدراسات العليا الشرعية لنيل درجة الماجستير في الكتاب والسنة (١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م) بجامعة أم القرى .

من أجل المصنفات في هذا الباب وأدقها وأسناها ، جامعاً للصحيح من الأقاويل ، عارياً عن الشبه والتصحييف والتبديل ، محلي بالأحاديث النبوية ومطرزاً بالأحكام الشرعية ، مرصعاً بأحسن الاشارات مخرجاً بأوضح العبارات مفرغاً في قالب الجمال بأفصح مقال ، استوعب فيه كل الاستيعاب وعرض الآراء بأمانة وموضوعية ولطف مأخذ ، مبني على ترجيح فيما رجح بأدلة قوية . فرحم الله تعالى مصنفه وأجزل ثوابه وجعل الجنة منقلبه ومآبه . ولما كان هذا الكتاب كما وصفت أحببت أن أقول لطلاب العلم : « خذوه بقوة » فله در المصنف في إختياره لهذا الموضوع وفقنا الله وإياه لما فيه رضاه ، لقد قرب إلينا البعيد وسهله ، اللهم اغفر لمصنفه ولقارئه ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات وتابع بيننا وبينهم بالخيرات .

رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كتبه

قاضي القضاة في جمهورية نيجيريا سابقا ، المستشار الديني لسفارة نيجيريا

عامة وخاصة مكتب شئون الحجاج حاليا

محمد المنتقى الكوماسي الكشناوي

عفا الله عنه وسامحه ولجميع المسلمين

والحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى على

سيدنا محمد وعلى آله

وصحبه أجمعين

آمين

١٤٠٦/٧/٢٧ هـ

١٩٨٦/٤/٦ م

تقریظ سعادة الاستاذ الدكتور محمد احمد يوسف القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وعلينا معهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم
الدين .

أما بعد : فإنه من فضل الله على الإنسان أن يتوجه إلى كلام رب العالمين
بالبحث والدراسة ، وأشرف أمتة عليه الصلاة والسلام هم حملة القرآن كما جاء في
الحديث الذى رواه الطبراني فى الكبير عن ابن عباس رضى الله عنه عن رسول الله
ﷺ « أشرف أمتى حملة القرآن » .

وفى كتاب الله تعالى ، قوله سبحانه ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا
آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ .

ولقد خصّ الله جل شأنه هذه الأمة المحمدية بهذا الكتاب المبارك وخصّ
به من شاء منهم ممن أهلهم له واصطفاهم للنصيحة لكتابته ونشر علومه والدعاء
إليه ، وانتقى لهذا العلم العدول من الأمة ، يبلغونه إلى من بعدهم جيلاً بعد جيل
حتى وصل إلينا كعهد الصحابة به .

وأمرنا بتبليغه إلى من بعدنا ، وهكذا الأمر إلى أن تقوم الساعة ، ثم إن شرف
العلم من شرف موضوعه ، وإن أشرف العلوم على الإطلاق تفسير القرآن الكريم
ومدارسته .

قال الله تعالى ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي
خيراً كثيراً ﴾ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه « يؤتى الحكمة : قال القرآن » .
قال ابن عباس يعنى تفسيره ، فإنه قد قرأه البر الفاجر » .

وإن ممن اختارهم الله تعالى لحمل هذه الأمانة وتقلد هذا الشرف الأخ
الفاضل والطالب النابه الأستاذ الشيخ عادل محمد صالح أبو العلا الأستاذ بجامعة
الملك عبد العزيز بمكة ، فلقد عاصرته طوال عدة سنين فلمست فيه روح المسلم
الحق الذى يغار على دينه أن يمس ، يساعده على ذلك خلقه الحسن ومثابرته
على الاطلاع والنهل من ينابيع التراث الإسلامى مع تتبع كل جديد .

وكان نتاج ذلك تلك الباكورة الطيبة المباركة « خصائص السور والآيات
المدنية ومقاصدها » . ولقد عاصرت كتابتها وقرأتها معه حين كتابتها ورأيت قد
جمع فيها أقوال السلف الصالح ، وعالجها معالجة الحبير بهذا العلم الجليل ،
ونراه فى النهاية قد وقف على مايمكن أن يكون هناك من خلاف بين أقوال
العلماء ، مستخلصا من ذلك الدروس المستفادة من خصائص القرآن المدنى
ومقاصده .

اللهم اجزه عن القرآن خير الجزاء ، هو ومن أسهم معه فى إخراج هذا
البحث الى عالم المطالعات المطبوعة .

ندعوه سبحانه أن يهيء له ولكل باحث ، السبل لإخراج الكثير والكثير
لنشر الدعوة الاسلامية — وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم
وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

كتبه

أ. د محمد أحمد يوسف القاسم

الأستاذ بقسم التفسير بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر بالقاهرة

١٤٠٦/٧/١٥ هـ

المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه . ونستغفره ونستهديه . ونؤمن به ونتوكل عليه
ونسأله الخير كله . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا . ومن سيئات أعمالنا .. من يهده
الله فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادي له .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . أنزل على عبده الكتاب لا
ريب فيه هدى للمتقين .

وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده ورسوله بلغ الرسالة وأدى الأمانة
ونصح الأمة ودعا إلى سبيل ربه حتى أتاه اليقين ، المؤيد بالمعجزات الباهرة وأبلغها
وأخْلدها القرآن الكريم .
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن سلك طريقه وهتدى بهديه إلى يوم
الدين ..

أما بعد :

فمنذ كنت أطلب العلم في كلية الشريعة فرع الكتاب والسنة بجامعة أم
القرى (في المرحلة الجامعية) أجد في نفسي الميل الشديد لمادة (علوم
القرآن) لما لها من تعلق بمعرفة كتاب الله عز وجل .
ذلك الكتاب الذي أعيت بلاغته البلغاء ، وأعجزت حكمته الحكماء
وأخرست فصاحته الخطباء .

فان أولى وأجدر ما أعملت فيه القرائح ، وعلقت به الأفكار اللوالب التعمق
بالبحث والدراسة حول ما احتوى عليه هذا الكتاب العزيز من أسرار التنزيل
والكشف عن حقائق التأويل الذي بهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على
كل مقول . عمت محاسنه مطالعه ومقاطعته . وحوث كل البيان جوامعه وبدائعه .
قال الخراي^(١) : في بيان فضل المشتغل بعلوم القرآن :

(١) الخراي : نسبة إلى خرايه ، وهو أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن التجيبي ، صاحب التفسير
العظيم . اعتمد عليه البقاعي في تفسيره وله أيضاً شرح الموطأ والشفاء . توفي سنة ٦٣٧ هـ . انظر
شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي (٥ : ١٨٩) ط/القدس ١٣٥١ هـ ، النجوم الزاهرة لابن تغري
بردي ، مطبعة دار الكتب المصرية (٦ : ٣١٧) .

« وأكمل العلماء من وهبه الله تعالى فهما في كلامه ، ووعيا عن كتابه وتبصرة في الفرقان ، واحاطة بما شاء من علوم القرآن . ففيه تمام شهود ما كتب الله لمخلوقاته من ذكره الحكيم ، بما ينزل بكرم عنايته من خطأ اللاعبين إذ فيه كل العلوم »^(١) . أ.هـ .

ونظراً لذلك فقد وقع اختياري بحمد الله تعالى على أن أكتب رسالتي لمرحلة الماجستير في (خصائص السور والآيات المدنية ومقاصدها) .

بالإضافة إلى ما سبق أن أسلفته عن أهمية مادة علوم القرآن وشغفى بها، هناك العديد من الحوافز التي جعلتني أختار هذا الموضوع وأهمها :

(١) أننى وجدت جل من كتبوا في المكى والمدنى — على كثرتهم — قل أن خرجوا به عن إطار التعريف والضبط وذكر بعض خصائصه ومقاصده على وجه الاختصار ، فليس هناك كتاب مؤلف — فيما أعرف^(٢) — جمع أقوال أهل العلم في ماهية المكى والمدنى، وحقق إختلاف الروايات والأقوال في سوره وآياته بحسب نزولها وذكر خصائصها ومقاصدها باستثناء الرسالة المقدمة من زميلي الدكتور (أحمد عباس البدوى) والتي حصل بها على الدكتوراه عام ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م والتي كانت في الشق الأول من الموضوع، وهو (خصائص السور والآيات المكية ومقاصدها) .

(٢) وكانت تلك الرسالة السابقة أيضاً حافزاً لى على اكمال الطريق الذى شق غبابه زميلي الدكتور (أحمد البدوى) فيكون الموضوع قد خدم من جانبيه .

ولقد أفدت من منهجه ومما كتبه فجزاه الله عنى خير الجزاء .

(١) البهان للامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى (١ : ٥) .

(٢) ممن كتبوا في هذا العلم (مكى بن أبى طالب والعز الدينى) ولقد بحثت طويلاً بين المخطوطات في مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى وفي المكتبة الظاهرية وغيرهما من المكتبات فلم أعثر على شيء مما كتبوا .

(٣) ولقد أشار المرحوم فضيلة الشيخ (عبد العظيم الزرقاني) في كتابه (مناهل العرفان) في بداية حديثه عن المكى والمدنى ، فقال : (ليس من غرضنا في هذا البحث أن نستقصي بالتفصيل والتدليل آيات القرآن الكريم وسوره . وأن نحقق ما كان منها مكياً وما كان مدنيا فتلك محاولات كبيرة جديدة أن تفرد بالتأليف)^(١) .

(٤) ان علم المدنى والمكى من القرآن يعد من أشرف علوم القرآن . لأن تحديد زمان ومكان نزول الآية مهم جداً في تمييز الناسخ من المنسوخ .

وهو السبيل لمعرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام .

ولقد أفصح عن أهميته أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى في كتابه (التنبيه على فضل علوم القرآن) :

(من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة ابتداءً ووسطاً وانتهاءً ، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك . ثم ما نزل بمكة وحكمه مدنى وما نزل بالمدينة وحكمه مكى . وما نزل بمكة في أهل المدينة وما نزل بالمدينة في أهل مكة . ثم ما يشبه نزول المكى في المدنى وما يشبه نزول المدنى في المكى ... الخ)^(٢) .

كل تلك الأسباب التى أشرت إليها جعلتني أختار هذا الموضوع لبسحث أتقدم به إلى جامعة أم القرى لنيل درجة الماجستير في الكتاب والسنة .

وعلى الرغم من قلة زادى وقصر باعى فقد استعنت بالله تعالى في كتابة هذا البحث ، وأسأله التوفيق والعون والسداد ، كما أسأله سبحانه وتعالى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم ويجعل فيه النفع للمسلمين .

وبإذنه الله تعالى سيكون منهج البحث على النحو التالى :

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (١ : ١٨٥) ط/عيسى الباي الحلبى .

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشى (١ : ١٩٢) ط/عيسى الباي الحلبى .

منهج البحث في هذه الرسالة

أولاً :

سأذكر أشهر التعاريف في المدنى والمكى عند العلماء ، وأرجح أشهر الآراء عند الجمهور ، وهو إختيار الزمان ، لأن هذا التعريف يتميز بالضبط والحصر ، وسأجعله منهجاً لى فى جميع الآيات والسور التى بحثها باذن الله .

ثانياً :

سأعدد الخصائص الأسلوبية والموضوعية للمدنى ، وزيادة فى الايضاح سأذكر كذلك خصائص المكى اكتمالاً للفائدة إن شاء الله .

ثالثاً :

سأبحث عن أشهر الروايات والأقوال فى تحديد المدنى والمكى من القرآن ، وسأقوم بدراسة مفصلة عن كل سورة من السور المختلف فيها ، وسأرجح نزول السورة بما ورد من الأحاديث والآثار الصحيحة والمشهورة . أما إذا لم تكن هناك اية أحاديث أو آثار يفهم منها مدنية السورة أو مكيتها فالجأ الى دراسة أسلوبها وموضوعها والموضوعات التى تعالجها بحول الله .

رابعاً :

هناك الكثير من الآيات المدنية فى السور المكية . وآيات مكية قليلة فى سور مدنية ، سأقوم بدراستها دراسة مفصلة فى كل سورة على حدة .

خامساً :

سأفصل القول فى كل مقصد من مقاصد السور والآيات المدنية وسأجعل له فصلاً مستقلاً مثل التشريع فى العبادات والمعاملات ، وكذلك حاجة أهل الكتاب ، بعون الله .

سادساً :

أما أهمُّ المراجع التى استفدت منها بعد القرآن الكريم :
(١) فبالنسبة لكتب علوم القرآن استفدت كثيراً من البرهان للزركشى والانتقان للسيوطى وغيرهما .

- (٢) وكذلك استفدت من معظم كتب السنة المطهرة وبخاصة الصحيحين .
(٣) وكذلك رجعت الى كثير من التفاسير مثل تفسير ابن كثير وتفسير القرطبي والطبري والرازي والالوسي وظلال القرآن للسيد قطب .. الى غير ذلك مما هو موضح في فهرس المراجع .

خطة البحث :

اشتمل البحث على مقدمة وباين وخاتمة على النحو التالى :

المقدمة :

بينت فيها السبب الداعى لاختيار هذا الموضوع وأهميته ، كما بينت فيها المنهج الذى التزمته عند كتابة الرسالة .

الباب الأول : وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول :

أولاً : المراد من المدنى والفرق بينه وبين المكى .

ثانياً : الضوابط التى يُعرف بها المدنى والفرق بين تلك الضوابط

وضوابط المكى .

ثالثاً : خصائص السور والآيات المدنية :

(أ) من الناحية الأسلوبية .

(ب) من الناحية الموضوعية .

الفصل الثانى : بيان السور المتفق على مدنيتهما واختلف فيها .

الفصل الثالث : بيان الآيات المدنية فى السور المكية ، والآيات المكية فى السور المدنية .

الفصل الرابع : دحض الشبهات التى أثرت حول المدنى والمكى من القرآن الكريم .

الباب الثانى : وفيه أربعة فصول :

مقدمة : فى بيان حالة المجتمع المدنى وقت هجرة النبى ﷺ .

الفصل الأول : التشريعات التفصيلية والأحكام العملية في العبادات والمعاملات ،
مع بيان الحكمة التشريعية .

الفصل الثانى : محاجة أهل الكتاب، وبيان الصفات التى وصفهم بها القرآن
الكريم .

الفصل الثالث : بيان ضلال المنافقين وما اتصفوا به من الصفات القبيحة ، وما
أعد لهم من العذاب والنكال ، وموقف الرسول ﷺ تجاههم .
وأشهر مواقفهم العدائية للمسلمين .

الفصل الرابع : بيان قواعد الجهاد وحكمة تشريعه، والأحكام المتعلقة بالحروب
والغزوات والصلح والمعاهدات .

الخاتمة : وتُحوى النتائج التى توصلت إليها من خلال هذا البحث .



الباب الأول وفيه أربعة فصول

الفصل الأول : أولاً : المراد من المدنى والفرد بينه وبين المكى
ثانياً : الضوابط التى يعرف بها المدنى والفرد
بين تلك الضوابط وضوابط المكى .

ثالثاً : خصائص السور والآيات المدنية :
أولاً : من الناحية الاسلوبية .
ثانياً : من الناحية الموضوعية .

الفصل الثانى : بيان السور المنقوش على مدنيته والمختلف فيها .

الفصل الثالث : بيان الآيات المدنية والسور المكية
والآيات المكية فى السور المدنية .

الفصل الرابع : دحض شبهة التى اثيرت حول المدنى
والمكى من القرآن الكريم .

الفصل الأول

التمهيد

المراد من المدنى والفرق بينه وبين المكى :

إنّ مما اختص الله به كتابه العزيز من الخصوصيات أنه لم ينزل دفعة واحدة ، بل أنزل منجماً أى مفزاً بحسب الوقائع التى تقتضى نزول ما ينزل منه . إما جواباً عن سؤال وجه إليه ﷺ . أو حكماً فى قضية عرضت عليه أو رداً على زعم من مزاعم المشركين فى مسائل الاعتقاد والبعث والجزاء أو غيرهما أو نقضاً لمطعن من مطاعن اليهود والنصارى فى الرسالة المحمدية أو بياناً عاماً للناس فى الدعوة إلى الله وأصول الشريعة وأحوال المعاد إلى غير ذلك مما قام الرسول ﷺ بتبليغه إلى أمته مدة حياته صلوات الله وسلامه عليه .

وهذا الأمر قد أفصح به القرآن الكريم فى معرض الرد على الكفار الذين انتقلوا عدم نزوله دفعة واحدة^(١) .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾^(٢) .

أى أنزلناه كذلك لتثبت فؤادك بالوحى المتتابع الذى تجدد به صلتك بالسماء ، ويستمر إمدادها لك بالعون ، فيطمئن المؤمنون إلى عناية الله بك ورعايته لك ، ويرتدع الكفار عن تكذيبك ومحاجتك .

ويؤيد ذلك ما أخرجه الحاكم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (فصل القرآن من الذكر فوضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا فجعل جبريل عليه السلام ينزله على النبى ﷺ ويرتله ترتيلاً) هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقد صححه الذهبى فى التلخيص^(٣) .

(١) باختصار من كتاب المؤتمر الرابع لجمع البحوث الإسلامية رجب ١٣٨٨ هـ (ص ٣٥) ، من مقال للأستاذ عبد الله كنون . ط / المدنى ، القاهرة

(٢) سورة الفرقان : ٣٢ .

(٣) المستدرك على الصحيحين للإمام الحافظ أبى عبد الله الحاكم النيسابورى وبذيله التلخيص للذهبي (ص ٢٢٣) ج ٢ . الناشر دار الكتاب العربى ، بيروت .

هذا وإن كان الحديث موقوفاً لكنه في درجة المرفوع ، لأنه أمر لا يعرف إلا عن طريق الوحى ، ومعلوم أن قول الصحابى الذى لم يأخذ عن الاسرائيليات فيما لا مجال للرأى فيه له حكم الرفع .

وقد ذكر السيوطى عن القرطبى أنه حكى الاجماع على أن القرآن نزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا^(١) .

وكان نزول القرآن الكريم على نبيه صلوات الله وسلامه عليه في مدى ثلاث وعشرين سنة تقريبا ، فبعضه نزل في مكة وبعضه الآخر نزل بالمدينة بعد الهجرة ، فكان ينزل عليه القرآن أينما أقام في السفر والحضر فكان منه المكى ومنه المدنى .

ولقد اختلفت وجهة أنظار العلماء في تعريف المدنى والمكى :

(أ) فمنهم من عرفهما باعتبار حال المخاطبين بهما .

(ب) ومنهم من عرفهما باعتبار مكان نزولهما .

(ج) ومنهم من عرفهما باعتبار زمان نزولهما .

واليك تفصيل تلك التعاريف الثلاثة في المدنى والمكى .

أولا :

التعريف الأول : من نظر إليهما باعتبار حال المخاطبين بهما :

(إن المدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة ، والمكى ما وقع خطابا لأهل مكة)^(٢) .

ولقد اتخذ أصحاب هذا القول المخاطبين حداً للضبط .

أخرج أبو عبيد^(٣) في فضائل القرآن عن ميمون بن مهران^(٤) : (ما كان في

(١) انظر الاتقان (١ : ٤١) .

(٢) انظر الاتقان في علوم القرآن للمحافظ جلال الدين السيوطى (١ : ٩) دار الفكر ، بيروت .

(٣) القاسم بن سلام (١٥٧ — ٢٢٤ هـ) من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقہ تولى القضاء بطرطوس ١٨ سنة وحج وتوفى بمكة . من كتبه (الغريب المصنف) خ / مجلدان في غريب الحديث . ألفه في نحو من أربعين سنة وهو أول من صنف في هذا الفن ، (فضائل القرآن) خ انظر الاعلام (٥ : ١٧٦) دار العلم للملايين .

(٤) ميمون بن مهران البرقي (٣٧ — ١١٧ هـ) أبو أيوب فقيه من القضاة كان مولى لامرأة في الكوفة =

القرآن يَأْيُهَا النَّاسُ أَوْ يَا بَنِي آدَمَ فَإِنَّهُ مَكِي . وما كان يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَانْه مدني (١) .

وذلك لأن الكفر كان هو السائد على جميع أرجاء المعمورة ، فخطبوا بـ(يَأْيُهَا النَّاسُ) فالخطاب لأهل مكة ، وإن كان غيرهم داخلا فيهم .
ولما هاجر المسلمون إلى المدينة ودخلوا في دين الله أفواجا خطبوا بـ (يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا) .

قال الرازي في تفسيره : (حكى عن علقمة والحسن أنه قال : (كل شيء في القرآن يَأْيُهَا النَّاسُ فَانْه مَكِي ، وما كان يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَبِالْمَدِينَةِ) (٢) .
ولقد تعقب هذا الرأي بأنه غير ضابط ولا حاصر .

فان هناك في القرآن آيات كثيرة ليست مصدرة بأحدهما نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاْكِعِينَ ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (٤) .

وتعقب أيضا بأنه غير مطرد فسورة النساء مدنية ، وصدرت بقوله تعالى : ﴿ يَأْيُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ﴾ (٥) . وجاء فيها أيضا قوله تعالى : ﴿ يَأْيُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ (٦) . وقوله تعالى في سورة البقرة المدنية : ﴿ يَأْيُهَا النَّاسُ اغْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ (٧) .

واعتقته فنشأ فيها ثم استوطن الرقة وكان ثقة في الحديث كثير العبادة .أ.هـ انظر الاعلام (٨ : ٣٤٢) ، خير الدين الزركلي ط/دار العلم للملايين .

- (١) الاتفاق للسيوطي (ص ١٧) . ج ١ .
- (٢) التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازي (٢ : ٨٢ — ٨٣) ط/الثانية ، دار الكتب العلمية بطهران .
- (٣) البقرة : ٤٣ .
- (٤) العلق : ١ — ٢ .
- (٥) النساء : ١ .
- (٦) النساء : ١٧٠ .
- (٧) البقرة : ٢١ .

وبذلك نستخلص ان هذا التعريف غير شامل لجميع الشروط إذ أن مبنى التقاسيم والتعاريف يقوم على الضبط والانحصار والاطراد^(١) .
ثانيا : التعريف الثاني :

من نظر إليهما باعتبار مكان نزولهما :
(إن المدنى ما نزل في المدينة والمكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة)^(٢) .
ويشمل المدينة ضواحيها كالمنزل عليه في بدر وأحد ، ويشمل مكة ضواحيها كالمنزل عليه في منى وعرفات والحديبية .

وهذا التقسيم اعتبر المكان وحدة للضبط .
ولقد تعقب بأنه غير حاصر ولا مطرد . فهناك آيات لم تنزل في المدينة ولا مكة بل نزلت في الأسفار مثل قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيًّا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ الآية ﴾^(٣) . فقد نزلت عليه ﷺ وهو مسافر لغزوة تبوك^(٤) .

قال الواحدى : ثم أنزل في المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيًّا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ ﴾^(٥)
فبالقطع ليست من القسم المكى ولكن هل نعتها من القسم المدنى مع أنها لم تنزل بالمدينة ؟ .

وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الْإِذَىٰ فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدِكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. الآية ﴾^(٦)
أخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك رضى الله عنه قال : لما خرج النبى ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله ﴿ إِنَّ الْإِذَىٰ فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدِكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ إلى مكة ..

(١) انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم للدكتور أبو شهبه ، ط/ الثانية بمطابع القاهرة الحديثة ١٩٧٣ م .

(٢) انظر الاتفاق (١ : ٩) .

(٣) التوبة : ٤٢ .

(٤) انظر اسباب النزول للعلامة محمد بن أسعد العراقى مخطوطة من مصورات مركز البحث العلمى بجامعة أم القرى . رقم المخطوطة فى مكتبة دبلن ٥١٩٩ .

(٥) انظر أسباب النزول للواحدى تحقيق السيد صقر (ص ٢٤٦) .

(٦) القصص : ٨٥ .

وأخرج ابن مردويه عن علي بن الحسين بن واقد رضى الله عنه قال : (كل القرآن مكى أو مدنى . غير قوله تعالى : ﴿إِنْ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ فإنها أنزلت على رسول الله ﷺ بالجحفة حين خرج مهاجرا إلى الله فلا هى مكية ولا مدنية . وكل آية نزلت على رسول الله ﷺ قبل الهجرة فهى مكية نزلت بمكة أو بغيرها من البلدان ، وكل آية نزلت بعد الهجرة فإنها مدنية نزلت بالمدينة أو بغيرها من البلدان)^(١) .

وبهذا يتضح أن هذا التعريف غير حاصر لأنه يثبت الوساطة (ولا ريب أن عدم الضبط فى التقسيم يترك واسطة لا تدخل فيما يذكر من الأقسام وذلك عيب يخل بالمقصود الأول من التقسيم وهو الضبط والحصر)^(٢) .

ثالثاً : التعريف الثالث :

من نظر إليهما باعتبار زمان نزولهما .

وهذا أصح وأشهر الاعتبارات وأضبطها وعليه جمهور العلماء وهو : (أن المدنى ما نزل بعد هجرته ﷺ إلى المدينة وإن كان نزوله بمكة أو ضواحيها ويدخل فيه ما نزل عليه ﷺ فى سفره ، والمكى ما نزل قبل هجرته ﷺ إلى المدينة)^(٣) .

وقد اتخذ هذا التقسيم الزمان وحدة للضبط ولن نجد زمانا أليق للتمييز بين المكى والمدنى إلا الهجرة .

وهو تقسيم حاصر وضابط ومطرّد بخلاف سابقه ، وذلك لأنه تنعدم على القول به الوساطة ، ولا تخرج عنه آية من الآيات .

فالآيات إما أن يكون نزولها قبل الهجرة فنطلق عليها مكية أو بعد الهجرة فنطلق عليها مدنية دون النظر إلى مكان النزول بالذات .

(١) تفسير الدر المنثور للسيوطى (١٣٨ : ٥ - ١٤٠) للإمام الحافظ الكبير جلال الدين السيوطى (٨٤٩ هـ - ٩١١ هـ) ط/دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت وبهامشه القرآن الكريم مع تفسير ابن عباس .

(٢) انظر مناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى (١ : ١٨٦) ط/الثالثة ، دار احياء الكتب العربية عيسى الباقى الحلبي وشركاه .

(٣) انظر الاتقان (١ : ٩) .

وعليه فقله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ^(١) مدنية مع أنها نزلت في عرفة في حجة الوداع .

أخرج مسلم في صحيحه عن عبد بن حميد أخبرنا جعفر بن عون أخبرنا أبو عميس عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال :

« جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال يا أمير المؤمنين . آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا نزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال وأى آية ؟ قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ . فقال عمر إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه والمكان الذي نزلت فيه : نزلت على رسول الله ﷺ بعرفات في يوم الجمعة ^(٢) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ ^(٣) . مدنية مع أنها نزلت بمكة في جوف الكعبة عام الفتح .

قال القرطبي : (قال ابن جريج وغيره ، ذلك الخطاب للنبي ﷺ خاصة في أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن طلحة بن أبي طلحة الحنظلي العبدري من بنى عبد الدار ، ومن ابن عمه شيبه بن عثمان بن أبي طلحة وكانا كافرين وقت فتح الكعبة فطلبه العباس بن عبد المطلب لتضاف له السدانة إلى السقاية ، فدخل رسول الله ﷺ الكعبة وكسر ما فيها من الأوثان وأخرج مقام إبراهيم ، ونزل جبريل بهذه الآية ، فقال عمر بن الخطاب : وخرج رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية وما كنت سمعتها من قبل منه فدعا عثمان وشيبه فقال : خذاها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم ^(٤)) . هـ .

(١) المائدة : ٣

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب التفسير (١٨ : ١٥٤) ط/الطبعة الثانية دار الفكر بيروت ١٣٩٢ هـ .

(٣) النساء : ٥٨ .

(٤) تفسير القرطبي (الجامع لاحكام القرآن) لأبي عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي (٥ : ٥)

(٢٥٦) مطبعة دار الكتب المصرية — الطبعة الثانية ١٣٥٦ هـ .

وبناء على ذلك فإن كل ما نزل من القرآن الكريم قبيل الهجرة يطلق عليه مكى سواء أنزل في مكة أم في الطائف أم في أى جهة أخرى .
وكل ما نزل عليه بعد الهجرة يطلق عليه مدنى سواء أنزل بالمدينة أم في الغزوات أم الأسفار أم في طريقه إلى الهجرة .

وعليه فإن قوله تعالى في سورة الفتح : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مَبِينًا ... ﴾ ^(١) . آية مدنية . فقد نزلت على رسول الله ﷺ في منصرفه من الحديبية . كما ورد ذلك في مسند الإمام أحمد بن حنبل عن قتادة عن أنس قال : لما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية نزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مَبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَتُتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ . قال المسلمون يا رسول الله هنيئا لك ما أعطاك الله فما لنا ؟ فنزلت : ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرْ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُورًا عَظِيمًا ﴾ ^(٢) .

وقد أخرجه البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه — إنا فتحنا لك فتحا مبينا — « قال الحديبية . قال أصحابه : هنيئا مريضا فما لنا ؟ فأنزل الله : ﴿ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ^(٣) .

ومن خلال هذا العرض نخلص إلى أن التعريف الثالث للمدنى والفرق بينه وبين المكى هو الذى عليه الاعتماد والعمل ولا يرد عليه ما ورد على التعريف الأول والثانى .

الموازنة بين الآراء الثلاثة :

من خلال النظر في التعاريف الثلاثة للمدنى من القرآن والفرق بينه وبين المكى (.

(١) الفتح : ١

(٢) مسند الامام أحمد (٣ : ١٢٢) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٨ : ٤٥٦) كتاب المغازى . للحافظ شهاب الدين ابى الفضل العسقلانى المعروف بابن حجر (٧٧٣ — ٨٥٢ هـ) ط/البانى الحلبى وأولاده بمصر ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٩ م .

نجد أن التعريف الأول اتخذ المخاطبين هم الحد الفاصل لمعرفة المدنى من المكى فى القرآن وهو الذى يشير بأن المدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة والمكى ما وقع خطابا لأهل مكة .

وهو تعريف غير حاصر . فهناك العديد من الآيات التى لا تكاد تعد ليس فيها « يأياها الذين آمنوا » ولا « يأياها الناس » .. نضيف إلى ذلك أنه غير مطرد إذ أن سورة البقرة وهى مدنية نجد فيها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ ﴾ ^(١) . وسورة النساء مدنية ومفتتحها ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم ﴾ ^(٢) . وهذا يتضح أنه غير حاصر ولا مطرد وذلك عيب يخل بالتعريف إذ يشترط فى التعاريف قيامها على الضبط والانحصار والاطراد .

أما التعريف الثانى : فقد اتخذ المكان حدا ضابطا . وهو الذى نص إلى أن المدنى ما نزل بالمدينة والمكى ما نزل بمكة ومن المعروف أن هناك آيات نزلت خارج المدينة وأخرى نزلت خارج مكة وهذا يكون التعريف أثبت الواسطة ، كما أشار إلى ذلك السيوطى ، فما نزل بالأسفار لا يسمى مدنيا ولا مكيا ، فهو إذن غير حاصر ولا ضابط وعدم الحصر عيب يخل بالتعريف .

أما التعريف الثالث : الذى اتخذ الزمان حداً ضابطا وهو الذى أميل إلى ترجيحه والمشهور بين العلماء وهو :

(ان المدنى ما نزل بعد الهجرة ، وإن كان نزوله بمكة ، والمكى ما نزل قبل الهجرة) .

وكما وضحت سابقا نجد أن هذا التعريف حاصر وضابط ومطرد وتنعدم فيه الواسطة ولا يرد عليه ما ينقضه .

لهذا كان هو أصح وأرجح الأقوال ، وهو الذى أتخذه منهجا ، بإذن الله تعالى — فى الحكم على الآيات التى أتعرض لها أثناء دراستى وتحليلى لهذا الموضوع .

(٢) النساء : ١

(١) البقرة : ٢١

الضوابط التي يعرف بها المدنى والفرق بين تلك الضوابط وضوابط المكي .

للعلماء في ضبط المدنى والمكى طريقان :

الطريق الأول : السماع .

الطريق الثانى : القياس ^(١) .

وليك بيان ذلك بالتفصيل .

الطريق الأول : السماع :

وهو النقل الصحيح عن الصحابى أو التابعى بقرينة تفهم من كلام الراوى تحدد زمن نزول الآية .

ولم يحفظ عن النبى ﷺ فى ذلك قول ، ولا ورد عنه أنه قال إن هذه الآية أو السورة نزلت بمكة أو بالمدينة .

وقد نقل الزركشى ^(٢) — رحمه الله — فى البرهان كلاما نفيسا عن القاضى أبى بكر الباقلانى ^(٣) فى الانتصار بعد أن طرح سؤالا وهو أنه هل نص النبى ﷺ على بيان ذلك (أى : الآيات المكية والمدنية) ؟ .

قال : « إنما هذا يرجع لحفظ الصحابة وتابعيهم ، كما أنه لا بد فى العادة من معرفة معظمى العالم والخطيب ، وأهل الحرص على حفظ كلامه ومعرفة كتبه ومصنفاته من أن يعرفوا ما صنفه أولا وآخرا ، وحال القرآن فى ذلك أمثل والحرص عليه أشد ، غير أنه لم يكن من النبى ﷺ فى ذلك قول ولا ورد عنه أنه قال :

(١) الاتقان (١ : ١٧) .

(٢) هو الامام بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشى ، ولد بمصر سنة ٧٤٥ هـ شافعى المذهب وله الكثير من المؤلفات يروى على الثلاثين مؤلفا منها البرهان فى علوم القرآن ، اعلام الساجد باحكام المساجد ، البحر المحيط فى أصول الفقه ، توفى سنة ٧٩٤ هـ .

(٣) القاضى الباقلانى : هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم المعروف بالباقلانى ، ولد بالبصرة وتوفى فى بغداد عام ٤٠٣ هـ ومن أشهر مؤلفاته اعجاز القرآن . انظر : كتاب اعجاز القرآن للباقلانى تحقيق سيد صقر (ص ٥٣ — ٥٤) طبعة دار المعارف ، أنظر : وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان (٦٠٨ — ٦٨١ هـ) حققه د. احسان عباس (٤ : ٦٠٨) ط/دار صادر .

اعلموا أن قدر ما نزل بمكة كذا وبالمدينة كذا ، وفصله لهم ، ولو كان ذلك منه لظهر وانتشر .

وإنما لم يفعله لأنه لم يؤمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب في بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ ليعرف الحكم الذى تضمنها ، فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول ﷺ بعينه ، وقوله هذا هو الأول المكى وهذا هو الآخر المدنى .

وكذلك الصحابة والتابعون من بعدهم لما لم يعتبروا أن من فرائض الدين تفصيل جميع المكى والمدنى مما لا يسوغ الجهل به ، لم تتوفر الدواعى على إخبارهم به ، ومواصلة ذكره على أسماعهم ، وأخذهم بمعرفته وإذا كان كذلك ساع أن يختلف في بعض القرآن هل هو مكى أو مدنى وأن يعملوا في القول بذلك ضربا من الرأى والاجتهاد ، وحيث فلم يلزم النقل عنهم ذكر المكى والمدنى ، ولم يجب على من دخل في الإسلام بعد الهجرة أن يعرف كل آية نزلت قبل إسلامه : مكية أو مدنية ، فيجوز أن يقف في ذلك أو يغلب على ظنه أحد الأمرين ، وإذا كان كذلك بطل ما توهموه من وجوب نقل هذا أو شهرته في الناس ولزوم العمل به لهم ووجوب ارتفاع الخلاف فيه^(١) .

ونستطيع أن نوجز كلام القاضى في ثلاث نقاط وهى :

(١) ان العلم بالمكى والمدنى لم يكن مما علمه الرسول ﷺ لصحابته ويرجع هذا العلم لحفظ الصحابة والتابعين .

(٢) ان هذا العلم علم اجتهدى يجوز لعلماء الأمة أن يحكموا فيه بحسب اجتهداهم .

(٣) ان هذا العلم فرض كفاية فمعرفة ليست واجبة على كل مسلم ، لكن لا بد من معرفته لبعض العلماء حتى يكونوا على معرفة وافية بتاريخ التشريع الاسلامى ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ ، والتدرج في الأحكام والتكاليف .
ولكن عظمة ومكانة هذا العلم لم تهتز بهذا القول فالقاضى أبو بكر أوجبها

(١) البرهان لبدر الدين الزركشى (١ : ١٩١ - ١٩٢) تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم .

على علماء الأمة ، ولقد أفصح العلامة أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري^(١) بوضوح عن أهمية هذا العلم في كتابه (التنبيه على فضل علوم القرآن) يقول : « من أشرف علوم القرآن علم نزوله ، وجهاته ، وترتيب ما نزل بمكة ابتداء ووسطا وانتهاء . وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك ، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدني ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكّي . وما نزل بمكة في أهل المدينة وما نزل بالمدينة في أهل مكة ثم ما يشبه نزول المكّي في المدني وما يشبه نزول المدني في المكّي ثم ما نزل بالجحفة وما نزل ببيت المقدس وما نزل بالطائف وما نزل بالحدودية ، ثم ما نزل ليلا وما نزل نهارا وما نزل مشيعا وما نزل مفردا ، ثم الآيات المدنيات في السور المكّية والآيات المكّية في السور المدنية ، ثم ما حمل من مكة إلى المدينة وما حمل من المدينة إلى مكة وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة ، ثم ما نزل مجملا وما نزل مفسرا ، وما نزل مرموزا ثم ما اختلفوا فيه فقال بعضهم مدني . هذه خمسة وعشرون وجها من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله^(٢) » .

وكلام النيسابوري هذا لا يتناقض مع كلام القاضي أبي بكر . فهو يلزم المجتهد المفسر لكتاب الله أن يكون على إحاطة كاملة بعلم المكّي والمدني . ولقد اشتهر من الصحابة والتابعين الكثير ممن عنوا بدراسة القرآن الكريم وساعدهم على ذلك وجودهم في فترة نزول الوحي والتنزيل يشهدون مكانه وزمانه وأسباب نزوله ومن هؤلاء الصحابة على بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، وعبد الله بن عباس . ولقد كان لنشأة على بن أبي طالب رضى الله عنه في بيت النبوة وزواجه بالسيدة فاطمة الأثر الكبير في بلوغه درجة عالية من العلم .

وأخرج ابن سعد بسنده عن على قال : « والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما نزلت وأين نزلت وعلى من نزلت . إن ربي وهب لي قلبا عقولا ولسانا طلقا^(٣) .

(١) العلامة محمد بن حبيب النيسابوري . اديب واعظ ، مفسر ، صاحب عقلاء المجانين — طه.صنف في القراءات والتفسير والأدب وتناقل الناس تصانيفه . ومن كتبه التنزيل وترتيبه — خ.. في الظاهرية توفي سنة ٤٠٦ هـ (٢١٣:٢) .

(٢) البرهان (١ : ١٩٢) .

(٣) طبقات ابن سعد (٢ : ٣٣٨) .

وعنه ايضا عن يحيى بن سعيد بن المسيب قال : كان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس فيها أبو حسن^(١) .

وروى البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن مسعود قال :
(والله الذى لا إله غيره ما أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين أنزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن أنزلت ، ولو أعلم أحدا أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)^(٢) .

وإليك نصا صريحاً من ابن عباس يدل على شمول معرفته بالملكى والمدنى والناسخ والمنسوخ .

روى مسلم بسنده عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس أئمن قتل مؤمنا متعمدا من توبة ؟ قال : لا .

فتلوت عليه هذه الآية التى فى الفرقان : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ » .. إلى آخر الآية قال : هذه آية مكية نسختها آية مدنية (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا) وفى رواية ابن هشام :

فتلوت عليه هذه الآية التى فى الفرقان (إلا من تاب ..)^(٣) .

وإليك بعض الأمثلة على مدنية الآيات أو السور أو مكيتها بقرينة تفهم من كلام الراوى مثال ذلك :

روى البخارى^(٤) بسنده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنت مع النبى ﷺ فى حرث بالمدينة^(٥) ، وهو يتوكأ على عسيب^(٦) فمر بنفر من اليهود

(١) طبقات ابن سعد (٢ : ٣٣٩) .

(٢) صحيح البخارى وهامشه فتح البارى كتاب فضائل القرآن (١٠ : ٤٩) ط/ الباقى والحبلى سنة ١٣٧٨ هـ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى كتاب التفسير (١٨ : ١٦٠) دار الفكر بيروت .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٧ : ٣٣) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة .

(٥) فى رواية مسلم من طريق مسروق عن ابن مسعود بلفظ (كان فى نخل) . وزاد فى رواية العلم بالمدينة) . ا. هـ فتح البارى (١٠ : ١٩) .

(٦) العسيب — بوزن عظيم — وهى الجريدة التى لا خوص فيها .

فقال بعضهم : سلوه عن الروح . وقال بعضهم : لا تسألوه لا يسمعكم ما تكرهون . فقاموا إليه فقالوا : يا أبا القاسم . حدثنا عن الروح ، فقام ساعة ينظر | فعرفت أنه يوحى إليه فتأخرت عنه حتى صعد الوحى . ثم قال : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي »^(١) .

فالآية مدنية كما هو واضح من الحديث . وذلك يفهم من كلام الراوى عند قوله (فى حرث بالمدينة) وقوله (فمر بنفر من اليهود) واليهود كانوا يقيمون فى المدينة .

ولا شك أن معرفة سبب النزول من أهم القرائن المساعدة لاعطاء حكمنا على الآية بأنها مدنية أو مكية .

فالآيات التى نزلت بصدد المنافقين ننزلها منزلة المدنى . لأن النفاق لم يظهر إلا فى المدينة بعد الهجرة .

مثل قوله تعالى : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَآثُورًا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٢) .

أخرج البخارى بسنده عن ابن شهاب قال أخبرنى عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول دعى له رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه . فقلت يا رسول الله أتصلى على ابن أبى وقد قال يوم كذا وكذا أعدد عليه قوله . فتبسم رسول الله ﷺ . وقال : أخر عنى يا عمر فلما أكرت عليه . قال إني خيرت فاخترت . ولو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها ، قال : فصلى رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة — ولا تصل على أحد منهم مات أبدا إلى قوله وهم فاسقون — قال : فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله ﷺ . والله ورسوله أعلم^(٣) .

كذلك الآيات التى نزلت بشأن الأحكام الشرعية فإن معظمها نزلت

(١) الامراء ٨٥ (٢) التوبة : ٨٤ .

(٣) صحيح البخارى بهامشه فتح البارى (٩ : ٤٠٦ — ٤٠٧) .

بالمدينة وأيضاً الآيات التى نزلت فى شأن الجهاد والغزوات وأحكام الصلح والمعاهدات فهى مدنية^(١) .

والآيات التى نزلت لتثبيت العقيدة فى قلوب الناس وبشأن المشركين وبيان زيف عقائدهم وجحدهم بالرسالة والكتاب فهى فى الغالب مكية مثل قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهْذُتٌ لَهُ ثَمَهِداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً . سَأَرَهْقُهُ صَعُوداً .. ﴾^(٢)

فقد نزلت فى الوليد بن المغيرة أحد صناديد قريش وزعمائها الطغاة الجبابة أخرج الحاكم فى المستدرک عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن الوليد بن المغيرة جاء الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أباه جهل فأتاه فقال يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا قال : لم . قال : ليعطوكه فانك أتيت محمداً لتعرض لما قبله قال قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا قال فقل فيه قولاً يبلغ قومك إنك منكراً له أو أنك كاره له قال وماذا أقول ، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منى ولا أعلم برجزه ولا بقصيده منى ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا والله إن لقوله الذى يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة^(٣) ، وانه لثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى وإنه ليحطم ما تحته . قال لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه قال فدعنى حتى أفكر ، قال هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره فنزلت ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ﴾ قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخارى ولم يخرجاه^(٤) . فالآيات مكية بلا نزاع لأن الوليد بن المغيرة كان فى مكة والحادثة وقعت قبل الهجرة .

(١) راجع موضوع (ضوابط المدنى) فى الموضوع الذى يلى هذا البحث (ص ٣٦) من بحثنا هذا .

(٢) سورة المدثر : ١١ — ١٧ .

(٣) أى رونقاً وحسناً .

(٤) المستدرک للحاكم (٢ : ٥٠٧) الناشر دار الكتاب العربى ، بيروت .

وختلاصة القول :

(١) أن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم كان لهم الفضل الأول في وصول علم المدني والمكي إلينا وذلك من خلال ما روي لنا من الأحاديث .

(٢) إن علم أسباب النزول ذو علاقة وثيقة بعلم المكي والمدني ولا يكادان يفترقان .

الطريق الثاني : القياس :

وهو الضابط الذي يعرف بواسطته أن الآية أو السورة مدنية أو مكية وهو ليس مطردا بل مبنيا على الغالب والكثرة . ومرجعه إلى الألفاظ والتراكيب . ولكل من المدني والمكي ضوابط . وتعرف بالتبع والاستقراء .

ضوابط السور والآيات المدنية .

أولا : « كل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية »^(١) .

فاذا ما تتبعنا الآيات أو السور التي فصلت الفرائض وكيف يقسم الميراث على الورثة نجدها أنها مدنية . فمثلا سورة النساء عنيت منذ بدايتها من قوله تعالى : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ . نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ الى قوله تعالى ﴿ وصية من الله والله عليم حلِيم ﴾^(٢) . كذلك سورة البقرة والأنفال والتوبة والأحزاب تعرضت في بعض آياتها للفرائض وكيفية توزيعها وجميع تلك السور مدنية وكذلك الآيات والسور الكريمة التي فصلت الحدود تعد من الجانب المدني فقد شرع الله لعباده كثيراً من الحدود وألزمهم إقامتها كحد القتل والزنى والسرقة وفي تطبيق تلك الحدود وغيرها من حدود الله أمان للناس على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وليكون هذا العقاب الصارم عبرة للناس حتى يرتدع أهل البغي والفساد .

(١) الانتقان (١ : ١٨) .

(٢) سورة النساء : ٧ - ١٢ .

وهذا التشريع من لدن العزيز في سلطانه الحكيم في أمره ونهيه الذي لا تخفى عليه مصالح عباده . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٍ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ^(١) . وسوف أتوسع في هذا الموضوع بالتفصيل إن شاء الله في خصائص السور المدنية .

ثانياً :

قال السيوطي في الإتقان نقلاً عن مكى بن أبى طالب : (كل سورة فيها ذكر المنافقين مدنية وزاد غيره سوى العنكبوت) ^(٢) فإنها مكية إلا إحدى عشرة آية من مقدمتها مدنية وهى التى ورد فيها ذكر المنافقين ومن خلال تتبعى للسور والآيات التى ورد فيها ذكر المنافقين وجدتها فى البقرة والنساء والمائدة والتوبة والأحزاب والحديد والحشر والمنافقون وجميع هذه السور مدنية وسوف أتعرض للآيات فى موضوع خصائص السور والآيات المدنية بالتفصيل إن شاء الله تعالى ^(٣) .

ثالثاً :

كذلك كل سورة فيها ذكر الجهاد أو بيان لأحكامه فهى مدنية حتى سورة (الحج) عند من يرى أنها مكية فأية الجهاد فيها مدنية . فلقد وردت آيات الجهاد فى سورة آل عمران والنساء والأنفال والأحزاب والحديد والحشر . وضمت أحكامه وحضت عليه وفصلت أحكام الصلح والمعاهدات وسوف أتعرض للآيات بالتفصيل فى الحديث عن الجهاد فى موضوع خصائص السور المدنية ^(٤) .

(١) البقرة : ١٧٨ — ١٧٩ .

(٢) الاتقان (١ : ١٨) .

(٣) راجع (ص ٤٣٠) من بحثنا هذا .

(٤) راجع (ص ٤٥٧) من بحثنا هذا .

ضوابط السور والآيات المكية :

أولاً :

كل سورة ورد فيها لفظ « كلا »^(١) فهي مكية . وهذه الكلمة قد ذكرت فيما بين سورة (مريم) وسورة (الهمزة) في خمس عشرة سورة وكلها مكية وورد ذكرها ثلاثاً وثلاثين مرة ، حسب تتبعي لهذه اللفظة في تلك السور قال السيوطي في الاتقان : قال الدريني رحمه الله :

(وما نزلت « كلا » بيثرب فاعلمن ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى) وحكمة ذلك أن نصفه الأخير نزل أكثر بمكة وأكثرها جابرة فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم بخلاف النصف الأول ومانزل منه في اليهود لم يحتاج إلى إيرادها فيه لذلتهم وضعفهم^(٢) .
ومثال لسورة مكية ورد فيها (كلا) :

قال تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ .. ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَسَوْنَ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوْهَا غَيْنَ الْيَقِينِ . ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾^(٣) .
فهذه السور المكية وردت فيها (كلا) ثلاث مرات على سبيل الزجر والردع .

ثانياً :

كل سورة ورد فيها آية السجدة فهي مكية وهي في القرآن في خمسة عشر موضعاً تبدأ من سورة (الأعراف) وتنتهي بسورة (العلق) على خلاف في حصرها^(٤)

وفي سورة (الرعد) و (الحج) خلاف بين العلماء .

(١) أنظر الاتقان (١ : ١٨) .

(٢) الاتقان (١ : ١٨) .

(٣) سورة التكاثر : وهي ٨ آيات .

(٤) قال القرطبي : أولها خاتمة الأعراف وآخرها خاتمة العلق . أنظر تفسير القرطبي (٧ : ٣٥٧) .

ومثال (لسجدة) فى سورة مكية قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (١) .

ثالثاً :

ومن تلك الضوابط وجود حروف التهجى التى فى أوائل السور .
فكل سورة افتتحت بأحرف التهجى فهى مكية سوى الزهراوين (البقرة وآل عمران) (٢) .

ولقد وردت فى تسع وعشرين سورة فإخراج البقرة وآل عمران يكون عدد السور المكية التى ورد فيها حرف التهجى سبعة وعشرين سورة .

رابعاً :

وأخيراً كل سورة وردت فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية باستثناء سورة البقرة . ولقد وردت قصة آدم وإبليس فى خمس آيات من كتاب الله العزيز اختصت سورة الأعراف بأربعة منها والخامسة فى سورة (يس) فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ آدَمَ إِلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٣) .
وخلاصة البحث أن هذه الضوابط لم يرد فيها بتاتا ذكر للأحكام الشرعية أو الحدود أو أحكام القتال ومجادلة أهل الكتاب فان ذلك قد عنيت به السور والآيات المدنية .

خصائص السور والآيات المدنية :

لقد اختصت السور والآيات المدنية والمكية بخصائص بعضها يرجع إلى الأسلوب والأخرى ترجع إلى الموضوع .

(١) مريم : ٥٨ .

(٢) أنظر الاتقان (٢ : ١٨) .

(٣) سورة يس : ٦٠ .

أولا : خصائص السور والآيات المدنية من ناحية الأسلوب والفرق بينها وبين المكي :

(أ) طول أكثر سوره وآياته :

والحكمة في ذلك أنه « لما انتقل النبي ﷺ إلى المدينة كان التنظيم الكامل للمعاملات . لأنه وجدت دولة إسلامية فاضلة تنظم العلاقات بين الناس ، وتقوم على تنفيذها والقضاء بها . وبدأت الآيات الكريمة تتوالى وابتدأت بأعلى أنواع التعاون بين الناس وهو الاخاء الذي آخى فيه النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار وشرعت النظم الاجتماعية والمعاملات الانسانية من أحكام البيوع والمزارعات وتحريم للربويات وغيرها وفريضة الصدقات وتنظيمها وإعطاء الفقير حقه والتنظيم الاجتماعي الكامل . وشرعت الزواجر الاجتماعية من حدود وقصاص وسنت الأحكام الفاصلة بين الحقوق وفتح باب الجهاد ووضعت نظم الحرب وقامت العلاقات الدولية على أسس متينة محكمة يراعى فيها حق العدو كما يلاحظ حق الولي على سواء لأن المبادئ المدنية في الإسلام قامت على إعطاء كل ذي حق حقه من غير محس ولا شطط ولا مجازرة للحد ولا اعتداء^(١) . أ. ه .

وهذه التشريعات السابقة بحاجة إلى البسط والإطالة . مثال ذلك : (آية الدين) .. ومن قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى ﴾ إلى قوله ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾^(٢) .

على حين نجد الآيات والسور التي نزلت في مكة قبل الهجرة اتسمت بالإيجاز وبالقصر — في الجملة عن الآيات المدنية . فمثلا : (جزء عم) وهو الجزء الثلاثون من القرآن الكريم أغلبه مكي ونلاحظ قصر آياته وتعدد فواصله بل إن مقدار النصف الأخير من القرآن الكريم معظمه مكي ويتسم بقصر آياته وسوره . والحكمة في ذلك « أن القوم في مكة أهل عناد وشراسة وطغيان واعتداد بقوتهم والرسول ﷺ والمؤمنون لا يستطيعون رد هذا الطغيان وإيقافهم عند حدهم .. فكان الله هو الذى يتولى الدفاع عنهم بالكلمة الحاسمة ينزل بها القرآن

(١) عن (القرآن المعجزة الكبرى) للشيخ محمد أبو زهرة (ص ٢٤ — ٢٦) ط / دار الفكر العربي .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٦ .

يهز نفوس هؤلاء ويزجرهم ويتوعدهم بالأسلوب القوي الذى يناسب حالهم وبآيات كثيراً ماتكون قصيرة موجزة لكنها قارعة قاصمة شديدة فى كلماتها ووقعها .

وهكذا كان القرآن وهو الذروة العليا من الفصاحة والبلاغة ومراعاة مقتضى الحال فإذا وجدت آياتاً أو سوراً قصيرة وأسلوباً يزجر ويقسو ويشدد يرد هجومها عن رسول الله ﷺ ويهدد المعاندين فاعلم أن هذه الآيات مكية (١) .

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ... ﴾ الى آخر السورة (٢) .

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ السورة (٣) .

(ب) قلة الألفاظ التى يحتاج فهمها إلى المعاجم .

وذلك لأن الآيات المدنية عنيت بتفصيل وبيان الأحكام الشرعية وحدودها ودعت الى الجهاد لاعلاء لواء الاسلام . وحضت على الاستشهاد فى سبيل الله وجادلت أهل الكتاب ونددت بالمنافقين وكشفت ما يضرهم فى نفوسهم للاسلام والمسلمين وشأن ذلك أن تكون الآيات واضحة فى أسلوبها يفهمها كل من يقرأها فلا تكون هناك له حجة عند عدم تطبيقها والعمل بمقتضاها . والأمثلة على ذلك الآيات الواردة فى المحرمات من النساء قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاقِ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللَّاقِ فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاقِ دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلَائِلَ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ

(١) باختصار من كتاب علوم القرآن د. عبد المنعم النمر ، ط/ الأولى (ص ٦١) ، ط/ دار الكتاب المصرى

— دار الكتاب اللبنانى .

(٢) القيامة : ٢٠ — ٤٠ .

(٣) التكاثر : ٣ — ٨ .

الله عَلَيْكُمْ وَأَحِلُّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴿١﴾ . . . الآية .

على حين نجد الآيات المكية نزلت حيث كان القوم في جاهلية عمياء يتخذون الاصنام والأوثان آلهة يعبدونها من دون الله وينكرون الرسالة المحمدية ويكذبون بيوم الدين ويقولون (إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)^(٢) . وهم أهل لسن وفصاحة وبيان وقد برزوا في جميع فنون اللغة شعرها ونثرها ، وحكمها وأمثالها وطاوعهم البيان في أساليب ساحرة حقيقة ومجازا ، ايجازا وإطنابا ، حديثا ومقالا فنجد في مكي القرآن ألفاظا شديدة اللهجة دعهم إلى توحيد الله سبحانه وألزمتهم بالبراهين القطعية كما ورد في قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾^(٣) .

قال الامام فخر الدين الرازي في تفسيره « القول بوجود إلهين يفضي إلى المحال . لأننا لو فرضنا وجود إلهين فلا بد وأن يكون كل واحد منهما قادراً على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادراً على تحريك زيد وتسكينه . فلو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه فاما أن يقع المراد وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين . أو لا يقع واحد منهما وهو محال لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك وبالعكس . فلو امتنعا معا لوجدنا معا وذلك محال أو يقع مراد أحدهما دون الثاني^(٤) وذلك محال أيضا إذا لابد لهذا الكون من إله واحد يدبر أموره وشعونه كيف شاء إذ أن تعدد الآلهة مدعاة لتضارب الكون ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وقد برهن سبحانه على وجوده بمخلوقاته وآياته العظيمة بأسلوب بليغ أعجز به فصحاء العرب وبلغاءهم على مر العصور والدهور يقفون على اعتاب لغة القرآن مكتوفي الأيدي ، منحنين أمام أسلوبه لإجلالا وخشية اعترافا بسموه وإدراكاً لبعض أسرارهِ .

(١) النساء : ٢٣ — ٢٤ .

(٢) الجاثية : ٢٤ .

(٣) الأنبياء : ٢٢ .

(٤) تفسير الرازي (٢٢ : ١٥٠ — ١٥١) ، ط/دار الكتب العلمية طهران .

ويحتاج القارئ للآيات الرجوع إلى التفاسير وأهل العلم لبيان المراد من الألفاظ الواردة فيها . قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ؕ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ ^(١) . والمراد بالزمن السحاب قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد ^(٢) .

والزمن : السحاب عامة . وقيل السحاب ذو الماء واحده مزنة .

وقيل المزنة السحابة البيضاء . والجمع مزن ^(٣) . ا.هـ .

وقوله تعالى ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴾ ^(٤) . قال العوفي عن ابن عباس أى مكذبون غير مصدقين ^(٥) .

المداينة والادهان : المصانعة واللين . وقيل المداينة إظهار خلاف ما يضر . والادهان الغش . ودهن الرجل إذا نافق ودهن غلامه إذا ضربه وقال في قوله ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴾ أى مكذبون ^(٦) . ا.هـ .
وقوله تعالى ﴿ عَتَلُ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ ﴾ قال ابن كثير أما العتل فهو الفظ

الغليظ الصحيح الجموع المتنوع . وقال الامام أحمد حدثنا وكيع وعبد الرحمن عن سفيان عن سعيد بن خالد عن حارثة بن وهب قال قال رسول الله ﷺ « أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ . كُلُّ ضَعِيفٍ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ . أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ كُلِّ عَتَلٍ جَوَاطٍ ^(٧) مُسْتَكْبِرٍ » ^(٨) . وقال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا عبد الحميد عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم قال سئل رسول الله ﷺ عن العتل الزنيم .

(١) الواقعة : ٦٩ .

(٢) ابن كثير (٤ : ٢٦٩) ط / عيسى الباني الحلبي .

(٣) لسان العرب (١٣ : ٤٦) ط/دار صادر . بتصرف .

(٤) الواقعة : ٨١ .

(٥) ابن كثير (٤ : ٢٨٩) .

(٦) لسان العرب (١٣ : ١٦٢) بتصرف .

(٧) الجواط : الكثير اللحم الجافي الغليظ الضخم المختال في مشيته . لسان العرب (٧ : ٤٣٩) .

(٨) مسند الامام أحمد (٤ : ٣٦) .

فقال : (هو الشديد الخلق المصحح الأكل الشروب الواجد للطعام والشراب الظلوم للناس رحيب الجوف)^(١) .

وبهذا الاسناد قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة الجواظ الجعظري »^(٢) العتل الزنيم .. » .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمار بن خالد الواسطي حدثنا أسباط عن هشام عن عكرمة عن ابن عباس في قول (الزنيم) قال الدعى الفاحش اللئيم^(٣) .

والعتل : هو الشديد من الرجال والدواب .. وفي التنزيل (عتل بعد ذلك زنيم) قيل الشديد في الخصومة وقيل هو ما تقدم^(٤) .

والزنيم : وفي التنزيل العزيز (عتل بعد ذلك زنيم) وقال الفراء : الزنيم الدعى الملتصق بالقوم وليس منهم ، وقيل الذى يعرف بالشر واللؤم كما تعرف الشاة بزئمتها^(٥) .

وقوله تعالى في سورة الغاشية يصف ما أعده من النعيم لعباده المؤمنين . إلى أن قال : ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَائِي مَبْثُوثَةٌ ﴾^(٦) .

قال ابن عباس (النمارق) الوسائد وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك والسدى والثورى وغيرهم .

وقال ابن عباس (الزرائي) البسط وكذا قال الضحاك وغير واحد . ومعنى مَبْثُوثَةٌ أى هاهنا وهاهنا لمن أراد الجلوس عليها^(٧) .

والنمارق : جمع نمرقة . قال الفراء في قوله ونمارق مصفوفة هي الوسائد

(١) مسند الامام أحمد (٤ : ٢٧) .

(٢) الجعظري : القصير الرجلين العظيم الجسم مع قوة وشدة الأكل . وقال ثعلب : الجعظري : المتكبر الجافى عن الموعظة . لسان العرب (٤ : ١٤٢) .

(٣) باختصار من تفسير ابن كثير (٤ : ٤٠٤) .

(٤) لسان العرب (١١ : ٤٢٣) بتصرف .

(٥) لسان العرب (١٣ : ١٦٢) بتصرف .

(٦) الغاشية : ١٥ — ١٦ .

(٧) باختصار من تفسير ابن كثير (٤ : ٥٠٣) .

واحدثها نمرقة . وجمعها نمارق^(١) .

وزراى : الزراى البسط . وقيل كل ما بسط واتكىء عليه ..

وعن الأعرابى الزجاج فى قوله تعالى : ﴿ وزراى مبثوثة ﴾ الزراى البسط^(٢) . (مبثوثة) قال الله عز وجل : وزراى مبثوثة قال الفراء : مبثوثة كثيرة^(٣) .

وقد يرد هنا سؤال هو أنه لماذا كان القرآن فى مكة يغلب عليه الألفاظ الجزلة والأسلوب القوى المتين بخلافه فى المدنى حيث يغلب عليه الأسلوب السهل ؟ .

والجواب عليه : أن القرآن راعى البلاغة فى كلا العهدين حيث إن حال المخاطبين يقتضى ما جاء عليه القرآن الكريم . فإن البلاغة كما يقولون هى مراعاة المتكلم لحال المخاطبين . وأيضاً فإن الموضوعات التى تكلم عليها القرآن المدنى تقتضى هذا الأسلوب وتلك الألفاظ ، وكذلك الأمر فى المكى .

وقد يتساءل البعض ويقول : إننا إذا رجعنا إلى الآيات المدنية نجد أيضاً فيها ألفاظاً يحتاج القارىء الرجوع فيها إلى التفاسير والمعاجم ..

فالجواب عليه أن ذلك من جانب الكم . فالآيات المكية التى بها ألفاظ يحتاج لها الباحث الرجوع إلى التفاسير والمعاجم أكثر من الآيات المدنية وذلك للحكمة التى سبق أن بينتها فى أول الموضوع .

(ج) إن كل آية يبدأ الخطاب فيها بقوله تعالى ﴿ يأىها الذين آمنوا ﴾ فهى مدنية .

فقد أصبح المؤمنون — فى مجتمعهم الجديد — جماعة لها من القوة والمكانة ما يدعو إلى تشریفهم بنداء الله لهم بصفة الايمان^(٤) . وليس كل آية بدأ الخطاب

(١) لسان العرب (١٠ : ٣٦١) .

(٢) لسان العرب (١ : ٤٤٧) بتصرف .

(٣) لسان العرب (٢ : ١١٤) بتصرف .

(٤) المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الانسانية . د. شعبان محمد اسماعيل (٢٧٩) .

فيها بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ مكية . إلا أن نقول ذلك في الغالب . وهناك أمثلة لسور وآيات مدنية جاء فيها الخطاب (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) .

مثل سورة النساء مدنية وفتحها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ^(١) . وكذلك سورة الحج على مذهب من يرى أنها مدنية افتتحت بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ^(٢) . فهذه خصائص السور والآيات المدنية مع الفرق بينها وبين المكية وهى ترجع إلى الأسلوب .

ثانيا : الخصائص الموضوعية للسور والآيات المدنية :

سبق أن تحدثنا عن خصائص السور والآيات المدنية من ناحية الأسلوب مع الفرق بينها وبين خصائص السور والآيات المكية .

ونتعرف الآن على النوع الثانى وهو : خصائص السور والآيات المدنية من الناحية الموضوعية والفرق بينها وبين الخصائص المكية الموضوعية .

ولكل فقرة أو خاصية من هذه الخصائص أفردت لها بابا مستقلا فى هذا البحث كما هو واضح فى الخطة . لذلك سوف أذكر هذه الخصائص إجمالاً دون توسع وتفصيل ، تحاشيا للتكرار الذى لا فائدة منه . وإليك هذه الخصائص الموضوعية للسور والآيات المدنية .

(١) التحدث عن التشريعات التفصيلية والأحكام العملية فى العبادات والمعاملات كأحكام بعض أنواع الصلوات التى لم تشرع فى مكة والصيام والزكاة والقصاص والنكاح والطلاق والبيوع والمدائنات والربا والحدود كحد القتل والزنى والسرقه والكفارات ككفارة القتل الخطأ والظهار وتنظيم الأسرة وهو ما يعرف حديثا (بالاحوال الشخصية) وما يتصل بالموارث والوصايا .

(١) سورة النساء : ١

(٢) سورة الحج : ١

يقول الشيخ محمد أبو زهرة «لما انتقل النبي ﷺ إلى المدينة كان التنظيم الكامل للمعاملات لأنه وجدت دولة إسلامية فاضلة تنظم العلاقات بين الناس ، وتقوم على تنفيذها والقضاء بها . فنظم التعامل وابتدأ بأعلى أنواع التعاون بين الناس وهو الأخاء الذى آخى فيه النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار . وشرعت النظم الاجتماعية والمعاملات الانسانية من أحكام البيوع والمزارعات وتحريم للربويات وغيرها وفريضة الصدقات وتنظيمها . والتنظيم الاجتماعى الكامل وشرعت الزواجر الاجتماعية من حدود وقصاص»^(١) .

وذلك كما ترى فى سورة البقرة والنساء والمائدة والنور .

(٢) محاجة أهل الكتاب وبيان ضلالتهم فى عقائدهم كقولهم بالتثليث أو الحلول أو الإبنية أو الصلب ودعوتهم إلى الإيمان بالدين الإسلامى الذى بشرت به رسلهم . وبيان جناياتهم فى قتل أنبيائهم وتحريفهم لكتبهم ولأسيما البشارة بالنبي صلوات الله وسلامه عليه وتغيير بعض الأحكام التى لا تتفق مع أهوائهم مثل إبدالهم حد الرجم للزانى بالجلد أو تسخير الوجه طمعا فى المال أو لتقربهم إلى الأشراف .

وذلك كما تشاهد فى آيات سورة المائدة وآل عمران والبقرة والنساء والتوبة^(٢) .

(٣) بيان ضلال المنافقين وإظهار ما تكنه نفوسهم من الحقد والعداوة وإظهار ما بهم من سوء الطباع والجبن والهلح وأنهم لا يبتغون إلا عرض الدنيا ولا يهمهم أمر الإسلام وإعلاء كلمته .

ولقد اختصت الآيات المدنية بهذا الجانب فى حين لا نجده فى الآيات المكية لأن أهلها كانوا أعداء ظاهرين ولم يظهر إلا فى المدينة من قوم مذبذبين مرضى القلوب وهؤلاء أشد خطراً من الأعداء السافرين ومواقفهم البغيضة أفصح عنها القرآن فى سورة البقرة والتوبة والمنافقون وقامر

(١) باختصار من كتاب (القرآن المعجزة الكبرى) للشيخ محمد أبو زهرة (٢٤ - ٢٥) .

(٢) باختصار وتصرف من (المدخل لدراسة القرآن الكريم) د. أبو شهبة (٢٣١ - ٢٣٢) .

بمحاولات كثيرة لإثارة الفتن وتفريق كلمة المسلمين ، يتظاهرون بزى الإسلام مظهرين الحب له والوقوف صفاً إلى جانبه وهم في ظاهرهم ليسوا مجالاً للشك والريب . فكان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ مظهراً لحقيقة نفوسهم وما تخبئه قلوبهم فكان صلوات الله وسلامه عليه على معرفة كاملة . ٣٢٠

(٤) بيان قواعد التشريع الخاصة بالجهاد وحكمة تشريعه وذكر الأحكام المتعلقة بالحروب والغزوات والمعاهدات وما أعد الله من الثواب العميم للمجاهدين في سبيله . وكذلك الغنائم والفىء وتقسيمه وقد وضحت ذلك سورة البقرة والأنفال وبراءة والقتال والفتح والحشر ففصلت الآيات نظم الحرب وأقامت العلاقات الدولية على أسس متينة وأصبح للدولة الإسلام قوة حربية يهابها أعداؤها وتوسعت الفتوحات الإسلامية ودخل الناس في دين الله أفواجا^(١) .
وإكمالاً للفائدة لابد أن نشير باختصار إلى الخصائص الموضوعية للسور والآيات المكية .

(١) الدعوة إلى الأصول الأساسية لهذا الدين الحنيف ووضع الحجر الأساسى له وهو تثبيت العقيدة وما يتصل بها من الإيمان بالله واليوم الآخر وما فيه من البعث والحشر والجزاء والإيمان بالرسول والكتب والملائكة وذلك لأن العالم أجمع وبالأخص حيث انبثق هذا النور كانوا في ظلمات الشرك والوثنية وكانوا لا يؤمنون بالبعث والجزاء ﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَمْرُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ إِذْ كُنَّا عِظَامًا فَخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذْ كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾^(٢) .

فمجتمع هذا شأنه من اللائق بحاله دعوته أولاً إلى الإيمان بالأصول الأساسية الموضحة، فإذا ما آمنوا بها خوطبوا بالفروع والتشريعات التفصيلية .

(٢) مجادلة المشركين بأقامة الحجة عليهم في شأن ما يعتقدونه في آلهتهم التي صنعتها أيديهم وبيان أنها لا تستحق العبادة وأنها لا تقرهم إلى الله زلفى فهي

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم ، د. أبوشبة (٢٣٢) .

(٢) النزعات : ٩ ، ١٠ ، ١١ .

لا تضر ولا تنفع ولا تعى ولا تحس وتذكيرهم بأن الله هو الخالق الواحد المستحق وحده العبادة ودعوتهم إلى استعمال عقولهم وترك ما ورثوه عن آبائهم من الضلال والجهل كما قال الله تعالى في سورة الزخرف ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ . وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾^(١) . وكذلك إقامة الأدلة الواضحة على أن القرآن حق لا شك فيه وأنه من عند الله وقد وقع التحدى بالقرآن في ثلاث سور مكية ولم يقع التحدي به في القسم المدني الا في سورة البقرة^(٢) .

(٣) التحدث عن أصول التشريعات العامة والآداب والفضائل والدعوة إلى التمسك بها متمثلة في الكليات الخمس : (حفظ الدين والنفس والمال والعقل والنسب) التي نادى بها جميع الشرائع السماوية . والحث والنبات على العقيدة والأمر بالصلاة والصدقة والصدق والعفاف وبر الوالدين وصلة الرحم والعفو والعدل والإحسان والتواصى بالحق والخير والصبر والنهي عن القتل وواد البنات والظلم والزنا وأكل أموال الناس بالباطل . قال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾^(٣) . وقوله تعالى ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾^(٤) (٥) .

(١) الزخرف : ٢٢ — ٢٣ .

(٢) أنظر المدخل لدراسة القرآن ، د. أبو شهبة (ص ٢٢٩) .

(٣) الأنعام : ١٥١ ، ١٥٢ .

(٤) الأعراف : ١٩٩ .

(٥) الموافقات في أصول الشريعة لأبي اسحاق الشاطبي (٢ : ٥) .

(٤) ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم ليكون في قصصهم عبرة وموعظة لأولى الألباب . ولبیان أن دعوة الرسل جميعا واحدة وأنهم جاءوا بالتوحيد الخالص والایمان بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وقد تكرر كثير من القصص القرآنی لهذه الأغراض وغيرها .

ولقد كان لها دورها الهام في حياة الدعوة :

(١) فهي تسلية للرسول ﷺ والمؤمنين من شدة ما يلاقونه من العذاب والاهانة فتزودهم بالصبر والثبات والتوكل على الله اقتداء بالرسل واتباعهم المؤمنين بهم . قال تعالى ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (١) .. ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَثَبْتُ بِهِ فَوَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

(٢) وفي نفس الوقت تحمل التهديد والوعيد بالهلاك والخزي للمشركين قال تعالى عن قوم نوح : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذَكِّرِينَ ﴾ (٣) .

ولقد كان القصص في القسم المكي من أعظم الأدلة على أن القرآن من عند الله إذ لو تأخر نزوله إلى المدينة لقالوا : تعلمه من أهل الكتاب . قال تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤) .

وبهذه الخاصية تنتهى خصائص السور والآيات المدنية والفرق بينها وبين خصائص السور والآيات المكية (٥) .. وبالله التوفيق .

(١) الاحقاف : ٣٥ .

(٢) هود : ١٢٠ .

(٣) يونس : ٧٣ .

(٤) هود : ٤٩ .

(٥) باختصار وتصرف من (المدخل لدراسة القرآن الكريم) للدكتور أبو شهبة (ص ٢٢٨ — ٢٣٣) .

الفصل الثاني
بيان أسرار المتفق على مدينتها
والمختلف فيها

الفصل الثانى

فى بيان السور المتفق على مدنيتهما واختلف فيها

لابد لنا قبل الخوض فى بيان السور المتفق على مدنيتهما أن نوضح المعنى المراد من كلمة (سورة) فى اللغة والاصطلاح .

السورة فى اللغة تطلق على ما ذكره صاحب (لسان العرب) بقوله : السورة : المنزلة ... قال الجوهري : والسور جمع سورة ... وهى كل منزلة من البناء ، ومنه سورة القرآن لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى . والجمع سور بفتح الواو . قال ابن سيده : سميت السورة من القرآن سورة لأنها درجة إلى غيرها . ومن همزها جعلها بمعنى بقية من القرآن وقطعة .

وقيل : السورة من القرآن يجوز أن تكون من سورة المال ، وترك همزه لما كثر فى الكلام . وأما أبو عبيدة فانه زعم أنه مشتق من سورة البناء وأن السورة عرق من أعراق الحائط . والسور عند العرب حائط المدينة وهو أشرف الحيطان وكل منزلة رفيعة فهى سورة مأخوذة من سورة البناء وأنشد النابغة :
ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب ؟
معناه أعطاك رفعة وشرفاً ومنزلة .

قال أبو الهيثم : وأما سورة القرآن فان الله جل ثناؤه جعلها سوراً مثل غرفة وغرف . ورتبة ورتب ، فدل على أنه لم يجعلها من سور البناء لأنها لو كانت من سور البناء لقال : فاتوا بعشر سور والقراء مجتمعون على سور ، وكذلك اجتمعوا على قراءة سور فى قوله ﴿ فاضرب بينهم بسور ﴾ ولم يقل أحد بسور فدل ذلك على تميز سورة من القرآن عن سورة من سور البناء . والسورة من سور القرآن عندنا قطعة من القرآن سبق واحدتها جمعها كما أن الغرفة سابقة للغرف .

وأنزل الله عز وجل القرآن على نبيه شيئاً بعد شيء وجعله مفصلاً وبين كل سورة بخاتمها وبادئتها وميزها من التى تليها .

قال الأزهرى : وكأن أبا الهيثم جعل السورة من سور القرآن من أسارت
سؤرا أى أفضلت فضلا إلا أنها لما كثرت فى الكلام وفى القرآن نزل فيها
الهمز^(١) أ.هـ .

وباختصار : (السورة فى اللغة مختلف فى أصلها) تهمز أو لا تهمز (فمن
همزها جعلها من (أسارت) أى أفضلت من السور وهو مابقى من المال كأنها
قطعة من القرآن وحذفت الهمزة تخفيفا . ومن لم يهمزها قال إن السورة هى المنزلة
والرتبة أو مأخوذة من سور المدينة لاحاطتها بآياتها إحاطة السور بالمدينة) .

وفى الاصطلاح قال الزركشى نقلا عن الجعبرى :

(حد السورة قرآن يشتمل على أى ذوات فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث
آيات)^(٢) .

ويمكن تعريفها أيضاً : بأنها طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع
ومقطع^(٣) .

وبعد أن اتضح لنا المراد بالسورة لغة واصطلاحاً نشرع فى بيان ما نحن
بصدده وهو بيان السورة المدنية المتفق على مدنتها والمختلف فيها . وكما هو معلوم أن
النبي ﷺ لم يكن له فى ذلك قول ومرجعنا فى ذلك لحفظ الصحابة والتابعين .
ولقد اختلف العلماء فى تعيين السور المدنية والمكية وذلك لاختلاف الروايات
الواردة عن الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين . وسوف أسرد هذه
الروايات وأناقشها ثم أبين المعتمد منها فيما يلى :

الرواية الأولى :

أخرج ابن سعد فى الطبقات قال : (أخبرنا محمد بن عمر ، حدثني

(١) لسان العرب (٤ : ٢٨٦) . للامام العلامة أبى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور

الأفريقى المصرى ، ط/ دار صادر بيروت .

(٢) البرهان للزركشى (١ : ٢٦٤) .

(٣) مناهل العرفان للزرقانى (١ : ٣٤٣) .

قدامة بن موسى عن أنى سلمة الحضرمي قال : سمعت ابن عباس يقول كنت ألزم الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ، من المهاجرين والأنصار فاسألهم عن مغازي رسول الله ﷺ ، ومانزل من القرآن في ذلك وكنت لا آتي أحدا منهم إلا سر باتيانى لقرئ من رسول الله ﷺ فجعلت أسأل أنى بن كعب يوما ، وكان من الراسخين في العلم عما نزل من القرآن بالمدينة فقال : نزل بها سبع وعشرون سورة . وسائرهما بمكة (١) .

الرواية الثانية :

(رواية قتادة)

ذكر القرطبي نقلا عن أنى بكر بن الأنباري قال : حدثنا إسماعيل بن اسحاق القاضي حدثنا حجاج بن منهال حدثنا همام عن قتادة قال : نزل بالمدينة من القرآن (البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، وبراءة ، والرعد ، والنحل ، والحج ، والنور ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والصف ، والجمعة ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ، وبأيتها النبي لم تحرم إلى رأس العشر (٢) ، وإذا زلزلت ، وإذا جاء نصر الله . هؤلاء السور نزلن بالمدينة ، وسائر القرآن نزل بمكة (٣) .

قلت : وهذه سبع وعشرون سورة مدنية وردت في هذه الرواية .

الرواية الثالثة :

رواية عكرمة والحسين بن أنى الحسن :

وقال البيهقي في دلائل النبوة أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو محمد ابن زياد العدل حدثنا محمد بن إسحق حدثنا يعقوب بن إبراهيم الدورقي حدثنا أحمد بن نصر بن مالك الخزاعي حدثنا علي بن الحسين بن واقد عن أبيه

(١) الطبقات لابن سعد (٢ : ٣٧١) . أنى عبد الله محمد بن سعد البصري الزهري ، ط/ دار صادر بيروت .

(٢) يعنى العشر آيات الأولى من السورة .

(٣) القرطبي (١ : ٦١) .

حدثني يزيد النحوي عن عكرمة^(١) والحسين بن أبي الحسن قالاً أنزل الله من القرآن بمكة « اقرأ باسم ربك ، ونّ ، والمزمل ، والمدثر ، وتبت يدا أبي لهب ، وإذا الشمس كورت ، وسبح اسم ربك الأعلى ، والليل إذا يغشى ، والفجر والضحى ، وألم نشرح ، والعصر ، والعاديات ، والكواثر ، وألهاكم التكاثر ، وأرأيت ، وقل يا أيها الكافرون ، وأصحاب الفيل ، والفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، وقل هو الله أحد ، والنجم ، وعبس ، وإنا أنزلناه ، والشمس وضحاها ، والسماء ذات البروج ، والنتين والزيتون ، ولايلاف قريش ، والقارعة ، ولا أقسم بيوم القيامة ، والهمزة ، والمرسلات وقّ ، ولا أقسم بهذا البلد ، والسماء والطارق ، واقتربت الساعة ، وصّ ، والجن ، ويسّ ، والفرقان ، والملائكة ، وطه ، والواقعة ، وطسم ، وطس وطسم ، وبنى إسرائيل والتاسعة (سورة يونس) وهود ، ويوسف ، وأصحاب الحجر ، والأنعام ، والصافات ، ولقمان ، وسبأ ، والزمر ، وحمل المؤمن ، وحمل الدخان ، وحمل السجدة ، وحمل عسق وحمل الزخرف ، والجاثية والأحقاف ، والذاريات ، والغاشية ، وأصحاب الكهف ، والنحل ، ونوح وإبراهيم ، والأنبياء ، والمؤمنون ، وآلم السجدة ، والطور ، وتبارك ، والحاقة ، وسأل ، وعم يتساءلون ، والنازعات ، وإذا السماء انشقت ، وإذا السماء انفطرت ، والروم ، والعنكبوت » .

وما نزل بالمدينة : « ويل للمطففين ، والبقرة ، وآل عمران ، والأنفال والأحزاب ، والمائدة ، والممتحنة ، والنساء ، وإذا زلزلت ، والحديد ، ومحمد ، والرعد ، والرحمن ، وهل أتى على الإنسان ، والطلاق ، ولم يكن ، والحشر ، وإذا جاء نصر الله ، والنور ، والحج ، والمنافقون ، والمجادلة ، والحجرات ، ويا أيها النبي لم تحرم ، والصف ، والجمعة ، والتغابن والفتح وبراءة » .

قال السيوطي : وقد سقط من هذه الرواية الفاتحة والأعراف وكهيعص فيما نزل بمكة^(٢).

(١) عكرمة البربري أبو عبد الله مولى ابن عباس . قال البخاري ليس من أصحابنا إلا وهو يحتاج بعكرمة . قال يزيد النحوي عن عكرمة قال لي ابن عباس انطلق فأفت بالناس وأنا لك عون . تهذيب التهذيب (٧ : ٢٦٥ ط/دار صادر .

(٢) - الاتقان (١ : ١٠) .

الرواية الرابعة :

وقال ابن الضريس^(١) في فضائل القرآن حدثنا محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الرازي أنبأنا عمرو بن هارون حدثنا عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عن ابن عباس قال كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ويزيد الله فيها ما شاء وكان أول ما نزل من القرآن اقرأ باسم ربك ، ثم ن ، ثم يأتيها المزل ، وساق السور المكية كما ذكرنا من قبل مع اختلاف في بعض السور .

ثم قال : فهذا ما أنزل الله بمكة ثم أنزل بالمدينة سورة البقرة ثم الأنفال ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنة ثم النساء ، ثم إذا زلزلت ، ثم الحديد ، ثم القتال ، ثم الرعد ، ثم الرحمن ، ثم الانسان ، ثم الطلاق ، ثم لم يكن ، ثم الحشر ، ثم إذا جاء نصر الله ، ثم النور ، ثم الحج ، ثم المنافقون ، ثم المجادلة ، ثم الحجرات ، ثم التحريم ، ثم الجمعة ، ثم التغابن ، ثم الصف ، ثم الفتح ، ثم المائدة ، ثم براءة^(٢) .

الرواية الخامسة :

وقال أبو عبيد في فضائل القرآن حدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية ابن صالح عن علي بن أبي طلحة^(٣) . قال نزلت بالمدينة سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والحج والنور والأحزاب والذين كفروا والفتح والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والحواريين يزيد الصف والتغابن وبأيها النبي إذا طلقتم النساء ، بأيها النبي لم تحرم ، والفجر والليل ، ولما أنزلناه في ليلة القدر ، ولم يكن ، وإذا زلزلت ، وإذا جاء نصر الله . وسائر ذلك بمكة^(٤) .

وبالإضافة إلى الروايات السابقة نجد أقوالاً أخرى لكبار علماء علوم القرآن إليك بيانها .

سادساً :

ما قاله أبو الحسن بن الحصار في كتابه (الناسخ والمنسوخ) المدني باتفاق

(١) هو محمد بن أيوب بن يحيى الضريس ، تذكرة الحفاظ للإمام أبي عبد الله شمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (٢ : ٥٩٢ ط / دار احياء التراث العربى .

(٢) الاتقان (ص ١١) ج ١ .

(٣) علي بن أبي طلحة واسمه سالم بن الخارق الهاشمي يكنى أبا الحسن قال النسائي ليس به بأس ، مات سنة ١٤٣ هـ . باختصار من تهذيب التهذيب (٧ : ٣٣٩) .

(٤) الاتقان (١ : ١١) .

عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك مكى باتفاق ثم نظم في ذلك ابياتا فقال في مطلعها :

يا سائل عن كتاب الله مجتهدا وعن ترتب ما يتلى من السور
وذكر القصيدة بطولها وتحتوى على اثنين وعشرين بيتا .
والعشرون سورة المتفق على مدنيتهما التى ذكرها فى منظومته هي :

(١) البقرة	(٢) آل عمران	(٣) النساء
(٤) المائدة	(٥) الأنفال	(٦) التوبة
(٧) النور	(٨) الأحزاب	(٩) محمد ﷺ
(١٠) الفتح	(١١) الحجرات	(١٢) الحديد
(١٣) المجادلة	(١٤) الحشر	(١٥) الممتحنة
(١٦) المنافقون	(١٧) الجمعة	(١٨) الطلاق
(١٩) التحريم	(٢٠) النصر	

والسور المختلف فيها اثنتا عشرة سورة :

(١) الفاتحة	(٢) الرعد	(٣) الرحمن
(٤) الصدف	(٥) التغابن	(٦) التطفیف
(٧) القدر	(٨) لم يكن	(٩) الزلزلة
(١٠) قل هو الله احد	(١١) الفلق	(١٢) الناس

وما عدا ذلك فهو مكى^(١) .

سابعاً :

ما ذكره أبو القاسم هبة الله بن سلامة^(٢) (٤١٠ هـ) فى كتابه (الناسخ

(١) الاتقان (١ : ١١) .

(٢) هبة الله بن سلامة بن نصر بن على أبو القاسم ، مفسر ، ضرير من أهل بغداد من كتبه الناسخ والمنسوخ فى القرآن ، والناسخ والمنسوخ فى الحديث . باختصار من الأعلام للزركلى (٨ : ٧٢) .

والمسنوخ في مقدمة حديثه عن كل سورة وما فيها من النسخ . الحكم على السورة هل هي مدنية أو مكية وما فيها من الخلاف . وقد احصيت السور المدنية المتفق عليها وهي كما يلي :

(١) البقرة	(٢) آل عمران	(٣) النساء
(٤) المائدة	(٥) الأنفال	(٦) التوبة
(٧) النور	(٨) الأحزاب	(٩) الفتح
(١٠) الحجرات	(١١) المجادلة	(١٢) الحشر
(١٣) الممتحنة	(١٤) الصف	(١٥) الجمعة
(١٦) المنافقون	(١٧) التغابن	(١٨) الطلاق
(١٩) التحريم	(٢٠) القدر	(٢١) الانفكاك ^(١) .

أما السور المختلف فيها فهي سبعة عشرة سورة :

(١) الفاتحة	(٢) الرعد	(٣) النحل
(٤) الحج	(٥) العنكبوت	(٦) محمد ﷺ
(٧) الرحمن	(٨) الحديد	(٩) الانسان
(١٠) عبس	(١١) المطففين	(١٢) الليل
(١٣) الزلزلة	(١٤) النصر	(١٥) الاخلاص
(١٦) الفلق	(١٧) الناس	

وما عدا ذلك من السور نزل بمكة^(٢) .

ثامنا :

ما ذكره الزركشي في البرهان من أن السور المدنية حسب النزول هي على الترتيب التالي :

(١) الانفكاك : البينة .

(٢) الناسخ والمسنوخ لأبي القاسم هبة الله بن سلامة ، ط/الثانية الباني الحلبي ١٣٨٧ هـ .

فأول ما نزل فيها (سورة البقرة ، ثم الأنفال ، ثم آل عمران ، ثم الأحزاب ، ثم الممتحنة ، ثم النساء ، ثم إذا زلزلت ، ثم الحديد ، ثم محمد ثم الرعد ، ثم الرحمن ، ثم هل أتى ، ثم الطلاق ، ثم لم يكن ، ثم الحشر ، ثم إذا جاء نصر الله ، ثم النور ، ثم الحج ، ثم المنافقون ، ثم المجادلة ، ثم الحجرات ، ثم يأياها النبي لم تحرم ، ثم الصف ، ثم الجمعة ، ثم التغابن ، ثم الفتح ، ثم التوبة ، ثم المائدة^(١) . أ.هـ .

ومن خلال دراستي لهذه الروايات والأقوال استنتج ما يلي :

(١) ان الرواية الأولى ذكر ابن عباس أنه سأل أنى بن كعب عن عدد السور المدنية فأجابه بأنها سبع وعشرون سورة فهى جملة ذكرت العدد فقط ولم توضح السور المدنية بالتفصيل .

(٢) الرواية الثانية ذكر قتادة السور المدنية فأحصيتها فوجدتها سبعا وعشرين سورة . وقد ذكرت الرواية بعض السور المختلف فيها وهى الرعد والنحل والحج والرحمن . وسوف أوضح الخلاف وأنتهى إلى بيان ما بدا لى فيه فى نهاية هذا الفصل إن شاء الله تعالى .

(٣) الرواية الثالثة (رواية عكرمة والحسين بن أنى الحسن) . وقد ذكرت هذه الرواية السور المكية أولا وعددها ثنتان وثمانون سورة . وقد أشار السيوطى الى أنه سقطت من هذه الرواية ثلاث سور مكية وهى الفاتحة والأعراف وكهيعص (مريم) فيكون تعداد المكى خمسا وثمانين سورة . وقد أشارت أيضا إلى السور المدنية وأحصيتها فوجدتها تسعا وعشرين سورة فيكون مجموع السور مائة وأربع عشرة سورة وهى مجموع سور القرآن .

ويلاحظ فى هذه الرواية ورود بعض السور المختلف فيها وهى المطففين ، والرعد ، والرحمن ، والانسان ، والبينة ، والحج .

(١) البرهان للزركشى (١ : ١٩٤) .

ملاحظة : وقد ذكر أنها تسع وعشرون سورة والصواب أنها ثمان وعشرون سورة .

(٤) الرواية الرابعة (عن ابن عباس) .

ذكرت أولا السور المكية وتحاشيا للتطويل اختصرت الرواية واقتصرت على ما نحن بصدد دراسته وهو السور المدنية وقد ذكرت الرواية ثمان وعشرين سورة . ويلاحظ ورود بعض السور المختلف فيها وهي الرعد والرحمن والانسان والبينة والحج .

(٥) الرواية الخامسة (رواية على بن أنى طلحة) .

ذكرت أولا السور المدنية وعددها خمس وعشرون سورة وجاء فيها بعض السور المختلف فيها وهي الفجر ، والليل ، والقدر ، ولم يكن (البينة) .

(٦) القول السادس (قول أنى الحسن الحصار) .

وقد قسم المدنى إلى قسمين قسم مدنى باتفاق وهو كما ورد فى قوله عشرون سورة وقسم مختلف فيه وهو اثنتا عشرة سورة . وهذا القول يعتبر فى مقدمة الأقوال السابقة لشموله ودقته .

قال الشيخ الزرقانى (نقل السيوطى فى الاتقان أقوالا كثيرة فى تعيين السور المكية والمدنية ، ومن أوقفها ما ذكره أبو الحسن الحصار فى كتابه الناسخ والمنسوخ^(١)) .

(٧) القول السابع (قول أنى القاسم هبة الله بن سلامة) .

وهذا القول جمعته من كتابه (الناسخ والمنسوخ) ففي مقدمة حديثه عن كل سورة يذكر أن السورة مدنية أو مكية وهو أيضا يمتاز بشموله ودقته وقد ذكر إحدى وعشرين سورة متفقا على مدنيتهما . وذكر سبع عشرة سورة مختلفا فيها وسوف أوضح الخلاف الوارد فيها إن شاء الله .

(٨) القول الثامن : وقد ذكر الزركشى السور المدنية حسب النزول وعددها ثمان وعشرون سورة وورد فى قوله بعض السور المختلف فيها وهي الرعد والرحمن والإنسان والبينة والحج .

(١) مناهل العرفان للشيخ الزرقانى (١ : ١٩١) .

ومن خلال النظر فى الروايات السابقة والأقوال الواردة تبين لى أن هناك سوراً
مختلف فيها وهى كالتالى :

(١) الفاتحة	(٢) الرعد	(٣) النحل
(٤) الحج	(٥) العنكبوت	(٦) محمد ﷺ
(٧) الرحمن	(٨) الصف	(٩) التغابن
(١٠) الإنسان	(١١) عبس	(١٢) المطففين
(١٣) الفجر	(١٤) الليل	(١٥) القدر
(١٦) البينة	(١٧) الزلزلة	(١٨) النصر
(١٩) الاخلاص	(٢٠) الفلق	(٢١) الناس

والسورة المتفق على مدنيها هى :

(١) البقرة	(٢) آل عمران	(٣) النساء
(٤) المائدة	(٥) الأنفال	(٦) التوبة
(٧) النور	(٨) الأحزاب	(٩) الفتح
(١٠) الحجرات	(١١) الحديد	(١٢) المجادلة
(١٣) الحشر	(١٤) الممتحنة	(١٥) الصف
(١٦) الجمعة	(١٧) المنافقون	(١٨) الطلاق
(١٩) التحريم .		

وما عدا ذلك مكى ..

* * *

(١) سورة الفاتحة

اختلف العلماء في سورة الفاتحة أهى مكية أم مدنية ؟ .

فقال ابن عباس وقتادة وأبو العالية الرياحى — واسمه رفيع وغيرهم :
هى مكية . وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار الزهري وغيرهم : هى
مدنية . ويقال : نزل نصفها بمكة . ونصفها بالمدينة . حكاه أبو الليث نصر بن
محمد بن إبراهيم السمرقندى فى تفسيره .

والأول أصح لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (١) .

والحجر مكية بأجماع . ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة . وما حفظ
أنه كان فى الاسلام قط صلاة بغير « الحمد لله رب العالمين » . يدل على هذا
قوله عليه الصلاة والسلام : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » (٢) . وهذا
خير عن الحكم لا عن الابتداء ، والله أعلم (٣) .

والذى يؤيد تفسير قوله تعالى : ﴿ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِ ﴾ أنها الفاتحة الحديث
الصحيح الذى رواه الترمذى .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الحمد لله رب
العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني » (٤) .

(حكم الترمذى) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

قال السيوطى : « سورة الفاتحة الأكثرون على أنها مكية بل ورد أنها

(١) سورة الحجر : ٨٧

(٢) أخرجه البخارى وهذا الحديث يدل على حكم الصلاة بدون الفاتحة ولم يتعرض للكلام على زمان
نزولها ، ويبقى الدليل الأول بدون اعتراض عليه .

(٣) الجامع لاحكام القرآن للقرطبى (١ : ١١٥) .

(٤) الجامع الصحيح (سنن الترمذى) لآبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة (٥ : ٢٩٧) .

أول ما نزل^(١) واستدل لذلك بقوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ وقد فسرهما عليه السلام بالفاتحة كما في الصحيح . وسورة الحجر مكية باتفاق ولقد امتن الله على رسوله فيها فدل على تقدم نزول الفاتحة عليها اذ يبعد أن يمنن عليه بما لم ينزل بعد ، وبأنه لا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة ولم يحفظ أنه كان في الاسلام صلاة بغير الفاتحة .. ا.هـ^(٢) .

قال ابن حجر : (يستنبط من تفسير السبع المثاني بالفاتحة أن الفاتحة مكية وهو قول الجمهور خلافا لمجاهد . ووجه الدلالة أنه سبحانه امتن على رسوله بها . وسورة الحجر مكية إتفاقا فيدل على تقديم نزول الفاتحة عليها) .

قال الحسين بن الفضل : (هذه هفوة من مجاهد لأن العلماء على خلاف قوله وأغرب بعض المتأخرين فنسب القول بذلك لأبي هريرة ، والزهرى، وعطاء بن يسار)^(٣) .

وقد سردت الروايات والأقوال السابقة والتي تشير إلى السور المدنية ولم يرد لها ذكر بينها ولم يقل أحد من الرواة بأنها مدنية فإننى أرجح أن هذه السورة الكريمة مكية .

قال ابن الحصار في كتابه الناسخ والمنسوخ^(٤) :

تَعَارَضَ النُّقْلُ فِي أَمِّ الْكِتَابِ بِ وَقَدْ تَوَوَّلَ فِي الْحَجَرِ تَنْبِيهًا لِمُعْتَبِرِ
أَمِّ الْقُرْآنِ فِي أَمِّ الْقَرَى نَزَلَتْ مَا كَانَ لِلْخَمْسِ قَبْلَ الْحَمْدِ مِنْ أَثَرِ

(١) الصحيح ان اول ما نزل عليه عليه السلام من القرآن هو صدر سورة اقرأ كما رواه البخارى فى صحيحه بسنده عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها . أنظر صحيح البخارى بهامشه فتح البارى (١ : ٢٥) ط / البانى وحلبى . ويذكر السيوطى فى النوع الثانى (١ : ٢٥) مستدلا بحديث خديجة « إني إذا خلوت وحدى سمعت نداء » وفيه (فلما خلا ناداه يا محمد قل : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ... ﴾ السورة ، ويقول السيوطى فى التعليق عليه : « قال البيهقى هذا إن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد ما نزلت عليه اقرأ والمدثر » .

(٢) الاتقان للسيوطى (١ : ١٢) .

(٣) فتح البارى (٩ : ٢٢٥) .

(٤) الاتقان للسيوطى (١ : ١١) .

والخلاصة : أن سورة الفاتحة مكية نظراً لأن الصلاة فرضت حينما عرج
بالنبي ﷺ ليلة الاسراء وحيث أن الصلاة لا تصح إلا بفاتحة الكتاب اذن
فالسورة مكية .

* * *

(٢) سورة الرعد

اختلف العلماء فى سورة الرعد فاذا ما استعرضنا الروايات السابقة نجد أن الرواية الثانية عن قتادة ، والرواية الثالثة عن عكرمة والحسين بن أبي الحسن ، والرابعة عن ابن عباس ، والقول الثامن عن الزركشى اتفاق على أنها مدنية ، والرواية الخامسة عن على بن أبى طلحة لم يذكرها ضمن المدنى .

والقول السادس لأبى الحسن الحصار ، والسابع لأبى القاسم هبة الله بن سلامة اعتبارها من المختلف فيه .

وإذا دققنا النظر فى آيات هذه السورة الكريمة نستخلص ما يلى :

(١) افتتاح السورة بحروف المعجم (المر) وهذه سمة من سمات السور المكية .

(٢) موضوعها الأساسى هو العقيدة الحقّة مع تفصيل دلائل الوحدانية وضرب الأمثال للناس تثبيتاً لهذه العقيدة . انظر الآيات ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٥ .

(٣) الوحى والرسالة كقوله تعالى ﴿ وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ انظر الآيات ١ ، ٧ ، ٣٠ ، ٤٣ .

(٤) البعث وصفة النعيم والعذاب . انظر الآيات ٥ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ فهذه هى (المواضيع) التى تعالجها السورة وهى (مواضيع) السور المكية نضيف إلى ذلك كله خلوها من التشريعات والأحكام التى تميزت بها السور المدنية .

قال ابن الحصار :

فالرعد مختلف فيها متى نزلت.. وأكثر الناس قالوا الرعد كالقمر^(١) . أى مكية .

(١) الاتقان للسيوطى (١ : ١٢) .

وقال قتادة وجماعة: إنها نزلت بالمدينة وهي والله أعلم إلى تنزيل المدينة أشبه لأن فيها قصة أريد بن ربيعة ، وعامر بن الطفيل . وكان شأنهما بالمدينة وقدمهما على النبي ﷺ وما لحق أريد من الصاعقة وكيف ابتلى الله عامر بن الطفيل بعده في علة فمات وهو يقول : غدة كغدة البعيرة^(١) . أ.هـ .

قال القرطبي : « سورة الرعد مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ومدينة في قول الكلبي ومقاتل » .

وقال ابن عباس وقاتل : « مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة وهما قوله عز وجل ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾^(٢) .. الآية . إلى قوله ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾^(٣) .

قال القرطبي عند تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا يَبْسُ وَيُنْشِئُكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ .

قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير « ومن عنده علم الكتاب » قال هو عبد الله بن سلام .

قال القرطبي : وكيف يكون عبد الله بن سلام وهذه السور مكية وابن سلام ما أسلم إلا بالمدينة ؟ .

وقال القشيري : وقال ابن جبير السورة مكية وابن سلام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة ، فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على ابن سلام ، فمن عنده علم الكتاب جبريل . وهو قول ابن عباس ، وقال الحسن ومجاهد والضحاك هو الله تعالى وكانوا يقرأون « ومن عنده علم الكتاب » وينكرون على من يقول : هو عبد الله بن سلام وسلمان ، لأنهم يرون أن السورة مكية وهؤلاء أسلموا بالمدينة^(٤) .

(١) الناسخ والمنسوخ لأبي القاسم هبة الله بن سلامة (ص ٥٥) .

(٢) تفسير القرطبي (٥ : ٢٧٨) .

(٣) الرعد آية (٣١ — ٣٢) .

(٤) تفسير القرطبي (٥ : ٣٣٦) .

قلت : ومن (عنده علم الكتاب) يصح أن يفسر على أهل الكتاب الذين يعرفون الحق وهم يكتُمونه وقد كان ذلك من قبل إسلام عبد الله بن سلام وغيره من أهل الكتاب .

وللجمع بين الرأيين : أرجح أن السورة مكية المطلع والموضوع والسياق وبها آيات مدنية قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْذَاذُ وَكُلِّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ ^(١) إلى قوله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ ^(٢) .

قال ابن كثير : « وذكروا في سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأريد بن ربيعة لما قدما على رسول الله ﷺ فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما رسول الله ﷺ فقال له عامر بن الطفيل لعنه الله أما والله لأملأها عليك خيلا جردا ورجالا مردا فقال له رسول الله ﷺ « يأبى الله عليك ذلك وأبناء قبيلة » يعنى الأنصار ثم أنهما هما بالفتك برسول الله ﷺ فجعل أحدهما يخاطبه والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه فحماه الله تعالى منهما وعصمه . فخرجا من عنده فانطلقا في أحياء العرب يجمعان الناس لحربه ﷺ فأرسل الله على أريد سحابة فيها صاعقة فأحرقتة . وأما عامر بن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعون فخرجت فيه غدة عظيمة فجعل يقول يا آل عامر غدة كغدة البكر ^(٣) . وموت في بيت سلولية . حتى ماتا لعنهما الله وأنزل الله في مثل ذلك ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ ﴾ أى يشكون في عظمته وأنه لا إله إلا هو (وهو شديد المحال) قال ابن جرير : شديد مما حلت في عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى في كفره ^(٤) .

(١) الرعد : ٨ .

(٢) الرعد : ١٣ .

(٣) الفتى من الابل . أهـ لسان العرب (٤ : ٧٩) .

(٤) تفسير ابن كثير باختصار (٢ : ٥٦) ط/دار الفكر .

(٣) سورة النحل

أما سورة النحل . فاختلف فيها أيضاً . فالرواية الثانية عن قتادة هي الوحيدة التي نصت على أنها مدنية .

وقال القرطبي : هي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وجابر . وتسمى سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من نعمه على عباده .

وقيل هي مكية غير قوله تعالى ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ ^(١) الآية .

نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة وقتلى أحد . وغير قوله ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ ^(٢) . وغير قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ ^(٣) الآية .

وأما قوله ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ﴾ ^(٤) فمكى في شأن هجرة الحبشة .

وقال ابن عباس : هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة وهي قوله ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا .. ﴾ إلى قوله ﴿ بِأَخْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ^(٥) .

وقال السيد قطب : (هي كسائر السور المكية تعالج موضوعات العقيدة الكبرى : الألوهية والوحي ، والبعث) ^(٦) .

(١) النحل : ١٢٦ .

(٢) النحل : ١٢٧ .

(٣) النحل : ١١٠ .

(٤) النحل : ٤١ .

(٥) النحل : ٩٤ — ٩٦ .

(٦) تفسير القرطبي (١٠ — ٦٥) .

(٧) في ظلال القرآن (٥ : ٢٢٤) .

وقال العلامة بدر الدين الحلي المعروف بالتادفي في أرجوزته المتضمنة معرفة
المكي والمدني :

والخلف في الرعد ياموافق والحجر والنحل مع الاسراء
الكل بمكة بلا مرء^(١)

فنص على أنها مكية بلا نزاع .

(واعلم أن وصف السورة بأنها مكية أو مدنية يكون تبعاً لما يغلب فيها أو
تبعاً لفاتحتها) ^(٢) .

فالموضوعات التي تعالجها السورة موضوعات مكية ثم إن فاتحتها مكية
أيضاً لأنها تعالج موضوع البعث ثم خلق السموات والأرض وما فيها من عوالم
أرضية وسماوية .



(١) مخطوطة من مركز البحث العلمي وحياء التراث الاسلامي في كلية الشريعة بجامعة أم القرى مصورة

من المكتبة الظاهرية رقم المخطوطة ٧٦٥٩ (ص) .

(٢) مناهل العرفان للزرقاني (١ : ١٩٢) .

(٤) سورة الحج

فهي أيضاً من السور المختلف فيها . فالرواية الثانية (عن قتادة) والثالثة (عن عكرمة والحسين بن الحسن) ، والرابعة (عن ابن عباس) والخامسة عن (علي بن أبي طلحة) والقول الثامن للزركشي جميعهم ذكروا أنها مدينة . أما أبو القاسم هبة الله بن سلامة فذكر أن هذه السورة تشتمل على المكي والمدني معاً . فقال (أما المكي فمن رأس خمس وعشرين آية إلى آخرها . وأما المدني فمن رأس خمس وعشرين إلى رأس ثلاثين) .. الخ^(١) ما قال .

قال القرطبي : هي مكية سوى ثلاث آيات قوله تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصِمَانِ ﴾ إلى تمام ثلاث آيات . قاله ابن عباس ومجاهد . وعن ابن عباس أيضاً أنهم أربع آيات إلى قوله « عذاب الحريق » وقال الضحاك وابن عباس أيضاً : هي مدينة . وقال قتادة : إلا أربع آيات ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَى - عَذَابِ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ فهن مكيات . وعد النقاش ما نزل بالمدينة عشر آيات وقال الجمهور : السورة مختلطة . منها مكي ومنها مدني . وهذا هو الأصح^(٢) .

وقال السيد قطب : (هذه السورة مشتركة بين مكية ومدنية كما يبدو من دلالة آياتها وعلى الأخص آيات الاذن بالقتال . قال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾^(٣) .

(١) الناسخ والمنسوخ (ص ٦٥) . لأبي القاسم هبة الله بن سلامة .

(٢) تفسير القرطبي (١ : ١٢) .

(٣) الحج : ٣٩ — ٤١ .

وآيات العقاب بالمثل قال تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ^(١) ﴾ الآية . فالمسلمون لم يؤذّن لهم في القتال والقصاص إلا بعد الهجرة . وبعد قيام الدولة الاسلامية .

والذى يغلب على السورة هو موضوعات السور المكية . وجو السور المكية فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة ، وإثبات البعث وإنكار الشرك ومشاهد القيامة ^(٢) ..

وأضيف إلى هذا أن هذه السورة الكريمة عنيت بأمور العقيدة الثلاثة وهى الوجدانية والبعث والرسالة . وعلى ذلك فهى مكية إلا الآيات الثلاث .

وإذا نظرنا إلى قوله تعالى : ﴿ هَذَانِ حَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ .. الآية نقول : اخرج البخارى بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية ﴿ هَذَانِ حَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ نزلت فى حمزة وصاحبيه ، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا فى يوم بدر ^(٣) .

ومعلوم أن غزوة بدر كانت بعد الهجرة فهى إذن آية مدنية .

وقوله تعالى : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ ﴾ الآية ٣٩ .

أخرج أحمد والترمذى وحسنه والحاكم وصححه عن ابن عباس قال خرج النبي ﷺ من مكة فقال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ليهلكن . فأنزل الله ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنْ اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ^(٤) ﴾ .

فالآية نزلت بعد خروجه من مكة فهى مدنية .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾ الآية .

(١) الحج : ٦٠ .

(٢) فى ظلال القرآن (٥ : ٥٧٥) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٥٩) ط/البانى وحلبى .

(٤) لباب النقول فى اسباب النزول للعلامة الامام جلال الدين السيوطى رحمه الله (ص ١٥٠) .

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل أنها نزلت في سرية بعثها النبي ﷺ فلقوا المشركين لليلتين بقيتا من المحرم ، فقال المشركون بعضهم لبعض : قاتلوا أصحاب محمد فإنهم يحرمون القتال في الشهر الحرام . فناشدتهم الصحابة وذكرهم بالله أن لا يتعرضوا لقتالهم فانهم لا يستحلون القتال في الشهر الحرام فأبى المشركون ذلك وقاتلوهم وبلغوا عليهم فقاتلهم المسلمون ونصروا عليهم . فنزلت هذه الآية^(١) .

فالسورة مكية بها آيات مدنية ونحن نحكم على الغالب والمعظم وافتتحت بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) . والخطاب بيأياها الناس من سمات السور المكية غالبا ، والحكم على السورة يكون تبعا لما يغلب فيها أو تبعا لفاعتها ، والله أعلم ..



(١) المرجع السابق (ص ١٥١) ، وانظر تفسير ابن كثير (٣ : ٢٣٢) .

(٢) الحج : ١ .

(٥) سورة العنكبوت

من خلال دراستي للأقوال الثمانية استنتج أن جميعها لم تورد سورة العنكبوت ضمن السور المدنية باستثناء القول السابع لأبي القاسم هبة الله بن سلامة ذكر أن هذه السورة من المختلف فيها .

فقال : (نزلت من أولها إلى رأس العشر بمكة ومن رأس العشر إلى آخرها بالمدينة) (*) .

وقد أورد القرطبي الخلاف بالتفصيل .

قال القرطبي : مكة كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر .

ومدينة كلها في أحد قولي ابن عباس وقتادة .

وفي القول الآخر لهما وهو قول يحيى بن سلام أنها مكة إلا عشر آيات من أولها فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة .

وقال علي بن أبي طالب : نزلت بين مكة والمدينة (١) . أ.هـ .

واحتج من قال إنها مكة إلا عشر آيات من أولها بما ورد في سبب النزول من قوله تعالى في أول السورة ﴿ أَلَمْ أَحْصِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ الآيات . أخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي في قوله ﴿ أَلَمْ أَحْصِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا ﴾ الآية .

قال : أنزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالاسلام ، فكتب إليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة أنه لا يقبل منكم حتى تهاجروا ، فخرجوا عامدين إلى المدينة فتبعهم المشركون فردوهم فنزلت هذه الآية ، فكتبوا إليهم أنه قد نزل فيكم

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٣ : ٣٢٣) .

(٢) النحل : ١١٠ .

(*) ابن سلامة خالف بقوله الجمهور .

كذا وكذا فقالوا : نخرج فان أتبعنا أحد قاتلناه ، فخرجوا فأتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ومنهم من نجا فأنزل الله فيهم : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ﴾ (١) الآية .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) . أ.هـ (٣) .

قال القرطبي : « قال ابن عطية : وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال فهي باقية في أمة محمد ﷺ موجود حكمها بقية الدهر وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونكايه العدو وغير ذلك وإذا اعتبر أيضاً كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن ولكن التي تشبه نازلة المسلمين مع قريش هي ما ذكرناه من أمر العدو في كل ثغر .

قال القرطبي بعد أن أورد رأى ابن عطية السابق : ما أحسن ما قاله ولقد صدق فيما قال رضي الله عنه (٤) .

ويرد على من قال إن العشر الآيات الأولى مدنية ما ورد في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَتَّبُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٥) .

أخرج مسلم بسنده عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبدا حتى يكفر بدينه ولا تأكل ولا تشرب قالت : زعمت أن الله وصاك بوالديك وأنا أملك وأنا آمرك بهذا فقال مكثت ثلاثا حتى غشي عليها من الجهد فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها فجعلت

(١) النحل : ١١٠ .

(٢) العنكبوت : ٦ .

(٣) لباب النقول في أسباب النزول لجلال الدين السيوطي (ص ١٦٦) ، ط/دار احياء العلوم لبنان ١٤٠٠ هـ .

(٤) تفسير القرطبي (ص ٣٢٤) ، تفسير الطبري (٢٠ : ١٢٩) .

(٥) العنكبوت : ٨ .

تدعو على سعد فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا﴾^(١) .

وأخرجه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح .

قلت : فسياق القصة يدل على أنها وقعت بمكة قبل الهجرة فالآية مكية بلا نزاع .

قال السيد قطب : سورة العنكبوت مكية . وقد ذكرت بعض الروايات أن الإحدى عشرة آية الأولى مدنية وذلك لذكر (الجهاد) فيها وذكر المنافقين .

ولكننا نقول ان السورة كلها مكية . وقد ورد في سبب نزول الآية الثامنة . أنها نزلت في إسلام سعد بن أبي وقاص كما سيجىء . وإسلام سعد كان في مكة بلا جدال . وهذه الآية ضمن الآيات الإحدى عشرة التي قيل إنها مدنية . لذلك نرجح مكية الآيات كلها . أما تفسير ذكر الجهاد فيها فيفسر لأنها واردة بصدد الجهاد ضد الفتنة أى جهاد النفس لتصبر ولا تفتن وهذا واضح في السياق . وكذلك ذكر النفاق فقد جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس^(٢) .

قلت يعنى بذلك قوله تعالى ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ قال قتادة : نزلت في القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة^(٣) .

وبخلاصة ما سبق أن من قال ان السورة مكية باستثناء الآيات الاحدى عشرة الأولى فجوابه مايلى :

١ — افتتاح السورة بالكرامة بحروف المعجم وهذه سمة من سمات السور المكية .

٢ — قوله تعالى ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا﴾ في شأن من كان من المسلمين بمكة .

٣ — قوله ﴿وَمَنْ جَاهِدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ هذا جهاد عام في دين الله

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥ : ١٨٥) ط/دار الفكر .

(٢) تفسير (في ظلال القرآن) للسيد قطب (٦ : ٣٨٤) ط/السابعة ١٣٩١ هـ .

(٣) تفسير القرطبي (١٣ : ٢٣٠) .

وطلب مرضاته . وليس الجهاد المقصود هو مقاتلة أعداء الدين .
٤ — قوله تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ نزلت في شأن
الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص . وكان إسلامه في مكة .

٥ — قوله تعالى ﴿ وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ فهي
أيضاً في شأن من أسلم من أهل مكة . فكأن الله امتحنهم بفتنة
العذاب والنكال الذي لا قوه من المشركين فمن كان لإيمانه قويا وعن يقين
فاز برضى ربه ومن كان اسلامه رياء وزيفا لم يصبر على العذاب والفتنة
فسرعان ما عاد الى الشرك والكفر بالله .

وهذه الأدلة السابقة فأننى أرجح أن تكون العشرة الآيات الأولى مكية .
وقد ذكرت في مطلع الحديث عن هذه السورة قول أبى القاسم هبة الله بن
سلامة (نزلت من أولها الى رأس العشر بمكة ، ومن رأس العشر إلى
آخرها بالمدينة) .

فهذا القول: الشطر الأول منه يؤيد مارجحته من أن العشر الآيات الأولى
مكية . أما الشطر الثانى منه فلا أوافقه عليه . وذلك أننا إذا تتبعنا الآيات نجد أنها
تحدثت عن عدد من الأنبياء وذكر قصصهم مع أقوامهم فذكر سبحانه وتعالى
قصة نوح عليه السلام .

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا
خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ . فَأَلْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ
السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

ثم يذكر الله لنا قصة نبيه ابراهيم عليه السلام .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ
لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) الآيات .

وكذلك قصة لوط مع قومه .

(١) العنكبوت : ١٤ — ١٥ .

(٢) العنكبوت : ١٦ .

(٣) قال تعالى : ﴿ وَلَوْ طَآءً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنِّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

(٤) وقال تعالى ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

ثم قص الله علينا قصة عادٍ وثمود .

(٥) قال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَّسَاقِبِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ (٣) .

وأخيراً قصة موسى مع قارون وفرعون وهامان واستكبارهم في الأرض .

(٦) قال تعالى : ﴿ وَقَارُونُ وَفِرْعَوْنُ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ (٤) .

وقد سبق أن أشرت في الخصائص الموضوعية للسور المكية أن من تلك الخصائص ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم ولقد كان لهذه القصص دورها الهام في حياة الدعوة (العهد المكي) (٥) .

وأشرت إلى أن وجود القصص في القسم المكي من أعظم الأدلة على أن القرآن من عند الله إذ لو تأخر نزوله إلى المدينة لقالوا : تعلمه من أهل الكتاب .. أي الموجودين في المدينة .

ثم أعقب القصص بالأمثال وضرب المثل للذين يتخذون من دون الله أولياء . والأمثال كثيرا ماتكون في العهد المكي ، والدعوة إلى توحيد الله الخالص .

قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ يَتِيمًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْيُوتِ لَيَبُوءُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ الى قوله

(١) العنكبوت : ٢٨ .

(٢) العنكبوت : ٣٦ .

(٣) العنكبوت : ٣٨ .

(٤) العنكبوت : ٣٩ .

(٥) ارجع الى البحث (ص ٩٤) .

تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاصِرٍ لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (١).

ومن الدلائل الموجودة في السورة والتي ترجح مكية السورة قوله تعالى ﴿إِثْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (٢).

وتتوالى الآيات في هذه السورة الكريمة باستعجال المشركين (أهل مكة) للعذاب قال تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٣).

وقال تعالى : ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون﴾ . هذه الآية نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة — في قول مقاتل والكلبي — فأخبرهم الله بسعة أرضه .. فان كنتم في ضيق من إظهار الايمان بها (أى بمكة) فهاجروا الى المدينة فإنها واسعة . لاطهار التوحيد بها (٤).

وقوله تعالى : ﴿وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قال السيوطي في الاتقان : (سورة العنكبوت استثنى من أولها إلى ﴿وليعلمن المنافقين﴾ لما أخرجه ابن جرير في سبب نزولها قلت: ويضم إليها ﴿وكاين من دابة﴾ الآية لما أخرجه ابن أبي حاتم في سبب نزولها (٥). اهـ .

وقد سبق أن بينت بالتفصيل مارجحته من أن الآيات العشرة التي قيل إنها مدنية بأن الأرجح أنها مكية . والتي تنتهى بقوله تعالى ﴿وليعلمن المنافقين﴾ أما

(١) العنكبوت : ٤٠ — ٤٣

(٢) العنكبوت : ٤٥ .

(٣) العنكبوت : ٥٣ .

(٤) تفسير الرازي (١٣ : ٣٥٧) م ٧ .

(٥) الاتقان (١ : ١٦) .

قول السيوطى ويضم إليها قوله تعالى ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ لما أخرجه ابن أبى حاتم واستشهد بحديث ابن عمر فهذا الحديث سنده ضعيف . قال السيوطى فى كتابه (لباب النقول) عند قوله تعالى ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم البيهقى وابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عمر قال: خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة^(١) . فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لى : يا ابن عمر ما لك لا تأكل ؟ قلت : لا أشتبهه قال : لكنى أشتبهه ، وهذا صبح ليلة رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو شئت لدعوت رى فأعطانى مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر إذا لقيت قوما يخشون رزق سنتهم ويضعف اليقين قال فوالله ما برحنا ولا برمنا حتى نزلت ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « إن الله لم يأمرنى بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ، الا وإنى لا أكنز ديناراً ولا درهما ولا أخبىء رزقا للغد »^(٢) .

قال الرازى بعد أن سرد الحديث : (وهذا ضعيف يضعفه أنه عليه السلام كان يدخر لأهله قوت سنتهم اتفق البخارى عليه ومسلم . وكانت الصحابة يفعلون ذلك وهم القدوة ، وأهل اليقين والأئمة لمن بعدهم من المتقين المتوكلين . وقد روى ابن عباس أن النبى ﷺ قال للمؤمنين بمكة حين أذاهم المشركون « اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة » قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ولا من يطعمنا ولا من يسقينا . فنزلت ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أى ليس معها رزقها مدخرا ، وكذلك أنتم يرزقكم الله فى دار الهجرة . وهذا أشبه من القول الأول)^(٣) .

فالأية أرجح أنها مكية وكذلك يفهم من سياق رواية ابن عباس .

(١) أى أحد بساتينها .

(٢) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى (ص ١٦٧) ط / دار احياء العلوم بيروت .

(٣) تفسير القرطبى (١٣ : ٣٦٠) .

واختتمت السورة الكريمة بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾^(١)

فالآية نصت على الجهاد وحثت عليه فالذى يتبادر إلى الذهن أن الآية مدنية لأن الجهاد فرض في المدينة .

والصواب ما أشار إليه الرازى فقال: (والذين جاهدوا فينا) أى فى طلب مرضاتنا وقال السدى وغيره : ان هذه الآية نزلت قبل فرض القتال . قال ابن عطية : فهى قبل الجهاد العرفى . وإنما هو جهاد عام فى دين الله وطلب مرضاته .

وبهذا نأتى إلى ختام حديثنا عن هذه السورة التى اتضح لى من خلال دراستى لها أنها مكية ، والله أعلم .

* * *

المنكيات آية (٦٩) .

(٦) سورة محمد ﷺ

هذه السورة الكريمة تسمى أيضا سورة القتال وبعضهم يسميها بما فتحت به أى سورة (الذين كفروا) كما ورد ذلك فى الرواية الخامسة عن على بن أبى طلحة وهى من السور المختلف فيها فجميع الروايات التى وردت فى بيان السور المدنية أشارت الى أن هذه السورة مدنية بل ذكر ابن الحصار فى الرواية السادسة أنها من المتفق على مدنيتهما . غير أن أبى القاسم هبة الله بن سلامة ذكرها من السور المختلف فيها وشبهها بالسور المدنية . فقال فى كتابه الناسخ والمنسوخ :
(وهى من السور المختلف فى تنزيلها ، فقالت طائفة نزلت بمكة وقال آخرون نزلت بالمدينة ، وهى إلى تنزيل المدينة أشبه ، والله أعلم)^(١) ١ هـ .

وقد فصل الخلاف فى ذلك القرطبى فقال :

(مدنية فى قول ابن عباس ، ذكره النحاس) .

وقال الماوردي : فى قول الجميع^(٢) الا ابن عباس وقتادة فإنهما قالا : إلا آية منها نزلت عليه بعد حجة الوداع حين خرج من مكة وجعل ينظر الى البيت وهو يبكى حزنا عليه فنزل ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ ﴾ .

وقال الثعلبى : إنها مكية ، وحكاها ابن هبة^(٣) الله عن الضحاك وسعيد بن جبير^(٤) . ١ هـ .

فقله : (إلا آية نزلت عليه بعد حجة الوداع حين خرج من مكة وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكى حزنا عليه فنزل ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ ﴾ الآية . يشير إلى أن السورة مدنية إلا الآية السابقة فانها نزلت بمكة

(١) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة ص ٨٥

(٢) أى مدنية .

(٣) نلاحظ أن نقل الثعلبى عن ابن هبة الله يخالف لما ذكرته قبل من كتابه الناسخ والمنسوخ . انظر ص ٥٨ : ٥٩ .

(٤) تفسير القرطبى (١٦ : ٢٢٣) م ٨ .

وذكر سبب النزول . وهو على قوله هذا مبنى على أن المكي منازل بمكة ولو بعد الهجرة) .

والمشهور : هو أن المكي منازل قبل الهجرة والمدنى منازل بعدها ولو في مكة فعليه تكون الآية مدنية .

والذى ذكره القرطبي أن الآية نزلت عليه بعد حجة الوداع ليس بصواب ، والصواب هو ما نقله الخازن والخطيب بل والقرطبي نفسه عند تفسير هذه الآية أنها نزلت لما خرج من مكة إلى الغار مهاجراً لأنه هو الذى يناسبه التوعد بقوله ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ الآية . أما على أنها نزلت بعد حجة الوداع حين خرج من مكة فلا يظهر هذا الوعيد لأنه فى حجة الوداع فارقتها مختاراً بعد ما صارت دار إسلام وأسلم جميع أهلها^(١) فالآية مدنية لأنها نزلت بعد الهجرة .

فالسورة مدنية وموضوعها القتال . فالقتال لم يشرع إلا بها .

وكذلك تحدثت عن المنافقين ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ مُحْكَمَةٍ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴾^(٢) . وهذه أيضاً سمة من سمات السور المدنية كما هو معلوم .

وهذا يتبين لنا أن السورة مدنية .

(١) انظر الفتوحات الالهية للشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤ هـ

(٤ : ١٤٠ ط / عيسى البابى الحلبي بمصر .

(٢) سورة محمد : ٢١ .

(٧) سورة الرحمن

هذه السورة الكريمة سورة الرحمن من المختلف فيها أهى مكية أم مدنية ؟ .
فإذا تتبعنا الروايات نجد أن الرواية الثانية عن قتادة والرواية الثالثة عن
عكرمة والحسين بن أبى الحسن ، والرواية الرابعة عن ابن عباس ، والقول الثامن
عن الزركشى ذكروا أنها مدنية .

والقول السادس عن ابن الحسن بن الحصار والقول السابع عن أبى القاسم
هبة الله بن سلامة ذكر أنها من المختلف فيه .

والرواية الخامسة عن على بن أبى طلحة لم يذكرها ضمن المدنى وقال ماعدا
ذلك فهو مكى .

قال القرطبى : مكية كلها فى قول الحسن وعروة بن الزبير وعكرمة وعطاء
وجابر . وقال ابن عباس : الا آية منها هى قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ﴾ ^(١) .

وقال ابن مسعود ومقاتل : هى مدنية كلها . والقول الأول أصبح لما روى
عروة بن الزبير قال : أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبى ﷺ ابن مسعود ،
وذلك أن الصحابة قالوا ماسمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط . فمن رجل
يسمعهوه ؟ فقال ابن مسعود : أنا فقالوا : إنا نخشى عليك وإنما نريد رجلا له
عشيرة يمنعونه ، فأبى ثم قام عند المقام فقال : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ —
الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ ثم تمدى رافعا بها صوته وقريش فى أُنْدَيْتِها . فتأملوا
وقالوا : ما يقول ابن أم عبد ؟ قالوا : هو يقول الذى يزعم محمد أنه أنزل عليه ، ثم
ضربوه حتى أثروا فى وجهه .

وصح أن النبى ﷺ قام يصلى الصبح بنخلة فقرأ سورة (الرحمن) ومر
التنفر من الجن فآمنوا به .

(١) الآية ٢٩ .

وفي الترمذى عن جابر قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة (الرحمن) من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال : « لقد قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودا منكم كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قالوا ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد . قال : هذا حديث غريب^(١) .

وفي هذا دليل على أنها مكية والله أعلم^(٢) .

قال السيوطى : الجمهور على انها مكية وهو الصواب .

وبدل له مارواه الترمذى والحاكم عن جابر قال لما قرأ رسول الله ﷺ على أصحابه سورة (الرحمن) .. وذكر الحديث السابق .

وقال رحمه الله : وأصرح منه في الدلالة ما أخرجه أحمد في مسنده بسند جيد عن أسماء بنت أبى بكر قالت سمعت رسول الله ﷺ وهو يصلى نحو الركن قبل أن يصدع بما يؤمر والمشركون يسمعون ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾^(٣) وفي هذا دليل على تقدم نزولها على سورة الحجر^(٤) . ا.هـ .

ومن القرائن التى ترجح مكية السورة نجد أنها تميزت بما تميزت به السور المكية أسلوبا وموضوعا . فمن حيث الأسلوب نلاحظ تميزها بفواصلها القصيرة ووجازة العبارة كما هو الحال في السور المكية . قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ .. ﴾ الآية .

(١) رواه الترمذى (٥ : ٣٩٩ ط / المكتبة الاسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه الا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد . قال ابن حنبل كأن زهير بن محمد الذى وقع بالشام ليس هو الذى يروى عنه بالعراق كأنه رجل آخر لقبوا اسمه ، يعنى لما يروون عنه من المناكير .

وأخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين ولما يخرجاه (٢ : ٤٧٣) .

(٢) تفسير القرطبى (١٧ : ١٥١) م ٩ .

(٣) مسند الامام أحمد (٣ : ٣٤٩) .

(٤) الاتقان للسيوطى (١ : ١٣) .

أما موضوعها هو الاعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة بالبراهين القطعية فهو خالق الكون بما فيه من الآيات الكونية المشاهدة كالشمس والقمر والنجم والشجر .. الخ وبينت حال الجاحدين لألوهية الخالق والمؤمنين به وما أعدّه لكل منهم .

وبهذا يتبين لنا أن سورة الرحمن مكية ، والله أعلم .

(٨) سورة الصف

من خلال تتبعي للروايات الواردة عن المديني نجد أن جميع الروايات ذكرت أن سورة الصف مدنية باستثناء الرواية السادسة لابن الحصار فقد ذكر هذه السورة من المختلف فيها .

فقليل إنها مكية وهو قول عكرمة والحسن وقتادة وجزم به الزمخشري والمختار أنها مدنية وهو قول الجمهور^(١) .

وقال القرطبي : مدنية في قول الجميع . فيما ذكر الماوردى .

وقيل : إنها مكية ، ذكره النحاس عن ابن عباس^(٢) .

قال السيوطي : المختار أنها مدنية . ونسبه ابن الغرس إلى الجمهور ورجحه ويدل له ما أخرجه الحاكم^(٣) عن عبد الله بن سلام قال قعدنا نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا فقلنا لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لعملناه فأنزل الله سبحانه ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ حتى ختمها قال عبد الله فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها^(٤) .

فهذه الرواية عن عبد الله بن سلام وهو من الصحابة الذين كان إسلامهم في المدينة بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة .

(١) انظر الفتوحات الالهية (٤ : ٣٣٥) ط/ البانى الحلبى بمصر .

(٢) تفسير القرطبي (١٨ : ٧٧) م ٩ .

(٣) اخرجه الحاكم (٢ : ٤٨٧) واللفظ للترمذى (٥ : ٤١٢) .

(٤) الانتقان للسيوطي .

أضف إلى ذلك أن موضوع هذه السورة هو الحث على الجهاد — سبيل الله والثبات عليه والجهاد فرض على الأمة في المدينة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيِّنًا مَرْصُوصًا ﴾ ^(١) .

وقد تضمنت السورة الحديث عن أهل الكتاب وبيان سلوكهم مع أنبيائهم وما لاقوه من الأذى وكشف نواياهم وما تكنه نفوسهم من العداوة والمقت لدين الله ، قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ ^(٢) .

وأخيراً تلاحظ تعدد الخطاب بقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ثلاث مرات وهو احدى خصائص السور المدنية ^(٣) .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ^(٤) .
وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ^(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ ^(٦) الآية .

فجميع تلك القرائن التي تقدمت بالاضافة إلى حديث عبد الله بن سلام تدفعني إلى أن أرجح أن سورة الصف مدنية .

(١) آية (٤) .

(٢) آية (٨) .

(٣) انظر إلى موضوع خصائص السور والآيات المدنية من ناحية الأسلوب (ص ٤٤ — ٤٥) من بحثنا هذا

(٤) آية (٢) .

(٥) آية (١٠) .

(٦) آية (١٤) .

(٩) سورة التغابن

سورة التغابن من السور المختلف في نزولها هل هي مكية أو مدنية ؟ .
فمن خلال النظر في الروايات الثمانية أجد أن جميعها اتفقت على أنها مدنية
باستثناء القول السادس لابن الحصار فقد ذكرها من السور المختلف فيها.. ولم تشر
آية رواية من تلك الروايات بأن السورة مكية .

قال القرطبي : مدنية في قول الأكثرين . وقال الضحاك : مكية وقال
الكلبي : هي مكية ومدنية وهي ثمان عشرة آية . وعن ابن عباس أن (سورة
التغابن) نزلت بمكة ، إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة في عوف بن مالك
الأشجعي ، شكاً إلى رسول الله ﷺ جفاء أهله ولده ، فأنزل الله عز وجل :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ إلى
آخر السورة^(١) . أ.هـ .

وقال السيوطي : (سورة التغابن) قيل مدنية وقيل مكية إلا آخرها^(٢) .
قال السيد قطب (هذه السورة أشبه شيء بالسور المكية في موضوعها وفي
سياقها وفي ظلالها وإيماءاتها وبخاصة المقاطع الأولى منها . فلا يكاد الجو المدني
يتبين إلا في فقراتها الأخيرة . فالفقرات الأولى إلى ابتداء النداء « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا » .. تستهدف بناء أسس العقيدة .. وتعرض عليهم مشاهد القيامة لإثبات
البعث وتوكيده توكيداً شديداً يدل على أن المخاطبين به من المنكرين الجاحدين .
قال تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا . قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ
ثُمَّ لَتَبُوءَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾^(٣) .

(١) تفسير القرطبي (١٨ : ١٣١) ٩٢ .

(٢) الاتقان للسيوطي (١ : ١٤) .

(٣) آية (٧) .

فأما الفقرات الأخوية فهي تخاطب الذين آمنوا بما يشبه خطابهم في السور المدنية ، تحثهم على الانفاق وتحذرهم فتنة الأموال والأولاد وهي الدعوة التي تكررت نظائرها في العهد المدني بسبب مقتضيات الحياة الإسلامية الناشئة فيها .. الخ . ولقد وردت روايات تفيد أن السورة مكية . ووردت روايات أخرى تفيد أنها مدنية مع ترجيحها وكدت أميل^(١) إلى اعتبارها مكية تأثراً بأسلوب الفقرات الأولى فيها وجوها ولكني أبقيت اعتبارها مدنية — مع الرأي الراجح فيها — لأنه ليس مایمنع أن تكون الفقرات الأولى خطاباً للكفار بعد الهجرة سواء أكانوا كفار مكة أم الكفار القريبين من المدينة. كما أنه ليس مایمنع أن يستهدف القرآن المدني في بعض الأحيان جلاء أسس العقيدة وإيضاح التصور الإسلامي ، بهذا الأسلوب الغالب على أسلوب القرآن المكي^(٢) .

قلت : وهذا الذي أشار إليه السيد قطب رحمه الله عين الصواب . فالسورة مدنية لأن معظم الروايات أشارت إلى أنها مدنية وليس هناك رواية جازمت بمكية السورة ثم إن ما ورد فيها من الآيات الشبيهة بنزول الآيات المكية لا يعنى هذا أن السورة مكية ، إذ لا يمنع أن تعالج السور المدنية الواقع الأليم الذي يعيشه المجتمع المكي . فالقرآن كتاب هداية نزل به جبريل على قلب نبينا الكريم صلوات الله وسلامه عليه لاصلاح الأمة وهدايتها لا يختص بمكان ولا بزمان . فإذا ما نزل بمكة أو بالمدينة فهو يخاطب الناس جميعاً . وإذا كان نزوله قبل الهجرة أو بعدها فهو أيضاً يخاطب الأمة جميعها . فإذا ما نزل بالمدينة آيات تدعو إلى تثبيت العقيدة الصحيحة الخالية من الشوائب وإلى الايمان باليوم الآخر وإلى تقرير حقيقة البعث وأن المؤمنين مردهم إلى النعيم والجاحدين مآلهم إلى الجحيم والعياذ بالله فليس معنى هذا أن نحكم على أن الآيات مكية .

ومن المعلوم أن الآيات والسور المدنية اهتمت بالتشريع والجهاد والرد على أهل الكتاب إلى غير ذلك مما عنى به القسم المدني ، ومع ذلك لم تغفل

(١) هكذا قال .

(٢) انظر تفسير ظلال القرآن (٨ : ١١٩) .

التوجيه والارشاد للكفار جميعا وغيرهم وكما سبق أن بينت فالقرآن لم يخاطب أهل مكة بشخصهم وإنما يخاطب الأمة بأكملها ولم يخاطب أهل المدينة بشخصهم وإنما يخاطب العالم أجمع . وعلى ذلك فالآيات التى تكلمت عن البعث فى أثناء هذه السورة هى كذلك مدنية لأنه لم يقم دليل صحيح على مكيتها . ثم إن البعث كما يذكر فى السور المكية يذكر كذلك فى السور المدنية .

أما الجزء الأخير من هذه السورة وهو قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ غَدَوَاتُكُمْ فَأَخَذَرُوهُمْ ﴾ الآيات . فلا خلاف فى أن نزوله كان فى المدينة .

أخرج الترمذى بسنده عن عكرمة عن ابن عباس سألوه رجل عن هذه الآية ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ غَدَوَاتُكُمْ فَأَخَذَرُوهُمْ ﴾ قال : هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبى ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا فى الدين وهموا أن يعاقبهم^(١) ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ غَدَوَاتُكُمْ فَأَخَذَرُوهُمْ ﴾ الآية . قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح^(٢) .

وأخرجه الحاكم أيضا وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه^(٣) .
وهذا يتبين لنا أن سورة التغابن من السور المدنية ، والله أعلم ..

* * *

(١) أى يعذبوا أزواجهم وأولادهم الذين منعوه من اتيان الرسول ﷺ . أ.هـ سنن الترمذى .

(٢) سنن الترمذى (٥ : ٤١٩) .

(٣) المستدرک للحاکم (٢ : ٤٩٠) .

(١٠) سورة الانسان

سورة الإنسان من السور المختلف في نزولها لاختلاف الروايات الواردة فيها . فالرواية الثانية عن قتادة والخامسة عن علي بن أبي طلحة والسادسة عن ابن الحصار لم يذكروها ضمن السور المدنية .

والقول السابع لابن سلامة ذكرها من السور المختلف فيها وقال : نزلت بالمدينة ، وقيل بمكة ، وهى إلى نزول المدينة أشبه^(١) .

والرواية الثالثة عن عكرمة والحسين بن أبى الحسن والرابعة عن ابن عباس والقول الثامن للزركشى ذكروا أنها مدنية .

قال القرطبى : مكة في قول ابن عباس ومقاتل والكلبى . وقال الجمهور : مدنية وقيل : فيها مكى ، من قوله : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾^(٢) إلى آخر السورة . وما تقدمه مدنى^(٣) .أ.هـ .

وقال السيد قطب : فى بعض الروايات إن هذه السورة مدنية ولكنها مكة ، ومكيته ظاهرة جداً فى موضوعها وفى سياقها ، وفى سماتها كلها ، لهذا رجحنا الروايات الأخرى القائلة بمكيته ، بل نحن نلمح من سياقها أنها من بواكير ما نزل من القرآن المكي ..

فصور النعيم الحسية المفصلة الطويلة متمثلة فى قوله : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا .. الْآيَاتِ﴾^(٤) إلى قوله : ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ .

(١) الناسخ والمنسوخ لأبى القاسم هبة الله بن سلامة (ص ٩٧) .

(٢) آية ٢٣ .

(٣) تفسير القرطبى (١٩ : ١١٨) م ١٠ .

(٤) من آية ٥ إلى آية ٢٢ .

وصور العذاب الغليظ متمثلة في قوله : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾^(١) .

وتوجيه الرسول ﷺ إلى الصبر لحكم ربه وعدم طاعته آثماً أو كفوراً مع إهمال المشركين وتثبيت الرسول ﷺ على الحق .. واحتمال أن هذه السورة مدنية — في نظرنا — هو احتمال ضعيف جداً يمكن عدم اعتباره^(٢) .

قال السيوطي^(٣) : سورة الانسان قيل مدنية وقيل مكية إلا آية واحدة : ﴿وَلَا تُطِغْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾^(٤) .

وأقول أيضاً ان هذه الآية مكية ، فقد أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة أنه بلغه أن أبا جهل قال : لئن رأيت محمدا يصلي لأطأن عنقه ، فأنزل الله ﴿وَلَا تُطِغْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾^(٥) . فالأثر السابق يدل على أن الآية مكية .

وعلى ذلك فإنني أرجح أن السورة كلها مكية ، والله أعلم ..

* * *

(١) آية ٤ .

(٢) باختصار وتصرف من ظلال القرآن للسيد قطب (٨ : ٣٩١) .

(٣) الاتقان للسيوطي (١ : ١٤) .

(٤) آية ٢٤ .

(٥) لباب النقول في اسباب النزول لجلال الدين السيوطي (ص ٢٢٦) .

(١١) سورة عبس

وهى من السور المختلف فى نزولها فقليل مكية وقيل مدنية .
أما الروايات السابقة فليس هناك أية رواية ذكرت أنها مدنية فالرواية الثانية
عن قتادة والخامسة عن على بن أبى طلحة والقول السادس لابن الحصار والقول
الثامن للزركشى لم يذكروها ضمن المدنى بل إن الرواية الثالثة عن عكرمة والحسين
ابن أبى الحسن ، والرابعة عن ابن عباس ذكروها ضمن السور المكية .
أما القول السابع للقاسم هبة الله بن سلامة فقال : وهى إحدى السور
السبعة عشر المختلف فى تنزيلها^(١) .

قال القرطبى : مكية فى قول الجميع وهى إحدى وأربعون آية^(٢) .
ويؤيد مكية السورة ما ورد فى سبب نزولها ، اخرج الترمذى والحاكم بسندهما
عن عائشة رضى الله عنها قالت : أنزل (عبس وتولى) فى ابن أم مكتوم الأعمى .
أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول يا رسول الله أرشدنى وعند رسول الله ﷺ رجل
من عظماء المشركين فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر ويقول :
أترى بما نقول بأسا ؟ فيقال لا ، ففى هذا أنزل .
قال أبو عيسى : هذا حديث غريب^(٣) .

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه فقد
أرسله جماعة عن هشام بن عروة^(٤) .

(١) الناسخ والمنسوخ لآبى القاسم هبة الله (ص ٩٨) .

(٢) تفسير القرطبى (١٩ : ٢١١) م ١٠ .

(٣) سنن الترمذى (٥ : ٤٣٢) .

(٤) المستدرک للحاکم (٢ : ٥١٤) .

فالحديث يفهم منه أن رسول الله ﷺ كان يعرض الإسلام على أحد
صناديد قريش الذين يرجى في إسلامهم دخول كثير من أتباعهم إلى الإسلام .
فالقصة لا خلاف أنها كانت بمكة قبل الهجرة .

فالروايات كلها مجمعة على أنها بمكة ولم تذكر أية رواية أنها نزلت بالمدينة .
وكذلك الحديث الوارد في سبب نزولها كل هذا يؤكد أن السورة مكية .

نضيف إلى ذلك أن موضوعات السورة هي من علامات المكى حيث
ذكر فيها خلق الانسان وحياته ثم موته وذكر فيها النشور والجزاء الأخروي وأيضا
ذكر فيها من نعم الله على الانسان نعمة الاطعام والتفكه وكذلك الأنعام إلى غير
ذلك .

قال تعالى : ﴿ مِنْ أَمْرِ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ الآيات .
والله أعلم ..

* * *

(١٢) سورة المطففين

وهي من السور المختلف في نزولها . فالرواية الثانية عن قتادة والرواية الخامسة عن علي بن أبي طلحة والقول الثامن للزركشي لم يذكروها ضمن السور المدنية . والرواية الثالثة عن عكرمة والحسين بن أبي الحسن ذكراها ضمن السور المكية . والقول السادس لابن الحصار والسابع لأبي القاسم هبة الله عداها من المختلف فيه .

قال القرطبي : مكية في قول ابن مسعود والضحاك ومقاتل ومدنية في قول الحسن وعكرمة وهي ست وثلاثون آية .

قال مقاتل : وهي أول سورة نزلت بالمدينة^(١) ، وقال ابن عباس وقاتل : مدنية إلا ثمانى آيات من قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ إلى آخرها مكية .

وقال الكلبي وجابر بن زيد : نزلت بين مكة والمدينة^(٢) .

وقال السيوطي : قال ابن الغرس : قيل انها مكية لذكر الأساطير فيها وقيل مدنية لأن أهل المدينة كانوا أشد الناس فساداً في الكيل وقيل نزلت بمكة إلا قصة التطفيف وقال قوم نزلت بين مكة والمدينة . انتهى .

قلت : أخرج النسائي^(٣) وغيره بسند صحيح عن ابن عباس قال لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أحبب الناس كيلاً فأنزل الله (ويل للمطففين) فأحسنوا الكيل^(٤) .

(١) هكذا ذكر القرطبي عن مقاتل .

(٢) تفسير القرطبي (١٩ : ٢٥٠) م ١٠ .

(٣) الحاكم في المستدرک (٢ : ٣٣) وقال صحيح الاسناد وأقره الذهبي راجع الصحيح المسند من

أسباب النزول بحث مقبل الوداعي (ص ١٧٢) ط/مكتبة السعادة . وأخرجه ابن ماجه (٢ :

٧٤٨) .

(٤) الاتقان للسيوطي (١ : ١٤) .

قال القرطبي : بعد أن أورد الحديث الذى رواه النسائي والذى ذكره السيوطى قال الفراء : فهم من أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا وعن ابن عباس أيضا قال : أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ ساعة نزل بالمدينة وكان هذا فيهم . كانوا إذا اشتروا استوفوا بكيل راجح ، فإذا باعوا بخسوا المكيال والميزان ، فلما نزلت هذه السورة انتهوا فهم أوفى الناس كيلا إلى يومهم هذا .

وقال قوم : نزلت في رجل يعرف بأنى جهينة واسمه عمرو ، كان له صاعان يأخذ بأحدهما ويعطى بالآخر ، قاله أبو هريرة رضى الله عنه (١) .

فالسورة مطلعها مدنى إلى قوله ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ وما بعده هذه الآية مكي بدليل ذكر لفظ (كلا) .

وأیضا فإن استهزاء الكفرة بالمؤمنين وضحكهم منهم، هذا كان في مكة وقد ذكر في آخر السورة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ الآيات .. إلخ السورة .

* * *

(١) تفسير القرطبي (٢٠ : ٢٥٢) .

(١٣) سورة الفجر

جميع الروايات والأقوال أشارت إلى أن سورة الفجر مكية باستثناء الرواية الخامسة عن علي بن أبي طلحة ذكرها من السور المدنية^(١) .

قال السيوطي : (فيها قولان حكاهما ابن الغرس ، قال ابن الغرس قال ابن حبان والجمهور انها مكية)^(٢) .

قال الشوكاني : (وهي مكية بلا خلاف . وأخرج ابن الضريس والنحاس في ناسخه وابن مردويه والبيهقي من طرق عن ابن عباس قال نزلت (والفجر) بمكة وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله)^(٣) .

وإذا استعرضنا أسلوب السورة وجدنا الأسلوب المكي واضحاً جلياً فنلاحظ افتتاحها بالقسم — قال تعالى ﴿ وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ . وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ . هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ﴾ .

ثم ذكر تعالى أحوال الأمم السابقة وكيف كانت نهاية تكذيبهم لأنبيائهم ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَعَفُوا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ ثم تلاحظ تكرار أداة الردع والزجر (كلا) والتي لا ترد إلا في السور المكية^(٤) .

(١) انظر (ص ٥٧) من هذا البحث .

(٢) الاتقان (١ : ١٤) .

(٣) فتح القدير للشوكاني (٥ : ٤٣٢) .

(٤) انظر ص ٣٧ من بحثنا هذا .

قال تعالى : ﴿ كَلَّا ، بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ
الْمِسْكِينِ ﴾ الآيات (١٧ — ١٨) .

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا
صَفًّا ﴾ الآيات (٢١ — ٢٢) .

وفيها تهديد شديد بيوم الجزاء والحساب وذكر الجنة والنار ، كل هذا فيه
دلالة على أن الآيات مكية . وأخيراً خلوها من التشريع الذى حفل به القرآن
المدنى . كل هذه الاعتبارات جعلتنى أرجح مكية السورة . والله أعلم .

* * *

(١٤) سورة الليل

من خلال النظر في الروايات الواردة في تحديد السور المدنية والمكية نلاحظ أن جميع الروايات لم توردها ضمن السور المدنية ماعدا الرواية الخامسة عن علي بن أبي طلحة ذكر أنها مدنية ، والقول السابع لابن سلامة ذكرها من المختلف فيها . ونلاحظ أن الرواية الثالثة عن عكرمة والحسين بن أبي الحسن والرواية الرابعة عن ابن عباس ذكرها في عداد السور المكية .

قال الشوكاني : (وهي مكية عند الجمهور ، وقيل مدنية . وأخرج ابن الضريس والنحاس والبيهقي عن ابن عباس قال نزلت سورة (والليل اذا يغشى) بمكة^(١) .

قال الرازي : (قال القفال رحمه الله نزلت هذه السورة في أبي بكر وانفاقه على المسلمين وفي أمية بن خلف وبخله وكفره بالله ، ألا وإن كانت كذلك لكن معانيها عامة للناس)^(٢) .

قلت : وأمّية بن خلف عاش في مكة قبل الهجرة فهي مكية . وقال السيوطي : (الأشهر أنها مكية وقيل مدنية لما ورد في سبب نزولها من قصة النخلة . كما أخرجناه في أسباب النزول . وقيل فيها مكي ومدني)^(٣) .

أما قوله (وقيل مدنية لما ورد في سبب نزولها من قصة النخلة ...) فقد أخرج ابن أبي حاتم وغيره من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلا كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذى عيال فكان الرجل إذا جاء الدار صعد إلى النخلة ليأخذ منها الثمرة فرمما تقع ثمرة فيأخذها صبيان الفقير . فينزل من نخلته فيأخذ الثمرة من أيديهم وإن وجدها في قم أحدهم أدخل أصبعه حتى

(١) فتح القدير (٥ : ٤٥١) .

(٢) تفسير الرازي (٣١ : ١٩٧) .

(٣) الاتقان للسيوطي (١ : ١٤) .

يخرج الثمرة من فيه . فشكا ذلك الرجل الى النبي ﷺ فقال : اذهب ، ولقى النبي ﷺ صاحب النخلة ، فقال له : اعطني نخلتك التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنة ، فقال الرجل : لقد أعطيت وإن لي نخلا كثير ومافيه أعجب إلى ثمرة منها ، ثم ذهب الرجل ولقى رجلا كان يسمع الكلام من رسول الله ﷺ ومن صاحب النخلة ، فأقى رسول الله ﷺ فقال اعطيني يا رسول الله ما أعطيت الرجل إن أنا أخذتها؟ فقال نعم. فذهب الرجل فلقي صاحب النخلة ولكليهما نخل ، فقال له صاحب النخلة أشعرت أن محمدا ﷺ أعطاني بنخلتى المائة في دار فلان نخلة في الجنة فقلت له : لقد أعطيت ولكن يعجبني ثمرها . ولى نخل كثير ما فيه نخلة أعجب الى ثمرة منها ، فقال له الآخر : أتريد بيعها ، فقال لا الا أن أعطي بها ما أريد ولا أظن أن أعطي ، فقال فكم مناك منها ؟ فقال أربعون نخلة . فقال لقد جئت بأمر عظيم ، ثم سكت عنه فقال له : أنا اعطيتك أربعين نخلة فاشهد لي ان كنت صادقا ، فدعا قومه فأشهد له ، ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا رسول الله إن النخلة قد صارت لي وهي لك فذهب رسول الله ﷺ إلى صاحب الدار فقال له النخلة لك ولعيالك فأنزل ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ إلى آخر السورة^(١) .

قال ابن كثير : حديث غريب جداً^(٢) .

وأخرج الواحدى بسنده عن ابن إسحاق ، عن عبد الله ، أن أبا بكر اشترى بلالا من أمية بن خلف ببيده وعشر أواق ، فأعتقه ، فأنزل الله تبارك وتعالى — والليل اذا يغشى — إلى قوله ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ سعى أبى بكر وأميه ابن خلف^(٣) .

(١) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطى (٢٢٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (٤ : ٥٢٠) .

(٣) أسباب النزول للواحدى تحقيق الأستاذ سيد صقر (ص ٤٨٦) .

وأخرج الحاكم بسنده عن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال أبو قحافة لأبي بكر أراك تعتق رقابا ضعافا فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدا يمنعونك ويقومون دونك فقال : يا أبت إني إنما أريد ما أريد (لما نزلت هذه الآيات فيه) :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾ إلى قوله ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى. وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه^(١) .

ونضيف إلى ذلك أن السورة بدئت بالقسم مثل سابقتها ولاحقتها والكل مكى .

(١) المستدرک للحاکم (٢ : ٥٢٥) .

(١٥) سورة القدر

اختلفت الروايات والأقوال في سورة القدر فالرواية الثالثة عن عكرمة والرابعة عن ابن عباس ذكرها ضمن السور المكية ، والرواية الثانية عن قتادة لم تذكرها ضمن السور المدنية فهي أيضا كأنها تشير إلى أنها مكية . وكذلك القول الثامن للزركشي لم يوردها ضمن المدني . أما الرواية الخامسة لعل بن أوى طلحة والقول السابع لابن سلامة فذكرا أنها مدنية والقول السادس لابن الحصار ذكر أنها من المختلف فيه .

قال السيوطي : (فيها قولان والأكثر أنها مكية ويستدل لكونها مدنية بما أخرجه الترمذي والحاكم عن الحسن بن علي أن النبي ﷺ أرى بنى أمية على منبره فسأه ذلك فنزلت ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ و ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ الحديث قال المزى وهو حديث منكر ^(١) .

والحديث رواه الترمذي بسنده عن يوسف بن سعد قال : قام رجل إلى الحسن بن علي بعدما بايع معاوية ، فقال : سودت وجوه المؤمنين ، أو يامسود وجوه المؤمنين ، فقال : لا تؤنبنى رحمك الله ، فان النبي ﷺ أرى بنى أمية على منبره فسأه ذلك فنزلت (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) يا محمد يعنى نهرا في الجنة ، ونزلت ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، وَمَا أَذْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ يملكها بنو أمية يا محمد . قال القاسم : فعددناها فاذا هي ألف شهر لا يزيد يوم ولا ينقص . قال أبو عيسى (هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث القاسم بن الفضل) ^(٢) .

قال ابن كثير : وقول القاسم بن الفضل الحداني إنه حسب مدة بنى أمية

(١) الاتفاق (١ : ١٤) .

(٢) سنن الترمذي (٥ : ٤٤٥) .

فوجدناها ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص ليس بصحيح فإن معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه استقل بالملك حين سلم إليه الحسن بن علي الإمرة سنة أربعين . واجتمعت البيعة لمعاوية وسمى ذلك عام الجماعة ثم استمروا فيها متتابعين بالشام وغيرها لم تخرج عنهم إلا مدة دولة عبد الله بن الزبير في الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريباً من تسع سنين لكن لم تزل يدهم عن الإمرة بالكلية بل عن بعض البلاد إلى أن استلبهم بنو العباس الخلافة في سنة اثنتين وثلاثين ومائة فيكون مجموع مدتهم اثنتين وتسعين سنة وذلك أزيد من ألف شهر . فإن الألف شهر عبارة عن ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر وكأن القاسم بن الفضل أسقط من مدتهم أيام ابن الزبير . وعلى هذا يقارب ما قاله الصّحابة في الحساب والله أعلم .

ومما يدل على ضعف الحديث أنه سيق لزم دولة بنى أمية ولو أريد ذلك لم يكن بهذا السياق فإن تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذم أيامهم فإن ليلة القدر شريفة جداً والسورة الكريمة إنما جاءت لمدح ليلة القدر فكيف تمدح بتفضيلها على أيام بنى أمية التي هي مذمومة بمقتضى هذا الحديث .

وهل هذا إلا كما قال القائل :

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

وقال آخر :

إذا أنت فضلت امرأة ذا براعة على ناقص كان المديح من النقص

ثم الذى يفهم من الحديث أن الألف شهر المذكورة في الآية هي أيام بنى أمية والسورة مكية فكيف يحال على ألف شهر هي دولة بنى أمية ولا يدل عليها لفظ الآية ولا معناها . والمنبر إنما صنع بالمدينة بعد مدة من الهجرة فهذا كله مما يدل على ضعف الحديث ونكاته والله أعلم^(١) . أ.هـ .

أخرج ابن أبي حاتم والواحدي عن مجاهد أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من

(١) تفسير ابن كثير (٤ : ٥٢٩) .

بنى اسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر فعجب المسلمون من ذلك ،
فأنزل الله ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ
مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ وهى التى لبس ذلك الرجل السلاح فيها فى سبيل الله .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال كان فى بنى إسرائيل رجل يقوم الليل
حتى يصبح ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسى . فعمل ذلك ألف شهر ، فأنزل
الله (ليلة القدر خير من ألف شهر) عملها ذلك الرجل ^(١) .

وقال القرطبي (وهى مدينة فى قول أكثر المفسرين ، ذكره الثعلبى .
وحكى الماوردى مكية . قلت : وهى مدينة فى قول الضحاك وأحد قولى ابن
عباس) ^(٢) .

وقال الجمل فى الفتوحات الإلهية (والقول بالمدينة هو الأصح وقول الأكثرين
وقيل إنها أول ما نزل بالمدينة) ^(٣) .

وقد يرد هنا سؤال وهو أن الصيام فرض فى المدينة فى السنة الثانية الهجرية
وسورة القدر تتحدث عن ليلة القدر ، وليلة القدر كما جاء فى الحديث الصحيح
فى العشر الأواخر من رمضان (الحديث) فهل يعنى ذلك أن السورة مدنية ؟ .
والجواب أن ذلك لا يعطى مدنيته إلا من دليل خارجى آخر ذلك لأن
شهر رمضان كان يعرف بهذه التسمية قبل نزول القرآن على رسول الله ﷺ .
وقد أخرج الإمام أحمد والبيهقى فى شعب الإيمان بسند حسن عن واثلة بن
الاسقع أن رسول الله ﷺ قال : « أنزلت صحف إبراهيم عليه السلام فى أول ليلة
خلت من رمضان والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان وأنزل القرآن لأربع
وعشرين خلت من رمضان » ^(٤) .

والذى أرجحه أن السورة مكية .

(١) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى (ص ٢٣٣) .

(٢) تفسير القرطبي (٢٠ : ١٢٩) م ١٠ .

(٣) انظر الفتوحات الإلهية (٤ : ٥٦٥) .

(٤) مسند الامام أحمد (٤ : ١٠٧) .

(١٦) سورة الينة

جميع الروايات ذكرت أنها مدنية ما عدا الرواية الثانية عن قتادة لم يذكرها ضمن المدنى والقول السادس ذكرها من السور المختلف فيها قال القرطبى : وهى مكية فى قول يحيى بن سلام . ومدنية فى قول ابن عباس والجمهور^(١) .

وقال السيد قطب (هذه السورة معدودة فى المصحف وفى أكثر الروايات أنها مدنية . وقد وردت بعض الروايات بمكيته . ومع رجحان مدنيته من ناحية الرواية ومن ناحية أسلوب التعبير التقريرى ، فإن كونها مكية لا يمكن استبعاده وذكر الزكاة فيها وذكر أهل الكتاب لا يعتبر قرينة مانعة . فقد ورد ذكر أهل الكتاب فى بعض السور المقطوع بمكيته . وكان فى مكة بعض أهل الكتاب آمنوا ، وبعضهم لم يؤمنوا . كما أن نصارى نجران وفدوا على الرسول ﷺ فى مكة وآمنوا كما هو معروف .

وورد ذكر الزكاة كذلك فى سور مكية^(٢) .

قلت : وفيما قاله السيد قطب . نظر .

وقال السيوطى : « قال ابن الغرس الأشهر أنها مكية قلت ويدل لمقابله ما أخرجه أحمد عن أبى حبة البدوى قال لما نزلت لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب إلى آخرها قال لى جبريل يا رسول الله إن ربك يأمرك أن تقرئها أيما ... الحديث . وقد جزم ابن كثير بأنها مدنية واستدل به^(٣) .

(١) تفسير القرطبى (٢٠ : ١٣٨) .

(٢) فى ظلال القرآن (٨ : ٦٣٠) وقوله إن نصارى نجران وفدوا على الرسول ﷺ ... الخ .

هذا مخالف لما فى الصحيحين لأنهم وفدوا عليه بالمدينة وصالحوه .

(٣) الاتفاق (١ : ١٤) .

والذى يؤكد مدنية السورة ما أخرجه الامام أحمد بسنده عن مالك بن عمرو بن ثابت الأنصارى قال لما نزلت (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب) إلى آخرها قال جبريل : يا رسول الله إن ربك يأمرك أن تقرئها أُنِيَا . فقال النبي ﷺ لأُنِي « إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة فقال أُبَيّ وقد ذكرت ثم يارسول الله ؟ فقال (نعم) قال فبكى أُبَيّ »^(١) .

وقد أخرجه البخارى^(٢) ومسلم^(٣) فى كتاب المناقب .

وأخرجه الترمذى أيضا عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأُبَي بن كعب : إن الله أمرنى أن أقرأ عليك (لم يكن الذين كفروا) قال : وسمائى ؟ قال : نعم ، فبكى . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح^(٤) .

* * *

-
- (١) رواه البخارى فى فضائل أنى بن كعب (٨ : ١٢٧) .
 (٢) رواه البخارى فى فضائل أنى بن كعب (٨ : ١٢٧) .
 (٣) رواه مسلم (١٦ : ٢٠) فى فضائل أنى بن كعب .
 (٤) سنن الترمذى (٥ : ٦٦٥) .

(١٧) سورة الزلزلة

هذه السورة العظيمة من السور المختلف في نزولها فجميع الروايات تشير إلى أنها مدنية ما عدا القول السادس والسابع ذكراً أنها من المختلف فيها . قال القرطبي : (مدنية في قول ابن عباس وقتادة . ومكية في قول ابن مسعود وعطاء وجابر) .

وقال السيوطي : فيها قولان ويستدل لكونها مدنية بما أخرجه ابن أبي حاتم عن أنى سعيد الخدري قال : لما نزلت فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره .. الآية . قلت يا رسول الله إني لراء عملي .. الحديث .. وأبو سعيد لم يكن إلا بالمدينة ولم يبلغ إلا بعد أحد^(١) .

والدارس لآيات هذه السورة الكريمة يجد أن موضوعها هو يوم الحساب وما يسبقه من أهوال وما يلاقيه الانسان من الجزاء الذى هو بحسب ما قدم من العمل ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾^(٢) فالموضوع والسياق شبيه بموضوع وسياق السور المكية .

قال السيد قطب : هذه السورة مدنية في المصحف وفي بعض الروايات ، ومكية في بعض الروايات الأخرى ونحن نرجح الروايات التى تقول بأنها مكية وأسلوبها التعبيري وموضوعها يؤيدان هذا^(٣) .

وأقول ما دام هناك حديث يرجح مدنيتهما فهو المقدم على الرأى ثم إنه لا يمنع أن يذكر البعث والجزاء في المدنى .

(١) الاتقان للسيوطي (١ : ١٤) .

(٢) الزلزلة (٧ — ٨) .

(٣) في ظلال القرآن (٨ : ٦٣٩) .

(١٨) سورة النصر

جميع الروايات تشير إلى أن سورة النصر مدنية . ما عدا القول السابع لأبي القاسم هبة الله بن سلامة فإنه ذكر أنها نزلت بالمدينة وقيل بمكة وذكر القول بالمكنى بأسلوب التضعيف فهو قول ضعيف .

قال القرطبي : وهي مدنية بإجماع . وتسمى سورة (التوديع)^(١) .

قال الواحدي : نزلت في منصرف النبي ﷺ من غزوة حنين وعاش ستين بعد نزولها^(٢) .

قلت : وغزوة حنين كانت بعد فتح مكة ، فهي مدنية بالإجماع .



(١) تفسير القرطبي (٢٠ : ٢٢٩) .

(٢) أسباب النزول للواحدي (٣٠٨) .

(١٩) سورة الصمد (الاخلاص)

هذه السورة الكريمة من السور المختلف في نزولها ، فالرواية الثانية عن قتادة والخامسة عن علي بن أبي طلحة والقول الثامن للزركشي لم يوردها ضمن السور المدنية .

والرواية الثالثة عن عكرمة والرابعة عن ابن عباس ذكرها ضمن السور المكية والقول السادس لابن الحصار والسابع لابن سلامة ذكرها أنها من المختلف فيه قال القرطبي : مكية في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة وجابر . ومدنية في أحد قول ابن عباس وقاتدة والضحاك والسدي .

والذي يرجح مكية السورة ما أخرجه الترمذي بسنده عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : انسب لنا ربك فأنزل الله ﷻ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ فالصمد: الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ولا شيء يموت إلا سيورث . وإن الله عز وجل لا يموت ولا يورث ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ قال : لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثل شيء^(١) .

قال السيوطي : الإخلاص فيها قولان لحديثين في سبب نزولها متعارضين وجمع بعضهم بينهما بتكرار نزولها ثم ظهر لي أنها مدنية كما بينته في أسباب النزول^(٢) .

قلت : والذي أشار إلى بيانه في كتابه أسباب النزول هو أنه ذكر أولاً حديث الترمذي عن أبي بن كعب السابق ذكره .

(١) سنن الترمذي (٥ : ٤٥١) وقد سكت عن الحديث .

(٢) الاتقان (١ : ١٥) .

ثم ذكر حديثاً آخر أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن اليهود جاءت إلى النبي ﷺ منهم كعب بن الأشرف وحبي بن أخطب فقالوا : يا محمد صف لنا ربك الذى بعثك ، فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .. الخ وأخرج ابن جرير عن قتادة وابن المنذر عن سعيد بن جبير مثله فاستدل بهذا على أنها مدنية . وأخرج ابن جرير عن أبي العالية قال : قال قتادة : قالت الأحزاب انسب لنا ربك ، فأتاه جبريل بهذه السورة . وهذا المراد بالمشركين فى حديث أبى فتكون السورة مدنية كما دل عليه حديث ابن عباس .

لكن أخرج أبو الشيخ فى كتاب العظمة من طريق أبان عن أنس قال : أتت يهود خيبر إلى النبي ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، خلق الله الملائكة من نور الحجاب وآدم من حمأ مسنون ، وإبليس من لهب النار ، والسماء من دخان ، والأرض من زبد الماء فأخبرنا عن ربك ؟ فلم يجبه ، فأتاه جبريل بهذه السورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ هـ^(١) .

قال الشهاب : (فيما نزل مرتين هل يكون مكياً ومدنياً أو يعتبر أول النزولين . ما لم يكن فى الثانى زيادة أو نقص ؟)^(٢) .

قلت : وأنا أرجح أن السورة مكية ذلك لرواية الترمذى . أما من قال إنها نزلت مرتين فإن النزول الثانى يعتبر تأكيداً للنزول الأول ولا مانع أن ينزل بعض القرآن مرتين تأكيداً ولأهمية هذا المنزل .

* * *

(١) لباب النقول للسيوطى (٢٣٨) .

(٢) حاشية الشهاب المسماة عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوى (٦ : ٣٥١) ط/المكتبة الإسلامية محمد أزمير — تركيا .

(٢٠) سورتا المعوذتين

سورتا المعوذتين من السور المختلف فيها . وليس هناك رواية من الروايات السابقة تنص على مدنيتهما فهى مكية . بل إن الرواية الثالثة والرابعة ذكرتهما ضمن السور المكية . والقول السادس والسابع ذكرهما من السور المختلف في نزولها .

قال القرطبي : وهى (أى الفلق) مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدنية في أحد قولى ابن عباس وقتادة ^(١) . وقد ذكر نفس الحكم في تفسير سورة الناس ^(٢) . قال السيوطى : (المختار أنهما مدنيتان لأنهما نزلتا في قصة سحر لبيد بن الأعصم كما أخرجه البيهقى في الدلائل) ^(٣) .

وقصة سحر (لبيد بن الأعصم) اليهودى أخرجها البخارى ومسلم وأحمد . أخرج البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : (سحر رسول الله ﷺ رجل من بنى زريق . يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندى لكنه دعا ودعا ثم قال : يا عائشة ، أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه ^(٤) ؟ أتانى رجلان ففعد أحدهما فقال صاحبه : ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب ^(٥) ، قال من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، قال : فى أى شيء ؟ قال

(١) تفسير القرطبي (٢٠ : ٢٥١) .

(٢) (٢٠ : ٢٦٠) . نفس المرجع السابق .

(٣) الالتقان (١ : ١٥) .

(٤) فى رواية الحميدى (افتانى فى أمر استفتيته فيه) أى اجابنى فيما دعوته ، فاطلق على الدعاء استفتاء

لأن الداعى طالب والجيب مستفتى أو المعنى اجابنى بما سألته عنه . فتح البارى (١٢ : ٣٣٩) .

(٥) أى مسحور ويسمونه بذلك تيامنا كما يسمون المريض بالصحيح .

في مشط ومشاطة ، وجف^(١) طلع نخلة ذكر ، قال : واين هو ؟ قال : في بئر ذروان ، فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه فجاء فقال يا عائشة ، كأن ماءها نقاعة الحناء . وكان رعوس نخلها رعوس الشياطين قلت : يا رسول الله ، أفلا استخرجته^(٢) .

قال : قد عافاني الله فكهرت أن أثير على الناس فيه شرا ، فأمر بها فدفنت^(٣) .

ويلاحظ في هذه الرواية عدم التطرق لنزول المعوذتين وعدم تحديد المدة التي بقى رسول الله ﷺ مسحورا فيها . وقد حددت المدة رواية الأمام أحمد في مسنده عن إبراهيم بن خالد عن معمر عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : لبث النبي ﷺ ستة أشهر يرى أنه يأتي ولا يأتي فأتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجله فقال أحدهما للآخر ما باله ؟ قال مطبوب . قال ومن طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم^(٤) .

قال الرازي : (ذكروا في سبب نزول هذه السورة وجوها) :

(أحدها) : روى أن جبريل عليه السلام أتاه وقال إن عفريتاً من الجن يكيذك . فقال إذا أويت إلى فراشك قل (أعوذ برب) ... السورتين .

(ثانيها) : إن الله تعالى أنزلهما عليه ليكونا رقية ، من العين . وعن سعيد ابن المسيب أن قريشا قالوا : تعالوا نتجوع فتعين محمدا ففعلوا ثم أتوه وقالوا ما أشد عضدك وأقوى ظهرك وأنضر وجهك ، فأنزل الله تعالى المعوذتين .

(وثالثها) : وهو قول جمهور المفسرين ، أن لبيد بن أعصم اليهودي سحر النبي ﷺ في إحدى عشرة عقدة وفي وتر دسه في بئر يقال لها ذروان

(١) وهو الغشاء الذي يكون على الطلع ويطلق على الذكر والأنثى فلهذا قيده بالذكر في قوله طلعته ذكر .

(٢) المراد بالخروج ما حواه الجف لا الجف نفسه . انظر فتح الباري (١٢ : ٣٤٧) .

(٣) أى البئر — فتح الباري (١٢ : ٣٤٣) ، ورواه أيضا مسلم (٤ : ١٧١٩) بتحقيق وترتيب الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي .

(٤) مسند الامام أحمد (٦ : ١٣٤ — ١٣٥) .

فمرض رسول الله ﷺ ، واشتد عليه ذلك ثلاث ليال فنزلت المعوذتان لذلك وأخبره جبريل بموضع السحر فأرسل عليا عليه السلام وطلحة وجاءا به . وقال جبريل للنبي ﷺ حل عقده ، وأقرأ آية ففعل وكان كلما قرأ آية انحلت عقدة فكان يجد بعض الخفة والراحة (١) .

والذى يرجح أنهما مدينتان بجانب الرواية التى ذكرها البخارى وغيره ما أخرجه النسائى وغيره عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ آيات أنزلت على الليلة لم ير مثلهن قط قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس (٢) .

فالحديث الذى يرويه عقبة بن عامر (٣) رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ بأنه صلوات الله وسلامه عليه قال (آيات أنزلت على الليلة لم ير مثلهن قط) .. الحديث فحدد نزولها بقوله (الليلة) وعقبة بن عامر لم يكن بمكة — فالآيات على هذا مدنية .



(١) تفسير الرازى (٣٢ : ١٨٧) .

(٢) رواه مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (١ : ٥٥٨) سنن النسائى بشرح الحافظ السيوطى وحاشية الامام السندى (٢ : ١٥٨) ط/دار احياء التراث العربى — لبنان .

(٣) عقبة بن عامر بن عيسى بن عمرو الجهنى الصحابى المشهور .. روى عن النبى ﷺ كثيراً روى عنه جماعة من الصحابة كان قارئاً عالماً بالفرائض والفقه فصيح اللسان شاعراً كاتباً وهو أحد من جمع القرآن ، وفى صحيح مسلم من طريق قيس بن أبى حازم عن عقبة بن عامر قال : قدم رسول الله ﷺ وأنا فى غنم لى أرعاها فتركها ثم ذهبت إليه فقلت بايعنى فبايعنى على الهجرة. الحديث .. مات فى خلافة معاوية على الصحيح .

أنظر الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى (٢ : ٤٨٩) .

الفصل الثالث
بيان الآيات المدنية في السور المكيّة

تمهيد

ترتيب سور القرآن وآياته :

قبل الخوض في بيان الآيات المدنية في السور المكية والآيات المكية في السور المدنية لا بد من الإشارة باختصار إلى أن ترتيب القرآن الكريم توقيفى سواء في ذلك ترتيب الآيات في داخل سورها وترتيب السور ذاتها .

(١) أما عن ترتيب الآيات :

فالاجماع قائم على أنها بتوقيف عن النبي ﷺ وأنه لا مجال للرأى والاجتهاد فيه . فإذا ما نزلت الآيات بوساطة أمين الوحي جبريل عليه السلام على قلب رسول الله ﷺ أرشده إلى موضع كل آية من سورتها . ثم يقرؤها النبي ويبلغها صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه .

قال القاضي أبو بكر في الانتصار : (ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم فقد كان جبريل يقول ضعوا آية كذا في موضع كذا (وقال) أيضا الذى نذهب إليه أن جميع القرآن الذى أنزله الله وأمر بإثبات رسمه ولم ينسخه ولا رفع تلاوته بعد نزوله هو الذى بين الدفتين الذى حواه مصحف عثمان وأنه لم ينقص منه شيء ولا زيد فيه وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمته الله تعالى ورتبه عليه رسوله من آى السور لم يقدم من ذلك مؤخر ولا آخر منه مقدم وأن الأمة ضبطت عن النبي ﷺ ترتيب آى كل سورة وموضعها وعرفت مواقعها ..^(١) .

وقال مكى بن أبى طالب وغيره (ترتيب الآيات في السور بأمر من النبي ﷺ ولما لم يأمر بذلك تركت بلا بسملة^(٢) أى سورة براءة (التوبة) .

(١) الاتقان (١ : ٦٣) . للحافظ جلال الدين السيوطى ط . دار الفكر . بيروت .

(٢) الاتقان (١ : ٦٣) .

وقال ابن الحصار : ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي فكان رسول الله ﷺ يقول ضعوا آية كذا في موضع كذا وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من رسول الله ﷺ وما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف^(١) .

وقد أخرج البيهقي والامام أحمد والترمذى (عن زيد بن ثابت قال بينما نحن عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع إذ قال : طوبى للشام ، قيل ولم ذلك يا رسول الله ؟ قال : إن ملائكة الرحمة باسطة أجنحتها عليه^(٢) .

وأسنده البيهقي في الدلائل وقال : (وهذا يشبه أن يكون المراد به تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ)^(٣) .

وأخرجه الحاكم في المستدرك ولفظه (عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع إذ قال رسول الله ﷺ طوبى للشام فقلنا : لأى شئ ذاك ؟ فقال : لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليهم — قال (هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه) وفيه البيان الواضح أن جمع القرآن لم يكن مرة واحدة^(٤) . وأقره الذهبي وحسنه الترمذى .

وروى الترمذى والحاكم وغيرهما من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال (كان رسول الله ﷺ يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشئ دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هذه الآيات في السورة التى يذكر فيها كذا وكذا) قال الترمذى : هذا حديث حسن وقال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين^(٥) .

(١) الاتقان (١ : ٦٣) .

(٢) الفتح الربانى للساعاتى (١٨ — ٣٠) .

(٣) البرهان للزركشى (١ : ٢٥٦) .

(٤) المستدرك للحاكم (٢ : ٢٢٩) .

(٥) البرهان للزركشى (١ : ٢٤١) . أخرجه الترمذى في تفسير القرآن من سورة التوبة (٥ : ٢٧٢)

والحاكم في المستدرك في تفسير القرآن من سورة التوبة (٢ : ٣٣٠) .

وهذا الحديث صريح في الدلالة على أن ترتيب الآيات في السور كان توقيفياً .

(٢) وأما عن ترتيب السور :

ففيها خلاف بين العلماء . (والذى يؤيد أنها بتوقيف عن النبي ﷺ ما أخرجه الامام أحمد وأبو داود^(١) وغيرهما ، عن أوس بن أوس بن حذيفة قال : كنت في الوفد الذين أسلموا من ثقيف — فذكر الحديث — وفيه : فقال لنا رسول الله ﷺ طراً على حزبي من القرآن فأردت ألا أخرج حتى أقضيه قال : فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور واحد عشر وثلاث عشرة وحزب المفصل من (ق) حتى نختم . قلت : فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن ، كان في عهد النبي ﷺ)^(٢) .

وأوس بن أوس الثقفي له صحبة . قال الحافظ المنذرى (قال ابن معين إسناده هذا الحديث صالح)^(٣) . وحسن إسناده الحافظ ابن كثير في فضائل القرآن^(٤) . ولو أننا عددنا ثمان وأربعين سورة بعد سورة الفاتحة كانت التي تليهن (ق) وحزب المفصل من (ق) إلى نهاية القرآن الكريم وهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصاحف الآن كان على عهد رسول الله ﷺ)^(٥) .

وقال أبو بكر الأنباري : أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ، ثم فرق في أضع وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث ، والآية جواباً

(١) سنن أبو داود (١ : ٣٢٢) .

(٢) انظر فتح الباري (١٠ : ٤١٨) .

(٣) مختصر المنذرى على سنن أبي داود (٢ : ١١٣ — ١١٤) .

(٤) فضائل القرآن (ص ٢٦) نهاية ج ٤ تفسير ابن كثير .

(٥) الأعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره ، د. محمد أحمد يوسف القاسم ط/ الأولى

١٣٩٩ هـ . (ص . ٢٧٨) .

لمستخير ، ويقف^(١) جبريل النبي ﷺ على موضع السورة والآية فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، كله عن النبي ﷺ فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم الآيات .

وقال القاضي أبو بكر : ومن نظم السور على المكى والمدنى لم يدر اين يضع الفاتحة لاختلافهم فى موضع نزولها . ويضطر إلى تأخير الآية فى رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين ، ومن أفسد نظم القرآن فقد كفر به^(٢) .

ومما يؤيد أن ترتيب سور القرآن توقيفى حديث معارضة جبريل بالقرآن كل سنة . أخرج البخاى بسنده عن فاطمة عليها السلام : أسر إلى النبي ﷺ أن جبريل يعارضنى بالقرآن كل سنة وأنه عارضنى العام مرتين ، ولا أراه إلا حضر أجلى^(٣) .

والمراد بقوله (أن جبريل يعارضنى) من العرض بفتح العين وسكون الراء أى يقرأ جبريل ويستعرضه ما أقرأه . وهذه المعارضة تكون القراءة الأخيرة المعتمدة بعد النسخ والأبقى للحفظ .

٣ — اختلاف مصاحف الصحابة ليس دليلاً على أن ترتيب القرآن ليس توقيفياً :

إن الصحابة رضى الله عنهم الذين نقل أنهم خالفوا مصحف سيدنا عثمان رضى الله عنه ثبت أنهم رجعوا إلى المصحف العثمانى وأن قراءتهم توافقت ما جاء فى القراءات المتواترة وفى سندها عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعلى بن أبى طالب وأبى بن كعب وغيرهم ممن يقال عنهم إن مصاحفهم كانت تخالف المصحف العثمانى فى كميته وترتيبه .

(١) هكذا وردت فى البرهان . والصواب (ويوقف) .

(٢) البرهان للزركشى (١ : ٢٦٠) .

(٣) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (١٠ : ٤١٨) .

(وإن اختلاف مصاحفهم ليس دليلاً على أن ترتيب القرآن ليس توقيفياً لأن مصاحفهم لم تكن مصاحف تلاوة ، بل مصاحف علم وتأويل ، قصد بها ضبط وقائع معينة فقد كتب بها المنسوخ تلاوة وبعض الأدعية كالفنوت وتفسير بعض الآيات . ثم إن هذه المصاحف لو كانت بتوقيف تمسك أصحابها بها ولما دفعوها وعرضوها للتحريق فعدولهم عنها وعن ترتيبها دليل على أن الأمر ليس فيه مجال للاجتهاد لأنه لا اجتهاد مع النص . ومن جهة أخرى لو كان مصحف عثمان اجتهادياً لما وافقوه في ذلك لأنه ليس للمجتهد أن يقلد مجتهداً آخر كما هو مقرر عند الأصوليين^(١)).

٤ — إقتران سورة التوبة بالأنفال لا إشكال فيه :

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى حديث ابن عباس حول اقتران سورة التوبة بالأنفال .

أخرج الامام أحمد والترمذى^(٢) والنسائى وأبو داود^(٣) وابن حبان والحاكم^(٤) وابن ماجه وأبو يعلى والبزار والبيهقى وإسحاق بن راهويه واللفظ لأحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (قلت لعثمان بن عفان ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثاني ، وإلى براءة وهى من المثين ، فقرنتم بينهما . ولم تكتبوا — قال ابن جعفر : بينهما سطرًا (بسم الله الرحمن الرحيم) ووضعتموها في السبع الطوال ؟ ما حملكم على ذلك ؟ قال عثمان : إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد ، وكان إذا أنزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده ، يقول ضعوا هذا في السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة وبراءة من آخر القرآن . فكانت

(١) باختصار من كتاب الاعجاز البيانى فى ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره ، تأليف الدكتور محمد

أحمد القاسم (ص : ٢٧) .

(١) سنن الترمذى (٥ : ٢٧٢) .

(٣) سنن أبى داود (١ : ١٨١) .

(٤) المستدرک للحاکم (٢ : ٢٢١) .

قصتها شبيهة بقصتها فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها وظننت أنها منها، فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطرًا (بسم الله الرحمن الرحيم) قال ابن جعفر ووضعتها في السبع الطوال (١) .

يقول ابن حجر — بعد أن أورد طرفا من الحديث السابق — (فهذا يدل على أن ترتيب الآيات في كل سورة كان توقيفا . ولما لم يفصح النبي ﷺ بأمر براءة أضافها عثمان إلى الأنفال إجتهداً منه رضي الله عنه (٢) .

وهذا فيه نظر — فإن قوله (فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها وظننت أنها منها فمن ثم قرنت بينهما .) هذا قائم على مجرد الظن ومن عثمان وحده فكيف ثبت في القرآن أمراً ظنياً ؟ .

وكذلك قوله (إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد ، وكان إذا أنزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده يقول ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا . فيه دلالة على أن الأمر توقيفي وليس لأحد اجتهد فيه .

وقوله (فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها) بعيد .

إذ الأنفال نزلت في السنة الثانية عقب غزوة بدر ، وسورة التوبة نزلت في أواخر السنة التاسعة بعد غزوة تبوك وبعد خروج أبي بكر على رأس المسلمين إلى الحج . فكيف يعقل أن يظل رسول الله ﷺ زهاء خمسة عشر شهرا ولا يبين للناس أنها منها أو غيرها ؟ إنه بذلك يكون قد تأخر عن البيان في وقت الحاجة إليه بل ومات قبل البيان وحاشاه ﷺ أن يفعل ذلك .

ثم إن إطلاق الاسم على كل منهما واختلافه فيهما مما يعين أن هذه غير

(١) الفتح الرباني (١٨ : ١٥٤ ، ١٥٥) .

(٢) فتح الباري (١٠ : ٤١٨) .

تلك فقد سمي النبي ﷺ كلا منهما^(١) .

أما قوله (فمن ثم قرئت بينهما ولم أكتب بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » يفهم من ذلك أن عدم ذكر البسملة في أول براءة هو باجتهاد من عثمان رضى الله عنه مع أن المعلوم أن (بسم الله الرحمن الرحيم) كانت تنزل مع كل سورة حتى أن الصحابة كانوا لا يعرفون إنقضاء السورة إلا إذا نزلت (بسم الله الرحمن الرحيم) فيعرفون أن سورة أخرى قد نزلت .

أخرج أبو داود والحاكم وابن حبان وصحاحه عن ابن عباس رضى الله عنه — واللفظ لأبي داود — (كان النبي ﷺ لا يعرف فصل السورة حتى تنزل عليه (بسم الله الرحمن الرحيم)^(٢) .

(وفي رواية عن ابن عباس قال كان النبي ﷺ لا يعلم ختم السورة حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم) .

(وفي رواية (فإذا نزلت بسم الله الرحمن الرحيم علموا أن السورة قد انقضت)^(٣) .

والعلة في عدم ذكرها في أول براءة قيل لأنها جاءت بنقض العهود والبسملة أمان .

أخرج الحاكم عن علي بن عبد الله بن عباس قال سمعت أبا يقول سألت علي بن أبي طالب رضى الله عنه لِمَ لَمْ تكتب في براءة بسم الله الرحمن الرحيم قال : (لأن بسم الله الرحمن الرحيم أمان وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان)^(٤) .

(١) الألبوسى (١ : ٢٧) ، الاتقان (١ : ٦٥) .

(٢) سنن ابى داود (١ : ١٨٢) .

(٣) فتح البارى (١٠ : ٤١٨) .

(٤) المستدرک للحاکم (٢ : ٣٢٠) .

قال القرطبي نقلا عن الامام القشيري : والصحيح أن البسملة لم تكتب لأن جبريل عليه السلام ما نزل بها في هذه السورة^(١) .

فالخلاصة أن البسملة لم ينزل بها جبريل عليه السلام وما ورد ذكره من المفسرين فهو التماس للحكمة .

قال الفخر الرازي (قال القاضي : يبعد أن يقال انه عليه الصلاة والسلام لم يبين كون هذه السورة تالية لسورة الأنفال . لأن القرآن مرتب من قبل الله تعالى ومن قبل رسوله ﷺ على الوجه الذي نقل .

ولو جوزنا في بعض السور أن لا يكون ترتيبها من الله على سبيل الوحي . لجوزنا مثله في سائر السور وفي آيات السورة الواحدة . وتجويزه يطرق ما يقوله الامامية من تجويز الزيادة والنقصان في القرآن . وذلك يخرجهم من كونه حجة . بل الصحيح أنه عليه السلام أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الانفال وحيا وأنه عليه السلام حذف (بسم الله الرحمن الرحيم) من أول هذه السورة وحيا^(٢) .

ويبقى علينا الكلام عن سند الحديث .

* * *

(١) تفسير القرطبي (٨ : ٦٣) .

(٢) التفسير الكبير للامام الفخر الرازي (١٥ : ٢١٦) ط/دار الكتب العلمية — طهران .

البحث في رجال الحديث

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث عوف عن يزيد الفارسي عن ابن عباس . ويزيد الفارسي قد روى عن ابن عباس غير حديث ويقال هو يزيد بن هرمز ويزيد الرقاشي هو يزيد بن أبان الرقاشي ولم يدرك ابن عباس . إنما روى عن أنس بن مالك وكلاهما من أهل البصرة^(١) .

قال ابن حجر في تهذيب التهذيب (عوف الأعرابي) : قال عبد الله بن أحمد عن أبيه ثقة صالح الحديث . وقال إسحق بن منصور عن ابن معين ثقة وقال أبو حاتم صدوق صالح . وقال ابن سعد كان ثقة كثير الحديث وكان يتشيع . وحكى العقيلي عن ابن المبارك قال كانت فيه بدعتان قدرى وشيعى وقال الانصارى : رأيت داود بن أبي هند يضرب عوفا ويقول ويلك يا قدرى . وقال في الميزان قال بNDAR وهو يقرأ لهم حديث عوف لقد كان قدريا رافضيا شيطانا^(٢) .

وأما يزيد فقد اختلف فيه : هل هو ابن هرمز أو غيره ؟ وقد ذكره البخارى في كتاب الضعفاء باسم يزيد الفارسي لاشتباهه فيه . وحيث أنه قد انفرد بهذا الحديث فلا يحتج به في شأن القرآن الذى يطلب فيه التواتر^(٣) .

وقال فيه الذهبي^(٤) : قال فيه النسائي وغيره متروك . وقال الدارقطني وغيره ضعيف . وقال ابن عدى : أرجو أنه لا بأس به . وقال أحمد منكر الحديث .

(١) سنن الترمذى (٥ : ٢٧٣) .

(٢) تهذيب التهذيب (٨ : ١٦٧) .

(٣) الفتح الرباني (١٨ : ١٥٤ ، ١٥٦) .

(٤) ميزان الاعتدال (٣ : ٣٨) .

والخلاصة : أن العلماء جرحوه ، فالحديث مردود من جهة إسناده . وفي
متنه بعض الاشكالات والشكوك التي تطعن في صحته أما القليل الذين قوموه
فأنهم لم يخرجوه عن أقل درجات القبول وهذا لا يعتد به ، لأنه متعلق بأمر كتاب
الله الذي هو في أعلى درجات الصحة^(١) .

وبذلك نصل إلى نتيجة نهائية وهي أن ترتيب القرآن الكريم توقيفى في آياته
وسوره . فإذا ما وجدت آيات مدنية في سور مكية أو آيات مكية في سور مدنية
فهذا بأمر من الله تعالى وليس لنا فيه رأى . اللهم إلا العلم بأن هذه الآيات
مكية أو مدنية .



(١) انظر الاعجاز البيانى في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره ، د. محمد أحمد يوسف القاسم . (٢٨٠

أولا : بيان الآيات المدنية في السور المكية

في هذا البحث سأشرح في بيان جميع الآيات المدنية في السور المكية أسال لى العون والتوفيق والسداد .

فبالنسبة لسور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة فهن مدنيات وليس فيها مكى على التحقيق .

والسور التى بها آيات مدنية والتى نحن بصدد دراستها هى :

١ — الأنعام	١٩ — القصص
٢ — الأعراف	٢٠ — لقمان
٣ — يونس	٢١ — السجدة
٤ — هود	٢٢ — سبأ
٥ — يوسف	٢٣ — يس
٦ — الرعد	٢٤ — الزمر
٧ — ابراهيم عليه السلام	٢٥ — غافر
٨ — الحجر	٢٦ — الشورى
٩ — النحل	٢٧ — الزخرف
١٠ — الاسراء	٢٨ — الجاثية
١١ — الكهف	٢٩ — الاحقاف
١٢ — مريم	٣٠ — ق
١٣ — طه	٣١ — النجم
١٤ — الأنبياء	٣٢ — القمر
١٥ — الحج	٣٣ — الواقعة
١٦ — المؤمنون	٣٤ — الماعون
١٧ — الفرقان	٣٥ — الكوثر
١٨ — الشعراء	

(١) سورة الأنعام

(١) نزلت سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك :

اخرج أبو عبيد وابن الضريس في فضائلهما وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال : (نزلت سورة الأنعام بمكة ليلا جملة حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح)^(١) .

(وقال سفيان الثوري عن ليث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد قالت : نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ — جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبي ﷺ — إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة)^(٢) .

(٢) لكن هناك روايات مؤداها أن بعض الآيات من سورة الأنعام نزلت بالمدينة .

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا وَيُذَوِّنَهَا وَيُخَفِّفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾^(٣) .

اختلف المفسرون فيمن عنى بهذه الآية ؟ فقال ابن عباس وغيره يعنى مشركو قريش وقال سعيد بن جبير : هو مالك بن الصيف .

أخرج الطبري في تفسيره بسنده عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف يخاصم النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ

(١) الدر المنثور للسيوطي (٣ : ٢) .

(٢) ظلال القرآن للسيد قطب (٧ : ١٦) ، تفسير ابن كثير (٢ : ١٢٢) .

(٣) سورة الأنعام : ٩١ .

« أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى أما تجد في التوراة أن الله ييغض الحبر السمين ؟ وكان حبراً سمينا فغضب . فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقال له أصحابه الذين معه ويحك ولا موسى ؟ فقال : والله ما أنزل الله على بشر من شيء فأُنزل الله : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ . قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ ﴾ ^(١) .. الآية .

ومعلوم أن اليهود كانوا في المدينة بعد الهجرة فالآية مدنية والسورة مكية .

الآية الثانية :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ ﴾ . الآية ٩٣ .

نزلت في مسيلمة الكذاب الحنفى كان يسجع ويتكهن ويدعى النبوة ويزعم أن الله أوحى إليه ^(٢) .

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزَلَ اللَّهُ ﴾ نزلت في عبد الله ابن سعد بن أبى السرح كان قد تكلم بالإسلام فدعاه رسول الله ﷺ ذات يوم يكتب له شيئاً فلما نزلت الآيات التى فى المؤمنين — ولقد خلقنا الإنسان من سلالة — أملاها عليه ، فلما انتهى إلى قوله — ثم انشأناه خلقاً آخر — عجب عبد الله فى تفصيل خلق الإنسان ، فقال : تبارك الله أحسن الخالقين ، فقال رسول الله ﷺ هكذا أنزلت على ، فشك عبد الله حينئذ وقال : لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إليّ كما أوحى إليه . ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال — وذلك قوله — ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله — وارتد عن الإسلام ^(٣) .

(١) راجع تفسير الطبرى (٧ : ٢٦٧) ، تفسير القرطبى (٧ : ٣٧) ، أسباب النزول للواحدى

بتحقيق الاستاذ سيد صقر (ص ٢١٥) ، لباب النقول للسيوطى (ص ١٠٢) .

(٢) أسباب النزول للواحدى (ص ١٤٨) .

(٣) أسباب النزول للواحدى بتحقيق الاستاذ سيد صقر (ص ٢١٦) ، تفسير القرطبى (٧ : ٤٠) .

الآية الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ
وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ
ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ، وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْرِفِينَ ﴾ .

ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية مدنية وذلك باعتبار قوله تعالى ﴿ وَآتُوا
حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ أنه يعنى الزكاة . والزكاة لم تفرض إلا فى المدينة بأنصبتها
المحددة فى الزروع والثمار . ولكن هذا المعنى ليس وارداً فى الآية إذ أن هناك أقوالاً
مأثورة فى تفسيرها بأنها تعنى الصدقات . أو بأنها تعنى الاطعام منها لمن يمر بهم
يوم الحصاد أو جنى الثمار ، وبخاصة أن هذه الآية ليس فيها تحديد لمقدار الزكاة أو
لقرباتهم وأن الزكاة فرضت فى المدينة فيما بعد بالعشر ونصف العشر ، وعلى هذا
تكون الآية مكية^(١) .

الآية الرابعة :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا ﴾^(٢) .. الآيات .

أخرج أبو جعفر النحاس فى كتابه الناسخ والمنسوخ بسنده عن أبى عمرو
ابن العلاء يقول سألت مجاهداً عن تلخيص آى القرآن المدنى من المكى فقال
سألت ابن عباس عن ذلك فقال : سورة الأنعام نزلت بمكة جملة واحدة فهى
مكية إلا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة (قل تعالوا أتلى) إلى تمام الآيات
الثلاث . وما تقدم من السور مدنيات^(٣) .

(١) الانعام : ١٤١ .

(٢) باختصار من ظلال القرآن (٧ : ١٦) .

(٣) الآيات من سورة الأنعام (١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣) إلى قوله تعالى ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون .

(٤) الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس ت ٣٣٨ هـ (ص ١٣٨) ، ط/مطبعة السعادة الطبعة الأولى

١٣٢٣ هـ ، وراجع (ص ١٢٧) من بحثنا هذا .

وهذا الأثر السابق يجعلنى أحكم على هذه الآيات بأنها مدنية .
والنتيجة التى نصل إليها أن سورة الانعام مكية نزلت جملة واحدة ما عدا
الآيات التى أشرنا إلى مدنيّتها لما ورد فيها من الآثار التى تدل على ذلك .
ولا تعارض بين قولنا بمدنية الآيات ، وبين ما ثبت من نزول الأنعام جملة
واحدة . لأنه قد يعبر عن غالب الشئء ب كله .
وعلى الرأى الثانى بعدم مدنية هذه الآيات فلا إشكال . والله أعلم .

* * *

(٢) سورة الأعراف

سورة الأعراف مكية إلا تسع آيات من قوله تعالى ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَائُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (١) .

إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

قال الزركشي : سورة الأعراف مكية إلا ثلاث آيات (واسألهم عن القرية التي كانت) إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ ﴾ (٣) .

هكذا قال الزركشي : (ثلاث آيات) ولكن مع العد يظهر أنها تسع آيات وقال السيوطي : أخرج أبو الشيخ ابن حبان عن قتادة قال : الأعراف مكية إلا آية (واسألهم عن القرية) وقال غيره من هنا إلى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم) مدني .

وسبب نزول تلك الآيات (أن اليهود ادعوا وقالوا لم يصدر من بنى إسرائيل كفر ولا مخالفة للرب وكانوا يعرفون ما وقع لأهل هذه القرية ويخفونه ويعتقدون أنه لا يعلمه أحد غيرهم فأمره الله أن يسألهم عن حال هذه القرية وما وقع لهم توبيخا وتقريعا وتقريرا لهم بما يعلمون من حال أهلها فذكر لهم قصة أهلها فبهتوا وظهر كذبهم في دعواهم المذكورة وكانت واقعة أهل القرية المذكورة في زمن داود عليه السلام) (٤) أ.هـ .

(١) الأعراف : ١٦٣ .

(٢) الأعراف : ١٧١ .

(٣) البرهان (١ : ٢٠٠) .

(٤) الفتوحات الإلهية تأليف سليمان بن عمر العجلي الشافعي الشهير بالجملي (٢ : ٢٠٢) .

وقال السيد قطب والآيات من هنا أى من قوله (واسألهم عن القرية) إلى قوله (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) آيات مدنية . نزلت في المدينة لمواجهة اليهود فيها وضمت إلى هذه السورة المكية في هذا الموضع تكملة للحديث عما ورد فيها من قصة بنى إسرائيل مع نبيهم موسى^(١) .

ومن خلال ما سبق بيانه أميل إلى أن تلك الآيات مدنية .



(١) في ظلال القرآن للسيد قطب (٩ : ٦٥٥) .

(٣) سورة يونس (عليه السلام) .

سبق ان بينا الآيات المدنية في سورة الأعراف المكية . وتليها سورة الأنفال والتوبة وهما مدنيتان .

أما سورة يونس فهي مكية وفيها آيات مدنية .

وهى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ ^(١) وكذلك قوله تعالى ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ ﴾ ^(٢) .

قال السيوطى : سورة يونس مكية استثنى منها (فإن كنت فى شك) الآيتين . وقوله (ومنهم من يؤمن به) الآية قيل نزلت فى اليهود . وقيل من أولها إلى رأس الأربعين مكى والباقي مدنى حكاها ابن الفرسى والسخاوى فى جمال القراء ^(٣) .

أما قوله (ومنهم من يؤمن به) قيل المراد أهل مكة . وقيل المراد أهل الكتاب . وقيل هو عام فى جميع الكفار . وهو الصحيح ^(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ .

الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره والمعنى (فإن كنت فى شك) أى قل يا محمد للكافر فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك (فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك) أى يا عابد الوثن إن كنت فى شك من القرآن فاسأل من أسلم من اليهود

(١) يونس : ٤٠ .

(٢) يونس : ٩٤ .

(٣) الالتقان للسيوطى (١ : ١٥) ، وانظر القرطبى فى تفسيره (٨ : ٣٤) .

(٤) تفسير القرطبى (٨ : ٣٤٥) .

يعنى عبد الله بن سلام وأمثاله لأن عبدة الأوثان كانوا يقرون لليهود بأنهم أعلم منهم من أجل أنهم أصحاب كتاب ، فدعاهم الرسول ﷺ إلى أن يسألوا من يقرون بأنهم أعلم منهم هل يبعث الله برسول من بعد موسى^(١)؟.

أخرج الطبري بسنده عن يونس قال : أخبرنا ابن وهب . قال ابن زيد في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ قال : هو عبد الله بن سلام كان من أهل الكتاب فآمن برسول الله ﷺ^(٢) .

وعلى هذا فيمكننا أن نقول إن السورة كلها مكية ما عدا قوله تعالى ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ حيث أنها نزلت في عبد الله بن سلام وأمثاله من أهل الكتاب الذين آمنوا في المدينة .



(١) باختصار من تفسير القرطبي (٨ : ٣٨٢) .

(٢) تفسير الطبري (١١ : ١٦٨) .

(٤) سورة هود (عليه السلام)

وهي من السور المكية وفيها آية مدنية . وهي قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ ^(١) .

قال السيوطي : (« هود » استثنى منها ثلاث آيات « فلعلك تارك » ^(٢) « أفمن كان على بينة من ربه » ^(٣) « وأقم الصلاة طرفي النهار » ثم قال ودليل الثالثة ما صح من عدة طرق أنها نزلت بالمدينة في حق أبي اليسر ^(٤) .

قلت : ولم أجد دليلا على مدنية الآيتين (فلعلك تارك) (أفمن كان على بينة من ربه) .

بل ذكرت بعض التفاسير ما يفيد أن قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِمَّا أَنْتَ تَذِيرُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ . إنها نزلت في المشركين .

قال ابن كثير (ويقول تعالى مسلما لرسوله ﷺ عما كان يتعننت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبر تعالى عنهم في قوله : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جُنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ . الفرقان (٧ - ٨) .

(١) هود : ١١٤ .

(٢) هود : ١٢ .

(٣) هود : ١٧ .

(٤) الاتقان (١ : ١٥) .

فأمر الله تعالى رسوله صلوات الله تعالى وسلامه عليه وأرشدته إلى أن لا يضيق بذلك صدره ولا يصدنه ذلك ولا يثنيه عن دعائهم إلى الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ الآية . وقال ههنا : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يَوْحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا ﴾ أى لقولهم ذلك فإنما أنت نذير ولك أسوة باخوانك من الرسل قبلك فإنهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاها نصر الله عز وجل ^(١) . أ.هـ . قال الرازى فى سبب نزول الآية (روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رؤساء مكة قالوا : يا محمد اجعل لنا جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا وقال آخرون : ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك . فقال : لا أقدر على ذلك ، فنزلت هذه الآية ^(٢) .

أما الآية الثانية ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالُوا مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٣) .

قلت : ولم أقف على شاهد يدل على مدنيتهما . بل هى مكية نزلت فى اتباع النبى عليه الصلاة والسلام وهم من الفضل البين على غيرهم ممن أرادوا الحياة الدنيا وزينتها والشاهد من الله تعالى هو النبى عليه الصلاة والسلام ومعه جبريل عليه السلام (ومن قبله كتاب موسى) لأن النبى ﷺ موصوف فى كتاب موسى عليه السلام (يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل) .

أما الآية الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَى النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ ^(٤) .

(١) تفسير ابن كثير (٢ : ٤٣٩) .

(٢) تفسير الرازى (١٧ : ١٩٣) .

(٣) هود : ١٧ .

(٤) هود : ١١٤ .

قال الواحدى : (أخبرنا الأستاذ منصور البغدادى قال : أخبرنا أبو عمر ابن مطر قال: حدثنا إبراهيم بن على : قال حدثنا يحيى بن يحيى : قال حدثنا أبو الأحوص عن سماك ، عن إبراهيم عن علقمة والأسود ، عن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إني عاجلت^(١) امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها مادون ان آتيها . وأنا هذا فاقض فيّ ما شئت ، قال : فقال عمر : لقد سترك الله لو سترت نفسك ، فلم يرد عليه النبى ﷺ فانطلق الرجل فاتبعه رجلا ودعاه فتلا عليه هذه الآية ، فقال رجل : يا رسول الله هذا له خاصة ؟ قال : لا بل للناس كافة . رواه مسلم عن يحيى ورواه البخارى عن طريق يزيد بن ذريع^(٢) .

رواه البخارى في تفسير سورة هود عليه السلام في باب قوله تعالى ﴿ واقم الصلاة طرفى النهار ﴾^(٣) .

ورواه مسلم في كتاب التوبة في باب قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾^(٤) .

وأخرجه أيضا الترمذى^(٥) والنسائى من طريق موسى بن طلحة عن أبى اليسر بن عمرو أنه أته امرأة وزوجها قد بعثه رسول الله ﷺ في بعث فقالت له بعنى تمرا بدرهم قال : واعجبتنى فقلت لها : إن فى البيت تمرا أطيب من هذا ، فانطلق بها معه فغمزها وقبلها ثم فرغ . فخرج فلقى أبا بكر فأخبره فقال تب ولا تعد ، ثم أتى النبى ﷺ .. الحديث .

وفى روايته أنه صلى مع النبى ﷺ العصر فنزلت^(٦) .

وفيما سبق ذكره دليل واضح على أن الآية مدنية . والله أعلم .

(١) عاجلت امرأة : أى داعيتها وتناولت منها ما يكون بين الرجل والمرأة غير أنى ما جامعها .

(٢) اسباب النزول للواحدى تحقيق الأستاذ سيد صقر (ص ٢٦٩) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٩ : ٤٢٥) .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى مجلد ٩ (١٧ : ٧٩) .

(٥) سنن الترمذى (٥ : ٢٨٩) فى كتاب تفسير القرآن — تفسير سورة هود .

(٦) فتح البارى (٩ : ٤٥٦) .

(٥) سورة يوسف (عليه السلام)

سورة يوسف كلها مكية . قال القرطبي : قال ابن عباس وقتادة إلا أربع آيات منها . وروى أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فنزلت السورة^(١) . هكذا ذكر القرطبي في مقدمة تفسيره للسورة ويفهم منه أن اليهود كانوا في المدينة ، فالسورة مدنية .

وقال السيوطي : في الفصل الذي ذكر فيه السور المكية التي فيها آيات مدنية وعد منها سورة (يوسف) استثنى منها ثلاث آيات من أولها حكاه أبو حيان وهو واه جداً لا يلتفت إليه^(٢) .أ.هـ .

والذي ذكره القرطبي عن سؤال اليهود عن قصة يوسف أوردها هو نفسه في شرح قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

فقال : (وقيل معنى (أنزلناه) أى أنزلنا خبر يوسف . قال النحاس : وهذا اشبه بالمعنى لأنه يروى أن اليهود قالوا : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ، فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقا لما في التوراة وفيه زيادة ليست عندهم^(٣) .

وقد ورد في بعض المصاحف أن الآيات (١ ، ٢ ، ٣ ، ٧) مدنية وما عداه مكي وهي قوله : ﴿ الر . بَلِّغْ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ^(٤) ﴾ .

(١) تفسير القرطبي (٩ : ١١٨) .

(٢) الاتقان (١ : ١٥) .

(٣) القرطبي (٩ : ١١٨) .

(٤) يوسف : ١ : ٣ .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ ^(١) ﴾ .

وهذا لا أوافق عليه كما سبق أن بينت وليس فيه دليل صحيح ويخل بنظم السياق . والذي صح وثبت ما ذكره الواحدى وأخرجه الحاكم ^(٢) وصححه الذهبى : عن سعد بن أبى وقاص فى قوله (نحن نقص عليك أحسن القصص) قال : أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانا فقالوا : يا رسول الله لو قصصت ، فأنزل الله تعالى — ﴿ أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ إلى قوله ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ الآية . فتلاه عليهم زمانا فقالوا : يا رسول الله لو حدثتنا ، فأنزل الله تعالى ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا ﴾ قال : كل ذلك ليؤمنوا بالقرآن ^(٣) .

وليس فى الرواية الصحيحة السابقة (لسعد) ما يشير إلى مدنية الآيات وجاء فى القرطبى (أن اليهود سألوا النبى ﷺ فقالوا أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر فبكى عليه حتى عمى ..

ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ولا من يعرف خبر الأنبياء وإنما وجه اليهود إليهم من المدينة يسألونه عن هذا . فأنزل الله تعالى سورة يوسف جملة واحدة فيها كل ما فى التوراة من خبر وزيادة فكان ذلك آية للنبى ﷺ بمنزلة إحياء عيسى ابن مريم (عليه السلام) الميت ^(٤) .

أضف إلى ذلك أن السورة مفتتحة بالأحرف المقطعة (آلر) ووجود الأحرف المقطعة فى أوائل السور دليل على مكيتها ماعدا الزهراوين .

(١) يوسف : ٧ .

(٢) قال الحاكم (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه) وقال الذهبى صحيح (٢ : ٣٤٥) .

(٣) أسباب النزول للواحدى تحقيق الأستاذ سيد صقر (ص : ٢٧٣) .

(٤) تفسير القرطبى (٩ : ١٣٠) .

(٦) سورة الرعد

وهى من السور المكية المختلف فيها . وقد سبق أن فصلت الخلاف الوارد فيها ورجحت ما أطمأنت إليه نفسى مستنداً بالأدلة الصحيحة^(١) .

وخلاصته : أن السورة مكية المطلع والموضوع والسياق وبها آيات مدنية .

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ^(٢) ﴾

إلى قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ^(٣) ﴾

فقد ذكر الواحدى عن ابن عباس : (أنها نزلت فى عامر بن الطفيل وأريد ابن ربيعة) وقد سبق ذكر القصة فلا حاجة للتكرار هنا^(٤) .

قال السيوطى : وعلى القول بأنها مكية يستثنى قوله (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) إلى قوله (شديد المحال)^(٥) .



(١) راجع (ص ٦٦) سورة الرعد — من بحثنا هذا .

(٢) ، (٣) سورة الرعد : ٨ — ١٣ .

(٤) راجع أسباب النزول للواحدى تحقيق الاستاذ السيد صقر (ص ٢٧٦) . وقد أورده القرطبى (٩ : ٢٩٦) ، وابن كثير (٢ : ٥٠٦) ، وتفسير الطبرى (٣ : ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٦) ، والدر المنثور

(٤ : ٥٢) والبحر المحيط (٥ : ٣٧٥) .

(٥) الاتقان (١ : ١٥) للسيوطى .

(٧) سورة إبراهيم (عليه السلام)

سورة إبراهيم من السور المكية وتضمنت ثلاث آيات مدنية وهى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ . وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَاذَا يُصَلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ ^(١) .

قال القرطبى فى تفسير الآية : أى جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر فى تكذيبهم محمدا ﷺ ، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا ، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم . عن ابن عباس وعلى وغيرهم وقيل : نزلت فى المشركين الذين قاتلوا النبى ﷺ يوم بدر .

وقال السيوطى : أخرج أبو الشيخ عن قتادة : قال سورة ابراهيم مكية غير آيتين مدينتين ^(٢) .

وقال الزركشى : سورة إبراهيم مكية غير آيتين . نزلتا فى قتلى بدر ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ... ﴾ الآيتين ^(٣) .

وأخرج الطبرى بسنده عن قتادة فى قوله (وأحلوا قومهم دار البوار) قال هم قادة المشركين يوم بدر أحلوا قومهم دار البوار (جهنم يصلونها) ^(٤) .

وهذا أرجح أنها ثلاث آيات لأنها تتحدث عن موضوع واحد وهو مشركو قريش الذين قاتلوا النبى ﷺ يوم بدر .

ومعلوم أن غزوة بدر كانت فى السنة الثانية بعد الهجرة النبوية فهى إذن آيات مدنية ، والله أعلم .

(١) سورة ابراهيم : ٢٨ — ٢٩ — ٣٠ .

(٢) تفسير القرطبى (١٠ : ٣٦٤) .

(٣) الاتفاق (١ : ١١٦) .

(٤) البرهان للزركشى (١ : ٢٠٠) .

(٥) تفسير الطبرى (١٣ : ٢٢٣) .

(٨) سورة الحجر

وهي من السور المكية . ولقد استثنى منها قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ ^(١) فقليل إنها مدنية .

والذى أرجحه أن سورة الحجر مكية باتفاق ^(٢) . فقد أخرج النحاس في ناسخه وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال (نزلت سورة الحجر بمكة) ^(٣) .

والذين قالوا بمدنية الآية المستثناة (ولقد آتيناك سبعا) الآية استدلو بما قاله ابن الجوزى في سبب نزول هذه الآية ، وذكره الواحدي عن الحسين بن الفضل ^(٤) : أن سبع قوافل وافت من بصرى وأذرعات ليهود بنى قريظة والنضير في يوم واحد فيها أنواع من البز وأوعية الطيب والجواهر وأمتعة البحر . فقال المسلمون لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها فانفقناها في سبيل الله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقال : لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير لكم من هذه السبع القوافل . ويدل على صحة هذا القول على أثرها : ﴿ لَا تَحْذَرُنَّ غِيَتَكُمْ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ ﴾ ^(٥) وذلك لأن يهود قريظة والنضير كانوا يسكنون المدينة .

أما الذى جعلنى أرجح مكية الآية بل السورة بأكملها فللحديث الصحيح الذى أخرجه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني » .

(١) الحجر : ٨٧ .

(٢) راجع الاتفاق للسيوطى (١ : ١٢) ، والفتوحات للجمل (٢ : ٥٣٧) نص على الاجماع .

(٣) الدر المنثور للسيوطى (٤ : ٩٣) .

(٤) الحسين بن الفضل بن عمير البجلي (١٧٨ — ٢٨٢ هـ) مفسر معمر كان رأساً في معاني القرآن أصله من الكوفة انتقل إلى نيسابور فأقام فيها يعلم الناس ٦٥ سنة وتوفي فيها . انظر الأعلام للزركلى (٢ : ٢٥١ — ٢٥٢) .

(٥) سورة الحجر : ٨٨ . انظر الفتوحات الالهية (٢ : ٥٥٣) ، أسباب النزول للواحدي تحقيق الاستاذ سيد صقر (ص ٢٨٢) .

قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح^(١) .
وقد فسر النبي ﷺ (السبع المثاني) بأنها الفاتحة .
ومعلوم أن الفاتحة نزلت بمكة لأن الصلاة فرضت في مكة ولم يحفظ أنه
كان في الاسلام صلاة بغير الفاتحة^(٢) .
ويضم إلى هذا ما حكاه السيوطي والجمال وغيرهما أن السورة مكية
بالاجماع واتفاق العلماء على هذا .
وقال السيوطي في الاتقان وينبغي أن يستثنى قوله ﴿ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُتَقَدِّمِينَ
مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُتَأَخِّرِينَ ﴾^(٣) .
لما أخرجه الترمذي وغيره في سبب نزولها وأنها في صفوف الصلاة .
فقد أخرج الترمذي بسنده عن ابن عباس قال (كانت امرأة تصلي خلف
رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس ، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون
في الصف الأول لئلا يراها . ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر ،
فإذا ركع نظر من تحت ابطينه فأنزل الله (ولقد علمنا المتقدمين منكم ولقد
علمنا المتأخرين)^(٤) .
وقد أخرجه الحاكم عن ابن عباس وقال (هذا حديث صحيح الإسناد ولم
يخرجاه) .

وقال الذهبي : صحيح^(٥) .
وقد ذكر القرطبي ثمانية أقوال في تفسير الآية .
فقال الثامن : (المتقدمين) في صفوف الرجال (والمتأخرين) فيها
بسبب النساء .. ثم قال : إلا أن القول الثامن هو سبب نزول الآية لما رواه
النسائي والترمذي عن أبي الجوزاء عن ابن عباس .. وذكر الحديث^(٦) .

(١) سنن الترمذي (٥ : ٢٩٧) .

(٢) الاتقان (١ : ١٢) .

(٣) الحجر : ٢٤ .

(٤) سنن الترمذي (٥ : ٣٤) في باب تفسير سورة الحجر .

(٥) المستدرک للحاکم (٢ : ٣٥٣) في باب تفسير سورة الحجر .

(٦) تفسير القرطبي (١٠ : ١٩) .

(٩) سورة النحل

هذه السورة الكريمة من السور المكية وقد تضمنت في آخرها ثلاث آيات مدنية وهى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ ^(١) . صدق الله العظيم .

وقد ورد في سبب نزولها أنها نزلت بشأن سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه .

قال القرطبي : (أطبق جمهور أهل التفسير أن الآية مدنية نزلت في شأن التمثيل بحمزة في يوم أحد . ووقع ذلك في صحيح البخارى ^(٢) وفي كتاب السير ^(٣) . وذهب النحاس إلى أنها مكية . والمعنى متصل بما قبلها من المكى إتصالا حسنا لأنها تتدرج في الرتب: من الذى يدعى ويوعظ إلى الذى يجادل إلى الذى يجازى على فعله ^(٤) ولكن ما روى الجمهور أثبت ^(٥) .

روى الدارقطنى ^(٦) عن ابن عباس قال : لما انصرف المشركون من قتلى أحد انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظراً ساءه ، رأى حمزة قد شق بطنه ،

(١) النحل : ١٢٦ — ١٢٧ — ١٢٨ .

(٢) ذكر البخارى قصة قتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه كما قصها وحشى . فتح البارى (٨) : ٣٧١) في كتاب المغازى .

(٣) سيوف ابن هشام (٣ : ١٠٢) .

(٤) وذهب إلى ذلك الرازى وانتصر له (٢٠ : ١٤١) .

(٥) تفسير القرطبي (١٠ : ٢٠١) .

(٦) سنن الدارقطنى (٤ : ١١٨) تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني ، ط/دار المحاسن للطباعة بالقاهرة .

واضطلم^(١) انفه ، وجدعت^(٢) اذناه ، فقال : (لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدى لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثلن مكانه بسبعين رجلا) ثم دعا بيرده وغطى بها وجهه فخرجت رجلاه فغطى رسول الله ﷺ وجهه وجعل على رجله الاذخر . ثم قدمه فكبر عليه عشرا ، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه حتى صلى عليه سبعين صلاة ، وكان القتلى سبعين ، فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ إلى قوله .. ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ فصبر رسول الله ﷺ ولم يمثل بأحد^(٣) .

وأخرج الطبري بسنده عن عطاء بن يسار قال : نزلت سورة النحل كلها بمكة ، وهى مكية إلا ثلاث آيات فى آخرها نزلت فى المدينة بعد أحد ، حيث قتل حمزة ومثل به فقال رسول الله ﷺ لئن ظهرنا عليهم لثملن بثلاثين رجلا منهم .. فلما سمع المسلمون بذلك قالوا : والله لئن ظهرنا عليهم لثملن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط فأنزل الله ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾^(٤) إلى آخر السورة .



-
- (١) اضطلم : الاضطلام هو الاستئصال . انظر لسان العرب (١٢ : ٣٤) .
 (٢) جدعت اذناه : الجدع : القطع وقيل هو القطع البائن فى الأنف والأذن والشفة . انظر لسان العرب (٨ : ٤١) .
 (٣) تفسير القرطبي (١٠ : ٢٠٦) . راجع أسباب النزول للواحدي تحقيق الأستاذ سيد صقر (ص ٢٨٩) .
 (٤) تفسير الطبري (١٤ : ١٩٥) .

(١٠) سورة الاسراء

سورة الإسراء من السور المكية وقد وردت فيها آية مدنية (آية الروح) وهناك آيات مختلف فيها . والأصح أنها مكية .

قال السيوطي في الاتقان (الاسراء) استثنى منها (ويسألونك عن الروح)^(١) الآية .. لما أخرجه البخاري عن ابن مسعود أنها نزلت بالمدينة في جواب سؤال اليهود عن الروح واستثنى منها أيضا (وإن كادوا ليفتنونك) إلى قوله (إن الباطل كان زهوقا)^(٢) . وقوله (قل لئن اجتمعت الإنس والجن)^(٣) الآية ، وقوله (وما جعلنا الرؤيا)^(٤) الآية . وقوله (إن الذين أوتوا العلم من قبله)^(٥) الآية لما أخرجه في أسباب النزول^(٦) .

وقال الزركشي : (سورة بنى اسرائيل مكية غير قوله (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك) يعني ثقيفا وله قصة)^(٧) أ.هـ .

ويلاحظ في القولين السابقين إقتصار الزركشي على قوله تعالى (وإن كادوا ليفتنونك) وإتفاقه مع السيوطي على الآية ذاتها بأنها مدنية . ولقد اختلفت الروايات الواردة في سبب نزول الآية .

(١) الاسراء : ٨٥ .

(٢) الاسراء : ٧٣ — ٨١ .

(٣) الاسراء : ٨٨ .

(٤) الاسراء : ٦٠ .

(٥) الاسراء : ١٧ .

(٦) الاتقان للسيوطي (١ : ١٦) .

(٧) البهان للزركشي (١ : ٢١) .

قال سعيد بن جبير : كان النبي ﷺ يستلم الحجر الأسود في طوافه ، فممنعته قريش وقالوا لا ندعك تستلم حتى تلم^(١) بآلهتنا . فحدث نفسه وقال : « ما على أن ألم بها بعد أن تدعوني أستلم الحجر والله يعلم أني لها كاره فأبى الله تعالى ذلك وأنزل عليه هذه الآية قاله مجاهد وقتاده^(٢) . وعلى هذه الرواية تكون الآية مكية .

وقال ابن عباس في رواية عطاء : نزلت في وفد ثقيف ، أتوا النبي ﷺ فسألوه شططا . وقالوا متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يهدى لها ، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا . وحرم وادينا كما حرمت مكة ، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم فَهَمَّ النبي ﷺ أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآية . وعلى هذه الرواية تكون الآية مدنية .

وقيل هو قول أكابر قريش للنبي ﷺ : اطرده عنا هؤلاء السقاط والموالي حتى نجلس معك ونسمع منك . فَهَمَّ بذلك حتى نهى عنه^(٣) .

قال الطبري بعد أن ذكر تلك الروايات (والصواب من القول في ذلك أن يقال إن الله تعالى أخبر عن نبيه ﷺ أن المشركين كادوا أن يفتنوه عما أوحاه الله إليه ليعمل بغيره وذلك هو الافتراء على الله ، وجائز أن يكون ذلك كان عنهم من ذكر أنهم دعوه ان يمس آلهتهم ويلم بها . وجائز أن يكون ذلك كان مما ذكر عن ابن عباس من أمر ثقيف ومسألتهم إياه ماسألوه مما ذكرنا ، وجائز أن يكون غير ذلك، ولا بيان في الكتاب ولا في الخبر يقطع العذر أي ذلك كان . والاختلاف فيه موجود على ما ذكرنا ، فلا شيء فيه أصوب من الإيمان بظاهره حتى يأتي خبر يجب التسليم له ببيان ما عني بذلك منه^(٤) .

(١) حتى تلم : اللام : النزول . وقد ألم به أي نزل به — وألم به زاره غيبا يزورنا لما أي في الاحايين .

وقال ابن بري : اللام اللقاء السير واحدها لمة . لسان العرب (١٢ : ٥٥٠) .

(٢) تفسير القرطبي (١٠ : ٢٩٩) ، أسباب النزول للواحدى تحقيق الاستاذ سيد صقر (ص ٢٩٧) ، تفسير الطبري (١٥ : ١٣٠) .

(٣) تفسير القرطبي (١٠ : ٢٩٩) ، أسباب النزول للواحدى (ص ٢٩٧) .

(٤) تفسير الطبري (١٥ : ١٣٠) .

أما قوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا سَنَةً مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (١) .

اختلف أيضاً في هذه الآية هل هي مكة أم مدينة وذلك يرجع إلى المراد من الآية فإذا كان المراد منهم اليهود كانت الآية مدنية وإذا كان المراد منهم المشركين كانت الآية مكة .

ولقد تعددت الروايات والرواية التي وردت في شأن اليهود ضعيفة . قال الحافظ ابن كثير : (قيل نزلت في اليهود إذ أشاروا على رسول الله ﷺ بسكن الشام بلاد الأنبياء وترك سكنى المدينة ، وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكة وسكنى المدينة بعد ذلك . وقيل إنها نزلت بتبوك وفي صحته نظر . روى البيهقي عن الحاكم بسنده إلى عبد الرحمن بن غنم أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوماً فقالوا يا أبا القاسم إن كنت صادقاً أنك نبي فالحق بالشام فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء فصدق ما قالوا فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام فلما بلغ تبوك أنزل الله عليه آيات من سورة بنى إسرائيل بعد ما ختمت السورة . (وإن كادوا ليستفزوك) ، فأمره الله بالرجوع إلى المدينة ، وقال فيها محياك ومماتك ومنها تبعث .

وفي هذا الإسناد نظر والأظهر أن هذا ليس بصحيح فإن النبي ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود وإنما غزاها إمتثالاً لقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ (٢) ولقوله تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٣) .

(١) الاسراء : ٧٦ — ٧٧ .

(٢) التوبة : ١٢٣ .

(٣) التوبة : ٢٩ .

وغزاها ليقصص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة من الصحابة ، والله أعلم .

وقيل نزلت في كفار قريش هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم فتوعدهم الله بهذه الآية وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً^(١) .

قال القرطبي : قيل إنها مكية . قال مجاهد وقتادة : نزلت في هم أهل مكة بإخراجه ولو أخرجوه لما أمهلوا ولكن الله أمره بالهجرة فخرج . وهذه أصح لأن السورة مكية ولأن قبلها خبراً عن أهل مكة . ولم يجز لليهود ذكر^(٢) .

أما قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾^(٣) .

أخرج البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كنت مع النبى ﷺ فى حرث بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم سلوه عن الروح . وقال بعضهم لا تسألوه لا يسمعكم ما تكروهون . فقاموا إليه فقالوا يا أبا القاسم حدثنا عن الروح فقام ساعة ينظر فعرفت أنه يوحى إليه فتأخرت عنه حتى صعد الوحي ، ثم قال ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾^(٤) الآية .

وأخرج الترمذى عن ابن عباس قال : قالت قريش لليهود علمونا شيئاً نسأل هذا الرجل . فقالوا سلوه عن الروح فسألوه فأنزل الله ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ .

قال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه^(٥) .

(١) تفسير ابن كثير (٣ : ٥٢) .

(٢) تفسير القرطبي (١٠ : ٣٠١) .

(٣) الاسراء : ٨٥ .

(٤) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (١٠ : ١٩) .

(٥) سنن الترمذى (٥ : ٣٠٤) .

قال ابن كثير : يجمع بين الحديثين بتعدد النزول . وكذا قال الحافظ ابن حجر^(١) .

قال السيوطي : (وقد رجح بأن ما رواه البخاري أصح من غيره وبأن ابن مسعود كان حاضرا القصة)^(٢) .

قلت : رواية الترمذي الراوي فيها ابن عباس ليس حاضرا في القصة أما رواية البخاري كان ابن مسعود حاضراً أو مشاهدا لوقائع القصة ولا شك أن للمشاهدة قوة في التحمل وعليه فالآية مدنية .

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٣ : ٦٠) .

(٢) انظر الاتقان (١ : ٣٣ - ٣٤) ، وانظر الباري (١٠ : ١٩) .

(١١) سورة الكهف

سورة الكهف من السور المكية . ولقد اختلف العلماء في الآيات من أول السورة إلى قوله : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾^(١) . وقوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾^(٢) . وكذلك من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾^(٣) إلى آخر السورة .

قال السيوطي في بيان الآيات المدنية في السور المكية (الكهف استثنى من أولها إلى « جزا » وقوله « واصبر نفسك » الآية و « إن الذين آمنوا » إلى آخر السورة)^(٤) .

أما قوله (استثنى من أولها إلى « جزا ») أى إنها آيات مدنية وفيه نظر .

قال القرطبي : وهى مكية فى قول جميع المفسرين . وروى عن فرقة إن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله (جزا) والأول أصح^(٥) .

ثم قال فى قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ ذكر ابن إسحاق (أن قريشا بعثوا النضر بن الحارث

(١) آية : ٨ .

(٢) آية : ٢٨ .

(٣) آية : ١٠٧ .

(٤) الاقتان (١ : ١٦) .

(٥) تفسير القرطبي (١٠ : ٢٤٦) .

وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود وقالوا لهما : سلاهم عن محمد وصفا لهم صفته واخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره . وأخبراهم ببعض قوله ، وقالوا لهم : إنكم أهل التوراة قد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . فقالت لهما أحبار اليهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم ، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح . ما هي ؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي ، وإن لم يفعل فالرجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم . فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة على قريش فقالا : يا معشر قريش .. قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها فإن أخبركم عنها فهو نبي وإن لم يفعل فالرجل متقول ، فروا فيه رأيكم . فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد ، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب وعن رجل طوافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها وأخبرنا عن الروح ما هي ؟ قال فقال رسول الله ﷺ (أخبركم بما سألتكم عنه غداً) ولم يستثن . فانصرفوا عنه . فمكث رسول الله ﷺ فيما يزعمون خمس عشرة ليلة ، لا يحدث الله إليه في ذلك وحيا ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف^(١) أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غدا . واليوم خمس عشرة ليلة ، وقد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاء جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم . وخبر ماسأله عن أمر الفتية والرجل الطواف والروح .

(١) أرجف القوم : خاضوا في الأخبار السيفة وذكر الفتن . راجع اللسان (٩ : ١١٣) .

فافتتح السورة تبارك وتعالى بحمده وذكر نبوة رسوله ﷺ لما أنكروا عليه ذلك فقال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ » يعنى محمداً^(١) .

قلت : فسبب النزول الذى أورده القرطبى نقلا عن ابن إسحاق دليل واضح على أن مقدمة السورة نزلت بمكة . ويلاحظ أيضا أن القرطبى ذكر أمر الروح بجانب الرجل الطواف وأمر الفتية لأن الجميع فى معرض السؤال ، وهذا لا يعنى أن الثلاثة ذكروا فى سورة واحدة ، وإلا فإن الروح جاء ذكرها فى سورة الإسراء .

وأما قوله : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾^(٢) قال الواحدى : قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ الآية . حدثنا القاضى أبوبكر أحمد بن الحسين الحيرى إملاء فى دار السنة يوم الجمعة بعد الصلاة فى (شهور) سنة عشر وأربعمائة قال أخبرنا أبو الحسن بن عيسى بن عبد ربه الحيرى قال : حدثنا محمد بن إبراهيم اليوشنجى قال : حدثنا الوليد بن عبد الملك بن مسرح الحرافى قال : حدثنا سليمان بن عطاء الحرافى عن مسلمة بن عبد الله الجهنى عن عمه ابن مشجعه بن رعى الجهنى ، عن سلمان الفارسى قال : جاءت المؤلفة القلوب إلى رسول الله ﷺ عينه بن حصن والأقرع بن حابس وذو وههم فقالوا : يا رسول الله إنك لو جلست فى صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم — يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها — جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك فأنزل الله تعالى : ﴿ وَائْتِلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا . وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ — حتى بلغ — إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا — يتهدهم بالنار فقام النبى ﷺ يلتمسهم حتى أصابهم فى مؤخر

(١) تفسير القرطبى (١٠ : ٣٤٧) .

(٢) الكهف : ٢٨ .

المسجد يذكرون الله تعالى — قال الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى . معكم الحيا ومعكم الممات (١) .

فهذا الأثر يدل على أن الآية مدنية لأن سلمان وأباذر كانا فى المدينة وهو ضعيف لأن فى سنده سليمان بن عطاء الحرانى (٢) .

والذى أرجحه أن الآية مكية وهى شبيهة بقوله تعالى فى سورة الأنعام المكية ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ (٣) الآية .

والآية التى بين أيدينا ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ فقد ورد فى سبب نزول آية الأنعام الحديث الصحيح الذى رواه مسلم بسنده عن سعد قال كنا مع النبى ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبى ﷺ اطرده هؤلاء لا يجترؤون علينا وقال وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ (٤) . ا.هـ .

وأيضاً أخرج الواحد فى قوله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ الآية . نزلت فى أمية بن خلف .

(١) أسباب النزول للواحدى (ص ٣٠٦) تحقيق الأستاذ سيد صقر .

(٢) سليمان بن عطاء الحرانى .. قال البخارى فى حديثه مناكير ، وقال أبو زرعة منكر الحديث .. وقد ذكره ابن حبان فى الضعفاء . وقال أبو حاتم منكر الحديث يكتب حديثه ا . هـ .

باختصار من تهذيب التهذيب (٤ : ٢١١) .

(٣) الأنعام : ٥٢ .

(٤) صحيح مسلم (باب مناقب سيدنا سعد بن أبى وقاص) بشرح النووي ط/ دار الفكر (١٥ :

١٨٨) . وراجع أسباب النزول للواحدى تحقيق الأستاذ سيد صقر (ص : ٢١٢) .

أخرج الواحدى بسنده عن ابن عباس في قوله ﴿ وَلَا تَطْعَمُ مِنْ أَغْفَلْنَا ﴾ قلبه عن ذكرنا^(١) قال : نزلت في أمية بن خلف الجمحى وذلك أنه دعا النبي ﷺ إلى أمر كرهه من تحرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة فأنزل الله . ﴿ وَلَا تَطْعَمُ مِنْ أَغْفَلْنَا ﴾ قلبه عن ذكرنا ﴿ — يعنى من ختمنا على قلبه عن التوحيد واتبع هواه — يعنى الشرك^(٢) .

وأخيرا قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزْلًا ﴾ إلى آخر السورة . أشار السيوطى إلى أنها مدنية وذلك لأن قوله تعالى ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَفِئِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ فقد ورد في سبب نزولها أنها نزلت في اليهود .

قال الواحدى : قال ابن عباس : قالت اليهود لما قال لهم النبي ﷺ « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » كيف وقد أوتينا التوراة . ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا فنزلت — ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى ﴾ الآية^(٣) .

فدل سبب النزول على أنها مدنية .

وكذلك قوله تعالى ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ الآية .

وأخرج الواحدى بسنده عن ابن عباس : نزلت في جندب بن زهير الغامدى^(٤) وذلك أنه قال : إني أعمل العمل لله ، فإذا اطلع عليه سرنى . فقال رسول الله ﷺ : « إِنْ اللَّهَ طِيبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طِيبًا وَلَا يَقْبَلُ مَا رُوِيَ فِيهِ » فأنزل

(١) الكهف : ٢٨ .

(٢) أسباب النزول للواحدى (ص ٣٠٧) تحقيق الأستاذ سيد صقر .

(٣) أسباب النزول للواحدى تحقيق الأستاذ سيد صقر (ص ٣٠٨) وراجع تفسير القرطبى (١١ : ٦٨) .

(٤) هو جندب الخير الأزدى العامرى قاتل الساحر يكنى أبا عبد الله له صحبة روى عن النبي ﷺ (حد الساحر ضربه بالسيف) ذكر العسكرى أنه مات في خلافة معاوية . تهذيب التهذيب (٢ : ١١٨) .

الله تعالى هذه الآية^(١) .

والذى أرجحه أن الآيات مكية لما فيها من الخوض على الإيمان بالله والنهى عن الشرك بالله . وهى من أهم خصائص الآيات المكية .

قال ابن كثير : (قال ابن جرير : حدثنا أبو عامر اسماعيل بن عمرو السكونى . حدثنا هشام بن عمار حدثنا ابن عياش حدثنا عمرو بن قيس الكندى أنه سمع معاوية بن أبى سفيان تلا هذه الآية ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ الآية وقال إنها آخر آية نزلت من القرآن . وهذا أثر مشكل فإن هذه الآية آخر سورة الكهف . والكهف كلها مكية ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها بل هى مثبتة محكمة فاشتبه ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه والله أعلم^(٢) .

فهذا فيه تأكيد من ابن كثير رحمه الله على مكية السورة عند قوله (والكهف كلها مكية) .. والله أعلم .

(١) أسباب النزول للواحدى (ص ٣٠٨) تحقيق الأستاذ سيد صقر .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ : ١١٠) .

(١٢) سورة مريم

وهى من السور المكية . وقال السيوطى : استثنى منها آية السجدة^(١) .
وقوله ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾^(٢) أى أنها آيتان مدينتان .
ولم أجد ما يعضد ذلك .. وقد نقل القرطبى الإجماع على مكيتها قال
القرطبى فى تفسيره : (سورة مريم عليها السلام وهى مكية بإجماع)^(٤) .

-
- (١) آية السجدة (أولئك الذين أنعم الله عليهم) الى قوله (اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا
وبكيا) آية : ٥٨ .
(٢) آية ٧١ .
(٣) الانتقان : (١ : ١٦) .
(٤) القرطبى (١١ : ٧٢) .

(١٣) سورة طه

سورة طه من السور المكية ..

قال السيوطى فى الإتقان : « طه » استثنى منها « فاصبر على ما يقولون »^(١) الآية .

قلت : وينبغى أن يستثنى آية أخرى فقد أخرج البزار وأبو يعلى عن أبى رافع قال : أضاف النبى ﷺ ضيفا فأرسلنى إلى رجل من اليهود أن أسلفنى دقيقا إلى هلال رجب فقال : لا . إلا برهن فأتيت النبى ﷺ فأخبرته فقال أما والله أنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض . فلم أخرج من عنده حتى نزلت هذه الآية ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنِيَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴾^(٢) .

قال القرطبى : قال بعض الناس : سبب نزول هذه الآية (ولا تمدن عينيك) ما رواه أبو رافع مولى رسول الله ﷺ ، قال : نزل ضيف برسول الله ﷺ ، فأرسلنى عليه السلام إلى رجل يهودى وقال قل له يقول لك محمد : نزل بنا ضيف ولم يلق عندنا بعض الذى يصلحه فبعضى كذا وكذا من الدقيق ، أو أسلفنى إلى هلال رجب فقال : لا ، إلا برهن .

قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال والله أنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ولو أسلفنى أو باعنى لأدبت إليه اذهب بدرعى إليه .. ونزلت الآية تعزية له عن الدنيا .

قال ابن عطية : وهذا معترض أن يكون سببا ، لأن السورة مكية والقصة المذكورة مدنية فى آخر عمر النبى ﷺ ، لأنه مات ودرعه مرهونة عند يهودى

(١) طه : ١٣ .

(٢) طه : ١٣ .

(٣) الاتقان (١ : ١٦) .

بهذه القصة التي ذكرت .

ولمّا الظاهر أن الآية متناسقة مع ما قبلها وذلك أن الله تعالى ويخهم على ترك الاعتبار بالأثم السالفة ثم توعدهم بالعذاب المؤجل ثم أمر نبيه بالاحتقار لشأنهم والصبر على أقوالهم والاعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا ، إذ ذلك منصرف عنهم صائر إلى خزي^(١) .

قلت : قال القرطبي : سورة طه عليه السلام مكية في قول الجميع^(٢) .

أضيف إلى قوله هذا الحديث الصحيح الذي رواه البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : (بنى اسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق^(٣) الأول وهن من تلادى^(٤)) .

قال ابن حجر : (وزاد في هذه الرواية ما لم يذكره في تلك وحاصله : أنه ذكر خمس سور متوالية ومقتضى ذلك أنهم نزلن بمكة لكن اختلف في بعض آيات منهن .. قيل في جميع ذلك إنه مدنى ولا يثبت شيء من ذلك والجمهور على أن الجميع مكيات وشذ من قال خلاف ذلك)^(٥) .

والخمس سور التي يشير إليها ابن حجر هي (الاسراء) ، (الكهف) ، (مريم) ، (طه) ، (الأنبياء) .
وعليه فسورة طه مكية كلها والله أعلم .

(١) تفسير القرطبي (١١ : ٢٦٢ — ٢٦٣) .

(٢) تفسير القرطبي (١١ : ١٦٣) .

(٣) قوله هن من العتاق الأول وهن من تلادى : يعنى أن تلك السور من قديم ما أخذت من القرآن شبهن بتلاد المال . والتالذ هو المال القديم . انظر لسان العرب (٣ : ١٠٠) .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٥٠) .

(٥) فتح البارى (١٠ : ٥٠) .

(١٤) سورة الأنبياء

وهى من السور المكية . وقد أخرج البخارى فى صحيحه فى باب تفسير سورة الأنبياء بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال (بنى اسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى)^(١) .

وقوله فى الحديث (من العتاق) بكسر العين المهملة جمع عتيق والعرب تجعل كل شىء بلغ الغاية فى الجودة عتيقا يريد تفضيل هذه السور لما يتضمن مفتتح كل منها بأمر غريب وقع فى العالم وهو الاسراء وقصة أصحاب الكهف وقصة مريم ونحوها .

وقوله (الأول) بضم الهمزة وفتح الواو المخففة والأولية إما باعتبار حفظها أو باعتبار نزولها لأنها مكيات .

وقوله (من تلادى) بكسر التاء المثناة من فوق وتخفيف اللام وهو ما كان قديما وأراد بقوله من تلادى أى من محفوظاتى القديمة^(٢) .

قال السيوطى : الأنبياء (استثنى منها ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾)^(٣) .

قلت : لم أجد ما يعضد ذلك . وقال القرطبى (سورة الأنبياء مكية فى قول الجميع)^(٤) .

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٥٠) .

(٢) باختصار من عمدة القارى شرح صحيح البخارى لبدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد العينى الحنفى — دار الطباعة العامة — الشركة الصحافية العثمانية فى دار السلطنة السنية سنة ١٣٠٨ هـ . (٢ : ٩) .

(٣) الالتقان (١ : ١٦) . الأنبياء : ٤٤ .

(٤) القرطبى (١١ : ٢٦٦) .

(١٥) سورة الحج

سورة الحج من السور المكية وفيها آيات مدنية . وهى قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ ^(١) الآية . وقوله تعالى ﴿ هَٰذَا نَحْنُ خَصَمَانِ ﴾ ^(٢) إلى نهاية الآيات الثلاث . وقوله تعالى : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ ^(٣) .

قال القرطبي : « سورة الحج » وهى مكية ، سوى ثلاث آيات . قوله تعالى « هذان خصمان » إلى تمام ثلاث آيات قاله ابن عباس ومجاهد . وعن ابن عباس أيضاً أنهم أربع آيات إلى قوله (عذاب الحريق) .

وقال الضحاك وابن عباس أيضاً : هى مدنية ، وقاله قتادة .. إلا أربع آيات (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) ^(٤) إلى (عذاب يوم عقيم) فهن مكيات وعد النقاش ما نزل بالمدينة عشر آيات .

وقال الجمهور : السورة مختلطة منها مكى ومنها مدنى . وهذا هو الأصح . لأن الآيات تقتضى ذلك . لأن (يأياها الناس) مكى و (يأياها الذين آمنوا) مدنى ^(٥) .

قلت : أما قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ الآية مدنية فقد أخرج البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

(١) الحج : ١١ .

(٢) الحج : ١٩ — ٢٠ — ٢١ .

(٣) الحج : ٣٩ .

(٤) الحج : ٥٢ وما بعدها .

(٥) تفسير القرطبي (١ : ١٢) .

(وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ) قال كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاما وولدت خيله قال هذا دين صالح وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال هذا دين سوء (١) .

فدل الحديث على أن مناسبة نزول الآية كان في المدينة بعد الهجرة .
وأما قوله تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ الآية .
فقد أخرج البخارى بسنده عن أنى ذكر رضى الله عنه أنه كان يقسم فيها أن هذه الآية «هذان خصمان اختصموا في ربهم» نزلت في حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في يوم بدر .

وفي رواية أيضاً للبخارى عن على بن أنى طالب رضى الله عنه قال أنا أول من يجشو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة قال قيس وفيهم نزلت (هذان خصمان اختصموا في ربهم) قال هم الذين بارزوا يوم بدر على وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة (٢) .

فدل سبب النزول على نزول الآية بعد الهجرة فهي مدنية .
وأما الآية الأخيرة ، وهى قوله تعالى : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٣) .

فقد أخرج الترمذى بسنده عن ابن عباس قال (لما أخرج النبي ﷺ من مكة . قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم ليهلكن . فأنزل الله تعالى : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٤) فقال أبو بكر لقد علمت أنه سيكون قتال (٥) .

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٥٩) .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٥٩) . راجع أسباب النزول للواحدى (ص ٢٧) .

(٣) الحج : ٣٩ .

(٤) الحج : ٣٩ .

(٥) سنن الترمذى (٥ : ٣٢٥) .

فدل سبب النزول على أن الآية مدنية لأنها بعد خروجه من مكة .
هذا وهناك آية رابعة في هذه السورة وهي مدنية . وهي قوله تعالى :
﴿ ذَلِكْ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴾^(١) .

* * *

(١) الآية ٦٠ راجع ص ٧١ من بحثنا هذا

(١٦) سورة المؤمنون

وهى من السور المكية . وقد نص القرطبي على مكيتها فى أول تفسيره للسورة فقال : (مكية كلها فى قول الجميع)^(١) .

ولقد استثنى منها السيوطى فى الاتقان الآيات من قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ ﴾^(٢) إلى قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾^(٣) .

ولكن القرطبي نقض كلامه السابق والذي نص فيه على مكية السورة كلها بأن قال فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ ﴾ (يعنى بالسيف يوم بدر قاله ابن عباس) . وبدر كانت بعد الهجرة فعليه فالآية مدنية . وقال فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا هُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاثُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ قال : نزلت فى قصة ثمامة بن أثال لما أسرته السرية وأسلم . وخلقى رسول الله ﷺ سبيله حال بين مكة وبين الميرة وقال : والله لا يأتيكم من الإمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ وأخذ الله قريشا بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعلهز . قيل وما العلهز ؟ قال : كانوا يأخذون الصوف والوبر فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه . فقال له أبو سفيان أنشدك الله والرحم . أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال بلى قال : فوالله ما أراك إلا قتلت الآباء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع فنزل قوله ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾^(٤) .

(١) تفسير القرطبي (١٢ : ١٠٢)

(٢) المؤمنون : ٦٤ .

(٣) المؤمنون : ٧٧ ، الاتقان (١ : ١٦) .

(٤) راجع القرطبي (١٢ : ١٣٥) .

(٥) تفسير القرطبي (١٢ : ١٤٣) .

قلت : والسرية التى أسر فيها ثمامة بن أثال هى سرية (محمد بن مسلمة إلى القرطاء وهم بنو بكر بن كلاب)^(١). وكانت بعد الهجرة وعليه فتكون الآية مدنية ولكن ابن كثير ذكر فى تفسيره أنها مكية فقال (تفسير سورة المؤمنون مكية) ولم يستثن منها شيئا .

وقال عند تفسيره للآيات التى استثناهما السيوطى وهى قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ . لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَغْقَابِكُمْ تُنْكِرُ صُرُوفَ أَيْدِيكُمْ فَتَسْمِعُونَ نَجْوَاهُمْ سِرًّا وَعَاقِبَةً تُنَجِّوهُمْ مِنْ أَفْئِدَتِهِمْ إِنَّهُم لَكَاذِبُونَ ﴾^(٢) .

يعنى حتى إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون فى الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم (إذا هم يجأرون) أى يصرخون ويستغيثون .. وقوله (مستكبرين به سامرا تهجرون) فى تفسيره قولان (أحدهما) أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه استكبارا عليه واحتقارا له ولأهله فعلى هذا الضمير فى (به) فيه ثلاثة أقوال :

(أحدهما) أنه الحرم أى مكة ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام^(٣) .

(والثانى) أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام : أنه سحر ، أنه شعر ، أنه كهانة .. إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة .

(الثالث) أنه محمد ﷺ كانوا يذكرونه فى سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون ..

وقيل المراد بقوله (مستكبرين به) أى بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم

(١) أنظر السيق الحلبية للعلامة برهان الدين الحلبي (٣ : ٧٧١) .

(٢) المؤمنون : ٦٤ : ٦٧ .

(٣) الهجر من الكلام : القبيح وهو الاستهزاء والفحش من القول . أنظر لسان العرب (٥ : ٢٥٣) .

أولياؤه وليسوا به ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ . حَتَّى إِذَا فَتَخْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ ^(٢) .

قال ابن كثير (ولقد أخذناهم بالعذاب) أى ابتليناهم بالمصائب والشدائد (فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) أى فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة بل استمروا على غيهم وضلالهم (ما استكانوا) أى ما خشعوا ^(٣) .

ثم روى بسنده عن ابن أبى حاتم عن عكرمة عن ابن عباس قال جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز — يعنى الوبر والدم — فأنزل الله (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا) الآية .

وكذا رواه النسائى عن محمد بن عقيل عن على بن الحسين عن أبيه به وأصله فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال (اللهم أعنى عليهم بسبع كسيع يوسف) .

وقوله : ﴿ حَتَّى إِذَا فَتَخْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أى حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون فعند ذلك أبلسوا من كل خير وأيسوا من كل راحة وانقطعت آمالهم ورجاؤهم ^(٤) . أ.هـ .

قلت : الحديث الذى أشار إليه ابن كثير أصله فى الصحيحين قوله ﷺ « اللهم أعنى عليهم بسبع كسيع يوسف » أخرجه البخارى مطولاً فى كتاب

(١) أنظر تفسير ابن كثير (٣ : ٢٤٩) .

(٢) المؤمنون : ٧٦ — ٧٧ .

(٣) تفسير ابن كثير (٣ : ٢٥٢) .

(٤) فتح البارى (ص ٦٢٨ ، ١٦٤ ، ١٩٢ ، ج ١٠) .

التفسير سورة الروم وسورة ص، والدخان^(١) . وأخرجه مسلم^(٢) في كتاب (صفة القيامة والجنة والنار في باب الدخان مطولا) . وأخرجه الترمذى في (تفسير سورة الدخان)^(٣) .

وإليك الحديث كما أخرجه البخارى بسنده عن مسروق قال : قال عبد الله (يعنى ابن مسعود) : إنما كان هذا لأن قريشا لما استعصوا على النبى ﷺ دعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام . فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد . فأنزل الله تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٤) .

قال : فأتى رسول الله ﷺ فقيـل : يا رسول الله استسقى الله لمضر فإنها قد هلكت ، قال : لمضر ؟ إنك لجرىء فاستسقى فسقوا . فنزلت إنكم عائدون ، فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية فأنزل الله ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ قال يعنى يوم بدر^(٥) .

وفي الرواية^(٦) الأخرى والتي للبخارى أيضا : (حول قوله « إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون »^(٧) — أفيكشف العذاب يوم القيامة ؟ قال فكشف ثم عادوا في كفرهم فأخذهم الله يوم بدر — قال الله تعالى ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾^(٨) .

(١) فتح البارى (ص ٦٢٨ ، ١٩٢ ، ج ١٠) .

(٢) صحيح مسلم وعلى هامشه شرح النووى (١٧ : ١٤٢) .

(٣) سنن الترمذى (٥ : ٣٧٩) .

(٤) الدخان : ١٠ — ١١ .

(٥) صحيح البخارى شرح فتح البارى (١ : ١٩٢) .

(٦) صحيح البخارى شرح فتح البارى (١ : ١٦٧) .

(٧) الدخان : ١٥ .

(٨) الدخان : ١٦ .

فمن خلال دراستنا للرواية السابقة نستخلص ما يلي :

(١) أن رأى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه في تفسير الدخان هو ما حدث لأهل مكة من جراء دعوة الرسول ﷺ على أهلها حين استعصت عليه فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف . وكان الرسول ﷺ آنذاك في مكة ولم يهاجر إلى المدينة بعد .

(٢) الآتى المذكور هو أبو سفيان كما صرح به في الرواية الأخيرة المذكورة في الباب (فأتاه أبو سفيان فقال أى محمد ، إن قومك قد هلكوا فادع الله أن يكشف عنهم)^(١) وأبو سفيان كان في مكة .

(٣) وقوله (فقال رسول الله ﷺ لمضر؟ إنك لجرىء) .

(أى تأمرنى أن استسقى لمضر مع ما هم عليه من المعصية والاشراك به ؟ ووقع في شرح الكرماني قوله فقال رسول الله ﷺ لمضر؟ أى لأبى سفيان فإنه كان كبيرهم في ذلك الوقت وهو كان الآتى إلى رسول الله ﷺ المستدعى منه الاستسقاء^(٢) .

ولم تنص أية رواية أن أبا سفيان سافر إلى المدينة لطلب السقيا بل قال فأتاه أبو سفيان وهو لا يزال على الشرك فقال أى محمد ولم يقل يا نبي الله . كل هذه دلائل على أن هذه الدعوة من رسول الله ﷺ كانت قبل هجرته إلى المدينة .

فعليه فالآيات مكية والسورة في أسلوبها ومعانيها وتعبيراتها تجعلنى أميل إلى أنها كلها مكية .

والذين قالوا بمدينة الآيات قالوا ذلك بناء على أن دعاء النبي ﷺ كان في المدينة . نعم ثبت في الصحيح أنه كان النبي ﷺ يدعو على قريش وقد مكث شهرا إذا رفع رأسه من الركعة الثانية من صلاة الفجر بعد قوله سمع الله لمن حمده

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ١٩٤) .

(٢) فتح البارى (١٠ : ١٩٢) .

يقول : « اللهم أنج الوليد بن الوليد ومسلمة بن هشام وعياش بن أى ربيعة والمستضعفين من المؤمنين بمكة اللهم أشدد وطأتك على مضر .. اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف » ثبت ذلك .

اخرج البخارى بسنده عن أى هريرة أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : « اللهم أنج عياش بن أى ربيعة ، اللهم أنج مسلمة بن هشام ، اللهم أنج الوليد بن الوليد اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين ، اللهم أشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف ^(١) .

ويلاحظ أن الراوى هو أبو هريرة وكان إسلامه بعد الهجرة فى المدينة ولم يكن فى مكة قبل الهجرة . والرواية السابقة عن عبد الله بن مسعود وهو من أوائل الصحابة السابقين إلى الإسلام .

وللتوفيق بين الروایتين : أن الآيات التى نص السيوطى ومن اتبعه من المفسرين على مدنيتهما هى آيات مكية نزلت بسبب دعاء المصطفى ﷺ على قريش حين استعصوا على النبى ﷺ فقال (اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف) فقد أخرج البخارى بسنده عن مسروق (وفيه) وإن قريشا ابطأوا عن الإسلام فدعا عليهم النبى ﷺ فقال : (اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف) فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهية الدخان فجاءه أبو سفيان فقال : يا محمد جئت تأمرنا بصلة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله فقراً « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » إلى قوله « عائدون » — أفيكشف عنهم عذاب الآخرة إذا جاء ثم عادوا إلى كفرهم . فذلك قوله يوم نبطش البطشة الكبرى — يوم بدر .. ^(٢) .

على حين كان دعاؤه فى المدينة هو دعاء القنوت للمستضعفين من المؤمنين فى مكة أن ينجيهم الله من برائن القتل والفتك الذى وقع للمسلمين فى مكة

(١) فتح البارى (٣ : ١٤٦) أبواب الاستسقاء وكذلك (١٣ : ٤٥٠) فى كتاب الدعوات .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ١٢٩) .

يختم دعاءه ﷺ بقوله (اللهم أشدد وطأتك على مضر .. اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف) . ويلاحظ الفرق بينها وبين دعوته السابقة فى مكة (اللهم عنى عليهم سبع كسبع يوسف) فتلك كانت فى مكة والأخيرة كانت فى المدينة يكلتا الروايتين صحيحة .

فالمراد من الآيات ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ . حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ (١) .

هو ما أصابهم فى مكة من الجوع وأكلهم العلhez والميتة نتيجة لدعوته ﷺ عليهم فى مكة حين استعصوا ولم يدخلوا فى الإسلام أن يعينه الله عليهم بسنين كسنى يوسف عليه السلام واستجاب الله له فحدث ما حدث . والله أعلم ..



(١) المؤمنون : ٧٦ — ٧٧ .

(١٧) سورة الفرقان

سورة الفرقان من السور المكية كما نص عليه قول الجمهور .

قال القرطبي : (مكية كلها في قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتادة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة وهي ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ^(١) .

وبذلك قال السيوطي في الاتقان (استثنى منها « والذين لا يدعون » إلى « رحيمًا ») ^(٢) .

قلت : ورد في صحيح مسلم ما يشير إلى أن الآيات مكية .

أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا فأتوا محمدا ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا بأن لما عملنا كفارة فنزلت ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ ^(٣) .

وأخرج مسلم أيضا في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال رجل يا رسول الله ، أى الذنب أكبر عند الله ؟ قال أن تدعو لله ندا وهو خلقك قال : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تزنى في حليلة جارك . فأنزل الله تعالى تصديقها ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ ^(٤) .

(١) تفسير القرطبي (١٣ : ١) والآيات من سورة الفرقان آية : (٦٨ — ٧٠) .

(٢) الاتقان للسيوطي (١ : ١٦) .

(٣) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١٠ : ١٧٠) .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٢ : ٨٠) .

وأخرج البخارى بسنده قال :

(حدثنا ابراهيم بن موسى . أخبرنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال : أخبرني القاسم بن أبي بزة أنه سأل سعيد بن جبير : هل لمن قتل مؤمناً متعمداً من توبة ؟ فقرأت عليه ﴿ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾^(١) فقال سعيد : قرأتها على ابن عباس كما قرأتها على فقال (هذه مكية نسختها آية مدنية التي في سورة النساء)^(٢) .

قلت : هذا نص من خبر الأمة رضى الله عنه على مكية الآية . ويعنى بالآية المدنية التي في سورة النساء : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾^(٣) .

فمن تأمل الأحاديث السابقة وموضوع الآية وهو نبذ الشرك بالله وقتل النفس والزنا وهي تلك القبائح المتفشية في المجتمع المكى وارتباط الآية بما قبلها من صفات عباد الرحمن كل ذلك مؤشرات تجعلنى أميل إلى أن الآية مكية فعليه فالسورة كلها كما نص الجمهور مكية وبدون استثناء . والله أعلم .

(١) الفرقان : ٦٨ .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ١١٠) ، كتاب التفسير .

(٣) النساء : ٩٣ .

(١٨) سورة الشعراء

وهى من السور المكية . (قال القرطبي : وهى مكية فى قول الجمهور . وقال مقاتل : منها مدنى ، الآية التى يذكر فيها الشعراء — وقوله ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ^(١) . وقال ابن عباس وقتادة : مكية إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ ^(٢) إلى آخرها) ^(٣) .

وقال السيوطى : (الشعراء . استثنى ابن عباس منها والشعراء إلى آخرها .. وزاد غيره وقوله ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ حكاه ابن الغرس) ^(٤) .

وقال القاسمى : (هى مكية إلا قوله ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴾ إلى آخرها وقوله ﴿ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ فقد روى أنهما نزلتا بالمدينة وكان شعراؤه ﷺ بالمدينة حسان وكعب بن مالك وابن رواحة رضى الله عنهم .

وقال الدانى : روى بسند صحيح أنها نزلت فى شاعرين تهاجيا فى الجاهلية مع كل واحد منهم جماعة ، فالسورة على هذا كلها مكية) ^(٥) .

وقال ابن كثير : قال ابن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبى الحسن سالم البراء عن عبد الله تميم الدارى : قال : لما نزلت (والشعراء يتبعهم الغاؤون) جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبيكون قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء فتلا

(١) الشعراء : ١٩٧ .

(٢) الشعراء : ٢٢٤ — ٢٢٧ .

(٣) تفسير القرطبي (١٣ : ٨٧) م ٧ ، أول تفسير السورة .

(٤) الاتقان للسيوطى (١ : ١٦) .

(٥) تفسير القاسمى (محاسن التأويل) محمد جمال الدين القاسمى (١٣ : ٤٦٠٤) ط/الأولى عيسى الباقى

وحلبى سنة ١٣٧٩ هـ . تعليق وتخريج محمد فؤاد عبد الباقي .

النبي ﷺ (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال : أنتم (وذكروا الله كثيرا) قال أنتم (وانتصروا من بعد ما ظلموا) قال (أنتم) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من رواية ابن اسحاق .

وقد روى ابن أبي حاتم أيضا عن أبي سعيد الأشج عن أبي أسامة عن الوليد بن أبي كثير عن زيد بن عبد الله عن أبي الحسن مولى بنى نوفل أن حسان ابن ثابت وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ﷺ حين أنزلت هذه الآية (والشعراء يتبعهم الغاؤون) يكيان فقال رسول الله ﷺ وهو يقرأها عليهما (والشعراء يتبعهم الغاؤون — حتى بلغ — إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال أنتم . وقال أيضا : حدثنا أبي حدثنا أبو مسلم حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن عروة قال : لما نزلت (والشعراء يتبعهم الغاؤون) إلى قوله (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) قال عبد الله بن رواحة يا رسول الله قد علم الله أنى منهم فأنزل الله تعالى ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ الآية .

وهكذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وزيد بن أسلم وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم . ولاشك أنه استثناء . ولكن هذه السورة مكية فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الأنصار ؟ وفي ذلك نظر ، ولم يتقدم إلا مراسلات لا يعتمد عليها والله أعلم . ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم وحتى يدخل فيه من كان متلبسا من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحا وذكر الله كثيرا في مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ . فإن الحسنات يذهبن السيئات وامتنح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه^(١) .

وعلى هذا فالسورة كلها مكية كما نص على ذلك الجمهور .



(١) تفسير ابن كثير (٣ : ٣٥٤) ط / دار الفكر .

(١٩) سورة القصص

سورة القصص من السور المكية وقد تضمنت بعض الآيات المدنية قال الزركشى : سورة القصص مكية غير آية : (الذين آتيناهم الكتاب) يعنى الانجيل (من قبله هم به يؤمنون) يعنى الفرقان . نزلت فى أربعين رجلا من مؤمنى أهل الكتاب قدموا من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب فأسلموا .

قال السيوطى فى الاتقان : (سورة القصص استثنى منها (الذين آتيناهم الكتاب) ^(١) إلى قوله (الجاهلين) ^(٢) فقد أخرج الطبرانى عن ابن عباس أنها نزلت هى وآخر الحديد فى أصحاب النجاشى الذين قدموا وشهدوا وقعة أحد . وقوله (إن الذى فرض عليك القرآن) ^(٣) الآية لما سيأتى ^(٤) .

وقد وضع قوله « لما سيأتى » فى أمثلة السفرى فقال منها ﴿ إِنَّ الْإِلٰهَ فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادِّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ نزلت بالجحفة فى سفر الهجرة كما أخرجه ابن أبى حاتم عن الضحاك .

وقال القرطبى : مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء، وقال ابن عباس وقتادة إلا آية نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجحفة فى وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة وهى قوله ﴿ إِنَّ الْإِلٰهَ فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادِّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ الآية .

وقال مقاتل : فيها من المدنى « الذين آتيناهم الكتاب » إلى قوله : « لا نبتغى الجاهلين » ^(٥) ويؤيد ذلك فى قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ إلى قوله

(١) ، (٢) القصص : ٥٢ - ٥٥ .

(٣) القصص : ٨٥ .

(٤) الاتقان للسيوطى (١ : ١٦) .

(٥) القرطبى (١٣ : ٢٤٧) .

(لا نبتغي الجاهلين) .

(١) ما أخرجه الطبري عن ابن عباس قال : (يعنى من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب) .

(٢) ما أخرجه عن قتادة قال (كنا نحدث أنها نزلت في أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق يأخذون بها ويستهنون إليها حتى بعث الله محمداً ﷺ ، فآمنوا به وصدقوا به فأعطاهم الله أجرهم مرتين . بصبرهم على الكتاب الأول ، واتباعهم محمداً ﷺ وصبرهم على ذلك ، وذكر أن منهم سلمان ، وعبد الله بن سلام^(١) .

وذكر القرطبي في تفسير الآية : (أن قوما ممن أوتوا الكتاب من بنى إسرائيل من قبل القرآن يؤمنون بالقرآن ، كعبد الله بن سلام وسلمان ويدخل فيه من أسلم من علماء النصارى ، وهم أربعون رجلا ، قدموا مع جعفر بن أبي طالب المدينة ، اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة وثمانية نفر أقبلوا من الشام وكانوا أئمة النصارى : منهم بحيرا الراهب وأبرهه والأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع . كذا سماهم الماوردي . وأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية والتي بعدها « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » قاله قتادة^(٢) .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتبعه وصدق به فله أجران . وعبد مملوك أدى حق الله عز وجل وحق سيده فله أجران . ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاها ثم أدبها فأحسن أدبها ثم أعفها وتزوجها فله أجران »^(٣) .

(١) تفسير الطبري (٢٠ : ٨٩) .

(٢) تفسير القرطبي (١٣ : ٢٩٦) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٢ : ١٨٧) م ١ — كتاب الايمان .

فالصنف الأول من الناس الوارد ذكره في الحديث يطابق ما جاءت به الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَلِدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إلى قوله (لا نبتغي الجاهلين)^(١) .

وهؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب كانوا بعد الهجرة قدموا إلى المدينة فالآيات مدنية .

أما قوله تعالى ﴿إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مِنْ جَاءِ الْهَدْيِ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾^(٢) . فهي مكة . والمراد بقوله إلى (معاد) أى إلى مكة .

أخرج البخارى بسنده عن عكرمة عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) : قال : إلى مكة^(٣) .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك رضى الله عنه قال : لما خرج النبى ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله ﴿إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ .

وهناك من لا يقول بمدنيتها ولا مكيتها كابن عباس فإنه قال : (نزلت هذه الآية بالجحفة ليست مكة ولا مدنية)^(٤) .

قلت : هذا لأنه نظر إلى المكان وحده للضبط فما نزل بمكة فهو مكى، وما نزل بالمدينة فهو مدنى، وما نزل بين مكة والمدينة فهو ليس مكيا ولا مدنيا .

(١) القصص : ٥٢ — ٥٥ .

(٢) القصص : ٨٥ .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى (١٠ : ١٢٧) .

(٤) تفسير القرطبى (١٣ : ٣٢١) .

ولكننى أقول معقبا على هذا بأن التعريف الجامع المانع للمكى والمدنى هو
(أنه ما نزل قبل الهجرة فهو مكى وما نزل بعد الهجرة فهو مدنى) .

فهنا اعتبرنا الزمان مع مراعاة أن الحد الفاصل بين المكى والمدنى هو
وصول الرسول ﷺ إلى المدينة . إذن فما نزل فى طريق الهجرة فهو مكى فالآية
(إن الذى فرض) مكية .

ذكر أبو عمرو عثمان بن سعيد الدارمى^(١) بإسناده إلى يحيى بن سلام
قال : (ما نزل بمكة وما نزل فى طريق المدينة قبل أن يبلغ النبى ﷺ المدينة فهو
من المكى وما نزل على النبى ﷺ فى أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من
المدنى)^(٢) .

فعليه فالآية نزلت قبل أن يصل المصطفى ﷺ إلى المدينة فهى مكية .
والله أعلم ..

وبلى هذه السورة سورة العنكبوت وقد سبق أن فصلت القول فيها
(ص ٧٤) من بحثنا هذا .



(١) وهو صاحب المسند الكبير ، أخذ الفقه عن البوطى والعريفة عن ابن الأعرابى والحديث عن ابن
المدينى . توفى سنة ٢٨٠ هـ . شذرات الذهب (٢ : ١٧٦) .

(٢) البرهان للزركشى (١ : ١٨٨) ، الاتقان (١ : ٩) .

وقد ذكر السيوطى أن الذى أخرج الأثر هو عثمان بن سعيد الرازى وذكر الزركشى فى البرهان أنه
الدارمى والصواب أنه الدانى فإنه هو الذى يكنى أبا عمر أما الدارمى فكنيته أبو سعيد (والله أعلم) .

(٢٠) سورة لقمان

وهي من السورة المكية واختلف في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ^(١) .

قال ابن كثير : روى أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود قال ابن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة يا محمد أرأيت قولك (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ^(٢) إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول الله ﷺ « كلا كما » قالوا أأنت تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء ؟ فقال رسول الله ﷺ (إنها في علم الله قليل وعندكم من ذلك ما يكفيكم) وأنزل الله فيما سأله عنه من ذلك (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام) ثم عقب ابن كثير هكذا روى عن عكرمة وعطاء بن يسار وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية لا مكية والمشهور أنها مكية والله أعلم ^(٣) .

قلت : والذين قالوا بمدنية الآية لأن اليهود جاء ذكرهم في القصة المذكورة في سبب نزول الآية . ولا يمنع أن يكون اليهود أتوا إلى مكة وسألوا الرسول ﷺ عن قوله (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .
فلذلك أرجح مكية الآية والله أعلم .

(١) لقمان : ٢٧ .

(٢) الاسراء : ٨٥ .

(٣) تفسير ابن كثير (٣ : ٤٥١) ، راجع أسباب النزول للواحدي (ص ٢٣٣) .

(٢١) سورة السجدة

سورة السجدة من السور المكية حيث إنها افتتحت بحروف المعجم وتضمنتها في الآية الخامسة عشرة سجدة .

قال الألوسي في مقدمة تفسيره للسورة : (أخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنها نزلت بمكة ، وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله ، وفي رواية أخرى عن الحبر استثناء وأخرج النحاس عنه رضى الله عنه أنه قال : نزلت سورة السجدة بمكة سوى ثلاث آيات (أفمن كان مؤمنا) إلى تمام الآيات الثلاث^(١) .. وروى مثله عن مجاهد والكلبي . واستثنى بعضهم أيضا آيتين أخريين وهما قوله تعالى (تتجافى جنوبهم)^(٢) واستدل عليه ببعض الروايات في سبب النزول وستطلع على ذلك إن شاء الله واستبعد استثناءهما لشدة ارتباطهما بما قبلهما)^(٣) .

أما قوله ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

فقد اختلف العلماء في المراد من الصلاة التي تتجافى جنوبهم لأجلها . قال القرطبي : (وفي الصلاة التي تتجافى جنوبهم لأجلها أربعة أقوال : أحدها : التنقل بالليل ، قاله الجمهور من المفسرين وعليه أكثر الناس .. ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ لأنهم جوزوا على ما أخفوا بما خفي . والله أعلم .

(١) السجدة : ١٨ — ٢٠ .

(٢) السجدة : ١٦ .

(٣) تفسير الألوسي (٢١ : ١١٥) .

وفي قيام الليل أحاديث كثيرة منها حديث معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال له : (ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وصلاة الرجل في جوف الليل قال ثم تلا (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا — حتى بلغ — يعملون)^(١) .

أخرجه أبو داود الطيالسي^(٢) في مسنده والقاضي اسماعيل بن اسحاق وأبو عيسى الترمذي^(٣) . وقال فيه حديث حسن صحيح .

الثاني : صلاة العشاء التي يقال لها العتمة ، قاله الحسن وعطاء . وفي الترمذي عن أنس بن مالك أن هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة . قال هذا حديث حسن صحيح غريب^(٤) .

الثالث : التنقل ما بين المغرب والعشاء ، قاله قتادة وعكرمة .

روى أبو داود^(٥) عن أنس بن مالك أن هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) قال : كانوا يتنقلون ما بين المغرب والعشاء .

الرابع : قال الضحاك : وتجافى الجنب هو أن يصلي الرجل العشاء والصبح في جماعة .

قلت : هذا قول حسن . وهو يجمع الأقوال بالمعنى ..^(٦) .

والذين قالوا بمداينة الآية احتجوا بما أخرجه البزار بسنده . قال حدثنا عبد الله بن شبيب حدثنا الوليد بن عطاء بن الأغر حدثنا عبد الحميد بن سلمان

(١) السجدة : ١٦ — ١٧ .

(٢) مسند أبي داود الطيالسي ص ٧٦ نسخة مصورة عن طبعه دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ط. الأولى سنة ١٣٢١ هـ .

(٣) سنن الترمذي (٥ : ١١ — ١٢) .

(٤) سنن الترمذي (٥ : ٣٤٦) .

(٥) سنن أبي داود (١ : ٣٤٤) .

(٦) تفسير القرطبي (١٤ : ١٠٠) .

حدثني مصعب عن زيد بن أسلم عن أبيه قال بلال لما نزلت هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية كئنا نجلس في المجلس^(١) وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء فنزلت هذه الآية (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)^(٢) .

فالحديث ضعيف فيه عبد الله بن شبيب .

قال الذهبي : عبد الله بن شبيب (أبو سعيد الربيعي) اخبارى علامة لكنه واه قال أبو أحمد الحاكم : ذاهب الحديث^(٣) .

وبما أخرجه الطبري قال حدثني محمد بن خلف قال ثنا يزيد بن حيان قال : حدثنا الحارث بن وجيه الراسبي قال : ثنا مالك بن دينار عن أنس بن مالك : أن هذه الآيات نزلت في رجال من أصحاب النبي ﷺ كانوا يصلون فيما بين المغرب والعشاء (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)^(٤) .

فالحديث أيضا ضعيف فيه الحارث بن وجيه الراسبي . قال ابن حجر في تهذيب التهذيب : قال الدوري وغيره عن ابن معين ليس بشيء وقال البخاري في حديثه بعض المناكير . وكذا قال أبو حاتم . وزاد ضعيف الحديث^(٥) .

وبما أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : نزلت فينا معاشر الأنصار كئنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي ﷺ فنزلت (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)^(٦) . الآية .

(١) وفي لباب النقول للسيوطي (في المسجد) (ص ١٧٠) .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ : ٤٦٠) .

(٣) ميزان الاعتدال لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٢ : ٤٣٨) ط/دار المعرفة - بيروت .

(٤) تفسير الطبري (٢١ : ١٠٠) .

(٥) تهذيب التهذيب (٢ : ١٦٢) .

(٦) الدر المنثور للسيوطي (٥ : ١٧٤) .

قلت : والذي أرجحه أن المراد من الصلاة التي تتجافى جنوبهم هي صلاة قيام الليل ويؤيده ما أخرجه الطبري بسنده عن الحسن (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) قال : قيام الليل^(١) .

وما أخرجه الطبري عن مجاهد قوله (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) يقومون يصلون الليل^(٢) .

وقد ذكر الطبري عدة أقوال في المراد من الآية ثم قال بعد الانتهاء من سردها (الصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله وصف هؤلاء القوم بأن جنوبهم تنبو عن مضاجعهم شغلا منهم بدعاء ربهم وعبادته خوفا وطمعا ، وذلك نبو جنوبهم عن المضاجع ليلا ، لأن المعروف من وصف الواصف رجلا بأن جنبه نبا عن مضجعه ، إنما هو وصف منه له بأنه جفا عن النوم في وقت منام الناس المعروف ، وذلك الليل دون النهار . وكذلك تصف العرب الرجل إذا وصفته بذلك ، يدل على ذلك قول عبد الله بن رواحة الأنصاري^(٣) رضى الله عنه في صفة النبي ﷺ :

(يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع)^(٤)

قلت : ومن المعروف أن قيام الليل كان فريضة بمكة . وذلك بنزول سورة المزمل وهي مكية بلا خلاف . وقد أشار الحديث الطويل الذي أخرجه مسلم في صحيحه : قال سعد بن هشام بن عامر^(٥) مخاطبا السيدة عائشة رضى الله عنها :

(١) تفسير الطبري (٢١ : ١٠١) .

(٢) تفسير الطبري (٢١ : ١٠١) .

(٣) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن ثعلبة الأمير السعيد الشهيد أبو عمرو الانصاري الحزرجي البدرى النقيب الشاعر .

سير اعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (١ : ٢٢٠) . مؤسسة الرسالة ، ط/ بيروت .

(٤) تفسير الطبري (٢١ : ١٠٢) .

(٥) ترجمة : سعد بن هشام بن عامر الأنصاري المدني ابن عم أنس .. وذكر البخاري أنه قتل بأرض مكران على أحسن أحواله . قلت : قال أبو بكر الخازمي (مكران) بضم الميم بلدة بالهند .. باختصار . تهذيب التهذيب (٣ : ٤٨٣) لابن حجر العسقلاني .

(ثم قلت : أنبئني عن قيام رسول الله ﷺ فقالت : أأنت تقرأ : يا أيها المزمل . قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة ، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حولا . وأمسك الله خاتمها إثنى عشر شهرا في السماء حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف ، فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة ^(١) .. الحديث .

فقوله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية .. مكية تبعا للسورة وليس هناك أثر أو دليل على مدنيته .

أما قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ ^(٢) . فقد ذكرت بعض الآثار أن هذه الآية مدنية . والصواب أن الآية مكية عامة والآثار التي وردت بشأنها ضعيفة .

فقد أخرج الطبري بسنده فقال : حدثنا ابن حميد ، قال ثنا سلمة ابن الفضل قال : ثنى ابن إسحاق ، عن بعض رجاله عن عطاء بن يسار قال : نزلت بالمدينة في علي بن أبي طالب ، والوليد بن عقبة بن أبي معيط ، كان بين الوليد وبين علي كلام فقال الوليد بن عقبة : أنا أبسط منك لسانا ، وأحد منك سنانا ، وأرد منك للكتيبة فقال علي : اسكت فإنك فاسق فأنزل الله (أفمن كان مؤمنا) ^(٣) .

فالحديث فيه مجاهيل . فمن هم أصحابه الذين أخذ منهم ابن إسحاق ؟ وهو يدلس

ثم إن هناك رواية تشير إلى أن الآية نزلت بسبب علي بن أبي طالب والوليد ابن عقبة بن معيط ورواية أخرى أن الآية نزلت في علي بن أبي طالب

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٦ : ٣٦) .

(٢) السجدة : ١٨ .

(٣) تفسير الطبري (٢١ : ١٠٧) .

وعقبة بن أوى معيط . وفى هذا اضطراب^(١) . والذى أحدث الالتباس هى كلمة (فاسق) الموجودة فى الأثر والآية .

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾^(٢) فقد قيل إنها نزلت فى الوليد ابن عقبة بن أوى معيط عندما بعثه النبى ﷺ إلى بنى المصطلق ..^(٣) . وعلى أثر الحادثة سُمى الوليد فاسقا .

فعليه فالآية مكية تبعا للسورة وهى عامة. فكل كافر جاحد مكذب لله ورسوله لا يستوى مع المطيع لله ورسوله المصدق بكل ما جاء به الشرع فيما ينالهما من الجزاء والحساب يوم القيامة .

قال الالوسى : بعد ذكر بعض الروايات الضعيفة والأقوال على وجود بعض الآيات المدنية فى السورة ، قال : (وأستبعد استثنائهما لشدة ارتباطهما بما قبلهما)^(٤) .

وأخيراً فإن سورة السجدة كلها مكية . والله أعلم ..



(١) أنظر لباب النقول للسيوطى (ص ١٧٠) .

(٢) سورة الحجرات : ٦ .

(٣) تفسير القرطبى (١٦ : ٣١١) .

(٤) تفسير الالوسى (٢١ : ١١٥) .

(٢٢) سورة سبإ

وهي من السور المكية إلا أن بعض المفسرين استثنى منها قوله ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾^(١) .

قال السيوطي: (سورة سبأ استثنى منها ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الآية وروى الترمذي^(٢) عن فروة بن مسيك المرادي^(٣) قال : أتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله لا أقاتل من أدبر من قومي .. الحديث وفيه أنزل في سبإ ما أنزل فقال رجل يا رسول الله : وما سبإ .. الحديث (قال) ابن الحصار : هذا يدل على أن هذه القصة مدنية لأن مهاجرة فروة بعد إسلام ثقيف سنة تسع . (قال) ويحتمل أن يكون قوله وأنزل حكاية عما تقدم نزوله قبل هجرته^(٤) .

قلت : وقوله (ويحتمل أن يكون قوله «أنزل» حكاية عما تقدم نزوله قبل هجرته) هو الذي أرجحه وعليه فالآية مكية تبعا للسورة وهي عامة .

قال القرطبي : سورة سبإ مكية في قول الجميع إلا آية واحدة اختلف فيها^(٥) .

وقال الطبري : في تفسيره للآية (وعنى بالذين أوتوا العلم : مسلمة أهل

(١) سبإ : ٦ .

(٢) سنن الترمذي (٥ : ٣٦١) .

(٣) فروة بن مسيك بن غطيف المرادي ثم القطيعي له صحبة . أسلم سنة تسع وسكن الكوفة . روى عن النبي ﷺ وقد استعمله عمر بن الخطاب على صدقات مذحج وكناه ابن أبي خيثمة . أنظر تهذيب التهذيب (٨ : ٢٦٥) .

(٤) الاتقان للسيوطي (ص ١٦) .

(٥) القرطبي (١٤ : ٢٥٨) .

الكتاب كعبد الله بن سلام ونظرائه الذين قد قرأوا كتب الله التي أنزل قبل الفرقان وقيل : عنى بالذين أوتوا العلم : أصحاب رسول الله ﷺ . وعلى ذلك فالأدلة على مدنية الآية يتطرق إليها الإحتمال ولذلك بطل بها الإستدلال .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد قال : ثنا سعيد ، عن قتادة (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ) قال : أصحاب محمد^(١) . وهذا الذى أرجحه أن الآية عامة .

وكذلك نلاحظ سياق الآيات التي قبلها والتي بعدها عن المشركين وهى مترابطة فى معانيها وموضوعاتها .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴾ وهم المشركون . ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّمَزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾^(٢) (وهم المشركون) .

وأخيراً نجد ابن كثير أطلق على السورة أنها مكية ولم يتعرض للآية المذكورة بأنها مدنية . فعليه فالسورة مكية .

* * *

(١) تفسير الطبرى (٢٢ : ٦٢) .

(٢) سبط من آية ٣ — ٧ .

(٢٣) سورة يس

وهي من السور المكية ولقد استثنى منها قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (١).

قال القرطبي في مقدمة تفسيره للسورة : (وهي مكية بإجماع . وهي ثلاث وثمانون آية إلا أن فرقة قالت إن قوله تعالى ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ﷺ ... (٢).

واستدلوا لمدينة الآية بما أخرجه الترمذي بسنده قال : حدثنا محمد بن وزير الواسطي حدثنا إسحاق بن يوسف الأزرق عن سفيان الثوري عن أبي سفيان عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال : كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد . فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ فقال رسول الله ﷺ إن آثاركم تكتب فلم ينتقلوا .

قال : هذا حديث حسن غريب من حديث الثوري وأبو سفيان هو طريف السعدي (٣) . قال ابن حجر : طريف بن شهاب وقيل ابن سعد بن سفيان . أبو سفيان السعدي الأشل ويقال الأعم وقال فيه البخاري العطاردى روى عن أبي نضرة العبدى .. قال أحمد ليس بشيء ولا يكتب حديثه وقال ابن معين ضعيف الحديث وقال أبو حاتم ضعيف الحديث ليس بالقوى وقال البخاري ليس بالقوى عندهم وقال أبو داود وليس بشيء وقال مرة واهى الحديث . وقال النسائي متروك

(١) سورة (يس) : ١٢ .

(٢) تفسير القرطبي (١٥ : ١) م ١٨ .

(٣) سنن الترمذي (٥ : ٣٦٣) . أنظر تحفة الأحوذى (٦ : ٦٤) .

الحديث .. وقال ابن عبد البر : أجمعوا على أنه ضعيف الحديث^(١) .

فالحديث في سنده أبو سفيان السعدي وهو ضعيف . وهو (طريف السعدى) .

قلت : ويؤول الحديث عند قوله (فنزلت هذه الآية) بعبارة (فتلا هذه الآية) والله أعلم .

ويؤيده ما ذهبت إليه الرواية الصحيحة في صحيح مسلم .

أخرج مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله قال : أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد ، قال : والبقاع خالية ، قال فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « يا بنى سلمة دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم » . فقالوا : ما كان يسرنا انا كنا تحولنا^(٢) .

فرواية مسلم ذكرت الحكاية مطلقة . ولم يذكر فيها أن هذه الحكاية كانت سببا في نزول الآية .

وحيث ان رواية الترمذى ضعيفة ورواية مسلم خالية من الآية فإن هذه الآية مكية وبالتالي فالسورة مكية كلها .

وإذا تأملنا سياق الآية مع ما قبلها من الآيات نجد أن الآيات مترابطة كالحلقة يشد بعضها بعضا . وهى أشبه بالبناء الواحد المتكامل المترابط في أجزائه وقد أفصح عن ذلك الرازى في تفسيره للآية .

فقال في الترتيب (أى في ترتيب الآيات) وجوه :

(أحدها) : أن الله تعالى لما بين الرسالة وهو أصل من الأصول الثلاثة التى يصير بها المكلف مؤمنا مسلما ذكر أصلا آخر وهو الحشر .

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى (٥ : ١١ - ١٢) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٥ : ١١٩) .

(وثانيهما) : وهو أن الله تعالى لما ذكر الانذار والبشارة بقوله ﴿ فبشره بمغفرة ﴾ ولم يظهر ذلك بكماله في الدنيا فقال إن لم ير في الدنيا فالله يحیی الموتي ويجزي المنذرين ويجزي المبشرين .
(وثالثها) : أنه تعالى لما ذكر خشية الرحمن بالغيب ذكر ما يؤكدده وهو
| (إحياء الموتي) ^(١) . أ. هـ .
وعليه فالآية مكية كبقية السورة . والله أعلم .

(١) تفسير الرازي (٢٦ : ٤٨) .

(٢٤) سورة الزمر

وهي من السور المكية ، ولقد استثنى منها قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾^(١) .

قال الزركشي : (سورة الزمر مكية غير « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم » الآية)^(٢) .

قلت : أخرج البخاري بسنده عن يعلى : أن سعيد بن جبير أخبره عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن أناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا ، وزنوا وأكثروا فأتوا محمدا ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾^(٣) ، ونزل - ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾^(٤) .

وقد سبق أن بينت في سورة الفرقان أن قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ آية ٦٨ ، انها مكية وذلك لما ورد في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم بسنده عن ابن عباس قال (نزلت هذه الآية بمكة) «والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر» . إلى قوله مهاناً ، فقال المشركون وما يغني عنا الاسلام وقد عدلنا بالله وقد قتلنا النفس التي حرم الله

(١) الزمر : ٥٣ .

(٢) البهان للزركشي (١ : ٢٠٢) .

(٣) الفرقان : ٦٨ .

(٤) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (٣ : ١٧٠) .

وَاتَيْنَا الْفَوَاحِشَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ
قَالَ فَأَمَّا مَنْ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ وَعَقَلَهُ ثُمَّ قَتَلَ فَلَا تَوْبَةَ لَهُ (١) .

فعليه فقوله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ وقوله ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ﴾
قد نزلتا معا في مكة كما نصت رواية البخاري السابقة (فنزل ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ
مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾) ونزل قوله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ وكان ذلك قبل
الهجرة .

وذكر القرطبي في تفسيره وابن حجر في شرحه لصحيح البخاري ورواه ابن
اسحق في السيرة عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال : لما اجتمعنا على الهجرة ،
اتعدت انا وهشام بن العاصي بن وائل السهمي وعياش بن أبي ربيعة بن عتبة ،
فقلنا : الموعد أضاة (٢) بنى غفار . وقلنا : من تأخر منا فقد حبس فليمض
صاحبه ، فأصبحت أنا وعياش بن عتبة وحبس عنا هشام وإذا به قد فتن فافتتن ، فكنا
نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله عز وجل وآمنوا برسوله ﷺ ، ثم افتتنوا لبلاء
لحقهم لا نرى لهم توبة وكانوا هم أيضا يقولون هذا في أنفسهم ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ
وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ
اللَّهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٣) .

قال عمر : فكتبتا بيدى ثم بعثتها إلى هشام . قال هشام : فلما قدمت
علّيت خرجت بها إلى ذى طوى فقلت : اللهم فهمنيتها فعرفت أنها نزلت فينا ،
فرجعت فجلست على بعيري فلحقت برسول الله ﷺ (٤) .

ويوفق بين الحديثين بأنه قد تكون الآية مما تكرر نزوله . والله أعلم .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٨ : ١٥٩) .

(٢) الأضاة أى الغدير .

(٣) الزمر من آية ٥٣ — ٦٠ .

(٤) تفسير القرطبي (١٥ : ٢٦٧ — ٢٦٨) ، فتح الباري (١٠ : ١٧٠) .

(٢٥) سورة غافر

وهى أول سورة فى الحواميم . قال الألوسى : (تسمى سورة غافر وسورة الطول وهى كما روى عن ابن عباس وابن الزبير ، ومسروق وسمرة بن جندب مكية وحكى ابن حبان الاجماع على ذلك . وعن الحسن أنها مكية إلا قوله تعالى ﴿ وسبح بحمد ربك ﴾ ^(١) لأن الصلوات نزلت بالمدينة وكانت الصلاة بمكة ركعتين من غير توقيت وأنت تعلم أن الحق فى قول الأكثرين أن الخمس نزلت بمكة على أنه لا يتعين إرادة الصلاة بالتسبيح فى الآية وقيل : هى مكية إلا قوله تعالى ﴿ إن الذين يجادلون ﴾ ^(٢) الآية فإنها مدنية فقد أخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية وغيره أنها نزلت فى اليهود لما ذكروا الدجال . وهذا ليس بنص على أنها نزلت بالمدينة . قال شيخ الاسلام ابن تيمية : قولهم نزلت الآية فى كذا يراد به تارة سبب النزول ويراد به تارة أن ذلك داخل فى الآية . وإن لم يكن السبب كما تقول عنى بهذه الآية كذا ، وقال الزركشى فى البرهان : قد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال : نزلت الآية فى كذا فإنه يريد أنها تتضمن هذا الحكم . لا أن هذا كان السبب فى نزولها . فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع ^(٣) .

قلت : فعليه فالسورة مكية وقد عقب ابن كثير على الذين قالوا بمدنية الآية قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ الآية ..

قال كعب وأبو العالية نزلت هذه الآية فى اليهود ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ

(١) غافر : ٥٥ والآية هى ﴿ فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار ﴾ .

(٢) غافر : ٥٦ والآية هى ﴿ إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان اتاهم ان فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله انه هو السميع البصير ﴾ .

(٣) تفسير الألوسى (٢٤ : ٣٩) .

فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴿٤﴾

قال أبو العالية : وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم وأنهم يملكون به الأرض فقال الله تعالى لنبيه ﷺ آمرا له أن يستعيد من فتنة الدجال ولهذا قال عز وجل ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

قال ابن كثير : وهذا قول غريب وفيه تعسف بعيد وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم في كتابه والله سبحانه وتعالى أعلم^(١) . ا.هـ .

فعليه فالسورة كلها مكية .

(١) تفسير ابن كثير (٤ : ٨٤) .

(٢٦) سورة الشورى

وهى من السور المكية ولقد استثنى منها أربع آيات قوله ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ ^(١) إلى قوله ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزَلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ ^(٢) .

قال القرطبي : (مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ إلى آخرها وهى ثلاث وخمسون آية) ^(٣) . هـ .

وآخرها قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزَلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ .

أما الآيات من قوله ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُشِرُّ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ ^(٤) الآيات فقد أشار القرطبي وغيره إلى مدنيتهما ولم أجد أثراً يؤيد ما أشاروا إليه بل وجدت خلاف ذلك فى الصحيح ، فقد أخرج البخارى بسنده عن عبد الملك بن ميسرة قال سمعت طاووسا ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : أنه سئل عن قوله — إلا المودة فى القربى — فقال سعيد بن جبير : قرئ آل محمد عليهم السلام ، فقال ابن عباس : عجلت ، أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة ^(٥) .

(١) الشورى : ٢٣ .

(٢) الشورى : ٢٧ .

(٣) القرطبي (١٦ : ١) .

(٤) الشورى : ٢٣ .

(٥) صحيح البخارى بشرح فتح البارى (١٠ : ١٨٥) وسنن الترمذى (٥ : ٣٧٧) وكذلك رواه الامام أحمد فى مسنده وبهامشه الفتح الربانى (١٨ : ٢٦٥) ، تفسير الطبرى (٢٣ : ٢٥) .

قال ابن كثير : والحق تفسير الآية بما فسرهما به حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما رواه البخاري^(١) .

والذين قالوا بمدينة الآفة احتجوا بحديث ذكره الواحدى فى أسباب النزول قال الواحدى : قوله تعالى : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ﴾ قال ابن عباس : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كانت تنوبه نواب وحقوق وليس فى يده لذلك سعة ، فقال الأنصار : إن هذا الرجل قد هداكم الله تعالى به وهو ابن اختكم وتنوبه نواب وحقوق وليس فى يده لذلك سعة ، فاجمعوا له من أموالكم ما لا يضركم فأتوا به ليعينه على ماينوبه ففعلوا ، ثم أتوا به فقالوا : يا رسول الله إنك ابن أختنا وقد هدانا الله تعالى على يدك وتنوبك نواب وحقوق وليست لك عندها سعة فرأينا أن نجمع لك من أموالنا فأناتيك به فتستعين على ما ينوبك وهو هذا فنزلت هذه الآية^(٢) .

قال ابن حجر : بعد أن ذكر الرواية السابقة :

(وهذه من رواية الكلبي ونحوه من الضعفاء) .

ثم قال : والأقوى فى سبب نزولها عن قتادة : قال المشركون : لعل محمدا يطلب أجرا على مايتعاطاه . فنزلت^(٣) .

قال ابن كثير رحمه الله : (وذكر نزولها فى المدينة فيه نظر لأن السورة مكية وليس يظهر بين هذه الآية وهذا السياق مناسبة والله أعلم)^(٤) .

قلت : فالآفة هى والتى تليها من الآيات الثلاث التى نص القرطبى على مدنيتهما هى آيات مكية تبعا للسورة .

(١) تفسير ابن كثير (٤ : ١١٢) .

(٢) أسباب النزول للواحدى بتحقيق الأستاذ سيد صقر (٣٩٥) .

(٣) فتح البارى (١٠ : ١٨٤ - ١٨٥) .

(٤) تفسير ابن كثير (٤ : ١١٢) .

أما قوله تعالى ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾^(١)

قال القرطبي (قيل إنها نزلت في قوم من أهل الصفة تمنوا سعة الرزق وقال خباب بن الارت^(٢) : فينا نزلت ، نظرنا الى أموال بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع فتمنينها ، فنزلت^(٣) .

وأخرج الحاكم بسنده عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : ما أصبح بالكوفة أحد إلا ناعم ان أدناهم منزلة يشرب من ماء الفرات ويجلس في الظل ويأكل من البر وإنما أنزلت هذه الآية في أصحاب الصفة ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾ .
(ذلك أنهم قالوا لو أن لنا فتمنوا الدنيا) .

قال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وذكره الذهبي ورمز له بـ (خ . م) .

قلت : فالآية مدنية . والله أعلم .

(١) الشورى : ٢٧ .

(٢) خباب بن الارت بتشديد المثناة ابن جندلة بن سعد بن خزيمه بن كعب بن سعد بن زيد مناه بن تميم التميمي ويقال الخزاعي أبو عبد الله . سبى في الجاهلية فبيع بمكة فكان مولى ام انمار الخزاعية وقيل غير ذلك ثم حالف بنى زهرة وكان من السابقين الأولين .. وروى البارودي أنه أسلم سادس سنة وهو أول من أظهر إسلامه وعُذِّبَ عَذَاباً شديداً لأجل ذلك .. شهد المشاهد كلها وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين جبر بن عتيك روى عن النبي ﷺ .. مات في الكوفة سنة ٣٧ هـ وعاش ٦٣ سنة .
باختصار من الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (١ : ٤١٦) .

(٣) تفسير القرطبي (١٦ : ٢٧) ، أسباب النزول للواحدي تحقيق السيد صـ ٣٩٥ — ٣٩٦) .

(٢٧) سورة الزخرف

سورة الزخرف من السور المكية وقد نقل القرطبي في تفسيره الإجماع على مكيته فقال : (سورة الزخرف : مكية باجماع) . وقال مقاتل : إلا قوله تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ ^(١) .

قال الطبري : اختلف أهل التأويل في معنى قوله ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك ﴾ من الذين أمر رسول الله ﷺ بمسألتهم ذلك .

فقال بعضهم : الذين أمر بمسألتهم ذلك رسول الله ﷺ ، مؤمنو أهل الكتابين : التوراة ، والإنجيل ، واستشهد بقراءة عبد الله بن مسعود للآية .

فأخرج الطبري بسنده عن مجاهد قال : في قراءة عبد الله بن مسعود ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ ^(٢) .

قال ابن كثير : (وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدي عن ابن مسعود رضي الله عنه . وهذا كأنه تفسير لا تلاوة والله أعلم) ^(٣) .

وقال آخرون : بل الذين أمر بمسألتهم ذلك الأنبياء الذين جمعوا له ليلة أسرى به بيت المقدس . أخرج الطبري بسنده قال ابن وهب : قال ابن زيد في قوله ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك ﴾ الآية قال : جمعوا له ليلة أسرى به بيت المقدس ، فأمهم ، وصلى بهم ، فقال الله له : سلهم ، قال فكان أشد إيماناً وبقينا بالله وبما جاءه من الله أن يسألهم .. الخ) .

قال الطبري : وأولى القولين بالصواب في تأويل ذلك قول من قال عنى به : سل مؤمنى أهل الكتابين ^(٤) .

قلت : فسورة الزخرف مكية كلها .

(١) تفسير القرطبي (١٦ : ٦١) الآية المذكورة رقم : ٤٥ .

(٢) تفسير الطبري (٢٥ : ٧٧) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤ : ١٢٩) .

(٤) تفسير الطبري (٢٥ : ٧٨) .

(٢٨) سورة الجاثية .

وهي من السور المكية . قال القرطبي : مكية كلها في قول الحسن وجابر وعكرمة وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية هي ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾^(١) نزلت بالمدينة في عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ذكره الماوردي . وقال المهدي والنحاس عن ابن عباس : إنها نزلت في عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، شتمه رجل من المشركين بمكة قبل الهجرة ، فأراد أن يبطش به ، فأنزل الله عز وجل ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ ثم نسخت بقوله ﴿ فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾^(٢) . فالسورة كلها مكية على هذا من غير خلاف^(٣) .

وذكر الواحدى ان الآية نزلت في عمر مع عبد الله بن أبى في غزوة بنى المصطلق .

قوله تعالى ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ .. ﴾ الآية أخرج الواحدى قال ابن عباس في رواية عطاء :

يريد عمر بن الخطاب خاصة، وأراد بالذين لا يرجون أيام الله عبد الله بن أبى وذلك أنهم نزلوا في غزوة بنى المصطلق على بشر يقال لها المريسيع ، فأرسل عبد الله غلامه ليستقى الماء ، فأبطأ عليه ، فلما أتاه قال له ما حسبك ؟ قال غلام عمر قعد على فم البشر فما ترك أحدا يستقى حتى ملأ قرب النبى وقرب أبى بكر ، وملأ لمواه فقال عبد الله : ما مثلنا ومثل هؤلاء إلا كما قيل : سمن كلبك يأكلك ، فبلغ قوله عمر رضى الله عنه فاستمل سيفه يريد التوجه إليه ، فأنزل الله

(١) الجاثية : ١٤ .

(٢) التوبة : ٥ .

(٣) تفسير القرطبي (١٦ : ١٥٦) .

هذه الآية^(١) .

وأخرج الواحدى من طريق الثعالبي عن ابن عباس قال :
لما نزلت هذه الآية ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ الله قرضاً حسناً﴾ قال يهودى
بالمدينة يقال له : فنحاص : احتاج رب محمد (قال) : فلما سمع عمر بذلك
استمل على سيفه وخرج فى طلبه ، فجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ
فقال : إن ربك يقول لك : (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) .
واعلم أن عمر قد اشتمل سيفه وخرج فى طلب اليهودى ، فبعث رسول
الله ﷺ فى طلبه ، فلما جاءه قال : يا عمر ضع سيفك قال : صدقت
يا رسول الله أشهد أنك أرسلت بالحق . فإن ربك عز وجل يقول : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ
آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ قال : لا جرم والذى بعثك بالحق لا
ترى الغضب فى وجهى^(٢) .

قلت : فهذان السببان فى جملة ما يشيران إلى أن الآية مدنية والذى عليه
المفسرون أن الآية منسوخة .

فقد أخرج الطبرى عن مجاهد (لا يرجون أيام الله) قال : لا يبالون نعم
الله . وهذه الآية منسوخة بأمر الله بقتال المشركين . وإنما قلنا هى منسوخة لإجماع
أهل التأويل على أن ذلك كذلك^(٣) .

وقال ابن كثير فى تفسيره للآية : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ
لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ . أى ليصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم وكان هذا فى
ابتداء الإسلام أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك
كالتأليف لهم ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجهاد والجهاد . هكذا

(١) أسباب النزول للواحدى تحقيق الأستاذ السيد صقر (ص ٣٩٩) ، تفسير القرطبى (١٦ : ١٦١) .

(٢) أسباب النزول للواحدى (ص ٤٠٠) تحقيق الأستاذ سيد صقر .

(٣) تفسير الطبرى (٢٥ : ١٤٤) .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة^(١) .
فعليه فالذى أرجحه أن الآية مكية تبعا للسورة . فسورة الجاثية مكية
كلها . والله أعلم .

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٤ : ١٤٩) .

(٢٩) سورة الاحقاف

سورة الأحقاف من السور المكية وهى خاتمة الحواميم . ولقد استثنى منها قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَّا وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

قال الزركشى (الحواميم كلها مكيات ، غير آية فى الاحقاف نزلت فى عبد الله بن سلام (٢) ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ (٣) .

قال القرطبى فى مقدمة تفسيره للسورة (مكية فى قول جميعهم وهى أربع وخمسون آية وقيل خمس) (٤) .

قال ابن كثير فى تفسيره للآية : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وهذا الشاهد اسم جنس يعمر عبد الله بن سلام رضى الله عنه وغيره . فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبد الله بن سلام رضى الله عنه وهذه كقوله تبارك وتعالى ﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ (٥) وقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ (٦) .

(١) الاحقاف : ١٠ .

(٢) عبد الله بن سلام بن الحارث أبو يوسف من ذرية يوسف النبى عليه السلام حليف النوافل من الخزرج الاسرائيلى ثم الانصارى .. يقال كان اسمه الحصين فغيره النبى صلى الله عليه وآله وسلم وجزم بذلك الطبرى .. أسلم أول ما قدم النبى ﷺ المدينة قال الطبرى مات فى قول جميعهم بالمدينة سنة ٤٣ هـ .

باختصار من الاصابة فى تمييز الصحابة (٢ : ٣٢٠) .

(٣) البهان (١ : ٢٠٢) .

(٤) القرطبى (١٦ : ١٧٨) .

(٥) القصص : ٥٣ .

(٦) الامراء : ١٠٧ — ١٠٨ .

قال مسروق والشعبي ليس بعبد الله بن سلام ، هذه الآية مكية وإسلام عبد الله بن سلام رضى الله عنه كان بالمدينة رواه عنهما ابن جرير وابن أبي حاتم واختاره ابن جرير^(١) .

قلت : وهذا الذى ذهب إليه ابن كثير هو الذى أرجحه .
والذى أحدث الاختلاف حول مكية الآية الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى فى مناقب عبد الله بن سلام رضى الله عنه :

حدثنا عبد الله بن يوسف قال : سمعت مالكا يحدث عن أبى النضر مولى عمر بن عبيد الله عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال : ما سمعت النبى ﷺ يقول لأحد يمشى على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام قال : وفيه نزلت هذه الآية . وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله .. الآية .. إلى آخر الحديث^(٢) .

وقد أخرج الحديث بنصه مسلم فى صحيحه^(٣) .

وقد استنكر الشعبى فيما رواه بن حميد عن النضر بن شميل عن ابن عون عنه نزولها فى عبد الله بن سلام . لأنه إنما أسلم بالمدينة والسورة مكية . فأجاب ابن سيرين بأنه لا يمتنع أن تكون السورة مكية وبعضها مدنى وبالعكس وهذا جزم أبو العباس فى مقامات التنزيل ، فقال الاحقاف مكية إلا قوله — وشهد شاهد — إلى آخر الآيتين . انتهى .. وقد جمع ابن حجر رحمه الله بين الأقوال بقوله : ولا مانع أن تكون جميعها مكية وتقع الإشارة فيها إلى ما سيقع بعد الهجرة من شهادة عبد الله بن سلام^(٤) .

(١) تفسير ابن كثير (٤ : ١٥٦) .

(٢) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٨ : ١٢٩) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى (١٦ : ٤١) .

(٤) فتح البارى (٨ : ١٢٩ — ١٣٠) .

(٣٠) سورة (ق)

سورة (ق) من السور المكية المبتدئة بحرف المعجم .

واستثنى منها قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾^(١) فقد وردت الآثار في أن نزولها بسبب سؤال اليهود عن الأيام الستة .

أخرج الطبري بسنده حدثنا ابن حميد قال ثنا مهران ، عن ابى سنان عن أبى بكر قال جاءت اليهود إلى النبی ﷺ فقالوا : يا محمد أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة ؟ فقال : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء ، وخلق السموات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات ، يعنى من يوم الجمعة وخلق في أول الثلاث الساعات الآجال ، والثانية الآفة ، وفي الثالثة آدم ، قالوا : صدقت إن أتممت ، فعرف النبي ﷺ ما يريدون ، فغضب فأنزل الله ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾^(٢) .

قال القرطبي : قال قتادة والكلبي : هذه الآية نزلت في يهود المدينة ، زعموا أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ، فجعلوه راحة فأكذبهم الله تعالى في ذلك^(٣) . قال ابن كثير : قال قتادة : قالت اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت وهم يسمونه يوم الراحة فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه^(٤) .

(١) آية رقم : ٣٨ .

(٢) تفسير الطبري (٢٦ : ١٧٨) المستدرک للحاکم (٢ : ٤٥٠) أسباب النزول للواحدي (ص ٢٢٠)

بتحقيق السيد صقر ، لباب القول للسيوطي (ص ٢٠٠) .

(٣) تفسير القرطبي (١٧ : ٢٤) .

(٤) تفسير ابن كثير (٤ : ٢٢٩) .

قلت : والذى يظهر لى (والله أعلم) أن الآية مكية تبعا للسورة فإن الآثار الواردة فيها ضعيفة ومن تلك الآثار ما رواه الواحدى بسنده عن أبى سعيد البقال عن عكرمة عن ابن عباس أن اليهود أتت النبى ﷺ ، فسألت عن خلق السموات والأرض فقال : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء (وما فيهن من المنافع) وخلق يوم الأربعاء (الشجر والماء) وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر . قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد ؟ قال : ثم استوى على العرش . قالوا : قد أصبت لو أتممت ثم استراح فغضب رسول الله ﷺ غضبا شديدا ، فنزلت ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ . فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ .

قلت : هذا السند فيه (أبو سعد البقال) وهو سعيد بن المرزبان العيسى كما فى تهذيب التهذيب . قال : سعيد بن المرزبان العيسى (أبو سعد البقال الكوفى الأعور مولى حذيفة . روى عن أنس وأبى وائل وأبى عمرو الشيبانى وعكرمة ..

قال أحمد بن أبى سهم عن ابن معين ليس بشيء^(١) وقال عمرو بن على ضعيف الحديث متروك الحديث وقال أبو زرعة لين الحديث مدلس وقال البخارى منكر الحديث . وقال أبو حاتم لا يحتج بحديثه^(٢) .

فالحديث الذى رواه الواحدى ضعيف لا يحتج به .

وقد تبين لنا ضعف حديث الواحدى وكذلك قول ابن كثير مروى عن الكلبي وهو من الضعفاء^(٣) فهناك حديث صحيح مخالف للرواية من جهتين :

(١) قال ابن معين فى كتابه التاريخ : سعيد بن المرزبان هو أبو سعد البقال ، وليس بشيء (٢ : ٢٠٧)

يحى بن معين وكتابه التاريخ دراسة وترتيب وتحقيق د. أحمد نور سيف ، ط/ الأولى ، من مطبوعات مركز البحث العلمى — كلية الشريعة — مكة المكرمة .

(٢) تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى (ص ٧٩ م ٤) .

(٣) أنظر فتح البارى (١٠ : ١٨٥) .

أولاً : أن قول الرسول ﷺ الذى قال عن ابتداء الخلق لم يكن نتيجة سؤال اليهود .

ثانياً : ان أول الحديث (خلق الله عز وجل التربة يوم السبت) وجميع تلك الآثار ذكرت أنه لم يكن يوم السبت خلق لشيء من المخلوقات بما دعا اليهود أن يقولوا قولهم القبيح إن الله عز وجل استراح يوم السبت فهو يوم الراحة تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

وإليك الحديث بنصه كما رواه مسلم فى صحيحه .

حدثنى سريج بن يونس وهارون بن عبد الله . قالأ : حدثنا حجاج بن محمد قال : ابن جريج : أخبرنى اسماعيل بن أمية بن خالد عن عبد الله بن رافع ، مولى أم سلمة عن أبى هريرة قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال (خلق الله عز وجل التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة فى آخر الخلق . فى آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل^(١) .

وللرازى كلام نفيس أعجبني وهو يؤيد ما ذهبت إليه من أن الآية مكية .

قال الرازى : قال بعض المفسرين المراد من الآية الرد على اليهود حيث قالوا بدأ الله تعالى خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه فى ستة أيام آخرها يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على عرشه فقال تعالى (وما مسنا من لغوب) ردا عليهم .

والظاهر أن المراد الرد على المشرك والاستدلال بخلق السموات والأرض وما بينهما وقوله (وما مسنا من لغوب) أى ما تعبنا بالخلق الأول حتى لا نقدر على الاعادة ثانياً والخلق الجديد . كما قال تعالى (أفعبينا بالخلق الأول) .

وأما ما قاله اليهود ونقلوه من التوراة فهو إما تحريف منهم أو لم يعلموا تأويله وذلك لأن الأحد والاثنين أزمنة متميز بعضها عن بعض ، فلو كان خلق السموات

(١) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٤ : ٢١٤٩) .

ابتدىء يوم الأحد لكان الزمان متحققا قبل الأجسام والزمان لا ينفك عن الأجسام فيكون قبل خلق الأجسام أجسام آخر فيلزم القول بقدم العالم وهو مذهب الفلاسفة ..

وقال قبل هذه الأسطر السابقة في تفسير قوله (ستة أيام) إشارة إلى ستة أطوار والذى يدل عليه ويقرره هو أن المراد من الأيام لا يمكن أن يكون هو المفهوم في وضع اللغة لأن اليوم عبارة في اللغة عن زمان مكث الشمس فوق الأرض من المطلع إلى الغروب وقبل خلق السموات لم يكن شمس ولا قمر لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت ^(١) .أ.هـ .

ومما يؤيد ما أشرت إليه من كون الآية مكية ارتباطها بما بعدها وهى قوله تعالى (فاصبر على ما يقولون) خطاب للنبي ﷺ أمره بالصبر على ما يقوله المشركون . أى هون أمرهم عليك ^(٢) .

وذلك أنهم أنكروا البعث والرسالة وآذوه هو وأصحابه .

وقوله تعالى (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) آية ٣٩ .

قال ابن كثير : كانت الصلاة المفروضة قبل الاسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر وقبل الغروب في وقت العصر .

قلت : وهى نظير قوله تعالى في سورة غافر المكية ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ ^(٣) وقد سبق أن فصلت فيها القول ^(٤) .

وأخيراً فإن سورة (ق) كلها مكية ، والله أعلم .

(١) تفسير الرازى (٢٨ : ١٨٤ ط/الثانية .

(٢) تفسير القرطبي (١٧ : ٢٤٠) .

(٣) غافر : ٥٥ .

(٤) راجع ص ١٩٤ من بحثنا هذا .

(٣١) سورة النجم

وهى من السور المكية قال القرطبي : مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية منها وهى قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ ﴾ ^(١) .

والآية الكريمة ﴿ الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ .

قال القرطبي : ذكر مقاتل بن سليمان أن هذه الآية نزلت فى رجل كان يسمى نهبان التمار ، كان له حانوت يبيع فيه تمرا ، فجاءته امرأة تشتري منه تمرا فقال لها : إن داخل الدكان ما هو خير من هذا ، فلما دخلت راودها فأبت وانصرفت فندم نهبان ، فأتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله .. ما من شيء يصنعه الرجل إلا وقد فعلته إلا الجماع ، فقال : لعل زوجها غاز فنزلت هذه الآية ^(٢) .

فدل هذا الأثر على مدنية الآية .

قال ابن حجر فى الإصابة بعد أن ذكر هذه القصة : (هكذا أخرجه عبد الغنى بن سعيد الثقفى فى تفسيره عن موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس مطولا ومقاتل متروك والضحاك لم يسمع عن ابن عباس وعبد الغنى وموسى هالكان وأورد هذه القصة الثعلبى والمهدوى ومكى والمأوردى فى تفسيرهم بغير سند ^(٣) .

(١) النجم : ٣٢ .

(٢) تفسير القرطبي (١٧ : ١٦) .

(٣) الإصابة فى تمييز الصحابة لشهاب الدين ابى الفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى (٣ :

٥٥٠) وبهامشه الاستيعاب فى معرفة الاصحاب .

قلت : فالأثر الذى رواه مقاتل ضعيف والآية مكية تبعا للسورة والله أعلم .

قال القرطبي : والصحيح أنها (أى السورة) مكية لما روى عن ابن مسعود أنه قال : هى أول سورة أعلنها رسول الله ﷺ بمكة^(١) .

وقد ورد الحديث الصحيح فى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس^(٢) . فدل على أن السورة كلها مكية .

* * *

(١) تفسير القرطبي (١٧ : ٨١) .

(٢) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (١٠ : ٢٣٧) .

(٣٢) سورة القمر

وهى من السور المكية . قال القرطبي : مكية كلها فى قول الجمهور .
وقال مقاتل (إلا ثلاث آيات من قوله تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ
منتصر ﴾^(١) إلى قوله « والساعة أدهى وأمر »^(٢) ولا يصح على ما يأتى) .

قلت : الآيات التى أشار إليها مقاتل بأنها مستثناة ورد فيها الحديث
الصحيح الذى أخرجه البخارى بسنده عن يوسف بن ماهك^(٣) قال : إني عند
عائشة أم المؤمنين قالت : لقد أنزل على محمد ﷺ بمكة وإني جارية ألعب بل
الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر^(٤) .

فسورة القمر كلها مكية . والله أعلم ..



(١) القمر : ٤٤ .

(٢) القمر : ٤٦ .

(٣) يوسف بن ماهك الفاريسى المكى مولى قريش روى عن أنى هريرة وعائشة وحكيم بن حزام وغيرهم قال
ابن معين والنسائى ثقة وذكره ابن حبان فى الثقات مات سنة ثلاث ومائة .

أنظر تهذيب التهذيب (١١ : ٤٢٢) .

(٤) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (١٠ : ٢٤٣) .

(٣٣) سورة الواقعة

وهى من السور المكية . قال القرطبي : (مكية فى قول الحسن وعكرمة وجابر وعطاء) وقال ابن عباس وقتادة إلا آية منها نزلت بالمدينة قوله ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ ^(١) .

أخرج مسلم فى صحيحه بسنده عن ابن عباس قال : مطر الناس على عهد النبى ﷺ . فقال النبى ﷺ « أصبح من الناس شاكرو ومنهم كافر قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم : لقد صدق نوء كذا وكذا » .

قال فنزلت هذه الآية (فلا أقسم بمواقع النجوم — حتى بلغ — وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) ^(٢) .

قلت : هذه الرواية السابقة لم تحدد زمن الحادثة فالظاهر أن الآيات مكية ووقوع الحادثة المذكورة فى الرواية كان بمكة .

أما الرواية الأخرى المذكورة فى البخارى ومسلم وغيرهما الشبهة لها والتى وقعت فى الحديثية ولم تنص على نزول آيات بسببها فالذى يظهر لى (والله أعلم) أنها حادثة أخرى تكررت ولم تنزل بصدها آيات اكفاء بما نزل أولا قبل الهجرة .

أخرج البخارى ومسلم واللفظ للبخارى عن زيد بن خالد الجهنى ^(٣) أنه قال صلى لنا النبى ﷺ الصبح بالحديثية على أثر سماء ^(٤) كانت من الليلة ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا الله ورسوله

(١) تفسير القرطبي (١٧ : ١٩٤) .

(٢) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (١ : ٨٤) .

(٣) ترجمة زيد بن خالد الجهنى مختلف فى كنيته أبو زرعة وأبو عبد الرحمن وأبو طلحة .. روى عن النبى ﷺ وعن عثمان وأبي طلحة وعائشة . شهد الحديثية وكان معه لواء جهينة يوم الفتح وحديثه فى الصحيحين وغيرهما . قال ابن البرقي وغيره : مات سنة ثمان وسبعين بالمدينة وله خمس وثمانون .

الاصابة لابن حجر العسقلاني (١ : ٥٦٥) .

(٤) أى عقب مطر .

أعلم . قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله
ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب . وأما من قال بنوء كذا وكذا فذلك كافر
بى ومؤمن بالكواكب^(١) .

وزيادة على هذا فوجود القسم فى هذه الآيات مع كون السورة تحدثت عن
أقسام أهل الجنة وأهل النار ثم الكلام على آيات الله فى خلق الانسان وامتنانه عليه
بما سخر له فى الكون ثم الاستدلال على إمكان البعث، وأن الانسان محاسب يوم
القيامة على ما قدم من خير أو شر كل ذلك وغيره من علامات مكية السورة .
والله أعلم .

(١) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٢ : ٤٧٨) ، صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي
(١ : ٨٣) ، موطأ الامام مالك تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (١ : ١٩٢) .

(٣٤) سورة الماعون

وهى من السور المكية وقد فصل الألوسى القول فى السورة على ثلاثة أقوال :

قال الألوسى : وتسمى سورة أرأيت ، والدين ، والتكذيب .

أولاً : وهى مكية فى قول الجمهور . وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس وابن الزبير كما فى الدر المنثور .

ثانياً : وفى البحر المحيط أنها مدنية فى قول ابن عباس وقتادة وحكى ذلك عن الضحاك .

ثالثاً : وقال هبة الله بن سلام المفسر الضريع نزل نصفها بمكة فى العاص ابن وائل ونصفها فى المدينة فى عبد الله بن أبى المنافق (١) .

قلت : والذى أرجحه أن السورة كلها مكية . والذين قالوا بمدنية نصفها الآخر اعتماداً على أن الآيات ﴿ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (٢) نزلت فى المنافقين والنفاق لم يظهر إلا فى المدينة .

قال ابن حجر : (لا مانع أن تكون جميعها (أى السورة) مكية وتقع الإشارة فيها إلى ماسيق بعد الهجرة) (٣) . فلا يمنع أن تشير هذه السورة المكية إلى ماسيق من النفاق فى أداء الصلاة واللغو عنها أو أدائها لغير وقتها . أو منع الماعون وهو ما يعار . ثم ليس هناك ما يمنع أن ينهى القرآن عن شيء من ترك الواجبات أو فعل المنهيات قبل أن يقع بين الأمة .

(١) تفسير الألوسى (٣ : ٢٤١) .

(٢) من آية ٤ الى آية ٧ .

(٣) فتح البارى (٨ : ١٣٠) .

(٣٥) سورة الكوثر

وهى من السور المكية المختلف فيها . واحتج من قال بمدنيتها بالحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا اذ أغفى اغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما . فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله . قال (أنزلت على آنفنا سورة فقرا « بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿ إِنَّا أُعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَالْحَرِّ . إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ » ثم قال أتدرون ما الكوثر ؟ فقلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير . هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة . آيته عدد النجوم . فيختلج العبد منهم . فأقول : رب إنه من أمتى فيقول : ما تدرى ما أحدثت بعدك » .

زاد ابن حُجْر في حديثه : بين أظهرنا في المسجد . قال : « ما أحدث بعدك »^(١) .

فدل الحديث على أن نزول السورة كان في المدينة . لقوله (بين أظهرنا في المسجد) وراوى الحديث أنصارى .

وقد استدل على مكية السورة بما جاء في تفسير السورة :
(إن شائتك) قال ابن عباس أى عدوك^(٢) .

(هو الأبتَر) الذى لا عقب له حيث لا يبقى منه نسل .

قال الألوسى : والجمهور على نزولها في العاص بن وائل^(٣) .

(١) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (١ : ٣٠) دار احياء التراث العربى .

(٢) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (١٠ : ٣٦٢) .

(٣) تفسير الألوسى (٣٠ : ٢٢٤) .

فآلايات في معانيها وألفاظها وأسلوبها تدل على مكيتها .
ويجمع بين القول بمكيتها والحديث الصحيح الذي رواه مسلم بتكرار نزولها
في مكة والمدينة .
قال الألوسي : (وفي أخبار سبب النزول وما يقتضي كلا من القولين ..
استشكل أمرها وذكر الخفاجي^(١) أن لبعضهم تأليفا صحح فيه أنها نزلت مرتين
وحيث فلا إشكال)^(٢) .

-
- (١) الشهاب الخفاجي (٩٧٧ — ١٦٦٩ هـ) أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري
قاضى القضاة وصاحب التصانيف فى الأدب واللغة نسبته الى قبيلة خفاجة ، ولد ونشأ بمصر . من
أشهر كتبه (ربحانة الألبانى) ، (شفاء العليل) ، (عناية القاضى وكفاية الراضى حاشية
البيضاوى) .
باختصار من الاعلام للزركلى (١ : ٢٣٨) .
(٢) تفسير الألوسى (٣٠ : ٢٢٤) .

ثانياً : الآيات المكية في السور المدنية

سبق أن تحدثنا في مقدمة هذا الفصل عن ترتيب القرآن الكريم سوره وآياته^(١) .

والخلاصة : أن ترتيب القرآن الكريم توقيفى في ترتيب آياته وسوره فإذا ما وجدت آيات مدنية في سورة مكية أو آيات مكية في سورة مدنية فهذا بأمر الله تعالى . وليس لنا فيه رأى . اللهم إلا العلم بأن هذه الآيات مكية أو مدنية . والآيات المكية في السور المدنية معدودة ونادرة .

قال ابن حجر (وقد اعتنى الائمة ببيان ما نزل من الآيات بالمدينة في السور المكية وأما عكس ذلك وهو نزول شيء من سوره بمكة تأخر نزول تلك السورة إلى المدينة فلم أراه إلا نادرا)^(٢) .

ومن بين تلك السور المدنية التى قيل إن فيها آيات مكية :

(١) سورة الأنفال ، (٢) سورة التوبة .

(١) أنظر (ص ١١٧ — ١٢٠) من بحثنا هذا .

(٢) فتح البارى (١٠ : ٤١٧) .

(١) سورة الأنفال

سورة الأنفال من السور المدنية وتسمى أيضا بالبدرية .

قال القرطبي : (سورة الأنفال مدنية بدرية في قول الحسن وعكرمة وعطاء . وقال ابن عباس هي مدنية إلا سبع آيات من قوله تعالى ﴿ واذا يكر بك الذين كفروا ﴾ إلى آخر السبع الآيات ^(١) .

والآيات الكريمة من قوله تعالى ﴿ واذا يكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين . وإذا ثلثي عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لئ نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله لمعذبهم وهم يستغفرون . ما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصعدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون . وما كان صلاحهم عند النبي إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ^(٢) .

فهذه الآيات أشار ابن عباس وغيره إلى أنها آيات مكية في سورة الأنفال المدنية .

قال الزركشي ^(٣) : (الآيات المكية في السور المدنية) منها قوله تعالى في الأنفال ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ ^(٤) .

(١) تفسير القرطبي (٧ : ٣٦٠) .

(٢) الأنفال : ٣٠ - ٣٦ .

(٣) البرهان للزركشي (١ : ٢٠٢) .

(٤) الأنفال : ٣٣ .

قلت : والذي يظهر لى أن الآيات كلها مدنية تبعا للسورة .
والذى أحدث هذا الاستثناء فى الآيات هو ما تدور حوله الآيات من المعنى
والحديث عما ما قاماه الرسول ﷺ من مشركى مكة من مكهم وتكذيبهم
للوحى وتحديهم لخالفهم ، وهم أضعف الأمم السابقة التى عتت عن أمر رها .
قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا
وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴾ (١) . صدق الله العظيم .

ثم وصف صلاتهم وعبادتهم الفاسدة التى كانوا يؤدونها من التصغير
والتصفيق (٢) .. الخ .

فهذه الآيات فى ظاهر معناها وسياقها أنها مكية . ولا يمنع أن تكون مدنية
وقد تضمنها تذكير الرسول ﷺ بحاله مع قومه عند أول نصر له عليهم يوم بدر .
فقوله تعالى ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾ الآية ...

عن ابن عباس فى قوله (إذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك) قال تشاورت
قريش ليلة بمكة فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبى ﷺ . وقال
بعضهم بل أقتلوه ، وقال بعضهم بل أخرجوه فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك
فبات على فراش النبى ﷺ تلك الليلة وخرج النبى ﷺ حتى لحق بالغار
وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبى ﷺ فلما أصبحوا ساروا إليه فلما رأوا
علياً رد الله مكهم فقالوا أين صاحبك هذا ؟ قال لا أدرى ، فاقتصوا أثره فلما
بلغوا الجبل خلط عليهم فصعدوا فى الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابـه نسج
العنكبوت فقالوا : لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابـه فمكث فيه
ثلاث ليال (٣) .

(١) الروم : ٩ .

(٢) قال صاحب الكشاف : المكاء فعال يوزن الثغاء والرغاء من مكاء إذا صفر (فهو التصغير) أما

التصدية : التصفيق تفعله من الصدى أو من صد يصد .. الكشاف (٢ : ١٥٦) .

(٣) مسند الإمام أحمد وبهامشه الفتح الربانى (١٨ : ١٥١) .

قال صاحب الفتح الرباني : (لما فتح الله على نبيه ﷺ ونصره يوم بدر على كفار مكة ذكره بمكر قريش حين كانوا بمكة ليشكر نعمة الله في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم فقال عز من قائل واذكر يا محمد (إذ يمكر بك الذين كفروا) وقد اجتمعوا للمشاورة في شأنك بدار الندوة (ليثبتوك) أى يوثقوك بالحبال ويحبسوك .. (أو يقتلوك) كلهم قتلة رجل واحد .. (أو يخرجوك) من مكة .. (١) .

وذكر ابن كثير القصة السابقة مطولة عن ابن عباس وفي نهايتها (وأخبرو بمكر القوم فلم يبت تلك الليلة وأذن له بالخروج وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده) (٢) .

وذكر السيوطي هذه القصة مطولة وفي آخرها يقول « وأذن الله له عند ذلك في الخروج وأنزل عليه بعد قدومه المدينة يذكره نعمته عليه (وإذ يمكر بك الذين كفروا ..) الآية (٣) .

وقد سبق الآيات الكريمة آيات مشابهة لها في مقام التذكير مما يؤكد أن سياق الآيات هو تذكير الرسول ﷺ بما كان من شأن قومه وما لاقاه منهم وكيف كان حاله مع قومه في بداية الرسالة وكيف مكنه الله منهم وأبدله بعد الضعف قوة ليشكر الله عز وجل على هذه النعم . قال تعالى ﴿ واذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٤) .

وما أسلفته في الآية الكريمة (وإذ يمكر بك الذين كفروا) ينطبق عليه في الآيات التي تليها فقولته (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من

(١) الفتح الرباني شرح مسند الامام أحمد تأليف أحمد عبد الرحمن البنا (١٨ : ١٥١) .

(٢) تفسير ابن كثير (٢ : ٣٠٣) .

(٣) أنظر لباب النقول (ص ١٠٩ — ١١٠) .

(٤) الانفال : ٢٦ .

عندك ...) الآية . هو من مقام التذكير أى واذكر إذ قالوا اللهم إن كان هذا .. الآيات .

(وقوله «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم» اللام لتأكيد النفى على أن تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة لأن عادة الله وقضية حكمته أن لا يعذب قوما عذاب استئصال مادام نبهم بين أظهرهم ... » وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » في موضع الحال ومعناه نفى الاستغفار عنهم . أى ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم .. ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون ولا يتوقع ذلك منهم ^(١) .

وقوله في نهاية الآيات ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ .

وردت آثار تفيد أنها نزلت بسبب اجتماع أهل مكة بعد هزيمتهم يوم بدر وذهابهم إلى أبنى سفیان يطلبون منه المساعدة هو ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة للاعانة على حرب الرسول ﷺ لعلهم يصيبون ثأراً بمن أصيب منهم يوم بدر ذكر ذلك ابن اسحق ^(٢) .

وردت آثار أخرى أنها نزلت في المطعمين يوم بدر وعلى كلا القولين فالآية مدنية .

ولقد استثنى بعض المفسرين قوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ ^(٣) الآية وصححه ابن العري وغيره وقالوا : ويؤيده ما أخرجه البزار عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت لما أسلم عمر رضى الله عنه ^(٤) . فعليه فالآية مكية .

(١) باختصار من تفسير الكشاف لأبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧ — ٥٣٨ هـ) (٢ : ١٥٥) ط/ دار الفكر الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ .

(٢) تفسير ابن كثير (٢ : ٣٧) .

(٣) الانفال : ٦٤ .

(٤) راجع الاتقان (١ : ١٥) ، الألبوسى (٩ : ١٥٧) .

قال الرازى : (هذه الآية نزلت بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال والمراد بقوله « ومن اتبعك من المؤمنين » الأنصار^(١) . قال الألوسى والظاهر شمولها للمهاجرين والأنصار ، وعن الزهرى أنها نزلت فى الأنصار^(٢) .

قلت ورواية البزار ضعيفة . قال السيوطى (روى البزار بسند ضعيف من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : لما أسلم عمر رضى الله عنه قال المشركون : قد انتصف القوم منا اليوم وأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾^(٣) .

قال ابن كثير فى تفسيره للآية (يحرض تعالى نبيه ﷺ على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران ويخبرهم أنه حسبهم أى كافهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم وإن كثرت أعداؤهم وترادفت أمدادهم . ولو قل عدد المؤمنين . ثم ساق أثرا مرويا عن ابن أبى حاتم بسنده عن الشعبى فى قوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال حسبك الله وحسب من شهد معك^(٤) .

فعليه فالآية مدنية تبعا للسورة . وسورة الأنفال كلها مدنية والله أعلم .

(١) تفسير الرازى (١٥ : ١٩١) .

(٢) تفسير الألوسى (١٠ : ٣٠) .

(٣) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى (ص ١١٣) .

(٤) تفسير ابن كثير (٣٢٤) .

(٢) سورة التوبة

سورة التوبة مدنية وقال القرطبي : مدنية باتفاق .

وقال الألوسي : مدنية كما روى عن ابن عباس وعبد الله بن الزبير وقتادة وخلق كثير وحكى بعضهم الاتفاق عليه . وقال ابن الغرس : هي كذلك إلا آيتين منها ﴿ لقد جاءكم رسول ﴾ ﴿ من أنفسكم ﴾ ... إلخ . وهو مشكل بناء على ما في المستدرک عن أنى بن كعب .

وأخرجه أبو الشيخ في تفسيره عن علي بن زيد عن يوسف المكي عن ابن عباس رضي الله عنهما من أن آخر آية نزلت ﴿ لقد جاءكم رسول ﴾ ﴿ إلخ ، ولا يتأق هنا ما قالوه في وجه الجمع بين الأقوال المختلفة في آخر ما نزل ^(١) .

قلت : سورة التوبة كلها مدنية . وقد نص الحديث الصحيح على مدنيتهما (أخرج البخاري بسنده عن أنى اسحاق قال : سمعت البراء رضي الله عنه يقول آخر آية نزلت — يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله — ^(٢) وآخر سورة نزلت براءة ^(٣)) .

قال ابن حجر : وأصح الأقوال في آخر الآية قوله تعالى ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ﴾ ^(٤) .

ويوفق بين آية النساء وآية البقرة أن آية النساء آخر ما نزل في شأن الموارث .

فإذا ثبت أن سورة التوبة من أواخر ما نزل من السور دل ذلك على مدنيتهما لأن أواخر حياته ﷺ كانت في المدينة .

(١) تفسير الألوسي (١٠ : ٤٠) .

(٢) النساء : ١٧٦ .

(٣) صحيح البخاري وبهامشه فتح الباري (٩ : ٣٨٦) .

(٤) البقرة : ٢٨١ ، انظر فتح الباري (٩ : ٢٧١ — ٢٧٢) .

ولقد استثنى من السورة الكريمة قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ (١) الآيتين فقليل لأنها نزلت في مكة .

ويجاب بأن الآية في عداد الآيات التي ورد بأنها من أواخر الآيات نزولا في القرآن . أخرج الحاكم في المستدرك عن أبي بن كعب قال آخر آية نزلت ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ..﴾ (٢) إلى آخر السورة .

قال الحاكم حديث شعبة عن يونس بن عبيد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وأقره الذهبي .

(وروى ابن مردويه عن أبي قال : آخر القرآن عهدا بالله هاتان الآيتان ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ .)
(ويجاب عنه بأنهما آخر ما نزل من سورة براءة ، أو أنه أخبر بذلك بحسب ظنه واجتهاده) (٣) .

قلت : وأخرجه أيضا الإمام أحمد في المسند عن ابن عباس عن أبي قال آخر آية نزلت ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ الآية (٤) . فدل أن الآيتين مدينتان تبعا للسورة . والله أعلم ..

ولقد استثنى من السورة قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (٥) .

أخرج البخاري بسنده عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال النبي ﷺ : أي عم قل لا اله إلا الله أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال النبي ﷺ

(١) التوبة ١٢٨ — ١٢٩ .

(٢) المستدرك للحاكم (٢ : ٣٣٨) .

(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم الدكتور محمد أبو شبة (١٢٣) .

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه الفتح الرباني (١٨ : ١٧٤) .

(٥) التوبة : ١١٣ .

لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَهْنِ عَنْكَ ، فَتَزِلْتُ ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا
لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ ﴾ ^(١) .

فعلیه فالآية مكية . والله أعلم .

(١) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٩ : ٤١١) .

الفصل الرابع
دحض الشبه التي اثيرت حول المديني والمكي
من القرآن

الفصل الرابع
دحض الشبه التي أثبت حول المدنى والمكى
من القرآن الكريم

لمحة موجزة عن المستشرقين

لقد دأب الملاحدة وأعداء الدين من المستشرقين والمبشرين وأذئابهم على تشكيك المسلمين في دستورهم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ذلك الكتاب الذى أعجز بلغاء العرب وفصحاءهم .

وطبعى كان هدفهم فتنة المؤمنين عن دينهم ، وزعزعة ثقتهم في كتاب ربهم وبث الفرقة في صفوفهم ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾^(١) .

والدارس لكتبهم ومؤلفاتهم تتجلى له أساليبهم المُقنَّعة والتي اعتادوها — إلا من أرحم الله — للنيل من الاسلام وتعاليمه ومقدساته .

فهم عندما يبدأون بحوثهم يبدأونها بحملتهم على من سبقهم من الدارسين — أسلافهم — وأنهم ما أنصفوا ولا تحروا الصواب . وغلبت عليهم العصبية والتأثر بالعواطف الدينية وما أشبه بهذا التحايل — مما يجعل ذلك القارىء يثق فيهم كل الثقة ويعتقد كل الاعتقاد أن ما جاء به هذا الكاتب هو عين الصواب الذى سيجعل الحق في النصاب . فيلقى للقارىء بكل سلاح يصلح للمعارضة

(١) التوبة : ٣٢ .

والتشكيك . فيسلم له القياد ثم بعد هذا يلقي بسمومه فيقول^(١) إن القرآن في أول سورة يوضح أن كل نبي أرسل إلى قومه فيقول (رسول الى فرعون) وقوم نوح ، ومثل هذا محمد .

إذا لم يكن بدعا من الرسل على حد تعبير القرآن ، فهل كان مرسلًا إلى عموم البشر ؟ لا بل إلى أهل مكة خاصة .
ومعلوم أن كلامه هذا يخالف أعظم قواعد الدين وأصوله . ويناقض الفكر الاسلامي تماما .

ومن أشهر المستشرقين الذين كان لهم الصيت البعيد والجهود العظيمة في الاسلام والحديث الأستاذ ونسك (أستاذ كرسى اللغة العربية بجامعة لندن) صاحب كتاب مفتاح كنوز السنة والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث الذى جمع فيه الألفاظ الهامة للحديث من الكتب الستة ومسند أحمد وموطأ مالك وسنن الدارمى ورتبه على حروف المعجم . والذى اشتهر بالانصاف والاتزان عند كثير من الدارسين . نشاهد له موقفا غريبا يناقض تماما موقفه من الحديث إذ ادعى أن الرسول ألف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التى سبقته ، وعلى أثر اعلان هذا الرأى طرد من الجمع اللغوى المصرى ورأى الاسلام فى هذا واضح معروف .

وهذه الدكتورة (لورا فاجليرى) الاستاذة بمعهد الدراسات الشرقية بميلانو والنسب قالوا عنها : إنها قد وضعت العدل والانصاف نصب عينها فى مناقشتها للقيم الاسلامية وكأنها عاشت مع الاسلام أمدا طويلا .

قالت فى كتابها (تفسير الاسلام) : (إنه لا يمكن تجرد المسلمين من الروح الفدائية فى تحقيق غزواتهم ، لأن ذلك من طبيعة البشر .

وتقول عن الحديث : إن الأحاديث النبوية تعطى أجمل تعريف للشفقة والرحمة ولا يهم كثيرا أن بعض الأحاديث مشكوك فى صحته ، وأن بعضها ليس

(١) كتاب (قادة الأديان وأقوامهم) لتوماس كارليل ، طبع نيويورك ١٩١٩ م .

من كلام محمد ﷺ إلى غير ذلك من المزاعم الواهية^(١) .

ولقد وجه أعداء الاسلام كثيرا من الشبه نحو القرآن الكريم وخصوصا المدنى والمكى^(٢) بقسميه . ومما يؤسف له أن من أبناء الاسلام من يتفوه بتلك الشبه ويهدم بمعوله حصون الاسلام المتينة ليكون بذلك ابنا بارا بأساتذته وجامعاته التى أرضعته تلك السموم وصبغت على أفكاره . وإليك الرد على تلك الشبه ودحضها .

(١) المستشرقون بين الانصاف والعصية . للدكتور السيد محمد علوى المالكى (٢٦ — ٣٠) م . سحر

(٢) يلاحظ أننا سنتعرض فى أثناء الكلام على الشبه للقسم المكى بجانب المدنى حيث الارتباط قائم بينهما ولا يمكن صوغ الشبهة الا بشقيها ويقولون (وبضدها تتميز الأشياء) .

الشبهة الاولى

يقولون :

إن الباحث الناقد يلاحظ أن في القرآن أسلوبيين متعارضين لا تربط الأول والثاني صلة ولا علاقة ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب خضع لظروف مختلفة ، وتأثر ببيئات متباينة . فنرى أن القسم المكى منه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة ، كما نشاهد القسم المدني منه تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة . فالقسم المكى يتفرد بالعنف والشدة ، والقسوة والحدة ، والغضب والسباب ، والوعيد والتهديد . مثل سورة (تبت يدا أوى لهب وتب) وسورة (والعصر ان الانسان لفى خسر) وسورة (ألهاكم التكاثر) ومثل (فصب عليهم ربك سوط عذاب) ، (إن ربك لبالمرصاد)^(١) .

الرد على الشبهة الأولى :

تتألف الشبهة من ثلاثة جوانب كاذبة وهى :

أولاً : أن القسم المكى تفرد بالعنف والشدة .

ثانياً : أن فيه سبابا وإقذاعا .

ثالثاً : أنه يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة ، أما المدني ففيه ثقافة

واستنارة وسمو ورفعة ووقار .

والقصد من إلصاق تلك الشبهة بالقرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو تشكيك أبناء الاسلام فى القرآن ، وبأنه مفكك الأجزاء غير متناسب فى الآيات والصور . وأنه خاضع للظروف متأثر بالبيئة وغرضهم من بث هذه المزاعم الباطلة هو أن القرآن ليس كلام الله وليس معجزا إنما هو كلام النبى ﷺ الذى تأثر أولاً بأهل مكة فكان كلامه قاسيا بعيدا عن المعارف العالية التى اكتسبها من أهل الكتاب فى المدينة .

(١) انظر مناهل العرفان للشيخ الزرقانى (١ : ١٩٩) .

أولاً :

فأما دعواهم أن القسم المكي تفرد بالعنف والشدة فتلك الدعوة تنبىء أن صاحبها لم يطلع على القرآن الكريم أو أنه اطلع ولكن أعمته عصبيته عن إدراك الحق المبين . فالقسم المدني اشتمل على الوعيد والانذار . كما أن القسم المكي اشتمل على الدعوة إلى اللين والعفو والصفح ومقابلة الاساءة بالاحسان .

فمثلا سورة البقرة وهى مدنية (فيها الوعيد والانذار) .

قال تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

وقال فيها محذرا للمؤمنين من أكل الربا ، ومحاربا لآكل الربا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٢) .. إلى غير ذلك من الوعيد الذى اشتمل عليه القسم المدني .

ثم انظر الى ما جاء فى السور المكية حشاً على اللين والعرف والصفح والتسامح . قال تعالى فى سورة الأعراف المكية : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣) . وفى سورة الحجر قال تعالى : ﴿ وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ آية ٨٨ الى آخر السورة (٤) .

قال تعالى فى سورة الأنعام وهى مكية أيضا : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥) .

(١) البقرة : ٢٤ .

(٢) البقرة : ٢٧٨ — ٢٧٩ .

(٣) الاعراف : ١٩٩ .

(٤) انظر مناهل العرفان لفضيلة الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى (ص ١٩٩ — ٢٠٥) .

(٥) الأنعام : ٥٤ .

ومن الملاحظ في الآيات والصور المكية بشكل واضح أن القسم المكي خلا
خلواً تاماً من تشريع القتال والجهاد والمخاشنة . كما خلت أيامه في مكة على طولها
من مقاتلة القوم بمثل ما يأتون من التنكيل والمصاولة .

فلم يسمع للمسلمين فيها صلصلة لسيف ، ولا قعقعة ل سلاح ولا زحف
على عدو وإنما هو الصبر والعفو والمجاملة والمحاسنة على الرغم من إيغال الأعداء في
أذاهم ولجأهم في عتوهم وأساهم سبا و طعنا وقتلا ونهباً ومقاطعة ومكابرة^(١) .

والمتتبع لأسلوب القرآن الكريم في مراعاته لمقتضى الحال في جانب الترغيب
والترهيب تجده أحياناً يغلب ناحية الترغيب لمن سلك طريق الاتباع . وأحياناً
يغلب ناحية الترهيب لمن اعوج ومال عن طريق الحق والصواب .

وإنما قرن سبحانه الوعد بالوعيد وأكثر من ذكرهما في القرآن لينبه على أن
المؤمن لا بد أن يعتدل خوفه ورجاؤه . وليظهر بوعده للطائعين كمال رحمته بهم
(وهذا كان شأنه جل وعلا في خطابه لأهل المدينة) وبوعيده للعصاة كمال عدله
وحكمته (وهذا كان شأنه في خطابه لأهل مكة من العصاة والمعاندين) .

وتجده أحياناً يسوى بينهما حسب المقتضيات وأحوال المخاطبين .

قال تعالى في سورة الفتح المدنية (يجمع بين الترغيب والترهيب)
﴿ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْزاً عَظِيماً . وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ
السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾^(٢) .

(١) انظر مناهل العرفان للشيخ الزرقاني (ص ٢٦) .

(٢) الفتح : ٥ - ٦ .

وقال تعالى في سورة الدهر المكية يجمع بين الترغيب والترهيب ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ (١) .

وأحيانا يقتصر على أسلوب الترهيب لأن المقام يقتضى ذلك . اقرأ مثلاً سورة الهمزة وهى : ﴿ وَيَلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُْمَزَةٍ ... ﴾ .

وأحيانا يقتصر على أسلوب الترغيب إذا اقتضى المقام ذلك أيضا اقرأ مثلاً سورة القدر ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ الآيات .

ثانياً :

أما دعواهم أن فى القسم المكى سبابا . ويريدون من السباب معناه المعروف عندهم من البذاءة والخروج عن حدود الأدب واللياقة فهذا عين الكذب والافتراء ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (٢) لأن القرآن الكريم إنما جاء ليعلم الناس مكارم الأخلاق ، فكيف يكون مشتملا على ما يقولون ؟ .

ولو علموا الظروف والملابسات التى نزلت فيها هذه الآيات البينات التى استشهدوا بها لفهموا أن القرآن إنما يعالج النفوس بحسب ما يقتضيه المقام فلكل مقام مقال . فمراعاة مقتضى الحال هو الذى يجعل الأسلوب يتسم بالعنف والشدة وذلك مع المعاندين للحجج والبراهين . بيد أنه رغم العنف والشدة لم يخرج عن جادة الأدب ، ولم ينحاز عن سبيل الحكمة بل الحكمة تتقاضاه أن يشتد مع أمثال هؤلاء . ومن مصلحتهم هم ومن الرحمة بهم ، والخير لهم أن يشتد عليهم ليرعوا عن باطلهم . ويصحوا من غفلتهم . ويسيروا على نهج الحق والهدى والرشاد .

مع العلم أن هذا التقريع الحكيم تجده فى السور المدنية ، كما تجده فى

(١) الدهر : ٦ - ٧ .

(٢) الكهف : ٥ .

السور المكية . وإن كان في المكي أكثر من المدني ، لأن أهل مكة كانوا مسرفين في العناد والاباء . مكابرين لا يريدون اتباع الحق رغم وضوحه لهم . لم يتركوا بابا من الشر إلا دخلوه ولم يدعوا مسلما إلا آذوه بل بلغ بهم الأذى بالمسلمين الى ملاحقتهم خارج وطنهم الذي تركوه^(١) .

ثالثا :

أما زعمهم أن القسم المكي يمتاز بكل مميزات الأوساط المنحطة فهو مردود عليهم ، وعلى أى وجه قصدوا .

فإذا أرادوا بانحطاطه الاشارة إلى قصر آياته ، أو إلى خلوه من التشريعات فهذا لا يدل على الانحطاط بل له اعتبار سنوضحه في الشبهة القادمة^(٢) .

وإذا أرادوا بما ذكروا أن أهل مكة كانوا منحطين في الفصاحة والبيان والذكاء فلا أدل على كذب افتراءهم من شهادة التاريخ لقريش بأنهم كانوا مركز الزعامة من جميع قبائل العرب ويدعون لها بالسبق في مضمار الفصاحة والبلاغة والذكاء والشرف والنبيل^(٣) .

وقد شهد القرآن الكريم تعمدهم الجدل وأنهم أهل حجة وخصومة قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْثَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾^(٤) .

ولقد أرادوا من إلصاق أمثال هذه التهم الباطلة بالقرآن تشكيك المسلمين في كتابهم المقدس . حيث انه تأثر بالوسط والبيئة مما يترتب عليه أنه كلام النبي ﷺ لا كلام رب العزة .

(١) انظر علوم القرآن الكريم للدكتور محمد أحمد يوسف القاسم وآخرين (ص ١٠٠ — ١٠١) ، ط / الأولى ١٤٠١ هـ . مطبعة الحضارة العربية بالقاهرة .

(٢) راجع ماسنذكره في الشبهة الثانية (ص ٢٣٧) .

(٣) انظر مناهل العرفان للشيخ الزرقاني (ص ٢٦ — ٢٧) .

(٤) الزخرف : ٥٧ — ٥٨ ، وانظر تفسير ابن كثير (٤ : ١٣١) .

الشبهة الثانية

(إن قصر السور والآيات المكية مع طول السور والآيات المدنية يدل على انقطاع الصلة بين القسم المكي والقسم المدني ، ويدل على أن القرآن في نمطه هذا نتيجة لتأثر محمد بالوسط والبيئة . فلما كان في مكة أميا بين الأميين جاءت سور المكي وآياته قصيرة ، ولما وجد في المدينة بين مثقفين مستنيرين جاءت سور المدينة وآياته طويلة) وغرضهم من إلقاء هذه الشبهة التشكيك في القرآن وأنه ليس من عند الله .

والرد على هذه الشبهة على النحو التالي :

أولا :

أن قولهم بقصر السور والآيات المكية وطول السور والآيات المدنية لا يسلم لهم على عمومهم ففي القسم المكي سور طويلة مثل سورة الأنعام ويونس وهود ويوسف . وفي القسم المدني سور قصيرة مثل سورة النصر والفلق والناس . ولا شك أن قصر الآية أو السورة أو طولها يرجع لمقتضى الحال الذى هو أساس البلاغة العربية . وليس تابعا للبيئة أو الوسط .

ثانياً :

قولهم بانقطاع الصلة بين المكي والمدني دليل على جهلهم بأساليب البلاغة فالصلة يحسها كل صاحب ذوق في البلاغة فهي شاملة لكافة السور والآيات ولا أدل على ذلك من أنك ترى الكثير من الآيات المكية داخلة في آيات وسور مدنية وكذلك العكس ومع ذلك فانه لا يكاد أحد يلمس أى تفاوت أو انقطاع بل يتجلى الاعجاز القرآني عبر تلك الآيات من حيث الاتساق والانسجام فهو بمثابة عقد منظم تناسقت حباته وتآلفت لآله ونظم في سلك من الذهب الخالص^(٢) .

(١) مناهل العرفان للشيخ الزرقاني (١ : ٢٠٩) .

(٢) انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص ٢٣٤) ، مناهل العرفان للشيخ الزرقاني (ص ٢٠٩)

قال الإمام الباقلاني : (إن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف اليه من الوجوه التي يتصرف فيها من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام .. الخ .

وقد تأملنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التي قدمنا ذكرها على حد واحد ، في حسن النظم وبديع التأليف والرصف (١) .

(١) اعجاز القرآن للباقلاني (٤٠٣ هـ) تحقيق الأستاذ سيد صقر دار المعارف ١٩٦٣ م (ص ٣٦ — ٣٧) .

الشبهة الثالثة

(أن القسم المكى خلا من التشريع والأحكام على حين أن القسم المدني مشحون بتفاصيل التشريع والأحكام . وذلك يدل على أن القرآن من وضع محمد ﷺ وتأليفه تبعاً لتأثره بالوسط الذى يعيش فيه فوجود التشريعات الإسلامية فى المدينة كالمواثيق والصايات والزواج والطلاق دليل على أن هذا أثر من آثار التوراة والبيئة اليهودية التى ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بها هذا التغيير الفجائى الذى ظهر على أسلوب القرآن)^(١) .

ونرد على ذلك فنقول :

أولاً :

قولهم إن القسم المكى خلا من التشريع والأحكام هذا زعم باطل فالقسم المكى لم يخل جملة من التشريع والأحكام بل عرض لها بطريقة اجمالية وذلك عند إشارته إلى أصول التشريعات والأحكام والتى ذكرها القرآن الكريم فى سورة الأنعام المكية التى تحدثت عن مقاصد الدين الخمسة وهى :

(١) الإيمان بالله وعدم الاشراف به .

(٢) حفظ النفس .

(٣) حفظ العقل .

(٤) حفظ النسل .

(٥) حفظ المال .

قال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾^(٢) إلى تمام ثلاث آيات بعدها والتى جمعت الوصايا العشر لهذه المقاصد الخمسة .

(١) أنظر مناهل العرفان للشيخ الزرقانى (١ : ٢١١) .

(٢) الأنعام : ١٥٢ — ١٥٣ — ١٥٤ .

ثانياً :

أما كون أن القسم المدني كثرت فيه التشريعات فهذا تقتضيه أنجع النظم السياسية والتربوية . ذلك أن الفترة المكية تعتبر بالنسبة للمسلمين نقطة البداية . ولا شك أن التدرج في تربية أفراد المجتمع أساس نجاحه وتفوقه لهذا تدرجت التشريعات الالهية فبدأت باصلاح قلوبهم وتطهيرها من الشرك والوثنية وتقويمها بعقيدة الايمان الصحيح والتوحيد الواضح .

ومن ثم فطمهم عن أقبح العادات والأخلاق وأرشدتهم إلى أصول الآداب وفضائل العادات ثم فرض عليهم أمهات العبادات . هذا ماكان في مكة .

فلما استضاءت قلوبهم بالايمان وأشربوا حبه وتبئات نفوسهم للترقى والكمال عبر الأيام والسنين . وكانوا وقتئذ قد هاجروا إلى المدينة وأمنوا على أنفسهم وصارت لهم دولتهم وكيانهم وحریتهم وبعيدا عن الاضطهاد والعسف والظلم ، حينئذ جاء دور القرآن المدني بتفصيل التشريع والاحكام . محققا السعادة لبنى الانسان . وأخذ يصقل أخلاقهم ويزرع المروءة في نفوسهم حتى أصبحت الأمة الاسلامية بحق (خير أمة أخرجت للناس) .

أما ما زعموه أن ذلك من اختلاط النبي ﷺ بأهل المدينة فإن هذا ينقضه القرآن فترى الكثير من الآيات وردت تصحح عقائد أهل الكتاب وأخطاءهم في التشريع وفي التحليل والتحريم وفي الأخبار والتواريخ .

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ﴾ (٢) الآية .

(١) آل عمران : ٦٤ .

(٢) آل عمران : ٩٣ .

ولا يخفى أن غرضهم الوصول إلى هدف معين من إلقاء أمثال هذه الشبهة وهو تشكيك المسلمين في دينهم وفي كتابهم العزيز حتى يصلوا إلى هدفهم وهو تحريف وتغيير بعض آياته وسوره ولكن الله تكفل بحفظه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) .

(١) الحجر : ٩ .

الشبهة الرابعة

يقولون (إن القرآن أقسم كثيرا بالضحى والليل ، والتين والزيتون وطور سينين ، وكثير من المخلوقات ولا رب أن القسم بالاشياء الحسية يدل على تأثير القرآن بالبيئة في مكة لأن القوم كانوا في مكة أميين لا تعدو مداركهم حدود الحسيات . أما بعد الهجرة واتصال محمد ﷺ بأهل المدينة ، وهم قوم مثقفون مستنيرون فقد تأثر القرآن بهذا الوسط الراقى الجديد ، وخلا من تلك الايمان الحسية الدالة على البساطة والسذاجة^(١)) .

ونرد على هذه الشبهة بما يلي :

أولا :

أن القسم بالأمر الحسية كالضحى والليل دليل على رعاية مقتضى الحال فيما سبق القسم لأجله . فالقرآن بصدد علاج أقبح الخصال وهى عقيدة الشرك ولا سبيل إلى استئصال هذه العقيدة الباطلة وإقامة عقيدة التوحيد الخالصة إلا بالإشارة إلى عظمة هذا الكون وما أحاطه من مخلوقات عظيمة ليدركوا أن وراء تلك المخلوقات العظيمة خالقا لها مدبرا لشؤونها ولأن في الحلف والقسم معنى العظمة التى أودعها الله فى هذه النعم وفيه تنبيه على مدى انعامه جل وعلا عليهم فيستيقظوا من غفلتهم وشركهم بآلهم المزيفة التى لا تملك ضرا ولا نفعا .

ثانيا :

أما قولهم إن القوم فى مكة أميون لا تعدو مداركهم حدود الحسيات فقد سبق الرد عليهم به — مما يغنى عن إعادته — فى الرد على الشبهة الأولى^(٢) .

(١) مناهل العرفان للزرقانى (١ : ٢١٣ — ٢١٤) .

(٢) انظر (ص ٢٣٦) من بحثنا هذا .

الشبهة الخامسة

يقولون (ان السور المدنية قد انخفضت فيها البلاغة حتى صار بعضها نثرا عادياً ويستدل لرأيه بأن حدة الوحي قد هدأت وأن البلاغة أصبحت شاحبة)^(١) .

ونرد عليهم بما يلي :

ان البلاغة عند العرب عبارة عن مراعاة الخطاب لمقتضى حال المخاطب ، فاذا كان المخاطب كافرا فله خطاب يقتضى هذا الحال ، وإذا كان المخاطب مؤمنا فله خطاب يناسب حاله .

فالقرآن في مكة كان يخاطب قوما يستأهل حالهم القرع والزجر والوعيد والتهديد أما عند انتقالهم إلى المدينة ودخول الايمان في قلوبهم وثباتهم عليه كان مقتضى خطابهم توضيح الشريعة وتفصيلها وعرضها في أسلوب سهل وهذا يقتضى البسط والاطناب .

قال الدكتور حسن عتر في معرض الرد عليهم^(٢) : (فأما زعمه أن القوة الخطابية للقرآن قد فترت حماسها في المدينة بحكم المسائل والموضوعات التي عاجلها . فليس في هذا — ان سلمنا به — دليل على ضعف البلاغة بل إن مراعاة مقتضى الأحوال هو عين البلاغة ولها . فلا يصلح قوله دليلا على انخفاض مستوى البلاغة إلا أن يكون المتصدر للحكم من أمثال هذا المستشرق ، يعول على قوة ايقاع فواصل الكلم ، دون فهم لباب معانيه ومراميها وتأمل صوره وفنونه ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾^(٣) .

(١) بينات المعجزة الخالدة للدكتور حسن ضياء الدين عتر . ط/دار النصر . حلب الطبعة الأولى ١٩٧٥ م

(ص ٣٩٦) .

(٢) انظر نفس المرجع السابق (ص ٣٩٦) .

(٣) البقرة : ١٧١ .

ولا يفوتنا أن ننبه إلى أن في القرآن المدنى آيات قوية قارعة فيها حدة التهديد بعذاب النار ما يقتضيه مضجع هذا الحاقد وأضرابه .

قال تعالى في سورة النساء المدنية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١) .

وأخيرا نرى آخر آيات التحدى في سورة البقرة المدنية يفصح عن ذلك قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

وسرعان ما يصدر الحكم عليهم بالعجز الأبدى . يقول تعالى ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

(١) النساء : ٥٦ .

(٢) البقرة : ٢٣ .

(٣) البقرة : ٢٤ .

الباب الثاني وفيه أربعة فصول

مقدمة في بيان حالة المجتمع المدني وقت هجرة النبي عليه
أفضل الصلاة وأزكى التسليم

الفصل الأول : التشريعات التفصيلية والأحكام العملية في
العبارات والمعاملات مع بيان الحكمة
التشريعية .

الفصل الثاني : محاجة أهل الكتاب وبيان الصفات التي
وصفهم بها القرآن الكريم

الفصل الثالث : بيان ضلال المنافقين وحقائق أمرهم
وما اتصفوا به من الصفات القبيحة وما أعد لهم
من العذاب والنكال وما هو موقف الرسول
صلى الله عليه وسلم تجاههم وأشهر مواقفهم
العدائية .

الفصل الرابع : بيان قواعد الجهاد وحكمة تسريع الأعداء
المتعلقة بالحروب والغزوات والصالح
والمعاهدات .

مقدمة

بيان حالة المجتمع المدني وقت هجرة النبي عليه افضل الصلاة والتسليم

قبل الخوض في الحديث عن التشريع في العهد المدني الذي يعتبر من أهم سمات وخصائص الآيات المدنية لابد لنا أن نتعرف على طبيعة المجتمع الذي عايش نزول تلك الآيات .

فما هي البطون والقبائل التي تسكنها ؟ وما هي معتقداتهم ؟ وما مدى العلاقة القائمة بينهم ؟ إلى غير ذلك من الأمور التي صاحبت تحول هذا المجتمع من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى ومن البغضاء إلى المحبة والأخوة .

لقد أصبحت المدينة بعد هجرة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه معقل الاسلام وحصنه الحصين . ومنطلق الدعوة الاسلامية إلى العالم اجمع . وسماها الرسول ﷺ طيبة . وسماها الله (طابة) كما جاء في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن جابر بن سمرة (قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ان الله سمى المدينة طابة » ^(١) . ولقد سماها الله تعالى (المدينة) في مواضع عديدة من القرآن ^(٢) .

وكان المجتمع بعد الهجرة النبوية يتألف من ثلاث فئات :

الفئة الأولى :

وهم المهاجرون الذين هاجروا من مكة فرارا بدينهم إلى المدينة والأنصار الذين آووا المهاجرين وضحو بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله من قبيلتي الأوس

(١) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٢ : ١٠٠٧) .

أورد ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان تسعة وعشرين اسما لها منها: المدينة، طيبة، لطيب هوائها والمحبية والمحبوبة ، ويغرب والناجية والمباركة والعاصمة (٥ : ٨٢) ط/ دار الكتاب العربي بيروت .

(٢) كما في سورة التوبة : ١٠١ ، ١٢٠ ، الأحزاب : ٦٠ ، المنافقون : آية ٨ .

والخزرج سكان المدينة الأصليين . ويرجع أصلهم إلى القبائل الأزدية اليمنية الذين هاجروا من اليمن بسبب الاضطرابات وغزو الأحباش^(١) .

وعلى سواعد المهاجرين والأنصار كان تكوين الدولة الإسلامية فلقد كانت الخطوة الأولى للرسول ﷺ بعد دخوله المدينة هي بناء المسجد النبوي (ولم يلبث هذا المسجد فترة إلا وقد صار رمزا لشمولية رسالة الاسلام حيث أصبح مركزا روحيا لممارسة آداب الشعائر الإسلامية ومدرسة علمية وتشريعية تخرج قادة الفكر وتجمع أصحاب رسول الله ﷺ على ساحاته وقد عقدت بساحاته الندوات وألقى على منبره التعاليم والكلمات العطرة ، ومدرسة عسكرية لتوجيه علاقة الدولة في الداخل والخارج ، كما غدا مؤسسة اجتماعية يتعلم المسلمون فيها النظام والمساواة)^(٢) .

أما الخطوة الثانية فهي أنه سعى صلوات الله وسلامه عليه جاهدا في دفن الأحقاد والكراهية التي كانت مستأصلة بين الأوس والخزرج حتى إنه وقعت بينهم حروب كثيرة أولها حرب (سمير) وآخرها حرب بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات^(٣) .

وكان الباعث لتلك الخلافات اليهود (وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو وفساد يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة ويغرون بعضها على بعض بكيد خفي لم تكن تشعره تلك القبائل فلا تزال في حروب دامية متواصلة ، ولا تزال أنامل اليهود تؤجج نيرانها كلما رأتها تقارب الخمود والانطفاء^(٤)) .

(١) باختصار من كتاب مكة المدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ (ص ٣١٥) للأستاذ أحمد الشريف .

(٢) من كتاب بحوث مؤتمر رسالة المسجد الذي عقد في مكة المكرمة بدعوة من رابطة العالم الاسلامي من ١٥ — ٢٠ رمضان ١٣٩٥ هـ من بحث الشيخ علي محيي الدين (ص ١٠٩) بعنوان (مفهوم المسجد في الاسلام) .

(٣) انظر كتاب الكامل في التاريخ للإمام العلامة أبي الحسن علي المعروف بابن الأثير ط/ الثانية ١٣٨٧ هـ ، دار الكتاب العربي لبنان . المتوفى سنة ٦٣٠ (١ : ٤٠٢ — ٤١٧) .

(٤) الرحيق المختوم — بحث في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . تأليف فضيلة الشيخ صفى الرحمن المباركفوري (ص ٢٠١) ط الأولى ١٤٠٠ هـ من منشورات رابطة العالم الاسلامي .

وسأتعرض فيما بعد لليهود وهم الفئة الثالثة التى كانت تسكن المدينة .
ومن (ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دار أنس بن مالك وكانوا تسعين رجلا ، نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ، ويتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام ، إلى حين وقعت بدر فلما أنزل الله « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض »^(١) رد التوارث دون عقد الاخوة^(٢) .

ومعنى هذا الاخاء (أن تذوب عصبية الجاهلية ، فلا حمية إلا للإسلام ، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن ، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه وقد جعل الرسول ﷺ هذه الاخوة عقدا نافذا لا لفظا فارغا وعملا يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر ...)^(٣) .

ولا بد لنا من معرفة الحالة الدينية والاجتماعية للأوس والخزرج قبل الاسلام . لقد كانوا كبقية العرب تابعين لأهل مكة فى العقيدة ويعتبرون أهل مكة قادة وزعماء للدين فهم سدنة البيت وسقاة الحجيج . فكانت الأوس والخزرج متمسكين بالوثنية السائدة فى جزيرة العرب يعبدون الأصنام كما تعبدها قريش وغيرها من القبائل إلا أنه كان لكل قوم صنم تربطهم به رابطة قوية . فكانت مناة لأهل المدينة والأوس والخزرج أشد إعظاما لها من غيرهم . وكانت اللات لأهل الطائف والعزى لأهل مكة وكان من اتخذ فى داره صنما من أهل المدينة من خشب أو غيره يسميه « مناة » أيضا كما فعل ذلك عمرو بن الجموح سيد سادات بنى سلمة قبل أن يسلم^(٤) .

(١) الانفال : ٧٥ .

(٢) زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن قيم الجوزية تحقيق الأرنؤوط — عبد القادر الأرنؤوط (٣ : ٦٣ ط / الثانية ١٤٠١ هـ مؤسسة الرسالة بيروت .

(٣) فقه السيرة للشيخ محمد الفزلى (ص ١٩٢) خرج أحاديثه للشيخ ناصر الدين الألبانى ط / السادسة دار الكتب الحديثة .

(٤) باختصار وتصرف من كتاب (بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب سنة ١٢٤٢) للعلامة محمد شكرى الألوسى (١ : ٣٤٦ ، ٢ : ٢٠٨) ط ٣ دار الكتب القاهرة .

أخرج البخارى فى صحيحه عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال قلت لعائشة زوج النبى ﷺ وأنا يومئذ حديث السن رأيت قول الله تبارك وتعالى « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما »^(١). فما أرى على أحد شيئا أن لا يطوف بهما. فقالت عائشة : كلا لو كانت كما تقول كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، إنما أنزلت هذه الآية فى الأنصار كانوا يهلون لمناة وكانت مناة حذو قديد^(٢) ، وكانوا يتخرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة . فلما جاء الاسلام سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فأنزل الله ﴿ إن الصفا والمروة .. ﴾^(٣) الآية .

ولم يكن لأهل المدينة صنم اشتروا به فى المدينة كاللات والعزى يرتحل الناس اليه كما كان الحال فى مكة . ولم يكن لكل بيت فى المدينة صنم خاص بهم كما كان عليه الحال فى مكة .

وكانت قريش ينظرون إلى الأوس والخزرج نظرة احترام وتقدير وتبجيل وحدثت بينهم مصاهرة . وقد تزوج هشام بن عبد مناف وهو سيد قريش من بنى النجار . واشتهر لأهل المدينة يومان يلعبون فيهما فلما قدم النبى ﷺ قال لهم « قد أبدلكم الله تعالى بهما خيرا منهما يوم الفطر والأضحى »^(٤) .

وكان للأنصار بالإضافة إلى عملهم فى الزراعة بحكم خصوبة أرضهم وكثرة المياه دور كبير فى التجارة . فكانت المدينة مركزا تجاريا فكثيرا من المواد الغذائية والمنسوجات القطنية تجلب من بلاد الشام أضف إلى ذلك أنها مركز لممر القوافل التجارية القادمة من بلاد الشام والمتجهة إلى مكة فى رحلة الصيف التى ذكرها

(١) البقرة : ١٥٨ .

(٢) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٩ : ٢٤٢) .

(٣) وادى فيه قرى صغيرة لا يزال معروفا كان طريق المدينة الى مكة يمر به . انظر كتاب المناسك وأماكن طرق الحج تحقيق حمد الجاسر (٤١٥) من منشورات وزارة الحج والأوقاف سنة ١٤٠١ هـ .

(٤) أخرجه النسائي فى كتاب صلاة العيدين (٣ : ١٧٩ — ١٨٠) .

القرآن الكريم والوحدة المتعارف عليها بينهم كأداة للوزن هو المكيال وكثير من تجار المدينة تفشى بينهم إنقاص المكيال .

أخرج الحاكم وابن ماجة بسندهما عن ابن عباس قال لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك ^(١) .

هذه نبذة يسيرة عن الأوس والخزرج . ونختم هذه النبذة بنظم الدولة الاسلامية وقواعدها الركيزة التي أزاحت كل ماكان من حزازات الجاهلية والنزعات القبلية وقضت على كل التقاليد الجاهلية . ونقتصر على بعض بنود هذا النظام .

قال ابن هشام (وكتب رسول الله ﷺ كتابا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم .

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم) وتلخيص ذلك الكتاب) :

- ١ - أنهم أمة واحدة من دون الناس .
- ٢ - المهاجرون من قريش على ريعتهم ^(٢) يتعاقلون ^(٣) بينهم وهم يفلدون عانيهم ^(٤) بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وكل قبيلة من الأنصار على ريعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى .
- ٣ - إن المؤمنين المتقين على من بغى عليهم . وإن ايديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢ : ٣٣) وصححه الذهبي ، وابن جرير (٢٩ : ٩١) ، سنن ابن ماجة (٢ : ٧٤٨) رقم الحديث (٢٢٢٣) ط/ دار احياء الكتاب العربي عيسى الباني الحلبي وشركاه .

(٢) الحال التي جاء الاسلام وهم عليها .

(٣) المعامل : الديات ، الواحد معقلة .

(٤) العاني : الأسير .

٤ - لا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن .
٥ - وأن من اتبعنا من يهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

٦ - وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن .
٧ - وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول .
٨ - إنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثا ولا يؤويه .. ومن نصره أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة .

٩ - وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فان مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ .

١٠ - وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة . وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم^(١) .

وبهذه الحكمة وبهذه الحنكة السياسية أرسى رسول الله ﷺ قواعد المجتمع حتى كانت أمته خير الأمم كما وصفها رب العزة والجلال : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ .. ﴾ الآية^(٢) .

وما فتىء رسول الله ﷺ يتعاهد أمته بالتعليم والتربية وتزكية النفس والحث على مكارم الأخلاق ويؤدبهم بأداب الانحاء والمحبة والايثار والطاعة . ولقد ضرب لنا الصحابة الكرام أعلى مقامات الايثار والتضحية عندما آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار .

أخرج البخارى بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قدم عبد الرحمن بن عوف فأخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله فقال عبد الرحمن بارك الله لك فى أهلك ومالك^(٣) .

(١) باختصار وتلخيص من كتاب السيرة النبوية لابن هشام (٢ : ١٤٧ - ١٤٩) .

(٢) آل عمران : (١١٠) .

(٣) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٨ : ٢٧٤) .

وفي رواية أيضا للبخارى (فنزل عبد الرحمن بن عوف على سعد بن الربيع فقال : أقاسمك مالى وأنزل لك على إحدى امرأتى قال بارك الله فى أهلك ومالك)^(١) .

لهذا امتدحهم المولى عز وجل فى كتابه الكريم بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(٢) .

وقال تعالى ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾^(٣) .
الفئة الثانية :

وهم اليهود . كانت المدينة تضم ثلاثة بطون من اليهود وهم (بنو قينقاع) و (بنو النضير) و (بنو قريظة) .

وقد تفرعت من هذه القبائل عشرات الجماعات كبنى عوف ، وبنى النجار ، وبنى ساعدة ، وبنى ثعلبة ، وبنى جفنة ، وبنى الحارث^(٤) .

قال ابن كثير : (وكان نزولهم بالحجاز قبل الأنصار أيام يختنصر حين دوخ بلاد القدس)^(٥) .

(١) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (١١ : ١٤٠) .

(٢) الحشر ٩ .

(٣) التوبة : ١٠٠ .

(٤) انظر كتاب وفاء الوفاء فى أخبار دار المصطفى (١ : ١٦٣ — ١٦٤) للسهمودى .

(٥) البداية والنهاية لابن كثير (٣ : ٢٢٤) ط/ مكتبة المعارف بيروت . وانظر وفاء الوفاء للامام نور الدين على بن أحمد السهمودى المتوفى عام (٩١١) و (١ : ١٦٠) حققه محيى الدين عبد الحميد ط/ دار احياء التراث العربى — بيروت .

ولم تكن العلاقة حسنة بين تلك القبائل وكانت تقع أحيانا بينهم حروب كما وقع بين بنى قينقاع وبقية القبائل من اليهود وسببها أن بنى قينقاع كانوا قد حاربوا مع الخزرج في يوم بعث — وقد انقض اليهود على (بنى قينقاع) ومزقوهم شر تمزيق . وقد استمرت هذه العداوة بين البطون اليهودية بعد يوم (بعث) وأخيرا وقعت الحرب بين الأنصار وبين بنى قينقاع فلم ينهض أحد من اليهود في محاربة الأنصار^(١) .

والاحقاد بين اليهود بعضهم لبعض قديمة ومتوارثة .

وكانت لليهود حصون منيعة وآطام^(٢) فسيحة . وكانت الآطام عز اهل المدينة ومنعتهم التي كانوا يتحصنون فيها من عدوهم .. وقال شاعرهم :
ولو نطقت يوما قباء لخبرت بأنا نزلنا قبل عاد وتبع
وآطامنا عادية مشمخرة تلوح فتنكى من نعادى وتمنع^(٣)
ويسكنون في أماكن خاصة بهم . فكانت بنو قينقاع في داخل المدينة .
وبنو قريظة في جنوب المدينة في منطقة (مهزور) . وبنو النضير على بعد ميلين أو ثلاثة من المدينة بوادى (بطحان)^(٤) وطبيعى لقد كانت لهم تشريعاتهم ومعاملاتهم الخاصة بهم .

فلقد اتخذوا أماكن خاصة يقيمون فيها طقوسهم الدينية ولهم أعيادهم واحتفالاتهم أما معاملاتهم فكان أغلبها يقوم على المراهنة والتعامل بالربا .
ومن أشنع وأقبح ما وصلت اليه مراهنات اليهود هو تراهنهم بالنساء والأطفال .

(١) باختصار وتصرف من كتاب (اليهود في بلاد العرب وصدر الاسلام) للدكتور اسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب) (ص ٩) مطبعة الاعتد بالقاهرة سنة ١٩٢٧ م .

(٢) الآطام : قال ابن الاعرابى : الآطوم القصور وفي حديث بلال انه كان يؤذن على اطم ، الأطم بالضم بناء وجمعه آطام . لسان العرب (ص ١٢١٩) .

(٣) باختصار من وفاء الوفا للسهموى (١ : ١٦٢ — ١٦٣) .

(٤) بتصرف من كتاب (بنو اسرائيل في القرآن والسنة) د. محمد سيد الطنطاوى (ص ٧٧) . ط / الأولى ١٣٨٩ هـ . دارحراء القاهرة .

أخرج البخارى بسنده قال عمرو : سمعت جابر بن عبد الله رضى الله عنه يقول : (قال رسول الله ﷺ « من لكعب بن الأشرف فانه آذى الله ورسوله ﷺ » فقال محمد بن سلمة أنا فأتاه فقال : أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين . فقال ارهنونى نساءكم . قالوا : كيف نرهنك نساءنا ، وأنت أجمل العرب . قال : فارهنونى أبناءكم ، قالوا : كيف نرهن أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين ؟ هذا عار علينا ولكننا نرهنك اللامة . قال سفيان : يعنى السلاح فوعده أن يأتيه فقتلوه ثم أتوا به النبى ﷺ فأخبروه (١) .

ولقد استطاع اليهود تكوين نشاط تجارى كبير فى المدينة فلقد كانت أهم الأسواق وأنشطها (سوق بنى قينقاع) وكانوا بارزين فى صياغة الحلى وبيعها وهناك أسواق أخرى لبيع المنتجات الزراعية ساعد عليه خصوبة أرضها وكثرة بساتينها المكتظة بالنخيل وأنواع أخرى من الثمار وحوانيت عديدة لبيع المنسوجات القطنية والحريرية .

وبعد أن تشرفت المدينة بمقدم النبى ﷺ كانت نظرة اليهود إلى الاسلام ونبىه نظرة بغض وحقد . ذلك أن الرسول ﷺ لم يكن من جنسهم ولا يدعو إلى ماتدعو إليه أهواؤهم . وكانوا على علم بمعرفة الشرائع . واليهود عرفوا منذ الأزل بكرههم وقتلهم الأنبياء بغير حق . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٢) .

ولقد رسم صلوات الله وسلامه عليه سياسة حكيمة تجاه هذا الجنس من البشر فلقد أبرم معهم معاهدة وادعهم فيها وأقرهم على دينهم وأموالهم وإليك بعض فقرات هذه المعاهدة :

(١) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٦ : ٦٨) .

(٢) آل عمران : ١٨١ .

- (١) إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .
- (٢) أن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ثم عدد جماعات أخرى من اليهود كبنى النجار ، وبنى حارثة ، وبنى ساعدة ، وبنى جشم ، وبنى الأوس ، وبنى ثعلبة .. جميعهم مثل بنى عوف .
- (٣) إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم . وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .
- (٤) وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .
- (٥) وإن يثرب حرام خوفها لأهل هذه الصحيفة .
- (٦) وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل . وإلى محمد رسول الله ﷺ .. الخ^(١) .
- هذه لمحة خاطفة عن اليهود وما كانوا عليه وسوف أفصل القول في فصل كامل عن أهل الكتاب وذلك في الفصل الثاني من الباب الثاني .
- ثم ظهر بعد ذلك وبعد أن قويت شوكة المسلمين :

الفئة الثالثة :

المنافقون : وهم الذين يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر والعداء والبغضاء للاسلام .

والنفاق : الدخول في الاسلام من وجه والخروج من آخر ... وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به . وهو الذى يستر كفره ويظهر إيمانه وإن كان أصله فى اللغة معروفا^(٢) .

وقد ظهر بعد انتقال الاسلام إلى المدينة واستقرار المسلمين فيها .
(وكان ظاهرة طبيعية نفسية لا بد منها فإنما تظهر بادرة « النفاق » فى بيئة

(١) باختصار وتصرف من كتاب السيرة النبوية لابن هشام (٢ : ١٤٩) ط/ دار احياء التراث العربى — بيروت .

(٢) لسان العرب (١٠ : ٣٥٩) .

تجمع بين دعوتين متنافستين ، وقيادتين متقابلتين ، هناك يوجد عنصر مضطرب يتأرجح بين هاتين الدعوتين ، ويتردد في إثارة إحداها على الأخرى ، وقد ينحاز إلى دعوة ، فيكون في معسكرها ويعطيها ولاءه وحبه العاطفى ، إلا أن مصالحه المادية ، وانتشار الدعوة المقابلة وانتصارها لا يسمح له بإعلان موقفه ، والانضواء إلى الدعوة الأولى وقطعه للحوال التى تربط بيئته الأولى . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (١) وهم الذين وصفهم بقوله ﴿ مُذَبَّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾ (٢)(٣) وسوف أعقد فصلا كاملا للحديث عن المنافقين فى الفصل الثالث من هذا الباب إن شاء الله :

(١) سورة الحج : ١١ .

(٢) سورة النساء : ١٤٣ .

(٣) السيرة النبوية للشيخ أبو الحسن على الحسنى الندوى (ص ١٦٨) ط./ دار الشروق .

الفصل الأول
التشريعات التفصيلية والاحكام العمليّة
في العبادات والمعاملات مع بيان الحكمة التشريعيّة

مقاصد الآيات والسور المدنية

تمهيد :

عندما أتناول (مقاصد السور المدنية) بالبحث ليس المراد حصر المقاصد في هذه المقاصد الأربعة فقط . فالقرآن الكريم لا ينضب فيضه ومهما تعاقب العلماء والمفكرون والدارسون لهذا الكتاب العزيز بالبحث على مر الدهور فإنه لا يزداد إلا جدة وطرافة ولا يزال غضا طريا كما أنزل .
وسأقتصر في بحثي هذا على أربعة مقاصد أصلية ومن خلالها يفهم غيرها من المقاصد الكثيرة .

الفصل الأول

التشريعات التفصيلية والأحكام العملية

في العبادات والمعاملات

س : لماذا لم يكن في العهد المكي تشريعات كما هو الحال في العهد المدني ؟ .

إن إقامة الشرائع وتنفيذ جزئياتها رهن باستقرار الحكم وقوة السلطة والسلطان ، ولم يكن للمسلمين دولة في مكة . بل كانوا مستضعفين وكثير منهم كان يخفى دينه بخلاف المجتمع في المدينة . فإن القوة فيه كانت للرسول ﷺ ولصحابته رضوان الله عليهم . لذلك استطاع الرسول ﷺ أن يملئ تعاليمه على المسلمين في حرية كاملة وأن يقيم الحدود على من يخالف هذه التعاليم ما دام ملتزما بالعقيدة الإسلامية .

ويحشى حول التشريع في العبادات والمعاملات يتركز وينصب حول بعض الآيات المدنية المعنية بتلك التشريعات وليس غرضنا التفصيل في المسائل الفرعية فهذا بحثه في كتب الفقه والأصول . وأحيانا أتعرض للحكمة التشريعية .

ونشرع أولا في الركن الثاني من أركان الإسلام ألا وهو (الصلاة) .

الصلاة

الصلاة لغة : الدعاء والاستغفار . وبه سميت الصلاة لتضمنها لهما .
قال : ابن منظور : الصلاة من الله الرحمة .
وقال ابن الاعرابي : الصلاة من الله رحمة ، ومن المخلوقين الملائكة والانس
والجن ، القيام والركوع والسجود والدعاء والتسبيح ^(١) .
الصلاة في الشرع : هى أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم
بشروط مخصوصة ^(٢) .

وللصلاة مكانتها العظمى فى الاسلام فهى عموده المتين . وهى الصلة بين
العبد وخالقه . فالصلاة طهارة للقلوب . ومفتاح لباب الغيوب وهى محل المناجاة
ومعدن المصافاة تتسع فيها ميادين الأسرار وتشرق فيها شوارق الأنوار ، علم وجود
ضعفنا فقلل أعدادها . وعلم احتياجنا إلى فضله فكثرت امدادها ، ولا تصلح إلا
باستيفاء أركانها وشروطها .

قال ابن القيم عن مكانة الصلاة :

(انها محك الأحوال وميزان الايمان ، بها يوزن إيمان الرجل ويتحقق حاله
ومقامه ومقدار قربه من الله ونصيبه منه ، فإنها محل المناجاة ، والقربة ولا واسطة
فيها بين العبد وبين ربه ، فلا شئ أقر لعين المحب ولا ألد لقلبه ولا أنعم لعيشه
منها إذا كان محبا فإنه لا شئ أثر عند المحبين ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه
ومناجاته له ومثوله بين يديه وقد أقبل محبوبه عليه ، وكان قبل ذلك معذبا بمقاساة
الأغيار ومواصلة الخلق والاشتغال بهم فاذا قام إلى الصلاة هرب من سوى الله إليه
وأوى عنده واطمأن بذكره وقرت عينه بالمثل بين يديه ومناجاته فلا شئ أهم إليه
من الصلاة كأنه فى سجن وضيق وغم حتى تحضر الصلاة فيجد قلبه قد انفسح

(١) انظر لسان العرب (١٤ : ٤٦٤) .

(٢) مغنى المحتاج الى معرفة ألفاظ المنهاج ، تأليف شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني الخطيب (ت
٩٧٧ هـ) القاهرة — مطبعة البانى الخليلى عام ١٩٥٨ م (١ : ١٢٠) .

وانشرح واستراح (١).

وأول ما يحاسب عليه المؤمن يوم القيامة الصلاة . يذكرها القرآن في دعاء الخليل ابراهيم ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ (٢) ويمدح بها الذبيح اسماعيل ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ (٣) .

ويأمر الله كلمه موسى باقامتها أول ما يأمر به في ساعات الوحي الأولى : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (٤) .

وفي وصية لقمان لابنه ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٥) . وينطق بها المسيح عيسى ابن مريم في مهده ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (٦) ويأمر الله بها خاتم أنبيائه : ﴿ أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٧) (٨) .

ومما يزيد في مكانتها العظمى أنه لم يترك المجال لتركها حتى في أحلك الظروف وأعسرهما ففي الحضر والسفر والأمن والخوف وفي السلم والحرب وفي الصحة والمرض .

(١) طريق المهجرتين وباب السعادتین (ص ٥٤٣) . للامام فخر الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية . حققه الشيخ عبد الله الأنصاري طبع على نفقة الشيخ حمد بن فالح آل ثاني رحمه الله مطابع الدوحة الحديثة .

(٢) ابراهيم : ٤٠ .

(٣) مريم : ٥٥ .

(٤) طه : ١٣ — ١٤ .

(٥) لقمان : ١٧ .

(٦) مريم : ٣١ .

(٧) العنكبوت : ٤٥ .

(٨) انظر كتاب العباداة في الاسلام (ص ٢١٠ — ٢١١) د. يوسف القرضاوى ط/ مؤسسة الرسالة ، ط/ التاسعة ١٤٠٢ هـ .

ففى السفر تخفيفا وتيسيرا للمسافر رخص بجمعها وقصرها .
وفى الحرب لها كفييتها الخاصة وتؤدى جماعة ولها أحوال عدة .
وفى أثناء المرض ورد الحديث فيها (صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن
لم تستطع فعلى جنب)^(١) .. الخ .

وعن أنى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال صلاة الجماعة أفضل
من صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين جزءا . وفى رواية ابن عمر عن النبى ﷺ
قال صلاة الرجل فى الجماعة تزيد على صلاته وحده سبعا وعشرين . وعن أنى
هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ فقد ناسا فى بعض الصلوات فقال لقد
هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس ثم أخالف الى رجال يتخلفون عنها فأمر بهم
فيحرقوا عليهم بحزم الحطب بيوتهم ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سمينا لشهدها
يعنى صلاة العشاء^(٢) .

وقد تواعد الله سبحانه وتعالى المتهاون فيها والساهى عنها فضلا عن الذى لا
يؤديها فقال تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾^(٣) .
وقد صور القرآن الكريم مشهداً من مشاهد القيامة بين فيه عاقبة تاركى
الصلاة وهو حديث يدور بين أصحاب اليمين وأهل النار .

قال تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرٍ ؟ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ
نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ الْآيَاتِ ﴾^(٤) .

أما عن الآثار الواردة فيها فهى كثيرة ونقتصر على بعضها .
فلقد جعلها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الحد الفاصل بين المسلم
والكافر .

(١) الفتح الربانى (٥ : ١٤٥) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٥ : ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣) .

(٣) الماعون : ٤ - ٥ .

(٤) المدثر : ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ .

أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سفيان قال سمعت جابراً يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة »^(١) .
وأخرج الترمذى بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر ﴾^(٢) .
وبلغ من مكانة الصلاة في الإسلام أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين لا يرون شيئاً تركه كفر غير الصلاة^(٣) .

* * *

-
- (١) صحيح مسلم بتحقيق الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي (١ : ٨٨) .
(٢) سنن الترمذى (٥ : ١٤) .
(٣) أنظر كشف الغمة عن جميع الأمة لأبى المواهب عبد الوهاب الشعرانى الانصارى (١ : ٦٩) ط/الأخيرة سنة ١٣٧٠ هـ البانى الحلبى .

مشروعية الأذان

الأذان لغة : الإعلام . قال تعالى : ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ واشتقاقه من الأذن بفتححتين وهو الاستماع .

وشرعاً : الإعلام بوقت الصلاة بألفاظ مخصوصة^(١) .

ولم يشرع الأذان إلا بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وقد جزم بذلك ابن المنذر .

قال ابن حجر (وقد جزم ابن المنذر بأنه ﷺ كان يصلى بغير أذان منذ فرضت الصلاة بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة وإلى أن وقع التشاور فى ذلك فى حديث عبد الله بن عمر ثم حديث عبد الله بن زيد)^(٢) . أ.هـ .

أخرج البخاري بسنده عن نافع أن ابن عمر كان يقول : كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس ينادى لها فتكلموا يوماً فى ذلك فقال بعضهم اتخذوا ناقوساً مثل ناقوس النصارى . وقال بعضهم بل بوقاً مثل قرن اليهود .

فقال عمر : أولاً تبعثون رجلاً ينادى بالصلاة . فقال رسول الله ﷺ : « يا بلال قم فناد بالصلاة ... »^(٣) .

والمزاد بقوله ﷺ (قم فناد بالصلاة) ليس المراد قم فأذن الأذان المعروف . وإنما المراد إعلام الناس بحضور وقت الصلاة وذلك بقوله (الصلاة جامعة)^(٤) .

(١) فتح البارى (٢ : ٢١٧) .

(٢) فتح البارى (ص ٢١٨ — ٢١٩) ج ٢ .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (ص ٢٢٠) ج ٢ .

(٤) أنظر فتح البارى (ص ٢٢٢) ج ٢ .

أخرج الامام أحمد في مسنده عن عبد الله بن زيد قال لما أجمع رسول الله ﷺ أن يضرب بالناقوس يجمع للصلاة الناس وهو له كاره لموافقته النصارى طاف لى من الليل طائف وأنا نائم رجل عليه ثوبان أخضران وفى يده ناقوس يحمله قال فقلت له يا عبد الله أتبيع الناقوس قال : وما تصنع به قلت ندعو به إلى الصلاة قال أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قال فقلت بلى، قال: تقول الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله . أشهد أن محمداً رسول الله . أشهد أن محمداً رسول الله . حى على الصلاة، حى على الصلاة، حى على الصلاة . حى على الفلاح، حى على الفلاح . الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله . قال ثم استأخرت غير بعيد قال ثم تقول إذا أقمت الصلاة الله أكبر .. (وذكر صيغة الإقامة) قال فلما أصبحت أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما رأيت قال فقال رسول الله ﷺ إن هذه لرؤيا حق إن شاء الله . ثم أمر بالتأذين فكان بلال مولى أبى بكر يؤذن بذلك ويدعو رسول الله ﷺ إلى الصلاة (...)(^(١)) .

وفى رواية لأبى داود (إنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألق عليه ما رأيت فليؤذن به فإنه أندى صوتاً منك) فقامت مع بلال فجعلت ألقيه عليه ويؤذن به قال : فسمع ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو فى بيته ، فخرج يجر رداءه ويقول : (والذى بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل ما رأى فقال رسول الله ﷺ « فله الحمد »)(^(٢)) .

فهذا الحديث يدل على أن الأذان منقبة من مناقب الأمة الحمديّة فكانوا فى بادئ الأمر (كما سبق أن بينت) يتحینون أوقات الصلاة إلى أن تعددت المراتى حول ذلك وأقرها رسول الله ﷺ ومن يوم أن شرع والأذان شعيرة من شعائر الاسلام وبه تصوير الدار دار الإسلام . ولهذا كان النبى ﷺ إذا سمع الأذان أمسك والا أغار وبذلك كان يوصى أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين .

(١) مسند الامام أحمد (٤ : ٤٣) .

(٢) سنن أبى داود (١ : ١١٦) .

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) فيه دليل على ثبوت الأذان بنص الكتاب لا بالمنام وحده ^(٢) .

وسورة المائدة مدنية . وسبب نزول الآية كما أخرجه ابن جرير عن السدي كان رجل من النصاري بالمدينة إذا سمع المنادى ينادى : أشهد أن محمداً رسول الله قال : حرق الكاذب . فدخلت خادمة ذات ليلة من الليالي بنار وهو نائم وأهله نيام فسقطت شراة فأحرقت البيت فاحترق هو وأهله ^(٣) .

قال ابن العري في تفسير الآية : (كان المشركون واليهود والمنافقون إذا سمعوا النداء إلى الصلاة وقعوا في ذلك وسخروا منه فأخبر الله سبحانه بذلك عنهم ، وليس في كتاب الله تعالى ذكر الأذان إلا في هذه الآية ، أما إنه ذكرت الجمعة على الاختصاص) ^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٥) .
ففي هذه الآية الكريمة خطاب للمكلفين بفرض الجمعة بالاهتمام والمبادرة إلى أداء فريضة الجمعة عند سماعهم للأذان .



-
- (١) المائدة : ٥٨ .
(٢) تفسير الكشاف (١ : ٦٢٤) .
(٣) تفسير الطبري (٦ : ٢٩١) .
(٤) أحكام القرآن لأبي بكر محمد بن عمر المعروف بابن العري (٤٦٨ — ٥٤٣) تحقيق علي محمد البجاوي (٢ : ٦٣٤) ط/عيسى البابي الحلبي .
(٥) الجمعة : ٩ .

صلاة الجماعة

فرضيتها :

فرضت صلاة الجماعة في المدينة ولم تكن في مكة وذلك لأن المسلمين في المدينة كانوا يصلون في المسجد بدون خوف من أحد لأن المجتمع مجتمع مسلم متأخ يحب الواحد منهم لأخيه ما يحب لنفسه بخلاف المجتمع المسلم في مكة فقد كان مغلوبا على أمره ولا يأمنون على أنفسهم الجماعة في المسجد .
فضيلة صلاة الجماعة :

ليس هناك طاعة من الطاعات أتم شأننا ولا أعظم برهاننا من الصلاة لذا أوجب إشاعتها والاجتماع لها . ففي الاجتماع لها يكون هناك علماء يقتدى بهم وجهال متعطشون إلى موعظة وفقراء يلتمسون مد يد المساعدة لهم ومتهاونون لو لم يكلفوا أن يؤدوها على أعين الناس لتهاونوا فيها . وفي اجتماع الناس لها تفقد لأحوال المسلمين بعضهم لبعض فإذا تأخر أحدهم سئل عن سبب تأخره فإذا كان مريضا عادوه وإذا كان مسافرا دعوا الله له وإذا كان محتاجا ساعدوه . أضف إلى ذلك ما لها من عظيم الأجر فبالاجتماع لها تنزل الرحمات والبركات وفي الخطا لها ترفع الدرجات ويحط بها السيئات .

أخرج الامام مسلم في صحيحه عن أبي الاحوص قال عبس الله بن مسعود : (لقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق ، قد علم نفاقه أو مريض إن كان المريض يمشي بين رجلين حتى يأتي الصلاة ، وإن رسول الله ﷺ علمنا سنن الهدى . وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن فيه ؟

وأخرج أيضا عنه، قال: من سره أن يلقي الله غدا مسلما فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن. فإن الله شرع لكم سنن الهدى وأنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلى مسجد

من هذه المساجد ، إلا كتب الله له بكل خطوة حسنة ويرفعه بها درجة ، ويحط عنه بها سيئة . ولقد رأينا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف (١) .

فرضيتها :

فرضت الصلوات الخمس بمكة ليلة الاسراء . وقد ثبت ذلك في الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى في صحيحه المروى عن أبى ذر رضى الله عنه (٢) . وكان ذلك قبل الهجرة بسنة وحكى ابن حزم الاجماع عليه (٣) . وقد فرضت أولا خمسين صلاة ثم خفضت حتى صارت خمس صلوات .

أخرج الترمذى بسنده عن أنس بن مالك قال : (فرضت على النبى ﷺ ليلة أسري به الصلوات خمسين ، ثم نقصت حتى جعلت خمسا ، ثم نودى : يا محمد ، إنه لا يبدل القول لدي ، وإن لك بهذه الخمس خمسين) قال أبو عيسى : حديث أنس حديث حسن صحيح (غريب) (٤) .

أخرج البخارى بسنده عن أم المؤمنين السيدة عائشة قالت : فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين . فى الحضر والسفر فأقرت صلاة السفر وزيد فى صلاة الحضر (٥) .

قال ابن حجر : (والذى يظهر لى وبه تجتمع الأدلة السابقة أن الصلوات فرضت ليلة الاسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب ثم زيدت بعد الهجرة عقب الهجرة إلا الصبح كما روى ابن خزيمة وابن حبان والبيهقى من طريق الشعبى عن مسروق ، عن عائشة

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٥ : ١٥٦) .

(٢) انظر صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٢ : ٤) .

(٣) انظر الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى لمحمد بن الحسن الحجوى الثعالبى الفاسى (١ : ١٠٨) الناشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة لصاحبها محمد بن سلطان التمكنانى .

(٤) سنن الترمذى (١ : ٤١٧) .

(٥) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٢ : ٩) .

قالت : « فرضت صلاة الحضر ركعتين ركعتين ، وتركت صلاة الفجر لطول القراءة ، وصلاة المغرب لأنها وتر النهار » أ.هـ .

ثم بعد أن استقر فرض الرباعية خفف منها في السفر عند نزول الآية السابقة وهى قوله تعالى ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ ويؤيد ذلك ما ذكره ابن الأثير في شرح المسند أن قصر الصلاة كان في السنة الرابعة من الهجرة (١) .

ولا يخفى ما للصلاة من مهام اجتماعية فهى تعتبر أعظم رابطة جمعت المسلمين وألفت بين قلوبهم ووحدت صفوفهم بسبب ماسن فيها من الاجتماع اليومى خمس مرات ثم الاسبوعى يوم الجمعة ثم مرتين في السنة للعديد من فبهذه الاجتماعات أمكن للرسول ﷺ تهذيب أمته وبث الخير والقرآن في قلوبهم وزالت كل نفرة وضغينة كانت ساكنة بهم وعمل على ترقية أفكارهم وجمعهم لنهضة واحدة كرجل واحد حتى أصبحوا الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

ولولا الصلاة ما اضمحلت منهم بقايا الوثنية التى أفسدت أفكارهم وكانت الأثر الأكبر في ابتعادهم عن المعاصى والفجور وحلت مكانها الطاعات وحب الطيبات . وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (٢) (٣) .

التوجه إلى القبلة والحكمة منها :

لقد حث الاسلام على تعظيم شعائر الله . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (٤) وبيت الله من أعظم هذه الشعائر قال

(١) فتح الباري (٢ : ١٠) .

(٢) العنكبوت : ٤٥ .

(٣) انظر الفكر السامى (١ : ١٠٨) باختصار وتصرف .

(٤) الحج : ٣٢ .

تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ يَتِّ وَضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِكِبَّةٍ مُبَارَكاً وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

ولما كان البيت رمزا لصاحبه . ولما كان من الأدب عند التخاطب التوجه صوب المخاطب (ولما كان التوجه في الصلاة إلى ما هو مختص بالله لطلب رضاه والتقرب منه أجمع للخاطر وأدعى للخشوع وأقرب لحضور القلب مع الله لأن الخشوع لا يكون إلا مع السكون والركون إلى جهة معينة لا التوجه من جهة إلى جهة ، لهذا كله اقتضت الحكمة الإلهية أن يتوجه المسلمون في صلاتهم إلى الكعبة) (٢) .

فيقف العبد بين يدي خالقه مناجيا ويستشعر ذلة نفسه وعزة ربه فينكس رأسه خاضعا مخبتا .

وفي توجه المسلمين إلى قبلة واحدة في صلواتهم رمز إلى وحدتهم وتآلفهم إذ لو ترك الأمر بدون وجهة واحدة لحدث للمصلين الاضطراب والحيرة فلا يدرى المصلي أى الجهات أفضل أو أقرب إلى الله ولكن ذلك مظهرا من مظاهر الفرقة والخلاف .

وأخيرا كما لا يتوجه الوجه إلى القبلة إلا بالانصراف عن غيرها من الجهات كذلك فلا ينصرف القلب إلى الله عز وجل إلا بالتفرغ عما سواه .

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه طوال فترة إقامته في مكة يتوجه في صلاته إلى بيت المقدس وكان من فرط حبه للكعبة وشغفه بها يجعلها بينه وبين بيت المقدس واستمر هذا الحال حتى هاجر إلى المدينة ومكث فيها ستة أو سبعة عشر شهرا وهو يستقبل بيت المقدس . وكان ذلك امتحانا للمسلمين ولكن الله ثبتهم فقالوا : « سمعنا وأطعنا » ، وقالوا « آمنا به كل من عند ربنا » .

(١) آل عمران : ٩٦ .

(٢) روح الصلاة في الاسلام الأستاذ عفيف عبد الفتاح طيارة (١٣١) .

وفى بقاء القبلة على ماهى عليه بعد الهجرة فيه تألف لقلوب يهود المدينة وإشارة الى وحدة الدين والرسالة ولكن هذه المعانى السامية لم تجد فى قلوب وصفها الله بأنها كالحجارة أو أشد قسوة ، بل زاد الطين بلة فقد اشتد حقد اليهود وحسدهم للرسول ﷺ على ما وهبه الله من فضله وما أحاطه من عنايته وازداد عداء اليهود يوما بعد يوم فتشوقت نفس الرسول ﷺ أن يؤمر باستقبال الكعبة وألا يشارك اليهود فى وجهة العبادة لاسيما بعد أن أمعنوا فى الفساد والعناد .

قال تعالى ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ ائْتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

قال ابن كثير : (وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس قاله ابن عباس والجمهور) (٢) ١هـ .

وكان ﷺ يتربص الوقت الذى ينصرف فيه عن مشاكلة اليهود . ومن ثم تصبح قبلة المسلمين الكعبة وذلك لمكانتها العظيمة فى نفسه ولأنها رمز التوحيد الذى أقامه إبراهيم عليه السلام لذا كان ديدنه الدعاء والابتهال أن يوجه إلى الكعبة فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق .

قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

(١) البقرة : ١٤٥ .

(٢) تفسير ابن كثير (١ : ١٨٩) .

(٣) البقرة : ١٤٤ .

أى واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرفكم عن بيت المقدس وذلك بقولهم ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) . يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها بما فى كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأتمه وماخصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ولكن أهل الكتاب يتكاثرون ذلك بينهم حسدا وكفرا وعنادا ولهذا تهددهم تعالى بقوله ﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾ (٢) .

أخرج الإمام أحمد فى مسنده بسنده عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ (يعنى فى أهل الكتاب) (إنهم لا يحسدوننا على شىء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التى هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى قولنا خلف الامام آمين) (٣) .

وكان توجهه إلى الكعبة عند زيارته لبنى سلمة فى ضواحي المدينة أثناء صلاته للظهر وبعد ركعتين من الصلاة نزلت عليه آية تحويل القبلة ففرت عينه وطابت نفسه وتحول وهو فى الصلاة شطر الكعبة وسمى المسجد منذ ذلك الحين بمسجد القبليتين وكان ذلك فى يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرا. أخرج ابن سعد بسنده عن ابن عباس — إلى أن قال — زار رسول الله ﷺ أم بشر بن البراء بن معرور (٤) فى بنى سلمة فصنعت له طعاما : وحانت الظهر فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ركعتين ، ثم أمر أن يوجه إلى الكعبة فاستدار إلى الكعبة واستقبل الميزاب ، فسمى المسجد مسجد القبليتين ، وذلك يوم

(١) البقرة : ١٤٢ .

(٢) بتصرف من تفسير ابن كثير (١ : ١٩٣) .

(٣) مسند الامام أحمد (٦ : ١٣٥) .

(٤) واسمها خليدة كما قرره ابن حجر فقال والذى يظهر لى بعد البحث أن خليدة والددة بشر بن البراء . انظر الاصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني (٤ : ٤٣٥) . وقال ابن عبد البر (ام بشر) ابنة البراء بن معرور الأنصارية ويقال لها أم مبشر أيضا — قيل اسمها (خليدة) ولم يصح ، روى عنها عبد الله بن كعب ومجاهد . انظر الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر الثرى القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣ (٤ : ٤٣٥) فى هامش الاصابة .

الاثنين للنصف من رجب على رأس سبعة عشر شهرا وفرض شهر رمضان في شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا .

قال محمد بن عمر^(١) : وهذا أثبت عندنا^(٢) .

وأخرج البخارى بسنده عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة . فأنزل الله عز وجل — قد نرى تقلب وجهك في السماء — فتوجه نحو الكعبة . وقال السفهاء من الناس وهم اليهود — ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم — فصلى مع النبى ﷺ رجل ثم خرج بعدما صلى فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس (قلت : دل ذلك على أن الصلاة التى تم فيها التحويل هى صلاة الظهر) فقال : وهو يشهد أنه صلى مع رسول الله ﷺ وأنه توجه نحو الكعبة فتحرف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة)^(٣) .

(١) محمد بن عمر بن واقد السهمى الواقدى : من أقدم المؤرخين فى الاسلام ومن أشهرهم . ومن حفاظ الحديث . ولد بالمدينة سنة ١٣٠ هـ تولى القضاء ببغداد وتوفى فيها سنة ٢٠٧ هـ وأشهر من روى عنه كاتبه محمد بن سعد (صاحب كتاب الطبقات الكبرى) . الاعلام (٦ : ٣١) .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد (١ : ٢٤٢) .

(٣) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٢ : ٤٨) .

أنواع الصلوات

سبق أن تحدثنا عن الصلاة ومكانتها في الاسلام وعن مشروعية الأذان وعن القبلة وإكمالاً للبحث سوف أتحدث بمشيئة الله عن بعض الصلوات التي شرعت في العهد المدني ولاسيما التي نزل فيها وحى يتلى كصلاة الجمعة ، والخوف ، والجنائز ، والمسافر .

صلاة الجمعة

قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرَ الرَّازِقِينَ ﴾ (١) .

قوله تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خطاب تشريف للمكلفين بأداء فريضة الجمعة ويخرج عنه غير المكلفين .

أخرج أبو داود عن طارق بن شهاب عن النبي ﷺ قال (الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة إلا أربعة: عبد مملوك أو امرأة أو صبي أو مريض) (٢) .

وأخرج الدارقطني بسنده عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا مريض أو مسافر أو امرأة أو صبي أو مملوك ، فمن استغنى بلهو أو تجارة استغنى الله عنه والله غنى حميد) (٣) .

(١) الجمعة : ٩ — ١١ .

(٢) سنن أبي داود للحافظ المنذرى (٢ : ٩) تحقيق محمد حامد الفقى ط/ مكتبة السنة المحمدية القاهرة .

(٣) سنن الدارقطني (٢ : ٢) تحقيق السيد عبد الله هاشم عيسى المدنى وبذيله التعليق المغنى على الدارقطني ط/ دار المحاسن للطباعة — القاهرة سنة ١٣٨٦ هـ .

قوله تعالى ﴿إِذَا نَادَى لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ .

قال الرازى (إذا نودى) يعنى النداء إذا جلس الامام على المنبر يوم الجمعة وهو قول مقاتل وأنه كما قال لأنه لم يكن فى عهد رسول الله ﷺ نداء سواه كان إذا جلس عليه الصلاة والسلام على المنبر أذن بلال على باب المسجد وكذا على عهد أنى بكر وعمر (١) .

وقوله (للصلاة) أى لوقت الصلاة يدل عليه قوله من يوم الجمعة ولا تكون الصلاة من اليوم وإنما يكون وقتها من اليوم (٢) .

وقوله (من يوم الجمعة) بضم الجيم والميم وهى قراءة الجمهور (٣) لغة أهل الحجاز وهى قراءة عاصم (٤) .

واختلف فى سبب تسمية يوم الجمعة بهذا الاسم :

قال الحافظ ابن حجر : اختلف فى تسمية اليوم بذلك مع الاتفاق على أنه كان يسمى فى الجاهلية العروبة ، بفتح العين المهملة وضم الراء وبالموحدة .
(١) ف قيل سمي بذلك لأن كمال الخلائق جمع فيه ... وهذا أسانيده ضعيفة .
(٢) وقيل لأن خلق آدم جمع فيه .. وهذا أصح الأقوال .
(٣) وقيل إنما سمي بذلك لتجميع الأنصار مع أسعد بن زرارة وكانوا يسمونه يوم الجمعة . يوم العروبة فصلى بهم وذكرهم فسموه الجمعة حين اجتمعوا إليه واستدل قائله بما رواه الحافظ أبوبكر عبد الرزاق الصنعانى فى مصنفه عن أيوب عن ابن سيرين قال : جمع أهل المدينة قبل أن يقدم رسول الله ﷺ

(١) وقد أحدث سيدنا عثمان رضى الله عنه (على الأذان والاقامة) اللذين على عهد رسول الله ﷺ أذانا ثالثا جعله قبل الوقت عندما كثر الناس بالمدينة ليتأهب الناس للصلاة ويستعدوا لها .

(٢) تفسير الرازى (٨ : ٣٠) .

(٣) انظر فتح القدير للشوكانى (٥ : ٢٢٧) ، وكذلك روح المعانى للألويسى (٢٨ : ٩٩) .

(٤) عاصم بن بهدلة الأسدى شيخ القراء بالكوفة واحد القراء السبعة توفى سنة ١٢٧ هـ . انظر غاية النهاية فى طبقات القراء لأنى الخير شمس الدين الجزورى . توفى سنة ٨٣٣ ط/١ القاهرة مكتبة الخانجي ١٩٣٣ م .

وقبل أن تنزل الجمعة وهم الذين سمو الجمعة .. الحديث^(١) .
 (٤) وقيل سمي بذلك لاجتماع الناس للصلاة فيه وبهذا جزم ابن حزم ، فقال إنه اسم إسلامي لم يكن في الجاهلية وإنما كان يسمى العروبة ا . هـ^(٢) .
 وأرجح من الأقوال السابقة (والله أعلم) القول الثاني وهو أنه سمي بذلك لأن خلق آدم جمع فيه لما ورد فيه من الآثار .
 منها :

(١) ما أخرجه ابن خزيمة في صحيحه عن سلمان الفارسي مرفوعاً أنه قال : قال رسول الله ﷺ يا سلمان ما يوم الجمعة ؟ قال قلت الله ورسوله أعلم (كرر ذلك مرتين) قال يا سلمان يوم الجمعة به جمع أبوك — أو أبوكم — أنا أحدثك عن يوم الجمعة ما من رجل يتطهر يوم الجمعة كما أمرتم ثم يخرج من بيته حتى يأتي الجمعة فيقعد فينصت حتى يقضى صلاته إلا كان كفارة لما قبله من الجمعة^(٣) .

قال ابن حجر في الفتح أخرجه من حديث سلمان ابن خزيمة وأحمد وغيرهما وله شاهد عن أنى هريرة ذكره ابن أبي حاتم موقوفاً باسناد قوى وأحمد باسناد ضعيف وهذا أصح الأقوال^(٤) .

(٢) وبما أخرجه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي في تاريخه باختصار عن محمد ابن عيسى بن أنى موسى العطار عن سلمان أنه قال رسول الله ﷺ (إنما سميت الجمعة لأن آدم جمع فيه خلقه)^(٥) .

(١) المصنف لعبد الرزاق (٣: ١٥٩-١٦٠) بتحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي من منشورات المجلس العلمي ط/ الأولى ١٣٩٠ هـ ط/ المكتب الاسلامي — لبنان .

(٢) انظر فتح الباري (٣ : ٣ — ٤) .

(٣) صحيح ابن خزيمة (٣ : ١١٨) تحقيق د. محمد فؤاد الأعظمي . ط/ المكتب الاسلامي .

(٤) فتح الباري (٣ : ٣) .

(٥) تاريخ بغداد للحافظ ابى بكر أحمد بن على الخطيب (٢ : ٣٩٧) ط/ بدون — دار الكتاب

العربي .

وكانت أول جمعة جمعها رسول الله ﷺ بأصحابه في المدينة في بنى سالم ابن عوف . قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله ﷺ بقباء في بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجده .

ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة .. فأدركت رسول الله ﷺ الجمعة في بنى سالم بن عوف . فصلاها في المسجد الذى في بطن الوادى ، وادى رانواء فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة^(١) .

قوله تعالى (فاسعوا إلى ذكر الله) .

قال ابن كثير (أى اقصدوا واعمدوا واهتموا في سيركم إليها وليس المراد بالسعى هنا المشى السريع إنما هو الاهتمام بها كقوله تعالى (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن)^(٢) .

وقال البغوى: قوله (فاسعوا إلى ذكر الله) أى فامضوا إليه واعملوا له وليس المراد من السعى الاسراع إنما المراد منه العمل والفعل كما قال (وإذا تولى سعى في الأرض)^(٣) .

وقد نهى عن المشى السريع إلى الصلاة عموما فقد أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا)^(٤) .

قوله (إلى ذكر الله) قال الرازى (إلى ذكر الله) الذكر هو الخطبة عند الأكثر من أهل التفسير . وقيل هو الصلاة^(٥) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٢ : ١٣٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (٨ : ٣٥٣) وبهامشه تفسير البغوى .

(٣) تفسير البغوى (معالم التنزيل) للامام البغوى المتوفى سنة ٥١٦ (٨ : ٣٥٣) . ط/الاولى في مطبعة

المنار بمصر ١٣٤٧ هـ على هامش تفسير ابن كثير .

(٤) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٢ : ٢٥٧) .

(٥) تفسير الرازى (٨ : ٣٠) .

قال أبو السعود : (فاسعوا إلى ذكر الله) أى امشوا واقصدوا إلى الخطبة والصلاة^(١) .

وقوله تعالى (وذروا البيع) .

قال الألوسى : أى اتركوا المعاملة على أن البيع مجاز عن ذلك فيعم البيع والشراء والاجارة وغيرها من المعاملات .. والأمر للوجوب فيحرم كل ذلك . (ذلكم) أى المذكور من السعى إلى ذكر الله وترك البيع .

وقوله تعالى (خير لكم إن كنتم تعلمون) أنفع من مباشرة البيع فإن نفع الآخرة أجل وأبقى^(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ أى إذا صليت الفريضة يوم الجمعة (فانتشروا فى الأرض) .

هكذا بصيغة الأمر بمعنى الإباحة لما أن إباحة الانتشار زائلة بفريضة أداء الصلاة فإذا زال ذلك عادت الإباحة فيباح لهم أن يتفرقوا فى الأرض ويبتغوا من فضل الله وهو الرزق بالتجارة بعد المنع بقوله تعالى ﴿ وذروا البيع ﴾ .

وعن مقاتل : أحل لهم ابتغاء الرزق بعد الصلاة فمن شاء خرج ومن شاء لم يخرج .. والأفضل فى الابتغاء من فضل الله أن يطلب الرزق أو الولد الصالح أو العلم النافع وغير ذلك من الأمور الحسنة والظاهر هو الأول^(٣) .

﴿ واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ قال ابن جرير : أى اذكروه بالحمد له ، والشكر على ماأنعم به عليكم من التوفيق لأداء فرائضه لتفلحوا ، فتدركوا طلباتكم عند ربكم وتصلوا الى الخلد فى جناته^(٤) .

قوله تعالى ﴿ وإذا رأوا تجارة أو هواً انفضوا إليها وتركوك قائماً ﴾ .

وسبب نزول هذه الآية الكريمة خروج الناس من بين يدى رسول الله ﷺ وهو يخطب قائماً يوم الجمعة .

(١) تفسير أبو السعود (٨ : ٢٤٩) المجلد الرابع ط/ دار احياء التراث العربى — لبنان .

(٢) تفسير الألوسى (٢٨ : ١٠٣) .

(٣) تفسير الرازى (٣٠ : ٩) باختصار وتصرف .

(٤) تفسير الطبرى (٢٨ : ١٠٣) .

أخرج مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ كان يخطب قائماً يوم الجمعة فجاءت عير من الشام فانقتل^(١) الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً — في رواية أنا فيهم — فأنزلت الآية التي في الجمعة ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفضوا إليها وتركوك قائماً ﴾^(٢) .

وفي الآية عتاب لما وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة ولا بد أن أشير إلى أن هذه القصة وقعت لما كان رسول الله ﷺ يقدم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة فكان هذا هو السبب الذي رخصوا به لأنفسهم في ترك سماع الخطبة .

أخرج أبو داود في مراسيله قال : كان رسول الله ﷺ يصلي الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين ، حتى كان يوم جمعة والنبي ﷺ يخطب ، وقد صلى الجمعة ، فدخل رجل فقال : إن دحية بن خليفة الكلبي قدم بتجارة ، وكان دحية إذا قدم تلقاه أهله بالدفاف فخرج الناس فلم يظنوا إلا أنه ليس في ترك الخطبة شيء فأنزل الله عز وجل ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفضوا إليها ﴾ فقدم النبي ﷺ الخطبة يوم الجمعة وآخر الصلاة^(٣) .

وقوله تعالى ﴿ قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

أى ما عند الله من الثواب على الصلاة والثبات مع النبي ﷺ خير من اللهو ومن التجارة (والله خير الرازقين) لأنه موجد الأرزاق فأياه فاسألوا ومنه فاطلبوا^(٤) .

ونحنم هذا التفسير الموجز لهذه الآيات الكريمة ببيان حكمة مشروعية صلاة الجمعة . قال القفال :

(١) انقتل : الفتل : لى الشيء كليك الحبل وكقتل الفتيلة . يقال انقتل فلان عن صلاته أى انصرف .

١.هـ . لسان العرب (١١ : ٥١٤) .

(٢) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٢ : ٥٩) .

(٣) رواه أبو داود في مراسيله .

(٤) تفسير البغوى (٨ : ٣٦٣) .

(وهى أن الله عز وجل خلق الخلق فأخرجهم من العدم الى الوجود وجعل منهم جمادا وناميا وحيوانا فكان ماسوى الجماد أصنافا منها بهائم وملائكة وجن وإنس ثم هى مختلفة المساكن من العلو والسفل فكان أشرف العالم السفلى هم الناس لعجيب تركيبهم ولما كرمهم الله تعالى به من النطق وركب فيهم العقول والطباع التى بها غاية التعبد بالشرائع ولم يخف موضع عظم المنة وجلالة قدر الموهبة لهم فأمروا بالشكر على هذه الكرامة فى يوم من الأيام السبعة التى فيها انشئت الخلائق وتم وجودها ليكون فى اجتماعهم فى ذلك اليوم تنبيه على عظم ما أنعم الله تعالى به عليهم . ولكل أهل ملة من الملل المعروفة يوم منها معظم فليهود يوم السبت وللنصارى يوم الأحد وللمسلمين يوم الجمعة .

ولما جعل يوم الجمعة يوم شكر وإظهار سرور وتعظيم نعمة احتيج فيه إلى الاجتماع الذى به تقع شهرته فجمعت الجماعات له كالسنة فى الأعياد واحتيج فيه إلى الخطبة تذكيرا بالنعمة وحثاً على استدامتها بإقامة ما يعود بآلاء الشكر (١) .

(١) باختصار من تفسير الرازى (٣٠ : ٩) .

صلاة المكافر

إن من إكرام الله لهذه الأمة أن رفع عنهم إصرهم فلم يكلفهم ما لا يطيقون وذلك لأنهم قالوا ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾^(١) .

فمنذ أول عهد الرسالة فرض عليهم سبحانه وتعالى قيام الليل وذلك بقوله تعالى ﴿ يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ . قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا . نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾^(٢) . فكان النبي ﷺ وطائفة معه يقومون الليل على تلك المقادير المشار إليها في الآية وشق ذلك عليهم فكان الرجل لا يدرى كم صلى أو كم بقى من الليل، فكان يقوم الليل كله حتى انتفخت وتورمت أقدامهم وانتفعت ألوانهم ، فرحمهم وخفف عنهم .

فأنزل الله تعالى ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾^(٣) أى مَنْ عَلَيْكُمْ بالعفو ورخص لكم فى ترك القيام .

(فاقرأوا ما تيسر من القرآن) أى فاقرأوا فى الصلاة بالليل ما خف عليكم وتيسر لكم منه من غير أن ترقبوا وقتا . ثم ذكر سبحانه عذرهم ودواعى التخفيف عليهم .

فقال تعالى ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ أى يسافرون فيها للتجارة والأرباح يطلبون من رزق الله ما يحتاجون إليه فى معاشهم^(٤) فلا يطيقون قيام الليل – ومن هنا كان التخفيف على المسافر بقصر الصلاة الرباعية .

﴿ وَآخَرُونَ يقاتلون فى سبيل الله ﴾ يعنى المجاهدين فلا يطيقون قيام الليل .

(١) البقرة : ٢٨٥ .

(٢) المزمل : ١ – ٤ .

(٣) المزمل : ٢٠ .

(٤) انظر تفسير القرطبي (٢٩ : ٥٢ – ٥٦) .

ومن هنا كان التخفيف عليهم وفرض صلاة الخوف باختلاف صورها .
ومن هذا الباب الذى خفف الله فيه على الأمة صلاة المسافر .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ (١) .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى سافرتُم عن موضع اقامتكم .
وقوله تعالى ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ : للعلماء
فى هذه الآية قولان :
القول الأول :

قال ابن كثير (أى تخففوا فيها إما من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية كما فهمه الجمهور من هذه الآية) واستدلوا بها على قصر الصلاة فى السفر (٢) .
قال القاسمى : (ذهب الجمهور إلى أن الآية عنى بها تشريع صلاة السفر . وأن معنى قوله تعالى ﴿ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ هو قصر الكمية وذلك بأن تجعل الرباعية ثنائية . قالوا : وحكمها للمسافر فى حال الأمن كحكمها فى حال الخوف لتظاهر السنن على مشروعيتها مطلقا . روى الترمذى والنسائى وابن أبى شيبه عن ابن عباس (أن النبى ﷺ خرج من المدينة لا يخاف إلا الله رب العالمين فصلى ركعتين) قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح (٣) .

وروى البخارى (٤) والبقية عن أنس قال : (خرجنا مع رسول الله ﷺ من

(١) النساء : ١٠١ .

(٢) تفسير ابن كثير (١ : ٥٤٦) .

(٣) سنن الترمذى باب ماجاء فى التقصير فى السفر (٢ : ٤٣١) .

(٤) أخرجه البخارى وعلى هامشه فتح البارى فى كتاب تقصير الصلاة باب ماجاء فى التقصير وكُم يقيم حتى يقصر (٣ : ٢١٦) .

للمدينة إلى مكة فكان يصلى ركعتين ركعتين حتى رجعنا الى المدينة . قلت : أقمت
بمكة شيئا ؟ قال أقمنا بها عشرا (١)

القول الثاني :

إن المراد بالقصر ههنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية وهو ادخال
التخفيف في كيفية أداء الركعات .

وهو قول مجاهد والضحاك والسدى . واعتضدوا بما رواه الامام مالك عن
كيسان عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت فرضت الصلاة
ركعتين ركعتين في السفر والحضر فأقرت صلاة السفر ، وزيد في صلاة الحضر (٢) .

فاذا كان أصل الصلاة في السفر هي الثنتين فكيف يكون المراد بالقصر
ههنا قصر الكمية لأن ما هو الأصل لا يقال فيه ﴿ فليس عليكم جناح أن
تقصروا من الصلاة ﴾ .

وأصرح من ذلك دلالة على هذا مارواه الامام أحمد بسنده عن عمر بن
الخطاب رضى الله عنه قال : صلاة السفر ركعتان ، وصلاة الضحى ركعتان ،
وصلاة الفطر ركعتان ، وصلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد
ﷺ (٣) .

(أخرج النسائي وابن ماجه ورجاله ثقات ، قال الحافظ ابن القيم في
الهدى هو ثابت عنه (يعنى عن عمر) قال وهو الذى سأل النبى ﷺ ما بالناس
نقصر وقد أمنا ؟ فقال له رسول الله ﷺ « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا
صدقته » .

(١) تفسير القاسمى (محاسن التأويل) (٥ : ١٥٢) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ط/ البانى الحلبي الأولى
سنة ١٣٧٧ هـ .

(٢) أخرجه البخارى على هامشه فتح البارى (٣ : ٢٢٤) واللفظ للمالك . أخرجه الامام مالك في الموطأ
(١ : ١٤٦) انظر تفسير ابن كثير (٥ : ٥٤٥ - ٥٤٦) .

(٣) مسند الامام أحمد بشرح الساعاتى (٥ : ٩٣) حديث رقم (١٢٠٧) .

قال : ولا تناقض بين حديثيه ، فان النبي ﷺ لما أجابه بأن هذا صدقة من الله عليكم ودينه اليسر السمع علم عمر أنه ليس المراد من الآية قصر العدد كما فهمه كثير من الناس .

قال (صلاة السفر ركعتان غير قصر) وعلى هذا فلا دلالة في الآية على أن قصر العدد مباح منفى عنه الجناح فإن شاء المصلي فعله وإن شاء أتمه . وقد كان ﷺ يواظب في أسفاره على ركعتين ركعتين .. (١) .

وقد فصل هذا القول الرازي ورد على القائلين به .

فقال (القول الثاني) إن المراد من القصر إدخال التخفيف في كيفية أداء الركعات وهو أن يكتفى في الصلاة بالأياء والاشارة بدل الركوع والسجود وأن يجوز المشي في الصلاة ، وأن تجوز الصلاة عند تلطخ الثوب بالدم ، وذلك هي الصلاة التي يؤتى بها حال شدة التحام القتال وهذا القول يروى عن ابن عباس وطاوس . واحتج هؤلاء على صحة هذا القول بأن خوف الفتنة من العدو لا يزول فيما يؤتى بركعتين على إتمام أوصافها وإنما ذلك فيما يشتد فيه الخوف في حال التحام القتال وهذا ضعيف ، لأنه لا يمكن أن يقال : إن صلاة المسافرين إذا كانت قليلة الركعات فيمكنه أن يأتي بها على وجه لا يعلم خصمه بكونه مصليا ، أما إذا كثرت الركعات طالت المدة ولا يمكنه أن يأتي بها على حين غفلة من العدو .

ثم رجع رأى القائلين بالقول الأول :

(واعلم أن حمل لفظ القصر على إسقاط بعض الركعات أولى) . ويدل عليه

وجوه :

الأول : حديث عمر بن الخطاب (قول النبي ﷺ « صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته » وهذا يدل على أن القصر المذكور في الآية هو القصر في عدد الركعات . وأن ذلك كان مفهوما عندهم من معنى الآية .

(١) الفتح الرباني (٥ : ٩٤) .

الثاني: أن القصر عبارة عن أن يؤتى ببعض الشيء ويقتصر عليه فأما أن يؤتى بشيء آخر ، فذلك لا يسمى قصرا ولا اقتصارا . ومعلوم أن إقامة الایماء مقام الركوع والسجود وتجويز المشي في الصلاة ، وتجويز الصلاة في الثوب الملطخ بالدم ، ليس شيء من ذلك قصرا ، بل كلها إثبات لأحكام جديدة وإقامة لشيء مقام شيء آخر فكان تفسير القصر بما ذكرنا أولى .

الثالث: ان (من) في قوله (من* الصلاة) للتبعية، وذلك يفهم منه جواز الاقتصار على بعض الصلاة .

الرابع: أن لفظ القصر كان مخصوصا في عرفهم بنقص عدد الركعات ولهذا لما صلى النبي ﷺ الظهر ركعتين ، قال ذو الیدين أقصرت الصلاة أم نسيت؟^(١) .
الخامس: ان القصر بمعنى تغيير الصلاة مذكور في الآية التي بعد هذه الآية، فوجب أن يكون المراد من هذه الآية بيان القصر بمعنى حذف الركعات ، لئلا يلزم التكرار .

وبهذه الوجوه السابقة يكون تفسير التقصير بإسقاط بعض الركعات أولى من تفسيره بما ذكره من الایماء والاشارة^(٢) .

وقوله تعالى ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتَنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .

ففي تفسير هذه الفتنة قولان :

الأول : خفتم أن يفتنوكم عن اتمام الركوع والسجود في جميعها .

الثاني : خفتم أن يفتنكم الذين كفروا بعداوتهم ، والحاصل أن كل محنة وبليّة وشدة فهي فتنة .

وهذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية ، فإن في مبدأ الاسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة بل ماكانوا ينهضون إلا إلى غزو عام أو في سرية خاصة وسائر الأحيان حرب للاسلام وأهله، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له كقوله تعالى ﴿وَلَا تَكْرَهُوا فِتْيَانَكُمْ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ .

* يجوز أن تكون (من) زائدة .

(١) انظر تفسير الرازي (١١ : ١٧ - ١٨) .

(٢) انظر تفسير الرازي (١١ : ٢٢) .

وقوله تعالى ﴿ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ لأنكم دخلتم في الاسلام فهم لكم أعداء لهذا أقدموا على محاربتكم . فإن طالت صلاتكم فرموا وجدوا الفرصة في قتلكم فعلى هذا رخصت لكم في قصر الصلاة ، وإنما قال (عدواً) ولم يقل أعداء لأن العدو يستوى فيه الواحد والجمع^(١) .

(١) انظر تفسير الرازى (١١ : ٢٣) .

صلاة الخوف

قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أُمِيتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١) .

لما أمر تعالى بالقيام له في الصلاة محافظين عليها في أوقاتها ومؤدين لها بطمأنينة ووقار وسكينة وهذا في حال الأمن والاستقرار ذكر حالة الخوف والفرع الطارئة أحياناً . وفي هذا إشارة إلى أن الصلاة لا تسقط عن العبد في جميع الأحوال ورخص لعبيده في الصلاة رجالاتاً على الأقدام وركبانا على الخيل والإبل ونحوها إيماء وإشارة بالرأس حيثما توجه ، وهذه هي صلاة الفذ الذي قد ضايقه الخوف على نفسه في حال المسابقة أو من سبع يطلبه أو عدو يتبعه أو سيل يحمله (٢) .

أخرج البخاري بسنده عن ابن عمر عن النبي ﷺ (وإن كانوا أكثر من ذلك فليصلوا قياماً وركبانا) (٣) .

قال ابن حجر (أى إن كان العدو والمعنى أن الخوف إذا اشتد والعدو إذا كثر فخيف من الانقسام لذلك جازت الصلاة حينئذ بحسب الامكان وجاز ترك مراعاة مالا يقدر عليه من الأركان فينقل عن القيام إلى الركوع ، وعن الركوع والسجود إلى الإيماء إلى غير ذلك . وهذا قال الجمهور (٤)) .

(١) البقرة : ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٢) انظر تفسير القرطبي (٣ : ٢٢٣) باختصار وتصرف .

(٣) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (٣ : ٨٥) .

(٤) فتح الباري (٣ : ٨٥) .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ (١) .

هذه الآيات الكريمة مدنية في سورة النساء المدنية وتحدث في سياقها عن صفة صلاة الخوف . تلك الصلاة التي تبرز مدى أهمية فريضة الصلاة في الإسلام فهي تعتبر أبلغ مثال في المحافظة على الصلاة بل في أدائها جماعة ، حيث إنه أمر بالإتيان بها حتى في الحرب في حالة الالتحام مع العدو وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على ما للصلاة من منزلة كبرى في الدين الإسلامي وكذلك ما للعبادة من أثر فعال في تقوية معنويات الجيش التي هي من الأسباب الرئيسية للنصر . فالصلاة تغرس في نفس المجاهد اليقين والصبر والثبات والتضحية وتجعله على يقين بلقاء ربه وما سوف يفوز به من منزلة الشهادة وما أعد له من النعم .

فقوله تعالى (وإذا كنت فيهم فأقمتم لهم الصلاة) .

اختلف العلماء في أنه هل صلاة الخوف خاصة للرسول ﷺ أو أنها تجوز لغيره .

الرأى الأول : قال أبو يوسف والحسن بن زياد : صلاة الخوف كانت خاصة للرسول ﷺ ولا تجوز لغيره . وقال المزني كانت ثابتة ثم نسخت . واحتج أبو يوسف على قوله بوجهين : الأول أن قوله تعالى (وإذا كنت فيهم فأقمتم لهم الصلاة) ظاهره يقتضي أن إقامة هذه الصلاة مشروطة بكون النبي ﷺ فيهم لأن كلمة (إذا) تفيد الاشتراط .

(١) النساء : ١٠٢ .

الثاني : أن تغيير هيئة الصلاة أمر على خلاف الدليل ، إلا أنا جوزنا ذلك في حق الرسول ﷺ لتحصل للناس فضيلة الصلاة خلفه .

الرأى الثاني : وأما سائر الفقهاء فقالوا : لما ثبت هذا الحكم في حق النبي ﷺ بحكم هذه الآية وجب أن يثبت في حق غيره لقوله تعالى (واتبعوه) ألا ترى أن قوله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾^(١) لم يوجب كون الرسول ﷺ مخصوصا به دون غيره من الأمة بعده .

وأما التمسك بلفظ (إذا) فالجواب أن مقتضاه هو الثبوت عند الثبوت أما العدم عند العدم فغير مسلم به، وأما التمسك بإدراك فضيلة الصلاة خلف النبي ﷺ فليس يجوز أن يكون علة لإباحة تغيير الصلاة ، لأنه لا يجوز أن يكون طلب الفضيلة يوجب ترك الفرض فاندفع هذا الكلام^(٢) .

قوله تعالى (فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم) يعنى غير المصلين من الطائفة التى لم تصل مع النبي ﷺ وذلك لحراستهم (ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك) .

وفى هذه الآية يشرع لنا المولى عز وجل كيفية صلاة الخوف . وقد فصلت السنة المطهرة أنواعاً كثيرة لصلاة الخوف . فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة ، وتارة يكون فى غير اتجاهها ، ثم تارة يصلون جماعة وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرّون على الجماعة بل يصلون فرادى مستقبل القبلة وغير مستقبلها ورجالا وركبانا . ولهم أن يمشوا ويضربوا الضرب المتتابع فى متن الصلاة ، ومن العلماء من قال : يصلون هذه الحالة ركعة واحدة لحديث ابن عباس قال : (فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد ﷺ فى الحضر أربعاً وفى السفر ركعتين ، وفى الخوف ركعة)^(٣) .

(١) التوبة : ١٠٣ .

(٢) انظر تفسير الرازى (١١ : ٢٤) .

(٣) صحيح مسلم على هامشه شرح النووى (٥ : ١٩٦) .

قال النووي (هذا الحديث قد عمل بظاهره طائفة من السلف منهم الحسن والضحاك وإسحق بن راهويه ، وقال الشافعى ومالك والجمهور إن صلاة الخوف كصلاة الأيمن في عدد الركعات فإن كان في الحضر وجب أربع ركعات وإن كانت في السفر وجب ركعتان . ولا يجوز الاقتصار على ركعة واحدة في حال من الأحوال . وتأولوا حديث ابن عباس هذا على أن المراد ركعة مع الإمام وركعة أخرى يأتي بها منفرداً . كما جاءت الأحاديث الصحيحة في صلاة النبي ﷺ وأصحابه في الخوف^(١) .

قال الحافظ ابن عبد البر (انفرد به بكير بن الأحنس وليس حجة فيما ينفرد به والصلاة أولى ما احتيط فيه ، ومن صلى ركعتين في خوفه وسفره خرج من الاختلاف إلى اليقين)^(٢) .

وقد وردت في كتب السنة عدة روايات وضحت فيها صفة صلاة الخوف باختلاف صورها بحسب موقع العدو وتحاشيا من الاطالة سأقتصر على بعض ما أخرجه البخارى ومسلم في صحيحيهما .

أخرج البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : غزوت مع رسول الله ﷺ قبل نجد فواربنا العدو فصافقناهم ، فقام رسول الله ﷺ يصلى لنا . فقامت طائفة معه تصلى وأقبلت طائفة على العدو ، وركع رسول الله ﷺ بمن معه وسجد سجدة ثم انصرفوا مكان الطائفة التى لم تصل . فجاءوا فركع رسول الله ﷺ بهم ركعة وسجد سجدة ثم سلم ، فقام كل واحد منهم فركع لنفسه ركعة وسجد سجدة^(٣) .

وفي هذه الصورة محتمل أن العدو كان في خلاف جهة القبلة . وأخرج مسلم في صحيحه عن سهل بن أبى حثمة أن رسول الله ﷺ صلى بأصحابه في الخوف فصفهم خلفه صفين فصلى بالذين يلونه ركعة ثم قام

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٥ : ١٩٧) .

(٢) تفسير القرطبي (٣ : ٢٢٤) .

(٣) صحيح البخارى على هامشه فتح البارى (٣ : ٨٢) .

فلم يزل قائما حتى صلى الذين خلفهم ركعة ثم تقدموا وتأخر الذين كانوا قدامهم فصلى بهم ركعة ثم قعد حتى صلى الذين تخلفوا ركعة ثم سلم^(١) .
وفي هذه الصورة يحتمل أن العدو كان جهة القبلة .

قال النووي : (وقد روى أبو داود وغيره وجوها أخرى في صلاة الخوف بحيث يبلغ مجموعها ستة عشر وجها وقال الخطابي : صلاة الخوف أنواع صلاها النبي ﷺ في أيام مختلفة وأشكال متباينة يتحرى في كلها ما هو أحوط للصلاة وأبلغ في الحراسة . فهي على اختلاف صورها متفقة المعنى)^(٢) .
قال ابن حجر : قال صاحب الهدى : أصولها ست صفات وبلغها بعضهم أكثر .

وهؤلاء كلما رأوا اختلاف الرواة في قصة جعلوا ذلك وجها من فعل النبي ﷺ وإنما هو من اختلاف الرواة* . أ . هـ .
وهذا هو المعتمد وإليه أشار شيخنا بقوله : يمكن تداخلها^(٣) . ولنعد إلى تفسير بقية الآية .

وقوله تعالى (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) .

قال الرازي : (فان قيل : لم ذكر في الآية الأولى « أسلحتهم » فقط وذكر في هذه الآية حذرهم وأسلحتهم ؟ .

قلنا : لأن في أول الصلاة قلما يتنبه العدو لكون المسلمين في الصلاة ، بل يظنون كونهم قائمين لأجل المحاربة . أما في الركعة الثانية فقد ظهر للكفار كونهم في الصلاة فهنا ينتهزون الفرصة في الهجوم عليهم فلا جرم خص الله تعالى هذا الموضع بزيادة تحذير فقال (وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم)^(٤) .

(١) صحيح مسلم على هامشه شرح النووي (٦ : ١٢٨) .

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٦ : ١٢٦) .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٣ : ٨٣) .

(٤) تفسير الرازي (١١ : ٢٦) .

* أنظر زاد المعاد في هدى خير العباد لابن قيم الجوزية (١ : ٥٣١ ، ٥٣٢)

ثم قال تعالى ﴿ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ أى بالقتال .

وسبب نزول هذه الآية الكريمة هو ما أخرجه الامام أحمد في مسنده عن أنى عياش الزرقى قال : كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا : قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم . ثم قالوا تأتى عليهم الآن صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم قال فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) قال فحضرت فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح قال : فصفقنا خلفه صفين قال ثم ركع فركعنا جميعا ثم رفع فرفعنا جميعا^(١) الحديث .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ﴾ والمعنى أنه إذا تعذر حمل السلاح إما لأنه يصيبه بلل السماء فيسود وتفسد حدته أو لأن من الأسلحة ما يكون مبطناً فيثقل على لابسها إذا ابتل بالماء أو لأجل أن الرجل كان مريضاً فيشق عليه حمل السلاح ، فهنا له أن يضع السلاح .

ثم قال (وَخُذُوا حِذْرَكُمْ) أى إنه رخص لهم في وضع السلاح حال المطر وحال المرض ثم أمرهم مرة أخرى بالتيقظ والتحفظ والمبالغة في الحذر ، لئلا يجترىء عليهم العدو استغناماً منهم لوضع المسلمين أسلحتهم^(٢) . ثم ختم الله الآيات الكريمة بقوله :

(إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا) وفيه تقوية لقلوب المسلمين وأن الله سيخذل الكافرين ولا ينصرهم ألبتة .

(١) مسند الامام أحمد بن حنبل (٤ : ٥٩) والحاكم في المستدرک (١ : ٣٣٧) وقال صحيح على شرطهما وأقره الذهبي .

(٢) أنظر تفسير الرازى (١١ : ٢٦) .

صلاة الجنازة

قال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا تُوَاوَهُمْ فَأَسِيقُون ﴾ (١) .

وسبب نزول هذه الآية الكريمة ما أخرجه البخارى بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : لما مات عبد الله بن أبى بن سلول دُعى له رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه . قلت : يا رسول الله أتصلى على ابن أبى وقد قال يوم كذا وكذا ؟ قال اعدد عليه قوله ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : أخر عنى يا عمر ، فلما أكثر عليه قال : إني خيرت فاخترت (٢) .

لو أعلم أنى إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها قال فصلى عليه رسول الله ﷺ ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة — ولا تصل على أحد منهم مات أبداً — إلى قوله وهم فاسقون — قال : فعجبت بعد من جرأتى على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم (٣) .

واختلف العلماء فى الآية هل يؤخذ من مفهومها وجوب الصلاة على المؤمنين مع أن الظاهر أنها نص فى الامتناع من الصلاة على الكفار على قولين . والذى أرجحه أنه يؤخذ لأنه علل المنع من الصلاة على الكفار لكفرهم لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فإذا زال الكفر وجبت الصلاة . وهذا

(١) التوبة : ٨٤ .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : (استغفر لهم أولا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٩ : ٤٦) .

نحو قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ ^(١) يعنى الكفار .
 فدل على أن غير الكفار يرونه وهم المؤمنون فذلك مثله . والله أعلم .
 ومنشأ الخلاف القول بدليل الخطاب وتركه .

أما الدليل من السنة ما أخرجه الامام مسلم فى صحيحه بسنده عن جابر
 ابن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : (إن أحبا لكم قد مات فقوموا فصلوا
 عليه) قال : فقمنا فصفنا صفين ^(٢) يعنى النجاشى .

والجمهور من العلماء على أن التكبير أربع . روى الدارقطنى عن أبى ابن
 كعب أن رسول الله ﷺ قال : (ان الملائكة صلت على آدم فكبرت عليه أربعاً
 وقالوا هذه ستكم يا بنى آدم) ^(٣) .

وقوله تعالى (ولا تقم على قبره) كان رسول الله ﷺ إذا دفن الميت وقف
 على قبره ودعا له بالتثبيت . ^(٤) .

﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَأْوَاهُمُ فَاسِقُونَ ﴾ وهذه علة لنبه
 ﷺ عن الصلاة على المنافقين فكأنه قال سبحانه وتعالى لا تصلّ عليهم لأنهم
 كفروا بالله ورسوله وخرجوا عن جماعة المسلمين .



(١) المطففين : ١٥ .

(٢) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٢ : ٦٥٧) حديث رقم ٦٦ كتاب الجنائز .

(٣) سنن الدارقطنى (٢ : ٧١) للامام على بن عمر الدارقطنى تحقيق السيد عبد الله المدنى ، ط/ دار
 المحاسن بالقاهرة .

(٤) أنظر تفسير القرطبى (٨ : ٢١٨) .

ثانيا : الزكاة

الزكاة فى اللغة : قال الزبيدى (زكا) المال والزرع وغيرهما (يزكو : زكاء) بالمد (وزكوا) بالفتح . وكل شىء يزداد ويسمن فهو يزكو زكاء .

(وزكاه الله تعالى) تزكية (وأزكاه) أنماه وجعل فيه بركة .

(وزكا) الرجل يزكو زكوا (صلح) ، وبه فسر قوله تعالى (ما زكا منكم من أحد) أى ما صلح (وزكا) يزكو (تنعم) وكان فى خصب نقله الجوهري عن الأموى .

(والزكاة) ما أخرجته من مالك لتطهر به ، كذا فى المحكم وفى المصباح سمي القدر المخرج من المال زكاة . لأنه سبب يرجى به الزكاء .

وقال ابن الأثير (الزكاة) فى اللغة الطهارة والنماء والبركة والمدح وكل ذلك قد استعمل فى القرآن والحديث^(١) .

الزكاة فى الاصطلاح :

(اسم لقدر مخصوص من مال مخصوص يجب صرفه لأصناف مخصوصة بشرائط معلومة تؤخذ من مظانها) وسميت بذلك لأن المال ينمو ببركة إخراجها ودعاء الأخذ ، ولأنها تطهر مخرجها من الإثم وتمدحه حين تشهد له بصحة الإيمان^(٢) .

(١) تاج العروس للعلامة محمد مرتضى الزبيدى (١٠ : ١٦٤) ط / منشورات دار مكتبة الحياة — بيروت — لبنان .

(٢) مغنى المحتاج إلى معرفة الفاظ المنهاج تأليف شمس الدين محمد بن أحمد الشرينى الخطيب (ت ٩٧٧) القاهرة ، مطبعة البانى الحلبي عام ١٩٥٨ م (١ : ٢٦٨) .

مكانة الزكاة في الإسلام

تعتبر الزكاة ركناً من أركان الإسلام الأساسية فهي في المنزلة الثالثة بعد الشهادتين وإقامة الصلاة وإيتائها مع الشهادتين وإقامة الصلاة إيدان بدخول المرء في الإسلام واستحقاقه لأخوة المسلمين . قال تعالى (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين)^(١) .

وقد تكررت كلمة الزكاة معرفة في القرآن الكريم في ثلاثين موضعاً والمتتبع للمواضع الثلاثين التي ذكرت فيها الزكاة يجد أن ثمانية منها في السور المكية وسائرهما في السور المدنية^(٢) .

وقد فرضها الله تعالى بقوله عز وجل ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾^(٣) . وجاءت السنة مؤكدة لها ومفصلة لأنصبتها .

أخرج البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن، فقال: ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم^(٤) . إلى غير ذلك من الأحاديث التي سطرها كتب السنة المطهرة .

(١) التوبة : ١١ .

(٢) باختصار حقق ذلك الدكتور يوسف القرضاوى في كتابه فقه الزكاة (١ : ٤٢) .

(٣) البقرة : ١١٠ .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٤ : ٤) .

فَالزَّكَاةُ فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ يَكْفُرُ جَاحِدُهَا ، وَيَفْسُقُ مَانِعُهَا ، وَيُقَاتِلُ تَارِكُهَا وَلَيْسَ أَدْلُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَنَّ الْخَلِيفَةَ الصَّدِيقَ جَهَّزَ أَحَدَ عَشَرَ لُؤَاءَ لِمُقَاتَلَةٍ مِنْ امْتَنَعُوا عَنْ أَدَائِهَا . وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَنَّاكَ^(١)) كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقَاتِلَتِهِمْ عَلَى مَنَعِهَا^(٢) .

(وَالزَّكَاةُ لَيْسَتْ « تَبَرعاً » يَتَفَضَّلُ بِهِ غَنَى عَلَى فَقِيرٍ أَوْ يَحْسَنُ بِهِ وَاجِدٌ عَلَى مَعْدَمٍ لِنِهَا أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ غَوْرًا وَأَوْسَعَ أَفْقًا .

إِنَّمَا جُزْءُ هَامٍ مِنْ نِظَامِ الْإِسْلَامِ الْاِقْتِصَادِي ، ذَلِكَ النِّظَامُ الْفَرِيدُ الَّذِي عَالَجَ مُشْكَلَةَ الْفَقْرِ أَوْ مُشْكَلَةَ الْمَالِ عَلَى وَجْهِ عَامٍ ، قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَ الدُّنْيَا نِظَامًا عَنِ بَعْلَاجِ هَذَا الْجَانِبِ الْخَطِيرِ مِنْ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ^(٣) .

وَمِنْ أَعْظَمِ الْأَدْلَةِ عَلَى عَنَايَةِ الْإِسْلَامِ بِالزَّكَاةِ مَعَ أَنَّ فَرَضِيَّتَهَا كَانَتْ فِي الْعَهْدِ الْمَدْنِيِّ — هِيَ عَنَايَتُهُ بِالزَّكَاةِ مِنْذُ الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ .

وَلَا بَدَ لَنَا أَنْ نَشِيرَ إِلَى أَنَّ الزَّكَاةَ فِي مَكَّةَ كَانَتْ زَكَاةً مُطْلَقَةً مِنَ الْقَيُودِ وَالْحُدُودِ وَكَانَتْ بِحَسَبِ أَرْبَحِيَّةِ الشَّخْصِ وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَاعٍ لِلتَّحْدِيدِ فَقَدْ كَانُوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَضْحَكُونَ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَهَالِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَأَشِيرُ إِلَى بَعْضِ آيَاتِ الْمَكِّيَّةِ الَّتِي حَضَتْ عَلَى الْإِنْفَاقِ أَوْ ذِمَّتِ الْإِمْسَاكَ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ، إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ : مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ؟ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ ، وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ﴾^(٤) .

-
- (١) بفتح المهملة وهى الصغيرة من الغنم . فتح البارى (٤ : ٦٤) .
وقال الجوهري فى الصحاح (٤ : ١٥٣٤) الطبعة الرابعة ١٤٠٢ هـ بتحقيق احمد عبد الغفور عطار
العناق : الاثنى من ولد المعز . والجمع اعنق ، عنوق .
(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٤ : ٨) .
(٣) انظر العبادة فى الاسلام (ص ٢٣٩) د. يوسف القرضاوى .
(٤) المدثر : ٣٨ — ٤٤ .

قال تعالى يقص علينا قصة أصحاب الجنة ﴿ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخِفَتُونَ أَلَا يَدْخُلُهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴾ (١) .

وفي سورة الذاريات قال تعالى : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلْسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (٢) .

وفي سورة فصلت ينذر الله المشركين بالويل لعدم إيتائهم الزكاة ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (٣) .

وفي سورة الأنعام ينبه سبحانه إلى نعمه التي يخرجها من الأرض من الزروع والثمار وأن فيها حقا يجب إخراجه يوم حصاده .

قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرِ مَّعْرُوشَاتٍ وَالتَّحُلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالزَّمَانُ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، كُلُوا مِّن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآثُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٤) .

وهنا يتبادر الى الأذهان سؤال وهو أن المعروف في تاريخ التشريع الاسلامي أن الزكاة فرضت في المدينة فكيف نوفق بين هذا وذكر القرآن لها في آيات كثيرة من سورة المكية ؟ .

والجواب : أن الزكاة التي ورد ذكرها في القرآن المكى . لم تكن ذات الزكاة التي شرعت في المدينة وفصلت وحددت مقاديرها ، وأرسل السعاة والجباة لجبايتها وصرفها وأصبحت الدولة قائمة على تنظيمها وجعل بيت المال مكانا لحفظها .

فالزكاة في مكة كانت مطلقة عن التحديد بالزمان والكم موكولة إلى إيمان الفرد وأريحته وشعوره بواجب الاخوة نحو اخوانه من المؤمنين (٥) .

(١) القلم : ٢٣ — ٢٤ .

(٢) الذاريات : ١٩ .

(٣) فصلت : ٦ — ٧ .

(٤) الانعام : ١٤١ .

(٥) بتصرف انظر فقه الزكاة للدكتور يوسف القرضاوى، (٦١) .

وإن الدارس للقرآن الكريم من جانب عرضه لتشريع الأحكام وبيان الحلال والحرام وأخص بذلك تشريعه لفريضة الزكاة نجد أنه منذ أول عهد الدعوة تواترت آيات في الحز على الزكاة ففى مطلع سورة لقمان المكىة قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾^(١) . وفى عطف إيتاء الزكاة على إقامة الصلاة دليل على أنها زكاة المال — كما هى سنة القرآن .

وفى سورة الأعراف المكىة أيضا قال تعالى ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٢) .

وفى سورة الروم وهى مكىة أيضا ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغَفُونَ ﴾^(٣) .

ثم تتحول الدول الاسلامىة الى دار الهجرة وفى المدينة أصبح المسلمون فى مأمن لإقامة دولتهم وسلطانهم لهذا أخذت التكاليف الاسلامىة صورة جديدة على خلاف ماكانت عليه فى السابق . فتميزت بالتحديد والتخصيص بعد الاطلاق والتعميم . وتميزت بالإلزام والحتمىة بعد أن كانت وصايا توجيهىة واعتمد فى تنفيذها على القوة والسلطان بجانب اعتمادها على الضمير والإيمان .

ومن تلك الآيات المدنىة الآيات التى نزلت بشأن الزكاة فحدد الشارع نصاب الزكاة من الأموال وغيرها التى تجب فيها ، وشروط وجوبها والمقادير المعينة لإخراجها ، والمستحقين لها والذين لا يستحقونها بل تحرم عليهم ، والفئة المكلفة بتنظيمها وإدارتها .

قال الحافظ ابن كثير عند تفسيره لسورة المؤمنون فى قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾^(٤) .

(١) لقمان : ٤ .

(٢) الأعراف : ١٥٦ .

(٣) الروم : ٣٩ .

(٤) المؤمنون : ٤ .

الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال ، مع أن هذه الآية مكية وإنما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة والظاهر أن التي فرضت بالمدينة هي ذات النصب والمقادير الخاصة . وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبا بمكة . قال تعالى في سورة الأنعام — وهي مكية — ﴿ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ (١) (٢) .

وقد وردت آثار تؤكد ما جاء به القرآن من وجوب الزكاة وذلك منذ العهد المكي نذكر منها على سبيل الاختصار ما أخرجه ابن خزيمة في صحيحه عن أم سلمة بنت أمية رضي الله عنها (في الحديث الطويل عن هجرة الحبشة عندما تحدث جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنه عند مخاطبته للنجاشي ويخبره رسول الله ﷺ ويقول له فيما قال له « وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ») (٣) .

قال ابن حجر (وأولى ما حمل عليه حديث أم سلمة) أن المراد بقوله يأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام أى في الجملة ، ولا يلزم من ذلك أن يكون المراد بالصلاة الصلوات الخمس ، ولا بالصيام صيام رمضان ، ولا بالزكاة هذه الزكاة المخصوصة ذات النصب والحول والله أعلم (٤) .

إذ أن هذه الفرائض لم تكن شرعت بعد .

(١) الأنعام : ١٤١ .

(٢) تفسير ابن كثير (٣ : ٢٣٨) .

(٣) صحيح ابن خزيمة ص (١٣ — ١٤) .

(٤) فتح الباري لابن حجر (٤ : ٩) .

فرضية الزكاة

تبين لنا مما سبق أن الزكاة المطلقة غير المقدرة فرضت بمكة . لكن متى فرضت الزكاة المحدودة ؟ .

اختلف العلماء في ذلك على أقوال وأرجح هذه الأقوال وأشهرها أنها فرضت في السنة الثانية من الهجرة .

قال ابن كثير أثناء ذكره جملة من الحوادث سنة ثنتين من الهجرة : (وفيها فرضت الزكاة ذات النصب)^(١) .

وقال الحافظ شرف الدين الدمياطي : « إنها (أى الزكاة) فرضت في السنة الثانية من الهجرة بعد زكاة الفطر بدليل قول قيس بن سعد بن عبادة — وذكر الحديث .

وفي تاريخ الطبري أنها فرضت في السنة الرابعة من الهجرة^(٢) .

وجزم ابن الأثير في تاريخه أن فرض الزكاة كان في السنة التاسعة من الهجرة . وفيه نظر ، وقوى بعضهم ماذهب اليه ابن الأثير بما وقع في قصة ثعلبة بن حاطب المطولة ففيها (لما نزلت آية الصدقات بعث النبي ﷺ عاملاً فقال : ما هذه إلا جزية وأخت الجزية) والجزية إنما وجبت في السنة التاسعة فتكون الزكاة في التاسعة (. قال ابن حجر : (ولكن الحديث ضعيف لا يحتج به)^(٣) .

(١) البداية والنهاية (٣ : ٣٤٧) .

(٢) كشف القناع على متن الاقناع للشيخ منصور بن يونس البهوتي المتوفى سنة ١٠٥١ هـ ط / مطبعة الحكومة بمكة سنة ١٣٩٤ هـ . أنظر (٢ : ١٩٢) .

(٣) فتح الباري (٤ : ٨) .

الزكاة في عهد المدني

قبل الخوض في الآيات الواردة في الزكاة لا بد أن أشير إلى أن الزكاة الشرعية قد تسمى في لغة القرآن والسنة صدقة وإلى ذلك نوه الماوردى فقال (الصدقة زكاة . والزكاة صدقة ، يقترن الاسم ويتفق المسمى)^(١) .

قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾^(٢) .

وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾^(٣) . . إلى آخر الآية .

وفي حديث إرسال معاذ إلى اليمن : (أعلمهم أن الله افترض عليهم في أموالهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم)^(٤) .

والآيات الواردة بشأن الصدقة والزكاة كثيرة وسوف أستعرض بعضها لنعرف مدى عناية القرآن الكريم ولا سيما المدني منها بفريضة الزكاة .

قال تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾^(٥) .

وقال تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾^(٦) .

وفي الآيتين السابقتين بحث سبحانه وتعالى عباده المؤمنين على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة حتى يمكن لهم النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

(١) الاحكام السلطانية الباب (١١) باب ولاية الصدقات .

(٢) التوبة : ١٠٣ .

(٣) التوبة : ٦٠ .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٤ : ٤) .

(٥) البقرة : ٤٣ .

(٦) البقرة : ١١٠ .

وقد أثنى الحق سبحانه وتعالى على الإنفاق في سبيله في عدة آيات متتالية في سورة البقرة بدأها بقوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُتْبِتَتْ سَبْعَ سَبَاطِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

وقد حذر من الانفاق المصاحب للأذى فيحبط عملهم .

قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ ﴾ (٢) . الآية .

وختم سبحانه وتعالى الآيات بقوله ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣) .

وفي سورة آل عمران المدنية توالى الآيات في الحث على الانفاق في سبيل الله . وأنه السبيل لدخول الجنة ولاسيما إذا كان الانفاق مما يحبه المنفق وكان ذلك عزيزا إلى نفسه وأن الله مطلع على ماينفقه عباده وعليم به .

فقال تعالى : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ . وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

واختلف في المراد من (البر) فقول الجنة . روى ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمرو بن ميمون والسدى . والمعنى (لن تصلوا الى الجنة وتعطوها حتى تنفقوا مما تحبون) (٥) .

(١) البقرة : ٢٦١ .

(٢) البقرة : ٢٦٢ — ٢٦٤ .

(٣) البقرة : ٢٧٤ .

(٤) آل عمران : ٩٢ .

(٥) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (ص ١٣ — ٢٠) حديث رقم ١٠٥ .

وقيل (البر) العمل الصالح وفي الحديث الصحيح (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة)^(١) .

قلت البر : اسم جامع للخير كله . والله أعلم .

وبعد أن بين سبحانه وتعالى نوعية الانفاق مما تكون توالى الآيات ببيان حال الانفاق وما ينتظره المنفق من الأجر عند الله تعالى .

قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَتَّقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ إلى قوله ﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنَعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾^(٢) .

فالمراد من الآيات أن المؤمنين المتقين ينفقون أموالهم في جميع الأحوال في الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض في الليل والنهار في السر والعلانية فلا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والانفاق في مرضيه . لذا أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها^(٣) .

وبعد أن تحدثت الآيات عن صفة المنفقين في سبيل الله من المؤمنين المتقين ذكرت السورة الكريمة نفقة الكافرين وصورتها في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها بالزرع الذي أصابه ريح باردة أو نار فأحرقته وأهلكته فلم ينتفع أصحابه بشيء بعدما كانوا يرجون فائدته ونفعه^(٤) .

قال تعالى ﴿ مَثَلُ مَا يَنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾^(٥) .

(١) انظر تفسير القرطبي (٤ : ١٣٣) .

(٢) آل عمران : ١٣٤ - ١٣٦ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير (١ : ٤٠٤) .

(٤) انظر تفسير القرطبي (٤ : ١٧٨) .

(٥) آل عمران : ١١٧ .

وفى سورة النساء المدنية يخبرنا عز وجل عن المنافقين الذين ينفقون أموالهم لا يقصدون بها وجه الله وإنما قصدهم بتلك النفقة أن يقال عنهم أنهم أهل الجود والبذل والعطاء ويمدحوا بالكرم وإنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح وعدوهم عن فعل الطاعة على وجهها الشيطان فإنه سول لهم وحسن لهم القبائح . قال تعالى يخبرهم ﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ والقرين هو الصاحب والخليل ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأُنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾ (١) .

أما سورة الأنعام فهي مكية بلا خلاف ما عدا بعض الآيات اختلف فيها والتي سبق أن أوضحناها في أول البحث (٢) . ومن تلك الآيات قوله تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَالتَّحُلِ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٣) .

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية مدنية وأن قوله تعالى ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ يعنى الزكاة ، والزكاة لم تفرض إلا في المدينة وقد فصل القول في هذه الآية أبو جعفر النحاس ورد على من زعم أن المراد من الآية الزكاة .

قال : (أما القول بأنها الصدقة المفروضة فيعارض بأشياء منها أن هذه السورة مكية والزكاة فرضت بالمدينة لانتازع بين العلماء في ذلك .. ومنها أن قوله ﴿ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ لو كان للزكاة المفروضة وجب أن يعطى وقت الحصاد وقد جاءت السنة وصحت أن الزكاة لا تعطى إلا بعد الكيل .

(١) النساء : ٣٨ — ٣٩ .

(٢) راجع (ص ١٢٨) من بحثنا هذا .

(٣) الأنعام : ١٤١ .

وأيضاً فإن في الآية (ولا تسرفوا) فكيف يكون هذا في الزكاة وهي معلومة
وأيضاً فلو كان هذا في الزكاة لوجب أن تكون الزكاة في الثمر وفي كل ما أنبتت الأرض
وهذا لا يقوله أحد نعلمه من الصحابة ولا التابعين ولا الفقهاء إلا بعض المتأخرين ممن
خرج عن الإجماع .

ولم يختلف العلماء في أن في أربعة أشياء منها الزكاة (الحنطة والشعير ، والتمر
والزبيب) فهذا إجماع ^(١) .

وأخيراً فإن المراد من الآية الصدقات وليس الزكاة والله أعلم .

(١) باختصار من كتاب الناسخ والمنسوخ لآبي جعفر النحاس (ص ١٣٩ — ١٤٠) .

نموذج من السور المدنية في عنايتها بالزكاة

سورة التوبة

وتعتبر سورة التوبة من أعظم السور المدنية عناية بفريضة الزكاة
افقى مطلع هذه السورة الكريمة يأمر عز وجل بقتال المشركين الناكثين للعهود
ومظاهرتهم العداء على رسول الله ﷺ فقد جعل لهم مهلة وهى انقضاء الأشهر
الحرم . يختارون لأنفسهم مايرضيهم . قال تعالى ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ
الْحَرَامُ ﴾ (١) أى فإذا انقضى ومضى وخرج ويعنى بالأشهر الحرم : ذا القعدة وذا
الحجة والحرم . وأريد فى هذا الموضع انسلاخ الحرم وحده ، لأن الأذان كان ببراءة
يوم الحج الأكبر فمعلوم أنهم لم يكونوا أجلوا الأشهر الحرم كلها . ولكنه لما كان
متصلا بالشهرين الآخرين قبله الحرامين وكان هو لهما ثالثا وهى كلها متصلة بعضها
ببعض قيل : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ ﴾ .

وخلاصة معنى الآية : (فإذا انقضت الأشهر الحرم الثلاثة عن الذين لا
عهد لهم . أو عن الذين كان لهم عهد فنقضوا عهدهم بمظاهرتهم العداء على رسول
الله ﷺ وعلى أصحابه رضى الله عنهم أو كان عهدهم إلى أجل غير معلوم) فاقتلوا
المشركين (أى حيث وجدتموهم فى الحرم وغير الحرم فى الأشهر الحرم وغير الأشهر
الحرم (وخذوهم) أى وأسروهم (واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) أى واقعدوا
لهم بالطلب لقتلهم أو أسرهم كل مرصد يعنى كل طريق ﴿ فَإِنْ تَابُوا . وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . فهذه ثلاثة شروط
للكف عن قتال هؤلاء وتخلى سبيلهم .

الأول : (فَإِنْ تَابُوا) أى فإن رجعوا عما نهاهم عنه من الشرك بالله وجحود
نبوة نبيه محمد ﷺ إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأنداد .

الثانى : (وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ) وأدوا ما فرض الله عليهم من الصلاة بحدودها
وشروطها .

الثالث : (وآتوا الزكاة) أى وأعطوا الزكاة التى أوجبها الله عليهم فى أموالهم .
(فخلوا سبيلهم) أى فدعوهم يتصرفون فى أمصاركم ويدخلون البيت الحرام
(إن الله غفور رحيم) لمن تاب من عباده^(١) .

وبعد ست آيات من السورة نفسها قال تعالى فى شأن قوم آخرين من
المشركين ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) .

فلا يتحقق لكافر الانضمام لرابطة المسلمين وتثبت له أخوتهم الدينية وينال
حقوقه الاجتماعية إلا بالتوبة عن الشرك وإيمانه بالله ورسوله وإقامة الصلوات بفرائضها
وسننها . وإيتاء الزكاة التى بها يتكافلون ويتحابون .

أخرج الطبرى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال (أمرتم
بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ومن لم يترك فلا صلاة له)^(٣) .

ثم ذكر عز وجل يمتدح عمار المساجد الذين آمنوا بالله واليوم الآخر من أهل
القبول غنده وهؤلاء لا يكونون عمروها بحق إلا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وخشية الله
وحده فأولئك عمارها .

قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ
الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ . فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ
الْمُهْتَدِينَ ﴾^(٤) .

(١) بتصرف انظر تفسير الطبرى (١٠ : ٧٧ — ٧٨) .

(٢) التوبة : ١١ .

(٣) تفسير الطبرى (١٠ : ٨٧) .

(٤) التوبة : ١٨ .

اشتم مانع الزكاة

قال تعالى ﴿ وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ يَتَّخِلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

أخرج البخارى بسنده عن أنى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان ، يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه يعنى بشدقيه ، ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ، ثم تلا - لا يحسبن الذين ييخلون - الآية (٢) .

وقال تعالى فى سورة التوبة : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُخْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ (٣) .

قال العلماء : (إنما عظم الوعيد فى هذا الباب لما فى اختلاف العباد من الشح على المال والبخل به ، فإذا خافوا من عظيم الوعيد لانوا فى أداء الطاعة) (٤) .

واختلف العلماء فى المال الذى أدت زكاته هل يسمى كنزا أو لا ؟ فقال قوم نعم .. وقال قوم ما أدت زكاته منه أو من غيره عنه فليس بكنز قال ابن عمر : ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين . وكل ما لم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض .. وهو الصحيح (٥) .

(١) آل عمران : ١٨٠ .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب الزكاة (٤ : ١٢ ، ١٣) .

(٣) التوبة : ٣٤ - ٣٥ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربى (٢ : ٩٣٦) .

(٥) تفسير القرطبى (٨ : ١٢٥) ، تفسير سورة التوبة .

ومن الوعيد الشديد لمانع الزكاة ماحكاه لنا القرآن الكريم في سورة التوبة أيضا قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ . بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (١) .

قال الألوسي (٢) في تفسيره :

(أخرج الطبراني والبيهقي في الدلائل وابن المنذر وغيرهم عن أبي امامة الباهلي (٣) قال : ... وذكر الحديث بطوله) .. (وكذلك أخرجه ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس — وذكر الحديث بطوله أيضا) (٤) .

وذكر القصة أيضا السيوطي في لباب النقول وضعفها وقال : (بسند ضعيف) (٥) .

وخلاصة القصة كما رواها المفسرون (أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال يارسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال النبي ﷺ قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه فدعا له رسول الله ﷺ واتخذ غنما فمما كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة فخرج منها وتخلف عن الصلاة ونما وكثر غنمه حتى جاء عامل الصدقة مرسلا من رسول الله ﷺ حين فرضت الزكاة ليأخذ زكاته فقال ماهذه إلا أخت الجزية ونزلت فيه الآيات السابقة من قوله ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله ﴾ الى قوله ﴿ وبما كانوا يكذبون ﴾ .

وفي القصة ذكر أن النبي ﷺ مات ولم يقبل منه الصدقة ولا أبوبكر ولا عمر وأنه مات في خلافة عثمان .

-
- (١) التوبة : ٧٥ — ٧٧ .
- (٢) تفسير الألوسي (١٠ : ١٤٣) .
- (٣) صدق بن عجلان ويقال ابن عمرو (أبو امامة الباهلي) الصحابي روى عن النبي ﷺ وعمر وعثمان وعلى . قال ابن سعد سكن الشام ، وقال ابن عيينة هو آخر من مات من الصحابة بالشام واختلف في سنة وفاته . تهذيب التهذيب : (٤ : ٤٢٠) .
- (٤) تفسير الطبري : (١٠ : ١٨٨ — ١٩٠) ، والواحدى (ص ١٧٠ — ١٧١) .
- (٥) لباب النقول في أسباب النزول (ص ١٢١) .

قال ابن حجر : بعد أن ذكر ترجمته وطرفا من القصة (ولا أظن يصح — أى أن صاحب القصة هو ثعلبة بن حاطب — هو البدرى .. وقد ثبت أن النبى قال لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية . وحكى عن ربه أنه قال لأهل بدر (اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)^(١) فمن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقا فى قلبه وينزل فيه ما نزل . فالظاهر أنه غيره . والله أعلم)^(٢) .

قلت : لاشك فى صحة القصة وأنها وقعت فعلا ونزل فيها قرآن لكن ليست فى ثعلبة بن حاطب الأنصارى الصحابى البدرى المشهور وإنما وقعت لرجل يسمى ثعلبة من المنافقين والله أعلم .

قال ابن هشام : (معنب بن قشير ، وثعلبة والحارث ابنا حاطب وهم من بنى أمية بن زيد ، من أهل بدر وليسوا من المنافقين ، فيما ذكر لى من أثق به من أهل العلم . وقد نسب ابن اسحاق ثعلبة والحارث فى بنى أمية بن زيد فى أسماء أهل بدر)^(٣) .

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٨ : ٣٦١ ، ٣٧) فى كتاب المغازى — غزوة بدر .
(٢) الاصابة فى تمييز الصحابة (١ : ١٩٨) .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢ : ١٦٩) .

مصارف الزكاة

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْعَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَإِنَّ السَّبِيلَ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

يخبر سبحانه وتعالى عن الذين ينبغي أن تقسم عليهم الزكاة من الفقراء والمساكين وبقية الأصناف الثمانية . فلا يجوز أن يعطى منها غيرهم وفهم ذلك من قوله تعالى (إنما) وهى تفيد الحصر فى وقف الصدقات على الأصناف الثمانية .

وقوله تعالى (للفقراء والمساكين) وقد اختلف علماء اللغة وأهل الفقه فى الفرق بين الفقير والمسكين . قال أبو جعفر الطبرى بعد أن ذكر العديد من الأقوال (وأولى هذه الأقوال عندى بالصواب من قال الفقير : هو ذو الفقر أو الحاجة ومع حاجته يتعفف عن مسألة الناس والتذلل لهم فى هذا الموضع) .

والمسكين : هو المحتاج المتذلل للناس بمسألتهم (٢) . والمسألة خلافية (٣) .

قال تعالى (أو مسكيناً ذا متربة) أى لا شئ له ، حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر ، ليس له مأوى إلا التراب . قال ابن عباس : هو المطروح على الطريق الذى لا بيت له . قال مجاهد : هو الذى لا يقيه من التراب لباس ولا غيره (٤) .

(والعاملين عليها) وهم السعاة لجباية الصدقة . قال الطبرى وهم السعاة فى قبضها من أهلها ووضعها فى مستحقها يعطون ذلك بالسعاية أغنياء كانوا أو فقراء (٥) .

(١) التوبة : ٦٠ .

(٢) تفسير الطبرى (١٠ : ١٥٩) .

(٣) تراجع تفسير الرازى (ص ١٠٧ — ١١٠) .

(٤) أنظر تفسير القرطبى (٢٠ : ٧٠) .

(٥) تفسير الطبرى (١٠ : ١٦٠) .

(والمؤلفة قلوبهم) هم قوم من أشراف العرب أعطاهم رسول الله ﷺ ليتألف قلوبهم على الاسلام . أخرج الطبرى بسنده عن الزهرى قال : قال صفوان ابن أمية لقد أعطاني رسول الله ﷺ وأنه لأبغض الناس إليّ فما برح يعطينى حتى إنه لأحب الناس إليّ^(١) .

(وفى الرقاب) أى وفى فك الرقاب لتخليصهم من الرق .
(والغارمين) أى الذين استدانوا فى غير معصية الله ، ثم لم يجدوا ما يقضون به دينهم .
(وفى سبيل الله) أى المجاهدين والمرابطين وما تحتاج إليه الحرب من السلاح والعتاد .

(وابن السبيل) الذى انقطع فى سفره عن ماله .
(فريضة من الله) أى فرضها الله جل وعلا وحددها فيحرم إخراجها عن هذه الأصناف التى فرضها الله تعالى لعباده وهو العليم بهم والمطلع على أحوالهم ولم يترك تقسيمها لأحد بل تولى قسمتها بنفسه (والله عليم حكيم) فلا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة من الأمور الحسنة التى من جملتها إعطاء الحقوق لمستحقها^(٢) .

(١) تفسير الطبرى (١٠ : ١٦٢) .

(٢) انظر تفسير الألوسى (١٠ : ١٢٠ - ١٢٥) .

حكمة مشروعيتها

لم يشرع الله لنا فريضة من فرائض هذا الدين الخفيف إلا ولها حكمة تعود على الفرد والمجتمع . ولفريضة الزكاة حكم وأهداف من وراء مشروعيتها . وتلك الحكم تعود على المعطى وعلى الآخذ فى آن واحد .

أما بالنسبة للمعطى والمتصدق . فلقد عبر القرآن الكريم عن المقصود والهدف من زكاته فأجمل ذلك فى كلمتين ، ينطوى تحتها الكثير من أهداف الزكاة وهاتان الكلمتان هما (التطهير ، والتركية) قال تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ ^(١) . ومن تلك الأهداف العائدة إلى المعطى ما يلي :

(١) كسر سورة النفس بحبها للمال :

إن المال محبوب بالطبع . وإن الاستغراق فى حبه يذهل النفس عن حب الله وعن التأهب للآخرة فاقتضت حكمة الشرع تكليف مالك المال بإخراج طائفة منه من يده ، ليصير ذلك الإخراج كسراً من شدة الميل إلى المال ، وتنبيهاً للنفس على أن سعادة الانسان لا تحصل عند الاشتغال بطلب المال . وإنما تحصل بإتفاق المال فى طلب مرضاة الله تعالى .

فאיحاب الزكاة علاج صالح متعين لازالة مرض حب الدنيا عن القلب فالله سبحانه أوجب الزكاة لهذه الحكمة وهى المراد من قوله ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ أى تطهرهم وتركبهم عن الاستغراق فى طلب الدنيا ^(٢) .

(١) التوبة : ١٠٣ .

(٢) أنظر تفسير الرازى (١٦ : ١٠٠ - ١٠١) .

(٢) القسوة والطغيان من أسبابها كثرة المال :

إن كثرة المال سبب لحصول الطغيان والقسوة في القلب وإلى ذلك أشار قوله تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاطِئٌ ﴾ (١) . أن رَأَهُ اسْتَعْنَى (٢) . فإيجاب الزكاة يقلل الطغيان ويرد القلب إلى طلب رضوان الرحمن (٣) . وفي ذلك تدريب للنفس على خلق البذل والعطاء والانفاق ومن ثم تصبح صفة الانفاق صفة أصيلة من صفاته وخلقا عريفا من أخلاقه .

(٣) الانفاق في سبيل الله من صفات الكمالات :

إن الانسان إن استطاع أن يخلع عنه ثياب الشح والبخل وارتدى ثياب البذل والانفاق بذلك يكون قد ارتقى من حضيض الشح الانساني (وكان الانسان قتورا) (٤) واقترب من أفق الكمالات (الربانية) فإن من صفات الحق تبارك وتعالى إفاضة الخير والرحمة والجود والاحسان دون نفع يعود عليه . فاكْتَسَاب هذه الصفات وممارستها بقدر الامكان تخلق بأخلاق الله وذلك منتهى الكمالات الانسانية .

قال الرازي : (إن إفاضة الخير والرحمة من صفات الحق سبحانه وتعالى ، والسعى في تحصيل هذه الصفة بقدر القدرة تخلق بأخلاق الله وذلك منتهى مكملات الانسانية) (٥) .

(٤) توفر النعم في يد الانسان توجب شكر المنعم سبحانه :

الزكاة توقظ في نفس معطيها معنى الشكر لله تعالى والاعتراف بفضله عليه وإحسانه إليه .

قال الغزالي في شكر النعمة (فإن لله عز وجل على عبده نعمة في نفسه

(١) العلق : ٦ — ٧ .

(٢) انظر التفسير الكبير للرازي (١٦ : ١٠١) .

(٣) الامراء : ١٠٠ .

(٤) التفسير الكبير للرازي (١٦ : ١٠١ — ١٠٢) .

وفى ماله فالعبادات البدنية شكرا لنعمة البدن والمالية شكرا لنعمة المال وما أخس من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه الرزق وأحوج إليه ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله^(١) .

(٥) إخراج الزكاة وعدم كثر الأموال مدعاة إلى نشاط الحركة التجارية :

إلى غير ذلك من الأهداف السامية من نشر روح الأخوة والمحبة بين طبقات المجتمع ، وتحصين المال من الأخطار والبلواء ولاسيما في هذا العصر الذى ادهمت فيه الخطوب وكثرت فيه الفتن . وقد قال ﷺ فيما يروى عنه (حصنوا أموالكم بالزكاة)^(٢) ويفهم منه أن المال الذى تؤدى زكاته يكون محصنا من السرقة والحريق والغرق وغير ذلك .

أما الأهداف والمصالح العائدة إلى من يأخذ الزكاة فمنها :

(١) الزكاة تحرر آخذها من الوقوع فى المحرمات :

شاءت حكمة الله اختلاف الناس فى الأرزاق فتجد الغنى والمتوسط والمكتفى وتجد الفقير الذى لا يجد ما يكفيه . ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾^(٣) . وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾^(٤) . فعندما فرض الاسلام الزكاة وأوجبها على الأغنياء منهم حتى يأخذوا بيد الفقير ويعاونوه على مواجهة الحياة ومتطلباتها فإذا حرم الأغنياء الفقراء زكاة أموالهم كان ذلك سببا فى هلاك الفقير وحرمانه فيحمله ذلك الحرمان على السرقة والنهب وربما أودى به الى القتل وربما باع عرضه وشرفه لأجل لقمة عيش .

فالزكاة حصن حصين للفقير من الوقوع فى كثير من المهالك والشرور .

(١) الاحياء للغزالي (١ : ٢١٥) ط/ دار احياء الكتب العربية البانى الحلبي وشركاه .

(٢) رواه أبو داود فى المراسيل ورواه الطبراني والبيهقى وغيرهما من الصحابة مرفوعا متصلا . قال المنذرى :

المرسل أشبه ا.هـ . فقه الزكاة للقرضاوى (٢ : ٨٦٧) .

(٣) النحل : ٧١ .

(٤) العنكبوت : ٦٢ .

(٢) الزكاة تطهير لآخذها من الحسد والبغضاء :

كذلك من المساوىء التى تقع لحرمان الفقير من الزكاة وقوعه فى آفات نفسية خطيرة كالحسد والمقت . فقد يحصنه إيمانه من الوقوع فى تلك المحرمات التى سبق الإشارة إليها من القتل والسلب والنهب ، لكن قد لا يسلم من داء الحسد والكراهية . فإذا ما عضته أنياب الفقر والحرمان ورأى حوله جيرانه بل ربما أقاربه ينعمون بالخير ويعيشون فى الرغد ولا ينظرون إلى حاله وما يقاسيه من الفقر والحرمان فإن هذا الانسان لا يسلم قلبه من البغضاء والحقد والمقت على مجتمعه ولا يخفى ما للحسد والبغضاء من آفات فتاكة قاتلة . فالفرد الذى يغزو قلبه الحسد وتحتله الضغينة لن يكون إنسانا كاملا الايمان . لأن القلب لا يسع الايمان بالله مع الحقد على عباد الله .



ثالثاً : الصيام

الصيام في اللغة :

الإمساك عن الشيء وترك له .

قال أبو عبيدة : كل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم^(١) .

قال تعالى مخبراً عن مريم عليها السلام ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ
أَكْلَمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً ﴾^(٢) أى سكوتنا عن الكلام .

والصيام في الشرع^(٣) :

الامساك عن المفطرات مع اقتران النية به من طلوع الفجر إلى غروب
الشمس ، وتمامه وكاله باجتناب المحظورات ، وعدم الوقوع في المحرمات لقوله ﷺ :
(من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)^(٤) .

وقيل للصائم صائم لإمساكه عن المطعم والمشرب والمنكح .

وقال الراغب : الصوم في الأصل الامساك عن الفعل ولذلك قيل للفرس
الممسك عن السير صائم .

وفي الشرع : إمساك المكلف بالنية عن تناول المطعم والمشرب والاستمناء
والاستيقاء من الفجر إلى المغرب^(٥) .

فرضيته

كان وجوبه في شعبان من السنة الثانية من الهجرة^(٦) .

(١) انظر لسان العرب (ص ٣٥٠ — ٣٥١) ، الصحاح للجوهري (٥ : ١٩٧٠) تحقيق العطار .

(٢) مريم : ٢٦ .

(٣) تفسير القرطبي (٢ : ٢٧٣) .

(٤) رواه البخاري في كتاب الصوم باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم ، صحيح البخاري وعلى
هامشه فتح الباري (٥ : ١٨) .

(٥) المفردات للراغب (ص ٢٩١) .

(٦) انظر البداية والنهاية (٣ : ٢٥٤) .

وفيه نزل قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ - إِلَى قَوْلِهِ - لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (١)

ما جاء في وجوب صوم رمضان

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ .

هذه الآية الكريمة مدنية من سورة البقرة المدنية باتفاق . حيث شرع الله سبحانه وتعالى عبادة الصيام على الندب . ثم إنه تعالى أوجبها بقوله ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ .. ﴾ الآية .

وقد خاطب سبحانه وتعالى عباده مناديا لهم بلفظ الايمان ليحرك فيهم مشاعر الطاعة فتستجيب نفوسهم وأفئدتهم لما كتبه الله عليهم حيث فرض عليهم الصيام . وقوله تعالى ﴿ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى فرض عليكم كما فرض على الأمم ممن قبلكم ممن كانوا أصحاب كتب ورسالة .

(ومذهب الجمهور أن الذى كتب على الأمم قبلنا مطلق الصوم لا رمضان نفسه) (٢) .

وحكمة التشبيه تأكيد الحكم والتسلية لعباده .

وأما التشبيه فإلما وقع على الفرضية وذلك أن من كان قبلنا إنما فرض عليهم الصيام مثل الذى فرض علينا سواء .

(لعلكم تتقون) أى لتكونوا من المتقين لله المجتنبين لمحارمه .

قوله (أياما معدودات) أى أيام شهر رمضان (٣) . وهى أيام معدودات قلائل

فلم يفرض علينا الدهر كله رحمة بنا . ثم بين الأسباب التى تبيح للمكلف الفطر لها . قال تعالى (فمن كان منكم مريضا) أى مرضا يعسر عليه الصوم معه (أو على سفر) يشق عليه الصوم فيه فأفطر فى كلتا الحالتين (فعدة) أى فعلية عدة

(١) البقرة : ١٨٣ - ١٨٦ .

(٢) الفكر السامى تأليف محمد بن الحسن الحجوى الثعالبي الفاسى (١٢٩١ - ١٣٧٦ هـ) (١ : ١١٥)
الناشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة للنمكتاني .

(٣) انظر الطبري (٢ : ١٣٢) .

ما أفطر (من أيام آخر) يصومها بدله .

(وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) أى وعلى الذين يستطيعون صيامه إذا أفطروا عليهم فدية طعام مسكين لكل يوم^(١) . وكان ذلك فى بدء الاسلام فلقد خيروا بين الصوم وبين الافطار والفدية ثم نسخ بتعيين الصوم .

أخرج البخارى بسنده عن يزيد مولى سلمة بن الأكوع عن سلمة قال لما نزلت — وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين — كان من أراد أن يفطر ويفتدى حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها^(٢) .

وقد روى البخارى أيضا فى كتاب التفسير باب قوله تعالى ﴿ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ ﴾ . الخ عن عطاء سمع ابن عباس رضى الله عنه يقول : (وعلى الذين يطيقونه^(٣) فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ) . قال ابن عباس : (ليست بمنسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فليطعما مكان كل يوم مسكينا) . قال ابن حجر : (هذا مذهب ابن عباس وخالفه الأكثر وكان هذا فى أول الأمر عند الأكثر ثم نسخ وصارت الفدية للعاجز إذا أفطر^(٤)) . وقد ذكر ذلك فى كتاب الصيام من حديث ابن أبى ليلى قال حدثنا أصحاب محمد ﷺ لما نزل رمضان شق عليهم فكان من أطعم كل يوم مسكينا ترك الصوم ممن يطيقه ورخص لهم فى ذلك فنسختها وأن تصوموا خير لكم .

ثم يقول ابن حجر (وأما على قراءة ابن عباس فلا نسخ لأنه يجعل الفدية على من تكلف الصوم وهو لا يقدر عليه فيفطر ويكفر وهذا الحكم باق)^(٥) .

وقوله ﴿ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ﴾ بأن زاد على المد أو فى عدد المساكين فهو خير له ﴿ وَإِنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من الافطار والفدية (إن كنتم

(١) صفوة التفاسير ٢ : ١٢١) للشيخ الصابونى .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب التفسير باب قوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) (٩ : ٢٤٧) .

(٣) يُطَوَّقُونَهُ بفتح الطاء وتشديد الواو مبيناً للمفعول وهذه قراءة ابن مسعود أيضاً .

(٤) فتح البارى (٩ : ٢٤٦ ، ٢٤٧) .

(٥) فتح البارى (٩ : ٢٤٧) .

تعلمون ﴿ ما فى الصوم من الفضيلة .

ونستطيع أن نلخص المعاني السامية التى وردت فى الآية فى نقاط :
(١) أن الآية الكريمة دلت على عظيم فضل الله وسعة رحمته بعباده فقد بين الله سبحانه فى أول الآية أن شريعة الصيام لم تكن بدعا من الشرع بل كانت لنا فيها أسوة فقد كانت مكتوبة على من قبلنا من الأمم .
(٢) ثم بينت الآية وجه الحكمة فى إيجاب الصوم وهو أنه سبب قوى فى حصول التقوى .

(٣) أنه سبحانه وتعالى لم يكلفنا بما يشق بل كلفنا أياما معدودات وهى وإن قلت فجزاؤها جزيل . وفضل الله واسع والله ذو الفضل العظيم .

ثم بين جل شأنه أنه خص هذه الأيام بالشهر الذى أنزل فيه القرآن لمزيد الشرف فقال تعالى ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾^(١) ومعنى أنزل القرآن فيه وقد أنزل القرآن فى غيره أيضا أنه ابتداء إنزاله فى رمضان والحوادث الجسام تؤرخ وتنسب إلى أول أوقاتها .

وفى الآية إشارة إلى العلة من تخصيص هذا الشهر بهذه العبادة ذلك أن الله سبحانه أنزل القرآن الكريم وهو من أعظم آيات الربوبية فلا يبعد أيضا تخصيصه بنوع عظيم من آيات العبودية وهو الصوم وبذلك ثبت أن بين الصوم وبين نزول القرآن مناسبة عظيمة فلما كان هذا الشهر مختصا بنزول القرآن ، وجب أن يكون مختصا بالصوم^(٢) .

وقوله تعالى ﴿ هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ حالان من القرآن أى أنزله حال كونه هداية بما فيه من الاعجاز وغيره ، وآيات واضحة مرشدة إلى الحق فارقة بينه وبين الباطل بما فيه من الحكم والأحكام . وهذا ثناء ومدح للقرآن الذى أنزله الله هدى لقلوب عباده ممن آمن به وصدق بما جاء فيه .

(١) البقرة : ١٨٥ .

(٢) انظر تفسير الرازى (٥ : ٨٤) .

وقوله تعالى ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أى من شهد الشهر بمعنى حضر ولم يكن مسافرا (فليصمه) .

قال جمهور الأمة : (من شهد أول الشهر وآخره فليصم مادام مقيما ، فإن سافر أفطر . وهذا هو الصحيح وتدل عليه الأخبار الثابتة)^(١) والآية عامة ويخصه قوله تعالى ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ . أى من كان به مرض فى بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه (أو كان على سفر) أى فى حالة السفر فله أن يفطر فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره فى السفر من الأيام .

ولهذا قال تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أى إنما رخص لكم فى الفطر فى حالة المرض والسفر مع تختمه فى حق المقيم الصحيح تيسيرا عليكم ورحمة بكم .

(ولتكمّلوا العدة) أى لتكمّلوا عدة شهركم .
(ولتكبروا الله على ما هداكم) أى ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم .
(ولعلكم تشكرون) أى إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلهلكم تكونون من الشاكرين بذلك^(٢) .

(١) تفسير القرطبي (٢ : ٢٩٩) .

(٢) انظر تفسير ابن كثير (١ : ٢١٧ — ٢١٨) .

الحكمة من مشروعية الصيام

لاشك أن لجميع العبادات من وراء مشروعتها حكمة تعبدية وهى الأصل ، لكن العلماء استشفوا بما وردت بين أيديهم من النصوص حكما لتلك العبادات سطورها فى كتبهم ومن تلك الحكم :

(١) الصيام يحرر الانسان من عبودية العادات ، فإن الصيام يقلب العادات رأسا على عقب ويعلم الانسان نوعا من المرونة حتى لا يتصرف تصرف الآلة .
(٢) الصيام له تأثير بالغ فى تخفيف الأمراض التى تنتاب الأعضاء الظاهرة والباطنة . ولقد استفاد الطب من ناحية الصوم مالم يستفده من ناحية العلاج بالعقاقير .

(٣) الصيام ينبه الأغنياء المُمسكين فيجعلهم يحسون بألم الجوع فيحسنون إلى الفقراء وبذلك يتم العطف والمودة ، وينشأ عنها تماسك المجتمع وسعادته .
(٤) الصيام ينمى لدى الفرد الإرادة ويقوى العزيمة ويكسب الاخلاص والصبر .
(٥) وأخيرا فإن الصيام يهذب النفوس ويصفى الروح^(١) .

والدروس للآيات الكريمة الواردة فى مشروعية الصوم يستوحى منها الحكمة المنشودة من الصيام .

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢) فقله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .. قال البقاعى أى تجعلون بينكم وبين إسقاط الله وقاية بالمسارعة إليه رجاء لرضى ربكم وخوفا من سبق من قبلكم ، لتكون التقوى لكم صفة راسخة فتكونوا ممن جعلت الكتاب هدى لهم فإن الصوم يكسر الشهوة فيقمع الهوى فيروع عن موافقة السوء^(٣) .

(١) انظر العبادة احكام واسرار (ص ٣٧٥ — ٣٧٦) للدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله ط/ دار الكتاب اللبنانى .

(٢) البقرة : ١٨٣ .

(٣) تفسير البقاعى (٣ : ٤٤) .

فالحكمة من مشروعية الصيام هو رجاء حصول التقوى فإن الصوم يضعف الشهوة ويردعها كما قال عليه الصلاة والسلام (ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه وجاء له)^(١) .

وكذلك في قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَصُومُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ في الآية إشارة إلى أن الصائم ينال كل الخير من الصيام . والخير نكرة في الآية فيشمل كل أنواع الخير فينال الخير في رزقه وجسمه وصحته كما جاء في الحديث (صوموا تصحوا)^(٢) . وكذلك الحديث القدسي (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي)^(٣) .

وقوله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾^(٤) .

لا بد قبل الخوض في تفسير هذه الآية الكريمة من الإشارة إلى مناسبتها بين آيات الصيام . ذلك أن شهر رمضان موسم من أعظم المواسم للتعرض لنفحات الحق سبحانه وتعالى وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار .

أخرج الامام أحمد^(٥) في مسنده والترمذي^(٦) في سننه عن أنى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (ثلاثة لا ترد دعوتهم الامام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم ..) الخ الحديث . إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في فضل هذا الشهر وأنه شهر الدعاء والمغفرة فناسب ذكر هذه الآية إشارة إلى أن شهر رمضان موطن هذا الدعاء وأنه عز وجل رقيب على عباده وقريب منهم يسمع دعاءهم فيستجيب لعباده الطائعين الصائمين الذين استجابوا لأوامره وانتهوا عما نهاهم عنه والله أعلم .

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب النكاح باب من لم يستطع الباء فليصم (١١ : ١٢ - ١٣) .

(٢) ذكره السخاوى فى المقاصد الحسنة ص ٢٣٦ . وعزاه إلى أبو نعيم فى (الطب) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٢ : ٤٩١) كتاب اللباس .

(٤) البقرة : ١٨٦ .

(٥) مسند الامام أحمد (٢ : ٣٠٥) .

(٦) سنن الترمذى (٤ : ٦٧٢) .

أما سبب نزول الآية فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري^(١) أن أعرابيا قال يا رسول الله أقرب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه . فأنزل الله (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب)^(٢) .

وقوله ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ أى فقل لهم إني قريب . وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم وإطلاعه على أحوالهم بحال من قرب^(٣) .

﴿ أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثَ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾^(٤) . وسبب نزول هذه الآية الكريمة ما أخرجه البخاري بسنده عن البراء رضى الله عنه قال : كان أصحاب محمد ﷺ إذا كان الرجل صائما فحضر الافطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي وأن قيس بن مخزومة الانصارى كان صائما فلما حضر الافطار أتى امرأته فقال لها : أعندك طعام فقالت : لا ، ولكن انطلق فاطلب لك . وكان يومه يعمل فغلبته عيناه فجاءته امرأته فلما رأته : قالت خيبة لك . فلما انتصف النهار غشى عليه فذكر ذلك للنبي ﷺ . فنزلت هذه الآية — أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم — ففرحوا بها شديداً — ونزلت — وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر^(٥) .

(والرفث) كناية عن الجماع . وإثارة هنا على ماكنى به عنه في جميع القرآن من التغطية والمباشرة واللمس والدخول ونحوها استقباح . لما وجد منهم قبل الإباحة . ولذا سماه اختيانا فيما بعد ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ ﴾ أى هن سكن لكم وأنتم سكن هن .

(١) تفسير الطبري (٢ : ١٥٨) .

(٢) ابن كثير (١ : ٢١٨) .

(٣) انظر تفسير ابي السعود (١ : ٢٠٠) .

(٤) البقرة : ١٨٧ .

(٥) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (٥ : ٣١) كتاب الصوم .

﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ﴾ الاختيان ابلغ من الخيانة ومعنى تختانون تظلمونها بتعريضها للعقاب وتنقيض حفظها من الثواب^(١) .

وقوله تعالى ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ﴾ أخرج البخارى بسنده عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال لما نزلت .. حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود — عمدت إلى عقال^(٢) أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي ، فجعلت أنظر في الليل فلا يستبين لى فغدوت على رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك فقال : إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار^(٣) .

وقوله ﴿ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ أى واطلبوا ما قدره الله لكم في اللوح من الولد .

وقوله ﴿ وَلَا تَبَاشِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾ .

الاعتكاف : لغة الملازمة .

وفي الشرع : ملازمة طاعة مخصوصة في وقت مخصوص على شرط مخصوص في موضع مخصوص .

وعن قتادة (كان الرجل يعتكف فيخرج إلى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك وفيه دليل على أن الاعتكاف يكون في المسجد غير مختص ببعض دون بعض وأن الوطء فيه حرام مفسد له . لأن النهى في العبادات يوجب الفساد)^(٤) .

(تلك حدود الله فلا تقربوها) أى هذه الأحكام حدود الله فلا تخالفوها .

(كذلك بين الله آياته للناس) أى كما بين هذه الحدود بين جميع الأحكام لتتقوا مجاوزتها .

(لعلهم يتقون) أى لعلهم يتقون مخالفة أوامره ونواهيه ولعل سائلا يسأل ماهى الحكمة من ذكر الاعتكاف بعد ذكر بعض أحكام الصيام ؟

(١) تفسير أى السعود (١ : ٢٠١) .

(٢) العقال المراد به الخيط .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٥ : ٣٤) كتاب الصوم .

(٤) انظر أى السعود (١ : ٢٠٢) .

والجواب كما قال البقاعى :

(لما كان الصوم شديد الملابس للمساجد والاعتكاف وكانت المساجد مظنة للاعتكاف . وكان سبحانه قد أطلق في صدر الآية الاذن في الوطء في جميع الأماكن والأحوال غير حال الصوم خص من سائر الأحوال الاعتكاف ومن الأماكن المساجد . فعقب ذلك بأن قال ﴿ ولا تبashروهن وأنتم عاكفون في المساجد ﴾ ^(١) ^(٢) .

(١) البقاعى (٣ : ٨٩) (نظم الدرر) .

(٢) من أراد معرفة بعض أحكام الاعتكاف فعليه مراجعة كتب الفقه .

رابعاً : الحج

الحج لغة : القصد . ورجل محجوج أى مقصود .

قال ابن السكيت : يكثران الاختلاف إليه ، هذا الأصل . ثم تعرف استعماله فى القصد إلى مكة للنسك ، والحج إلى البيت خاصة^(١) .

الحج شرعاً : القصد الى البيت الحرام على وجه التعظيم بأفعال مخصوصة كالطواف والسعى والوقوف بعرفة محرماً بنية الحج^(٢) .

مشروعيته : اختلف العلماء فى السنة التى شرع فيها . فالجمهور على أنها سنة ست لأنها نزل فيها قوله تعالى ﴿ وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ وهذا يبنى على أن المراد بالاتمام ابتداء الفرض ويؤيد قراءة علقمة ومسروق وإبراهيم النخعى بلفظ — وأقيموا — أخرجه الطبرى بأسانيد صحيحة عنهم .

وقيل المراد بالاتمام الاكمال بعد الشروع وهذا يقتضى تقدم فرضه قبل ذلك^(٣) .

(وقالت طائفة من أهل العلم أنه تأخر نزول فرضه إلى السنة التاسعة حكاه النووى فى الروضة والماوردى فى الأحكام السلطانية وصححه القاضى عياض والقرطبى وصوبه ابن القيم فقال: إن الحج فرض سنة تسع وإن آية فرضه قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ وهى نزلت عام الوفود أو آخر سنة تسع وأنه عليه الصلاة والسلام لم يؤخر الحج بعد فرضه عاماً واحداً وهذا هو اللائق بهديه وحاله ﷺ^(٤)) .

(١) انظر لسان العرب (٢ : ٢٢٦) ، الصحاح للجوهري (١ : ٣٠٣) .

(٢) انظر بلوغ الامانى للبنا (١ : ١١) ، مغنى المحتاج للنووى (١ : ٤٥٩) .

(٣) فتح البارى (٤ : ١٢١) .

(٤) انظر اسعاف أهل الاسلام بوظائف الحج الى بيت الله الحرام للعلامة الشيخ حسن مشاط (ص ٧) الطبعة ٣ ، ١٣٩٧ هـ .

قال تعالى ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ ﴾ يخبر سبحانه عن أول بيت وضع للناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به
ويصلون إليه ويعتكفون عنده (للذى ببكة) يعنى الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل
عليه السلام .

أخرج مسلم فى صحيحه عن أنى ذر رضى الله عنه قال سألت رسول الله
ﷺ عن أول مسجد وضع فى الأرض قال (المسجد الحرام) قلت ثم أى ؟ قال :
المسجد الأقصى قلت كم بينهما ؟ قال أربعون عاما ثم الأرض لك مسجد فحيث
ما أدركتك الصلاة فصل (١) .

وعن مجاهد قال تفاخر المسلمون واليهود فقالت اليهود بيت المقدس أفضل
وأعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء وفى الأرض المقدسة .

قال المسلمون : بل الكعبة أفضل ، فأنزل الله هذه الآية (٢) .

(للذى ببكة) : خبر (إن) واللام للتوكيد (وبكة) موضع البيت .
وبكة لغة فى مكة لأن العرب تعاقب بين الباء والميم وسميت بكة لأنها تبك
أعناق الجبابرة لم يقصدها جبار إلا قصمه الله عز وجل (٣) .

قوله تعالى (مباركا) أى كثير الخير والنفع لما يحصل لمن حجه واعتمره ولما
يحصل من مضاعفة العمل فيه .

(وهدى للعالمين) لأنه قبلتهم ومتعبدتهم .

(وفيه آيات بينات) يعنى مقام إبراهيم عليه السلام قالوا : أثر قدميه فى
المقام آية بينة . وكذلك من آياته الصفا والمروة والركن والحطيم (٤) .

(١) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (١ : ٣٧) .

(٢) تفسير القرطبي (٤ : ١٣٧) .

(٣) تفسير الألوسى (٢ : ٦٠) .

(٤) انظر تفسير القرطبي (٤ : ١٣٩) .

(ومن دخله كان آمناً) يعنى حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله تعالى (ومن دخله كان آمناً) قال من عاذ بالبيت أعاده البيت ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى فاذا خرج أخذ بذنبه .

قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ حَجٌّ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ هذه آية وجوب الحج عند الجمهور .. (والله) اللام فى قوله (والله) لام الإيجاب والإلزام والإستحقاق .

أخرج مسلم فى صحيحه^(١) عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال يا رسول الله . فسكت حتى قالها ثلاثا فقال رسول الله ﷺ (لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم) ثم قال (ذرونى ما تركتم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم وإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه) . رواه الامام أحمد فى مسنده^(٢) والنسائى فى سننه^(٣) .

وقوله (من استطاع إليه سبيلا) . السبيل المراد به الزاد والراحلة . أخرج الدارقطنى^(٤) عن ابن عباس قال : قيل يا رسول الله الحج كل عام ؟ قال : لا بل حجة . قيل : فما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة .

وأخرج الحاكم^(٥) فى المستدرک عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل

-
- (١) صحيح مسلم بشرح النووى (٩ : ١٠٠) .
(٢) سنن الامام أحمد ج ٢ (ص ٥٠٨) ط/ دار صادر .
(٣) سنن النسائى وعليه شرح الحافظ السيوطى وحاشية السندى — كتاب مناسك الحج (٥ : ١١٠) باب وجوب الحج ط/ دار احياء التراث العربى — بيروت .
(٤) سنن الدارقطنى (٢ : ٢١٦) وبذيله التعليق المغنى على الدارقطنى لأنى . الطبيب الابدائى ، ط/ دار المحاسن للطباعة بالقاهرة ط/ ونشر السيد عبد الله هاشم اليماني المدنى .
(٥) المستدرک للحاكم (١ : ٤٤٢) كتاب المناسك .

عن قول الله عز وجل (من استطاع إليه سبيلا) فقليل ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة. قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . قال الذهبي (على شرط البخاري ومسلم) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد أى ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غنى عنه .

وقد روى الاسماعيلي الحافظ من حديث الازاعى بسنده عن عبد الرحمن ابن غنم أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهوديا أو نصرانيا . قال ابن كثير وهذا إسناد صحيح إلى عمر رضى الله عنه^(١) .



(١) انظر تفسير ابن كثير (١ : ٣٨٦) .

الحكمة من مشروعية الحج

الحكمة والهدف الأساسى من مشروعية الحج أنه كسائر العبادات (تعبدا لله به). والمتأمل فى هذه الفريضة وما نزل فيها من الذكر الحكيم وما ورد فيها من الأحاديث والآثار يستشعر أن للحج أسراراً فيما اشتمل عليه من المناسك فى الأفعال والأقوال .

قال تعالى مخاطباً نبيه إبراهيم عليه السلام بعد أن أكمل بناء البيت الحرام : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (١) .

والعبادات كلها وإن اختلفت صورها ، تلتقى عند غاية واحدة ، هى تحقيق معنى العبودية لله ، بالاخلاص فى طاعته ، والتوجه إليه وحده والاستعانة به وحده والتخلص من سلطان الآثام التى يرتكبها الانسان فى حياته .

والحج كذلك عبادة من هذه العبادات يحقق معنى العبودية والاخلاص لله تعالى . لهذا جعل عنوان الشروع فيه ، والشعار الذى يصحبه فى جميع مراحلهِ فيوجه القلب إلى الله ويصرفه عما سواه (لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) . يسجل به المؤمنون على أنفسهم أسمى معانى الاختبات والخضوع والاستجابة لنداء مولاهم .

قال تعالى ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ... ﴾ .

(١) الحج : ٢٧ — ٢٩ .

قال الفخر الرازى (إنما نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة
دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات) (١) .

ولا يخفى ما لاجتماع المسلمين على صعيد واحد وفي زمن محدد لا فرق بين
أبيضهم وأسودهم وعربهم وعجمهم إلا بالتقوى . يجمع بينهم الاخاء لدين الله
وتسودهم روح المحبة والتعاون ويعمهم الفرح والسرور .

وكم من زعماء وعلماء ومفكرين وأطباء وتجار وغيرهم يتبادلون الخبرات
والمعارف ويتناصحون فيما بينهم ويتعارفون ويتزاورون ويتراحمون وصدق الحق سبحانه
وتعالى (ليشهدوا منافع لهم) .



(١) تفسير الرازى (٢٣ : ٢٩) .

المعاملات

ولما أنهيينا الكلام عن معاملة العبد مع خالقه نتطرق إلى معاملة العبد مع الخلق .

وقد نظمت الشريعة أبواب المعاملات بأمرين :

الأول : أمرت بالوفاء بالعقود ففى السنة العاشرة نزلت المائدة التى أولها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(١) وهى العقود الصحيحة شرعا الخالية من المفاسد الاجتماعية والدينية والأدبية .

الثانى : أوجبت الصدق على المتعاقدين وترك الغش والايمان الفاجرة قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ يَتَنَكَّمُونَ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ يَتَنَكَّمُونَ﴾^(٢) .

وقال تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^{(٣)(٤)} .



(١) المائدة : ١ .

(٢) النساء : ٢٩ .

(٣) البقرة : ١٨٨ .

(٤) شريعة الله الخالدة تأليف الدكتور السيد محمد علوى المالكى (ص ١٠٣) .

البيع

البيع لغة : نقل ملك بثمان على وجه مخصوص . والشراء قبول ذلك على أن لفظ كل منهما يقع على الآخر .

البيع : ضد الشراء ، والبيع الشراء أيضاً وهو من الاضداد^(١) .
شرعا : مقابلة مال بمال على وجه مخصوص^(٢) .

قال ابن حجر : (البيع : نقل ملك إلى الغير بثمان والشراء قبوله ويطلق كل منهما على الآخر . وأجمع المسلمون على جواز البيع والحكمة تقتضيه لأن حاجة الانسان تتعلق بما في يد صاحبه غالبا . وصاحبه قد لا يذله له . ففى تشريع البيع وسيلة إلى بلوغ الغرض من غير حرج)^(٣) .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٤) .

هذه الآية الكريمة أصل في جواز البيع وللعلماء فيها أقوال أربعة أصحابها .

(١) (انها عام مخصوص فإن اللفظ لفظ عموم يتناول كل بيع فيقتضى إباحة الجميع . لكن قد منع الشارع بيوعا أخرى وحرمها فهو عام في الإباحة مخصوص بما لا يدل الدليل على منعه) .

(٢) وقيل عام أريد به الخصوص .

(٣) وقيل مجمل بينته السنة .

(١) لسان العرب (٨ : ٢٣) .

(٢) معنى المحتاج إلى معرفة الفاظ المناهج شرح الشيخ محمد الشرييني الخطيب (٢ : ٢) .

(٣) فتح الباري (٥ : ١٩١) كتاب البيوع .

(٤) البقرة : ٢٧٥ .

(٤) وقيل إن اللام في البيع للعهد ^{وأنها} نزلت بعد أن أباح الشرع بيوعا وحرم بيوعا فأريد بقوله — وأحل الله البيع — أى الذى أحله الشرع من قبل^(١) .



(١) فتح البارى كتاب البيوع (٥ : ١٩١) .

الربا

الربا في اللغة : ربا الشيء يربو ربواً ورباء : زاد ونما^(١) .
ومنه قوله تعالى (اهتزت وربت) أى زادت ونمت .
وشرعا : عقد على عوض مخصوص غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد أو مع تأخير في البديلين أو أحدهما^(٢) .
والأصل في تحريمه آيات منها قوله تعالى (وحرّم الربا)^(٣) .
وأحاديث كحديث البخارى (أن رسول الله ﷺ نهى عن ثمن السدم ،
وثن الكلب ، وكسب الأمة ، ولعن الواشمة والمستوشمة ، وآكل الربا وموكله)^(٤)
الحديث .

ولا شك أن الربا ظاهرة اجتماعية خطيرة فلا غرابة أن جاء الوعيد والتهديد الشديد لمن تعامل بالربا ، لما فيه من امتصاص دماء الناس وأكل حقوقهم بالباطل . لهذا أعلن الله الحرب على المرابين قال تعالى ﴿ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾^(٥) .

ولقد عالج الإسلام هذه الظاهرة كغيرها من الأمراض المستأصلة في النفوس فمن المعلوم أن التشريع الإسلامى سار بسنة التدرج في تقرير الأحكام .

(١) لسان العرب (١٤ : ٣٤) .

(٢) معنى الاحتاج إلى معرفة معانى الفاظ المنهاج للشريينى (٢ : ٢١) .

(٣) البقرة : ٢٧٥ .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب البيوع (٥ : ٣٣١) .

(٥) البقرة : ٢٧٩ .

منهج الاسلام في تحريم الربا

ولقد مر تحريم الربا بأربعة أدوار كما حدث في تحريم الخمر وذلك تمشيا مع قاعدة التدرج ومصادقاً لحديث أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها في حديثها مع العراقي (إنما نزل أول ما نزل منه سورة المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب^(١) الناس إلى الاسلام نزل الحلال والحرام . ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدا . ولو نزل لا تزنوا . لقالوا لا ندع الزنى أبدا ... الحديث)^(٢)

هذا الحديث يدلنا على مدى عناية الاسلام بتربية الفرد والجماعة وأنه لم يأمرهم بالحلال وبينهم عن الحرام إلا بعد ما تقبلته نفوسهم وأشربت حبه ثم إنه لم يلزمهم به دفعة واحدة ، بل كان على سبيل التدرج .

الدور الأول :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رَّبَا لَّيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغَفُونَ ﴾^(٣) .

هذه الآية الكريمة مكية نزلت في مكة وفيها بيان أن الله تعالى يمحى بركة الربا أما الزكاة ففيها المخلص لمن أراد أن يضاعف أمواله أضعافا كثيرة . وليس في الآية نص على تحريم الربا . ولكنه لفت الأنظار إلى أن التعامل بالربا غير مريح عند الله ، وأولى منه الزكاة التي يراد بها وجه الله تعالى .

(١) (ثاب) بالثلثة ثم الموحدة أى رجع . انظر فتح البارى (١٠ : ٤١٥) .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب فضائل القرآن باب تأليف القرآن (١٠ : ٤١٥) .

(٣) الروم : ٣٩ .

الدور الثاني :

ثم نزلت آية النساء المدنية وفيها قوله تعالى : ﴿ فَيُظْلَمَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخُذُهُمْ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١) .

وهي درس قصه الله سبحانه وتعالى علينا من سيرة اليهود الذين حرم عليهم الربا فأكلوه واستحقوا عليه اللعنة والغضب . فالآية حكاية عن جرائم اليهود الذين خالفوا أوامر التوراة ونواهيها وحيث إن التحريم كان في كتاب سماوى سابق . وليس فيه ما يدل دلالة قطعية عليه فالتحريم في هذا الدور كان غير صريح . وليس فيه ما يدل دلالة قطعية عليه ، ففيه تلويح بأن التحريم في سبيله إلى الذكر في القرآن الكريم . فالتحريم في هذا الدور كان غير صريح .

الدور الثالث :

ثم نزلت آية آل عمران ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

هذه الآية مدنية وفيها تحريم للربا صريح ولكنه تحريم (جزئى) لا (كلى) لأنه تحريم لنوع من الربا الذى يسمى (الربا الفاحش) وهو الربا الذى بلغ فى الشناعة والقبح الذروة العليا وبلغ فى الاجرام النهاية العظمى حيث كان الدين فيه يتزايد حتى يصبح أضعافا مضاعفة . فقد كان الدائن إذا حل الأجل ولم يسدده المدين قال أرسيك وتريد فى الأجل . فان لم يسدد زيد فى الأجل مقابل الزيادة الفائدة (٣) .

(١) النساء : ١٦٠ — ١٦١ .

(٢) آل عمران : ١٣٠ .

(٣) انظر تفسير آيات الاحكام للشيخ محمد على الصابونى (١ : ٣٩٠) .

الدور الرابع :

وفي هذا الدور الأخير نزل التحريم الكلى القطعى فقد نزل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ الآيات . إلى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ ثَبْتُمْ عَلَىٰكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ ^(١) .

قال الطبرى : (نزلت هذه الآية فى العباس بن عبد المطلب ورجل من بنى المغيرة كانا شريكين فى الجاهلية ، سلفا فى الربا إلى أناس من ثقيف من بنى عمرو ، وهم بنو عمرو بن عمير ، فجاء الإسلام وهما أموال عظيمة فى الربا ، فأنزل الله (ذروا ما بقى) من فضل كان فى الجاهلية (من الربا) ^(٢) .

وختم سبحانه وتعالى آيات الربا بقوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ^(٣) أى إذا كان المستدين معسرا فعليكم أن تمهلوه إلى وقت اليسر لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه : إما أن تقضى وإما أن ترى . فيندب إلى الوضع عنه ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل ^(٤) .



(١) البقرة : ٢٧٥ — ٢٧٩ .

(٢) تفسير الطبرى (٣ : ١٠٦ ، ١٠٧) .

(٣) البقرة : ٢٨٠ .

(٤) أنظر تفسير ابن كثير (١ : ٣٣١) .

الحكمة في تحريم الربا

لقد حرم الاسلام الربا وأكد حرمة وتوعد المرايين بالحرب وفي ذلك التحريم مراعاة للبشرية في اخلاقها واجتماعها واقتصادها . وأهم الأسباب لتحريم الربا مايلي :

أولاً : (من ناحية اقتصادية) :

(أ) أن الربا يقتضى أخذ مال الانسان من غير عوض ، لأن بيع الدرهم نقداً أو نسيئة يحصل له زيادة درهم من غير عوض . ومال الانسان معلق بحاجته . وله حرمة عظيمة . فأخذ ماله من غير عوض محرم .

(ب) إن الاعتماد على الربا يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقداً كان أم نسيئة ، خف عليه اكتساب وجه المعيشة ، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة وذلك يفضى إلى انقطاع منافع الخلق ، ومن المعلوم أن مصالح العالم لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات .

ثانياً : (من ناحية أخلاقية) :

أنه يفضى إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض ، لأن الربا إذا حرم طابت النفوس بقرض الدرهم واسترجاع مثله ، ولو حل الربا لكانت حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين ، فيفضى ذلك إلى انقطاع المواساة والمعروف والاحسان .

ثالثاً : (ومن ناحية إجتماعية) :

أن الغالب أن المقرض يكون غنياً ، والمستقرض يكون فقيراً ، فالقول بتجوير عقد الربا تمكين للغنى من أن يأخذ من الفقير الضعيف مالا لا حق له فيه وفي ذلك أكل مال بالباطل ويورث التباغض والكراهية والعداء بين طبقات المجتمع^(١) .

(١) انظر تفسير الرازى (٧ : ٧٨) بتصرف واختصار .

المداينة والقرض الحسن

ولما ذكر تعالى الربا وبين ما فيه من قباحة وشناعة وأكل أموال الناس بالباطل وأنه كسب يحرمه الاسلام ويعقته ، أردفه بذكر القرض الحسن بلا فائدة وتناول الأحكام الخاصة بالدين والتجارة والرهن وكيف السبيل إليها ؟ وماهى أسلم الطرق فى التعامل بها ؟ وأنها هى أشرف الطرق لتنمية المال وزيادته بما فيه صلاح الفرد والمجتمع .

وتعتبر آية الدين أطول آيات القرآن الكريم على الإطلاق مما يدل على عناية الاسلام بالنظم الاقتصادية واهتمامه بها لأنها على أثرها تنبنى حياة الأمم .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ ۞ ﴾^(١) .

وفى ذلك ارشاد من الله تعالى لعباده بكتابة المعاملات ليكون ذلك أحفظ وأوثق لمق دارها وميقاتها .

﴿ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ ۞ أَىٰ بِالْحَقِّ وَلَا يَكْتُبْ إِلَّا مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصَانٍ .

﴿ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ ۚ ۞ أَى وَلَا يَمْتَنِعْ أَحَدٌ مِنَ الْكِتَابَةِ بِالْعَدْلِ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ .

﴿ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخْسُ مِنْهُ شَيْئاً ۚ ۞ فَلَا يَنْقُصُ مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً^(٢) .

﴿ فَإِنْ كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ۚ ۞ أَى لَا يَسْتَطِيعُ الاملاء بنفسه لعله أو خرس أو عجمة فليملل قيمه أو وكيله بالعدل من غير نقص أو زيادة .

(١) البقرة : ٢٨٢

(٢) انظر تفسير ابن كثير (١ : ٣٣٤ - ٣٣٥) .

﴿وَأَسْتَشْهَدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ
وَأَمْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا
الْأُخْرَى﴾.

﴿وَلَا يَأْتِ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ أى ولا يمتنع الشهاداء عن أداء الشهادة
أو تحملها إذا طلب منهم ذلك .

﴿وَلَا تَسْأَلُوا أَنْ تُكْتَبَ لَهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ هذا من تمام الارشاد
الحث على عدم التهاون فى كتابة الحق سواء قل أو كثر الى أجله ﴿ذَلِكَمْ أَقْسَطُ
عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا
بَيْنَكُمْ﴾ أى إلا إذا كان البيع حاضرا يدا بيد والتمن مقبوضا ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ لأنه أبعد عن النزاع والاختلاف .

﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ فى هذا نهى للكاتب والشهيد عن إضرار
من له الحق وذلك بأن يزيد الكاتب أو ينقص أو لا يشهد أو يشهد بحيث لا يحصل
معه النفع^(١) . وهذا قول أكثر المفسرين . ويحتمل أن يكون نهيا لصاحب الحق عن
إضرار الكاتب والشهيد ﴿وَأِنْ تَفَعَّلُوا فإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

(١) تفسير الرازى : (٧ : ١٨) .

الرهن

الرهن : ما وضع عند الانسان مما ينوب مناب ما أخذ منه^(١) .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ﴾^(٢)
أى إن كنتم مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ولم تجدوا من يكتب لكم ، فليكن
بدل الكتابة رهان مقبوضة يقبضها صاحب الحق وثيقة لدينه .

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا
تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ .
أى إذا دعيت إلى أداء الشهادة فلا تكتموها فإن كتمانها إثم كبير^(٣) .

(١) لسان العرب (١٣ : ١٨٨) .

(٢) البقرة : ٢٨٣ .

(٣) انظر تفسير صفوة التفاسير للشيخ محمد على الصابوني (١٧٧/١ — ١٧٩) .

النكاح

النكاح في اللغة : الضم والتداخل . قال الفراء النكح بضم ثم سكون اسم للفرج . ويجوز كسر أوله وكثر استعماله في الوطاء وسمى به العقد لكونه سببه^(١) . وفي لسان العرب : نكح فلان امرأة ينكحها نكاحا إذا تزوجها ونكحها ينكحها باضعها أيضا^(٢) .

في الشرع : عقد يتضمن إباحة وطء بلفظ إنكاح أو تزويج أو ترجمته^(٣) . قال ابن حجر : إنه حقيقة في العقد ، مجاز في الوطاء على الصحيح . والحجة في ذلك كثرة وروده في الكتاب والسنة للعقد حتى قيل إنه لم يرد في القرآن إلا للعقد .

قال تعالى : ﴿ وَالنِّكَاحِ الْأَيَّامِ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾^(٤) .

الأيامى : مقلوب أيام جمع أيام ، لأن فيعل لا يجمع على فعالى بل على فعائل فقدمت الميم على الياء وفتحت للتخفيف ، فانقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها . والأيم : كل ذكر لا أنثى معه وكل أنثى لا ذكر معها بكرا أو ثيبا .

والمعنى : زوجوا من لا زوج له (منكم) أى الذين من جنسكم في الحرية من الأحرار والحرائر . وذهب الفخر الرازى وبعض المفسرين إلى أن الآية ليست وعدا من الله بإغناء المتزوج بل المقصود الحث على النكاح والنهي عن التعلل بالفقر . والمراد : ليس النكاح مانعا من الغنى ولا سببا في الفقر والمال غاد ورائح فلا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم أو فقر من تريدون تزوجها^(٥) .

(١) فتح البارى وعلى هامشه صحيح البخارى (١١ : ٣) كتاب النكاح .

(٢) لسان العرب (٢ : ٦٢٥) .

(٣) مغنى المحتاج الى معرفة الفاظ المنهاج (٣ : ١٢٣) كتاب النكاح .

(٤) النور : ٣٢ .

(٥) أنظر كتاب تأملات في تفسير سورة النور للدكتور محمد أحمد يوسف القاسم (ص ١١٤ — ١١٥) .

وهذا الحكم وإن كان مشروعاً في مكة إلا أنني ذكرته هنا لما له من صلة
أيضاً بالتشريع في المدينة ثم لما له من صلة وثيقة بالطلاق الذي هو من التشريعات
المدنية .

* * *

الخطبة

الخطبة : تعبير واضح عن الرغبة في الزواج . الخطبة (بكسر الخاء) .
فحين يطمئن الرجل إلى حسن اختياره ، ويرضى بما في المرأة التى وقع
اختياره عليها من الصفات التى تكفل لهما السعادة ، فيتقدم للخطبة .

وقد جعل الإسلام الخطبة وسيلة للتعرف على الصفات المرغوبة التى يهتم
الرجل الاطمئنان إليها فيمن يريد لها زوجا له . حتى يقدم على الزواج وهو مرتاح إلى
سمات زوجته الحسية والمعنوية فلا يفاجأ بعد بما ينقص حياته ويكدر عيشته .

أخرج الترمذى بسنده عن المغيرة بن شعبه أنه خطب امرأة فقال النبى
ﷺ (أنظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما) قال أبو عيسى هذا حديث حسن
ومعنى قوله (أحرى أن يؤدم بينكما) قال أحرى أن تدوم المودة بينكما^(١) .

وقد كره الإسلام الاقدام على الزواج دون نظر وثبت خشية تقطع
العلاقات عند تبين الحقيقة . أخرج مسلم فى صحيحه عن أنى هريرة رضى الله
عنه قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال إني تزوجت امرأة من الأنصار فقال له
النبى ﷺ هل نظرت إليها فإن فى عيون الأنصار شيئا^(٢) .

وقال تعالى ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ ﴾^(٣)

هذه الآية الكريمة تشير إلى خطبة المعتدة التى توفى عنها زوجها والتعريض
ضد التصريح . وهو إفهام المعنى بالشئ المحتمل له ولغيره .

(١) سنن الترمذى (٣ : ٣٩٧) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى (٩ : ٢١٠) .

(٣) البقرة : ٢٣٥ .

قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص في تزوجها وتنبيه عليه لا يجوز . وكذلك أجمعت الأمة على أن الكلام معها بما هو رفث وذكر وجماع أو تحريض عليه لا يجوز . وكذلك ما أشبهه وجوز ما عدا ذلك^(١) .

والحكمة في عدم التصريح بخطبة المعتدة : (هي أن المرأة في عدتها ما تزال معلقة بذكري لم تمت . وبمشاعر أسرة الميت . ومرتبطة كذلك بما قد يكون في رحمها من حمل لم يتبين ، أو حمل تبين والعدة معلقة بوضعه .. كل هذه الاعتبارات تمنع الحديث عن حياة زوجية جديدة . لأن هذا الحديث لم يحن موعده . ولأنه يجرح مشاعر ويخدش ذكريات . ومع رعاية هذه الاعتبارات فقد أبيح التعريض — لا التصريح — بخطبة النساء ، أبيحت الإشارة البعيدة التي تلمح المرأة منها أن هذا الرجل يريد لها زوجة بعد انقضاء عدتها)^(٢) .



(١) تفسير القرطبي (٣ : ١٨٨) .

(٢) انظر ظلال القرآن لسيد قطب (١ : ٣٧٤) .

الخلع

لغة : بضم الحاء . وهو النزع . لأن كلا من الزوجين لباس الآخر .
قال تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ فكأنه بمفارقة الآخر نزع لباسه .

في الشرع : (فرقة بين الزوجين بعوض مقصود راجع لجهة الزوج بلفظ طلاق أو خلع)^(١) .

قال ابن قدامة^(٢) : وجملة الأمر أن المرأة إذا كرهت زوجها لخلقه أو خلقه أو دينه أو كبره أو ضعفه أو نحو ذلك وخشيت أن لا تؤدي حق الله في طاعته جاز لها أن تخلعه بعوض تفتدى به نفسها منه . لقوله تعالى ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حَدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾^(٣) .

أخرج البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ما أعيب عليه في خلق ولا دين ولكن أكره الكفر في الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : (أتردين عليه حديثه ؟) وكان قد أمهرها حديثه قالت : نعم . قال رسول الله ﷺ (اقبل الحديث وتطلقها تطليقة)^(٤)

(١) معنى المحتاج إلى معرفة الفاظ المناجح للشيخ محمد الشرييني الخطيب (٣ : ٢٦٢) كتاب الخلع .

(٢) المغنى لابن قدامة (٧ : ٣٢٣) .

(٣) البقرة : ٢٢٩ .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١١ : ٣١٦ - ٣١٩) .

الطلاق

الطلاق لغة : حل الوثاق . ومنه ناقة طالق : أى مرسله بلا قيد
شرعا : حل عقد النكاح بلفظ الطلاق ونحوه .

الاسلام حين شرع الطلاق كان قبل ذلك قد شرع طرقا حكيمة كفيلة
برأب الصدع والنزاع الذى حصل بين الزوجين فإذا لم تنفع جميع تلك الوسائل
فلا بد أن نستعمل آخر الأدوية وكما يقال فى الامثال (آخر الدواء الكى) حتى
لا يؤدى ذلك المرض الخطير إلى حدوث عواقب أليمة ، فقد يؤدى استفحال
الشقاق والنزاع إلى حدوث قتل وفتك بأحد الزوجين ومن هنا تنشأ العداوة
حتى ربما وصلت إلى إراقة دماء أبرياء يذهبون ضحية هذا النزاع . فما هى
الخطوات التى سلكها الإسلام لعلاج نشوز المرأة ؟

قال تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى
بَعْضٍ وَبِمَا أُنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا
حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ
وَاصْرُبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا . وَإِنْ
خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا
إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ۝ (١) .

أرشدت الآية الكريمة إلى الطرق الحكيمة فى معالجة نشوز المرأة ودعت
إلى سلوك هذه الخطوات التالية :

أولا : النصيح والارشاد بالحكمة والموعظة الحسنة لقوله تعالى
(فعظوهن) .

ثانيا : الهجران بعزل فراشه عن فراشها وترك معاشرتها لقوله تعالى
(واهجروهن فى المضاجع) .

(١) النساء : ٣٤ - ٣٥ .

ثالثا : الضرب غير المبرح بسواك ونحوه تأديباً لها لقوله تعالى
(واضربوهن) .

رابعا : إذا لم تجد كل هذه الوسائل فينبغي التحكيم لقوله تعالى (فابعثوا
حكما من أهله وحكما من أهلها) فان لم يفلح الحكمان من استرجاع الود ومحو
الشقاق ورأيا من العوائق ما يحول دون استمرار الحياة الزوجية على وجه صالح .
فإن لهما أن يطلبوا من الزوج تطليق زوجته إذا كانت متضررة من بقائها معه على
هذا الوجه . فإن أبى رفع الأمر إلى القاضي ليطلقها منه للضرر .

لذلك أباح الاسلام الطلاق وهو التفريق بين الزوجين عند تعذر اجتماعهما
في حياة مشتركة لما نشأ من الأذى والكيد ، ليكون لكل منهما سبيله وليرتفع
الضرر ، وينتفى الحرج ، ولعل كلا منهما يوفق إلى من يعجبه ويرضيه .
قال تعالى ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا
حَكِيمًا ﴾^(١) .

ثم قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا
الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾^(٢) الآية .

أخرج البخارى بسنده عن نافع عن عبد الله بن عمر رضی الله عنهما أنه
طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله ﷺ فسأل عمر بن الخطاب رسول
الله ﷺ عن ذلك ، فقال رسول الله ﷺ : مره فليراجعها . ثم لمسكها حتى
تطهر ثم تحيض ثم تطهر . ثم إن شاء أمسك بعد ، وإن شاء طلق قبل أن يمس .
فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء^(٣) .

قال السدى : نزلت فى عبد الله بن عمر ، وذلك أنه طلق امرأته حائضاً ،

(١) النساء : ١٣٠ .

(٢) الطلاق : ١ .

(٣) فتح البارى وعلى هامشه صحيح البخارى كتاب الطلاق (١١ : ٢٦١ : ٢٦٦) .

فأمر رسول الله ﷺ أن يراجعها ويمسكها حتى تطهر ثم تحيض حيضة أخرى فإذا طهرت طلقها إن شاء قبل أن يجامعها فإنها العدة التي أمر الله بها^(١) .

قلت : والحكمة في نهى الشارع الحكيم عن طلاق المرأة وقت الحيض لعلا تطول عليها العدة فتضرر ولأن فترة الحيض منفرة للزوج فقد يتسرع في طلاقها بخلاف ما إذا كانت طاهرا . ونهى كذلك عن طلاقها في الطهر الذى جامعها فيه لاحتمال حصول حمل من ذلك الوطء فتتحول العدة من الحيض لوضع الحمل وفي ذلك ضرر بالغ كما لا يخفى .

ولقد عاجلت سورة البقرة في الآيات من قوله تعالى :

﴿لِّلَّذِينَ يُؤَلِّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرِيصٌ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾^(٢) إلى قوله تعالى ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾^(٣) .

ولقد عاجلت تلك الآيات وغيرها مما ورد في سورة الطلاق والتحريم الايلاء وأحكام الطلاق وكيفيته وأنواعه وشروطه ومتى يقع وما ينبى عليه من الأمور الخاصة بكل من الزوج والزوجة . وحثت الأزواج على حسن المعاشرة ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾^(٤) .

كما ثبت في الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع (فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ،

(١) أسباب النزول للواحدي (ص ٢٨٩) .

(٢) البقرة : ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٣) البقرة : ٢٣٧ .

(٤) البقرة : ٢٢٨ .

فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن
بالمعروف (١) .

(١) صحيح مسلم وعلى هامشه شرح النووى (كتاب الحج) باب حجة النبى ﷺ (٨ : ١٨٣) .

حكمة تشريع الطلاق

شرع الله الطلاق ، في حين أنه أبغض الحلال إلى الله وذلك لضرورة قاهرة وفي ظروف استثنائية ملحة . تجعله دواء وعلاجاً للتخلص من شقاء محتم قد لا يقتصر على الزوجين بل يمتد إلى الأسرة كلها فيقلب حياتها إلى جحيم لا يطاق نعم إن الطلاق هدم للأسرة وتصديق لبنائها وضياع للأولاد وتمزيق لشملمهم ومع هذا فقد أجازة الاسلام لدفع ضرر أكبر وتحصيل مصلحة أكثر . وهى تفريق بين متباغضين من الخير أن يفترقا لأن الشقاق والنزاع قد استحکم بينهما واستحال التوفيق بينهما رغم كثرة محاولات الإصلاح للتوفيق بينهما .

لذا كان الطلاق ضرورة لا مندوحة عنه . لأن الحياة الزوجية مبنية على الحب والوفاء والهدوء والاستقرار . لا التناحر والحصام والبغضاء^(١) .

ومما تجدر الإشارة إليه (أن الشريعة الاسلامية انفردت بنظام « المراجعة » في الطلاق دون الشرائع الأخرى ، حرصا على إعادة الرباط الزوجى بين الزوجين وحفاظا على الذرية من الضياع والتشرد واستصلاحا لما فسد بين الزوجين من مودة وسكن ويعتبر الطلاق الرجعى فى الاسلام وهو المرة الأولى والثانية ، فترة اختبار للزوجين ، وفرصة تأمل ومراجعة للأخطاء والزلات والندم والتوبة ثم العودة إلى بيت الزوجية ، وما يظلمه من مودة ورحمة وسكن وذرية .

وصدق الحق سبحانه وتعالى حيث يقول فى كتابه العزيز : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾^(٢) .

(١) انظر باختصار وتصرف من كتاب (روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام) للشيخ محمد على الصابونى

(١ : ٣٤٣) .

(٢) الروم : ٢١ .

كما ينبغي أن نلاحظ أيضا أن الإسلام جاء ليصحح وضعنا خاطئا ويحفظ للمرأة كرامة كانت مضیعة على عهد الجاهلية الأولى ، إذ كان العرب يطلقون دون حصر أو عدد فكان الرجل يطلق ماشاء ثم يراجع امرأته قبل أن تنقضى عدتها لإضرارها لها حيث تظل معلقة بين طلاق ورجعة فى نهاية العدة . ثم طلاق فى بداية الرجعة وهكذا ، فنزل القرآن يضع لهذه الفوضى حدا ، ولهذا الظلم النازل بالنساء قيذا ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾^(١) .^(٢)

(١) البقرة : ٢٢٩

(٢) من كتاب محاضرات فى الثقافة الإسلامية (ص ٢٨٨) للأستاذ أحمد محمد جمال .

الظهار

الظهار : بكسر المعجمة . هو قول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أمي ..
ولمّا خص الظهر دون سائر الأعضاء لأن محل الركوب غالبا ولذلك سمي
المركوب ظهرا فشبهت الزوجة بذلك لأنها مركوب الرجل^(١) . ا.هـ .
والظهار هو نوع من أنواع طلاق الجاهلية وقد جاء الاسلام فبين حكمه
وكفارته .

قال الشافعي : (سمعت من أرضي من أهل العلم بالقرآن يقول « كان أهل
الجاهلية يطلقون بثلاث (الظهار — والايلاء — والطلاق) فأقر الله الطلاق طلاقا
وحكم في الايلاء والظهار بما بين في القرآن)^(٢) . ا.هـ .

هذا وقد نزلت سورة المجادلة وبينت أحكام الظهار .

قال تعالى ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾^(٣) الآيات .

أخرج البخارى بسنده عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه
الأصوات فأنزل الله تعالى على النبي ﷺ ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي
زَوْجِهَا ﴾^(٤) .

هكذا أخرجه البخارى وتماه عند أحمد فى مسنده بعد قولها (الأصوات)
لقد جاءت المجادلة^(٥) الى النبي ﷺ تكلمه وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ماتقول فأنزل
الله عز وجل ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾^(٦) الآية .

(١) فتح البارى (١١ : ٣٥٣) .

(٢) فتح البارى (١١ : ٣٥٤) .

(٣) المجادلة : ١ .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب التوحيد (١٧ : ١٤٣) .

(٥) تعنى المرأة التى كانت تجادل رسول الله ﷺ فى ظهار زوجها وهى خولة بنت ثعلبة .

(٦) الفتح الربانى فى ترتيب مسند الامام احمد للساعاتى (احمد عبد الرحمن البنا) (١٨ : ٢٩٨) .

ويوضح سبب النزول ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده :

عن خولة بنت ثعلبة قالت والله فيّ وفي أوس بن صامت أنزل الله عز وجل من صدر سورة المجادلة قالت : كنت عنده وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه وضجر قالت فدخل على يوما فراجعته بشيء فغضب . فقال انت على كظهر أمي . قالت ثم خرج فجلس في نادى قومه ساعة ثم دخل على فإذا هو يريدني على نفسي . قالت فقلت كلا والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليّ وقد قلت ماقلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت : فوآبني وامتنعت عنه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عنى قالت : ثم خرجت إلى بعض جارائي فاستعرت منها ثيابا ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه . فجعلت أشكو اليه ﷺ ما ألقى من سوء خلقه ، قالت فجعل رسول الله ﷺ يقول ياخويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه قالت فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سرى عنه — فقال لي ياخويلة قد أنزل فيك وفي صاحبك ثم قرأ على ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى قوله ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

فقال رسول الله ﷺ مريه فليعتق رقبة . قالت فقلت يا رسول الله والله ما عنده ما يعتق قال : فليصم شهرين متتابعين . قالت فقلت والله يا رسول الله إنه لشيوخ كبير ما به من صيام . قال فليطعم ستين مسكينا وسقا من تمر ، قالت قلت والله يا رسول الله ماذاك عنده . قالت فقال رسول الله ﷺ فإننا سنعيّنه بعرق من تمر فقالت وأنا يا رسول الله سأعيّنه بعرق آخر . قال قد أصبت وأحسن فاذهبي وتصدقي عنه ثم استوصي بآبن عمك خيرا . قالت ففعلت^(١) . ا.هـ .

فكان نزول الكفارة تخفيفاً ورحمة .

(١) الفتح الرباني (١٨ : ٢٩٧ — ٢٩٨) .

الحجاب والاستئذان

شرع الحجاب في العهد المدني وكان في بادئ الأمر لسيدات بيت النبوة رضى الله عنهن أجمعين وذلك في قصة زواجه عليه الصلاة والسلام بالسيدة زينب .

أخرج البخارى بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب ابنة جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتبها للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبى ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا . فانطلقت فجئت فأخبرت النبى ﷺ أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل . فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى وبينه ، فأنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ (١) الآية .

وان كان السبب خاصا بأمهات المؤمنين إلا أنه يسرى أيضا على جميع النساء المؤمنات لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ثم قال تعالى ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أُنْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُنَ مِنْ أُنْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ ﴾ (٢) الآية .

واستثنى من ذلك من لا رية في كشفها فقال تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَغْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

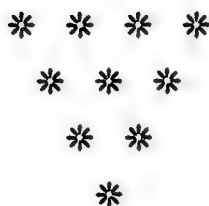
وهذا انسدل الحجاب على نسوة الاسلام فكان أعظم إكرام أهدها الاسلام

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى تفسير سورة الأحزاب (١٠ : ١٤٧) والشاهد في الآية قوله ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ .

(٢) النور : ٣١ ، ٣٢ .

(٣) النور : ٦٠ .

للمرأة حيث أمرها بما يصونها ويحفظ شرفها وأنوثتها ويبيدها عن مظان الفتنة .
ويجعلها في حصن حصين من العفة .



الخمر والتدريج في تحريمه

الخمر : ما أسكرت من عصير العنب لأنها خامرت العقل ، والتخمير التغطية^(١) .

قال القرطبي : (الخمر مأخوذة من خمر إذا ستر ، ومنه خمار المرأة ومن ذلك الشجر الملتف يقال له الخمر ، لأنه يغطي ماتحته ويستتره ، ولما كانت الخمر تستر العقل وتغطيه سميت بذلك .

والخمر : ماء العنب الذى غلى أو طبخ . وما خامر العقل من غيره فهو فى حكمه . والجمهور من الأئمة على أن ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فمحرم قليله وكثيره . والحد فى ذلك واجب)^(٢) .

أخرج البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قام عمر على المنبر فقال : أما بعد نزل تحريم الخمر وهى من خمسة : العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير ، والخمر ما خامر العقل^(٣) .

قال الطبرى : قال بعض المفسرين (إن الله تعالى لم يدع شيئا من الكرامة والبر إلا أعطاه هذه الأمة ، ومن كرامته وإحسانه أنه لم يوجب عليهم الشرائع دفعة واحدة ولكن أوجب عليهم مرة بعد مرة . فكذلك تحريم الخمر)^(٤) .

فقد كان الناس مفتونين بالخمر مولعين بشربها حتى أنها لو حرمت من أول الأمر على سبيل القطع لانصرف الكثير ممن هم مدمنون عليها عن الاسلام أو حتى التفكير فى الدخول الى الاسلام . فكان من لطف الله وبالعالم حكيمته الجليلة أن نزلت

(١) لسان العرب (٤ : ٢٥٤) .

(٢) تفسير القرطبي (٣ : ٥١ — ٥٢) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب الأشربة (١٢ : ١٣٤) .

(٤) تفسير الطبرى (٣ : ٥٢) .

آيات الخمر بالتدرج آخذة في التنفير منها ووصفها بالاثم إلى أن وصفها المولى عز وجل بأنها رجس مبين إثمها وضررها مؤكدا حرمتها على سبيل القطع .
ولنأخذ الآن في بيان الآيات على سبيل الإيجاز وبالله التوفيق .

أولاً : قال تعالى في سورة النحل : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) .

هذه الآية مكية حيث كان الناس يشربونها والآية تبين أنهم اتخذوا من ثمرات النخيل والأعناب شرابا سكرا ، وكان ذلك قبل نزول آيات التحريم الصريحة والآية تشير إلى الحرمة .

(١) حيث قابل السكر بالرزق الحسن .

(٢) والاتخاذ من قبلهم هم .

(٣) وتذيل الآية كذلك يدل على منافاتها للعقل .

ثانياً : ثم قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا ﴾ ^(٢) .

أخرج الترمذى بسنده عن عمر بن الخطاب أنه قال : اللهم بين لنا في الخمر بيان شفاء فنزلت التى في البقرة ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ الآية الحديث ^(٣) .

فتركها قوم تحرياً عن الاثم . وشرها آخرون للمنافع ، ولاشك أن من تركها قدم دره المفساد على جلب المصالح ، ومن شرها وقف مع ظاهر التخيير الذى لا جزم فيه بالمنع .

ثالثاً : ثم قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ ^(٤) الآية .

(١) النحل : ٦٧ .

(٢) البقرة : ٢١٩ .

(٣) سنن الترمذى (٥ : ٢٥٣) .

(٤) النساء : ٤٣ .

وسبب نزولها ما أخرجه الترمذى بسنده عن على بن أبى طالب قال صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدمونى فقرأت : قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون . ونحن نعبد ما نعبدون ، قال فأنزل الله تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ .

قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب^(١) .

ولا يفهم من الآية تحريم الخمر قطعا وإنما تحريمها فى الأوقات القريبة من الصلاة وحيث لم يبق للمصر على شربها سوى شربها بعد صلاة العشاء وضرره قليل أو بعد صلاة الصبح لمن لا عمل له .

وابعاً : ثم تركوا فترة حتى قوى الإيمان فى القلوب ورسخ اليقين وكثرت الوقائع التى ظهر فيها إثم الخمر وضررها وعند ذلك ناسب النهى عنها على سبيل القطع فى كل الأوقات كما فى الآية التالية ، وهى قوله تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾^(٢) .

اختلفت الروايات فى سبب نزول الآية ونذكر منها ما أخرجه الترمذى بسنده عن عمر بن الخطاب أنه قال (اللهم بين لنا فى الخمر بيان شفاء فنزلت التى فى البقرة ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ الآية ، فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيان شفاء فنزلت التى فى النساء ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ فدعى عمر فقرئت عليه ثم قال : اللهم بين لنا فى الخمر بيان شفاء ، فنزلت التى فى المائدة ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ﴾ الى قوله ﴿ فهل أنتم متبهون ﴾ فدعى عمر فقرئت عليه فقال انتبهنا^(٣) .

(١) سنن الترمذى (٥ : ٢٣٨) .

(٢) المائدة : ٩٠ — ٩١ .

(٣) سنن الترمذى (٥ : ٢٥٣) .

قال الطبري : (وقد اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله نزلت هذه الآية وجائز أن يكون نزولها كان بسبب دعاء عمر رضى الله عنه في أمر الخمر . وجائز أن يكون السبب ما نال سعدا من الأنصارى عند انتشائهما من الشراب ، وجائز أن يكون كان من أجل ما كان يلحق أحدهم عند ذهاب ماله بالقمار من عداوة من يتروا وبغضه . وليس عندنا بأى من ذلك كان خبر قاطع للعدر .

غير أنه أى ذلك كان فقد لزم حكم الآية جميع أهل التكليف ، وغير ضائهم الجهل بالسبب الذى له نزلت هذه الآية ، فالخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فرض على جميع من بلغته الآية من التكليف اجتناب جميع ذلك كما قال تعالى (فاجتنبوه لعلكم تفلحون)^(١) .

هذا وقد أكد القرآن الكريم حرمة الخمر والميسر حتى إنه لم يرد في القرآن مثل هذه التأكيدات الصارمة في جل المحرمات مثلما ورد في الخمر والميسر وذلك لشدة ولع الناس بهما .

وقد ذكر الكشاف وجوها استنبطها من الآيتين في تأكيد حرمة الخمر :

- (١) تصدير الجملة بإثما .
- (٢) أنه قرنها بعبادة الأصنام ومنه قوله ﷺ (شارب الخمر كعابد الوثن)^(٢) .
- (٣) وأنه جعلها رجسا كما قال تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان)^(٣) .
- (٤) أنه جعلهما من عمل الشيطان . والشيطان لا يأتى منه إلا الشر البحت .

(١) تفسير الطبري (٧ : ٣٥) .

(٢) سنن ابن ماجه (٢ : ١١٢٠) بلفظ (مدمن الخمر كعابد الوثن) .

(٣) انظر الكشاف (١ : ٦٤١ — ٦٤٢) تأليف أبى القاسم جاز الله عمود الزمخشري (٤٦٧ —

٥٣٨ ط / دار الفكر .

- (٥) أنه أمر بالاجتناب في قوله تعالى (فاجتنبوه) .
- (٦) أنه جعل الاجتناب من الفلاح . وإذا كان الاجتناب فلاحا كان الاتكاف خيبة ومحقة .
- (٧) أنه ذكر ما ينتج منهما من الوبال وهو وقوع التعادى والتباغض وما يؤديان إليه من الصد عن ذكر الله وعدم مراعاة أوقات الصلاة .
- (٨) الأمر بالابتعاد عنهما بصيغة الاستفهام المقرون بفاء السببية (فهل أنتم متهمون) ^(١) .



(١) الحج : ٣٠ .

الحكمة من تحريم الخمر

أولاً : أنها مفسدة خلقية واجتماعية ودينية وبيان ذلك :

(١) أن الخمر تخرج الانسان عن وعيه وتفقدته إدراكه حتى يبلغ مرتبة الهذيان وفى ذلك امتهان للعقل وهو أشرف نعمة أكرم به الانسان فالخمر مفسدة للفرد فى عقله وآدميته .

(٢) وما تسببه من وقوع العداوة والبغضاء بين المسلمين وتصرفهم عن ذكر الله وقد وصفها الله سبحانه بأنها (رجس من عمل الشيطان) .

ثانياً : أنها مسببة لكثير من الأمراض الخطيرة وبيان ذلك :

(١) تؤثر على الجهاز الهضمى وذلك يسبب الالتهابات المزمنة بالغشاء المخاطى المبطن للمعدة مع حرمانها من الحمض اللازم لعملية الهضم فيعاني المدمن دائماً من عسر الهضم .

(٢) تؤثر على القلب وعضلاته فتصبح شحمية القوام .

(٣) تؤثر على الجهاز العصبى وتصيبه بالتهابات أطراف الأعصاب والشلل والارتعاشات فى أصابع اليد واللسان .

(٤) تؤثر على الصحة العقلية فتظهر تغيرات نفسية عقلية من المدمنين تتسم بشكوك متطرفة تجاه الآخرين من زوجة وزملاء وأصدقاء ونزوع عدوانى اجرامى وتزداد الصور بشاعة مما يعرف بالهوس الكحولى .

(٥) تؤثر تأثيراً مباشراً على الكبد فتعطل عمله وبذلك تصبح هذه السموم خطراً على حياة الشخص وقد تؤدى إلى الوفاة .

ثالثاً : مضار الخمر من الناحية الاقتصادية وبيان ذلك :

(١) أن الخمر تضعف شاربها وتجعله إنساناً مريضاً لا يتمتع بالقدرات الانتاجية التى يتمتع بها الشخص السوى . وبذلك لا يكون عنصراً فعالاً فى الاقتصاد القومى .

(٢) أن تعاطى الخمر يفتح سوقا واسعة لاستيراد المنتجات الكحولية وفي ذلك ضياع للأموال كان الأولى وضعها فيما يمكن أن يعود على الناس بالنفع والفائدة بدلا من إنفاقه فيما يعود عليهم بالضرر والخراب^(١) .



(١) انظر كتاب (نظام التجريم والعقاب في الإسلام مقارنا بالقوانين الوضعية) للمستشار على منصور (١ : ٩٣ — ٩٤) .

الوصية

الوصية لغة : تطلق على فعل الموصى وعلى ما يوصى به من مال أو غيره من عهد ونحوه .

وفى الشرع : عهد خاص إلى ما بعد الموت .

وسميت وصية لأن الميت يصل بها ما كان فى حياته بعد مماته^(١) .

قال تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُم إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ . فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصِرٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٢) .

هذه آية الوصية حيث أوجبت الوصية وفرضتها (كتب عليكم) كتب بمعنى فرض فدل على وجوب الوصية .

أخرج البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ما حق امرئ مسلم له شيء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده^(٣) .

قال ابن حجر : استدلل بهذا الحديث مع ظاهر الآية على وجوب الوصية^(٤) .

اختلف العلماء فى نسخ هذه الآية على أقوال :

أولا : إن هذه الآية منسوخة بآية الموارث ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا

(١) فتح البارى (٦ : ٢٨٥) كتاب الوصية .

(٢) البقرة : ١٨٠ — ١٨٢ .

(٣) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٦ : ٢٨٦ — ٢٨٧) . (٢٨٧) .

(٤) فتح البارى (٦ : ٢٨٧) .

وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴿١﴾ بقوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ﴾ ﴿٢﴾ الآيتين .

ثانيا : وقيل إنه لا نسخ بل الآيتان محكمتان فالأولى باقية فيمن كان صاحب فرض وحجب في الميراث أو أنه من ذوى الأرحام ، أو أن الأولى في الوصية المنسوب إليها بأن كان من أصحاب الفروض من هو صاحب عاهة لا يستطيع التكسب أو أنه من ذوى العيال . فيؤثره المورث بحظ أوفر في الوصية . والذي أرجحه أن آية الوصية منسوخة وبخاصة أن فيها من هم لا يسقطون في التوريث بحال . وهم الوالدان . وجاء في الحديث الصحيح الذى أخرجه أبو داود والترمذى من حديث أنى امامة (سمعت رسول الله ﷺ يقول فى خطبته عام حجة الوداع « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » قال الترمذى حديث حسن صحيح واللفظ للترمذى) (٣) .

وكذلك الحديث المرفوع الذى أخرجه البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين . فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس وجعل للمرأة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع) (٤) .

فثبت النسخ وأن الناسخ الآيات من سورة النساء . وقد جاء ذلك أيضاً فى الاجماع . والاجماع عند العلماء لا يكون إلا عن دليل فثبت النسخ بذلك أيضاً .

وأما تصدير آية الوصية (بكتب) فلا يمنع ذلك لأن النسخ معناه العمل بالمنسوخ إلى حين الأبد فإذا نزل الناسخ ألغى هذا الزمن حين العمل بالناسخ .

(١) النساء : ٣٢ .

(٢) النساء : ١١ .

(٣) سنن أبى داود (٢ : ١٠٣) .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٦ : ٣١ - ٣٢) .

وتبقى الوصية بمفهومها العام فيمن لا يرث . وهى حق الميت فى حدود
ثلث التركة كما ثبت فى الحديث الصحيح عن سعد بن أبى وقاص قلت يا رسول
الله أوصى بمالى كله ؟ قال لا قلت : فالشطر ؟ قال لا : قلت الثلث قال :
الثلث والثلث كثير (١) . الحديث .

وقوله تعالى (فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله
سميع عليم) .

أى من بدل الوصية وحرفها فغير حكمها وزاد فيها أو نقص ويدخل فى
ذلك الكتمان بطريق الأولى وقوله (فمن خاف من موص جنفا أو إثما) الجنف
الخطأ وهو يشمل أنواع الخطأ كلها سواء كان غير عامد بل بطبعه وقوة شفقته من
غير تبصر ، أو متعمدا آثما فللوصى والحالة هذه أن يصلح القضية ويعدل فى
الوصية على الوجه الشرعى (٢) .

قال ابن كثير وأحسن ما ورد فى الباب ما أخرجه عبد الرزاق بسنده عن
أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن الرجل ليعمل بعمل أهل
الخير سبعين سنة فإذا أوصى خاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار .
وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير
عمله فيدخل الجنة) .

قال أبو هريرة : أقرأوا إن شئتم (تلك حدود الله فلا تعتدوها) الآية (٣) .



(١) صحيح البخارى وبهامشه فتح البارى (٦ : ٢٩٤ ، ٢٩٥) .

(٢) أنظر تفسير ابن كثير (١ : ٢١٢) .

(٣) المصنف لعبد الرزاق الصنعانى (٩ : ٨٨) حديث رقم ١٦٤٥٥ .

حكمة مشروعيتهما

الإسلام جعل المسلم له كيانه المستقل فى استغلال ماله فى وجوهه المشروعة وليس للدولة أن تجور على الأفراد ولا أن تستولى على ثرواتهم وممتلكاتهم ومواردهم . فللفرد المسلم كامل الحرية فى التصرف فيه . ومن جملة الطرق المشروعة فى التصرف فى المال الوصية به . وهى لون من ألوان التكافل العائلى العام فى خارج حدود الوراثة .

والوصية متى ما أحسن الموصى فى وضعها فى الموضع المناسب لها وكانت فى حدود الثلث يناله الثواب الجزيل وقد تكون سببا فى دخول الجنة كما مر علينا فى حديث أنى هريرة السابق وهى بمنزلة الصدقة الجارية كما فى الحديث الصحيح (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية : أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له)^(١) .



(١) أخرجه مسلم فى كتاب الوصايا (١١ : ٨٥) والبخارى فى الأدب المفرد حديث ٣٨ (١ : ١٠٤) .

الفرائض

في السنة الثالثة بعد غزوة أحد نزلت آية فرض الميراث .

أخرج الامام أحمد^(١) في مسنده عن جابر بن عبد الله قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ بابنتها من سعد فقالت يا رسول الله : هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما في أحد شهيدا وإن عمهما أخذ ما لهما فلم يدع لهما مالا ولا ينكحان إلا ولهما مال . فقال : يقض الله في ذلك . قال : فنزلت آية الموارث . فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن وما بقي فهو لك .

وآية الموارث هي قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنثَىٰ ﴾ إلى قوله (والله عليم حكيم)^(٢) .

ثم نزلت آية الكلالة وأكملت ما بقي من أصحاب الفرائض . قال تعالى ﴿ إِنْ أَمْرٌؤَا هَٰلِكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ﴾ الآية^(٣) .

وقوله تعالى ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمُ فِي الْكَلَالَةِ ﴾^(٤) .

وسبب نزول هذه الآية ما أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله قال مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيين فأغمى عليّ فتوضأ ثم صب عليّ من وضوئه فأفقت قلت يا رسول الله كيف أقضي في مالي

(١) الفتح الرباني (١٨ : ١١١) .

(٢) النساء : ١١ — ١٢ .

(٣)(٤) النساء : ١٧٦ .

فلم يرد على شيئا ؟ حتى نزلت آية الميراث (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله)^(١) الآية .

والجمهور من العلماء في أن المراد بالكلالة في الآية (اسم للميت الذي ليس له ولد ولا والد ذكرا كان الميت أو أنثى) .

قال النووي : ذكر بعض العلماء الاجماع على أن الكلاله من لا ولد له ولا والد^(٢) .

ومذهب الجمهور أن معنى الآية الكريمة (أن توريث النصف للأخت بالفرض لا يكون إلا إذا لم يكن ولد فعلم الولد شرط لتوريثها النصف فرضا)^(٣) .

وإذا نظرنا في الوراثه وكيف كانت في عهد الجاهلية ثم في صدر الدعوة الإسلامية وكيف استقر الأمر لها حينئذ يتجلى لنا مدى عناية الإسلام بموضوع الوراثه .
(١) كانت الوراثه في الجاهلية بالذكوره والقوة فكانوا يورثون الرجال دون النساء والصبيان فأبطل الله ذلك بقوله (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) الآية^(٤) .

(٢) وكانت أيضا في الجاهلية وابتداء الاسلام بالمخالفة . قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيْبَهُمْ ﴾^(٥) .

(٣) ثم صارت الوراثه بالهجرة قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴾^(٦) .

(١) صحيح مسلم وعلى هامشه شرح النووي (١١ : ٥٥) كتاب الفرائض .

(٢) انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١١ : ٥٨) .

(٣) أنظر شرح النووي على صحيح مسلم (١١ : ٥٩) .

(٤) النساء : ٧ .

(٥) النساء : ٣٣ .

(٦) الانفال : ٧٢ .

(٤) نسخ ذلك كله وصارت الورثة بأحد الأمور الثلاثة (النسب أو النكاح أو الولاء) .

والمعنى بالنسب ان القرابة يرث بعضهم من بعض لقوله تعالى ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾^(١) .

والمعنى بالنكاح أن أحد الزوجين يرث صاحبه .

ومعنى الولاء : أن المعتق بكسر التاء الفوقية وعصباته يرثون المعتق بالفتح^(٢) .



(١) الأنفال : ٧٥ .

(٢) الفتح الرباني (١٨ : ١١١) .

الحكمة في تشريع هذه القسمة

(١) لقد شرع الحق سبحانه وتعالى الموارث وفصلها في كتابه العزيز وتولى توزيعها لأنه العالم بأحوال عباده الخبير بمصالحهم ونلاحظ ختم آيات الموارث بقوله تعالى (إن الله كان عليماً حكيماً) وفي الثانية (عليم حكيم) وتوعد من يخالف تلك الفروض بالعذاب المهين ﴿ وَمَنْ يَعْصِرِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ . النساء الآيات ١١ — ١٢ — ١٤ ثم في آية الكلاله ختمها بقوله (والله بكل شيء عليم) لا يخفى عليه شيء سبحانه وتعالى .

(٢) إن في تلك الفروض التي فرضها الله حكمة عظيمة فهي مدعاة لاستقرار الأسرة وطمانيتها واستمرارها وفي المحافظة على الثروة وعدم ضياعها .. ذلك أنها حافز للانسان للاستمرار في العمل وذلك إذا علم أن الثروة ستؤول إلى أهله وأسرته بعد مماته ، ولولا ذلك لقل نشاطه في حال كبره واستغنائه ، ولعمد هو وأهله لتبديد الثروة إذا كبرت سن رب الأسرة أو المورث .

(٣) إن الإسلام لم يحرم المرأة من الميراث كما هو حال المذاهب الأخرى .

(٤) إنه راعى مضاعفة ميراث الرجل (للذكر مثل حظ الأنثيين) :

(أ) قال تعالى ﴿ الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ ^(١) .

فالذي يتولى الانفاق على المرأة هو الرجل سواء أكان أباً أم زوجاً أم ابناً إذن لابد من مضاعفة المال في يده .

(١) النساء : ٣٤ .

(ب) إن الرجل أكمل حالا من المرأة في الحلقة وفي العقل وكذلك شهادة المرأة نصف شهادة الرجل ومن كان كذلك كان الانعام عليه أزيد .
(جـ) إن المرأة قليلة العقل كثيرة الشهوة ، فإذا انضاف إليها المال الكثير عظم الفساد (٢) .

* * *

(١) أنظر تفسير الرازي (٩ : ٢٠٧) .

الحدود

الحد لغة : المنع . لذلك عرف بعض فقهاء الشريعة الحدود بأنها موانع قبل الفعل زواج بعده أى أن العلم بشرعيتها يمنع الاقدام على الفعل وإيقاعها بعده يمنع من العودة إليه^(١) .

الحدود : جمع حد وأصل الحد ما يحجز بين شيئين فيمنع اختلاطهما وسميت عقوبة الزنى ونحوه حدا لكونها تمنعه من المعاودة . أو لكونها مقدرة من الشارع^(٢) . وسوف أذكر فيما يلى حد الزنى ، والقذف ، والسرقه ، والحراة .

حد الزنى

الزنى لغة : الوطء المحرم .

فى الشرع : وطء الرجل امرأة فى فرجها من غير نكاح ولا شبهة نكاح^(٣) . ولقد كان الزنى من أعظم الأمراض تفشيا . ومن أشنع الرذائل وأقبحها . ومن سنة الله عز وجل فى تشريع الأحكام أن يسير بالأمة فى طريق (التدرج) ليكون أنجح فى العلاج ، وألزم فى التطبيق ، وأسهل على النفوس تقبلا كما مر علينا فى تحريم الربا والخمر .

فكانت عقوبة الزنى فى صدر الاسلام مخففة لأن الناس حديثو عهد بحياة الجاهلية . فكانت عقوبة المرأة (الحبس فى البيت) وعدم الاذن لها بالخروج منه وعقوبة الرجل (التأنيب والتوبيخ) بالقول من شتم وتعبير .

(١) شرح فتح القدير لابن الهمام (٤ : ١١٢) المطبعة الأميرية .

(٢) انظر فتح البارى (١٥ : ٦١) كتاب الحدود .

(٣) تفسير آيات الأحكام للشيخ الصابونى (٢ : ٨) .

قال تعالى : ﴿ وَاللَّائِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا. وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَأَذَوْهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ ثَوَابًا رَّحِيمًا ۝ ﴾ (١) .

قال ابن كثير : قال ابن عباس (كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد والرجم) وانتهى ذلك الحكم المؤقت إلى تلك العقوبة الرادعة الزاجرة (٢) .

قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۝ ﴾ الآية .

أخرج مسلم في صحيحه عن عبادة بن الصامت قال كان النبي ﷺ إذا أنزل عليه كرب لذلك وتردد له وجهه قال فأنزل عليه ذات يوم فلقى كذلك فلما سرى عنه قال : خذوا عني فقد جعل الله لهن سبيلا الثيب بالثيب والبكر بالبكر الثيب جلد مائة ثم رجم بالحجارة والبكر جلد مائة ثم نفى سنة (٣) .

ولم ينص القرآن الكريم على رجم المحصن . وهذا مما نسخ لفظه وبقي حكمه . وقد ثبت ذلك بفعل النبي ﷺ وكذلك بإجماع الصحابة والتابعين وبطريق التواتر . وقد أقام النبي ﷺ (حد الرجم) على بعض الصحابة كإعرز والغامدية ولم يخالف في ذلك إلا فئة شاذة وهم الخوارج حيث أنكروا مشروعية الرجم . وقد تنبأ لذلك الفاروق عمر بن الخطاب . أخرج البخاري ومسلم واللفظ للبخاري

(١) النساء : ١٥ — ١٦ .

(٢) تفسير ابن كثير (١ : ٤٦٢) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١١ : ١٩٠) وهذا الحديث وإن كان صحيحا وقد عمل به الامام على كرم الله وجهه لكنه رجع من الصحابة فرجع عن رأيه ، وذلك أنهم علموا النسخ وشاهدوا رسول الله ﷺ وهو يرمج بدون جلد المحصن ، ومن علم حجة على من لم يعلم . فبقى حكم الجلد لمن لم يحصن والرجم لمن أحصن والله أعلم .

(٤) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١٥ : ١٥٥) ، صحيح مسلم بشرح النووي

(١١ : ١٩١) .

بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال عمر لقد خشيت أن يطول
بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها
الله الا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن إذا قامت البينة ، أو كان الحمل
أو الاعتراف . قال سفيان كذا حفظت ، ألا وقد رجم رسول الله ﷺ ورجمنا
بعده^(١) .

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٥ : ١٥٥) ، صحيح مسلم بشرح النووي (١١ :

الحكمة التشريعية

لعل أول ما تهدمه جريمة الزنى هو خلق الطهارة والعفة في النفس البشرية وهو الخلق الذى يرتقى به الانسان عن مستوى الحيوان .

ويعد الزنى فى الشريعة الاسلامية جريمة من أقبح الجرائم وأشنعها لذلك كانت عقوبته شديدة صارمة لأن فى هذه الجريمة إهدارا لكرامة الانسانية وتصديعا لبنيان المجتمع . وفيه تعريض النسل للخطر . فالزنى يفضى إلى اختلاط المياه واشتباه الأنساب وكثرة (اللقطاء) وأولاد البغاء ولا يكون هناك من يتعهدهم ويربهم وينشئهم النشأة الصالحة، وربما كان هؤلاء الأطفال مصدر فساد للمجتمع .

ومن أهداف الشريعة الاسلامية وأغراضها الأساسية الكليات الخمس وهى (حفظ العقل ، وحفظ النسل ، وحفظ النفس ، وحفظ الدين ، وحفظ المال) ولقد قررت جميع الأديان حفظها وشرعت ما يكفل حمايتها لأنها ضرورة لحياة الانسان . ولما كان (النسل) هو أحد هذه الضروريات لذلك شرع الاسلام من العقوبات الصارمة ما يقطع دابر هذه الجريمة ، ويحقق الأمن والاستقرار للمجتمع^(١) .

وإذا كان الزنى قد أدخل بموازين الزواج وأصوله ، فإنه من ناحية أخرى أوجد الكثير من العوانس والمطلقات ، لأنه إذا فتح باب الزنى أغلق باب الزواج . ومن مضار الزنى أيضا أنه إذا ما تداخلت الأنساب أدى الى توزيع الميراث على من لا يستحق وحرمان المستحق منه .

(١) انظر بتصرف من تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد على الصابوني (٢ : ٥٢) .

وأخيراً فإن في الزنى من انتشار الأمراض والاصابة بالعدوى القاتلة من
سيلان وزهري وغالبا مايمتد أثرها إلى الكبد والمثانة والخصيتين مما لا يخفى ولا عجب
إذا رأينا أن الأديان السماوية كلها مجمعة على تحريمه وصدق الله العظيم حيث قال
﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(١).

(١) الاسراء : ٣٢ .

حد القذف

القذف : هو الرمي بالزنى — وهو محرم بإجماع الأمة^(١) .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٢) .

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة وهي الحرة البالغة العفيفة . فإذا كان المذدوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه أيضا . وليس فيه نزاع بين العلماء . وعلى المذدوف أن يقيم البينة على إثبات القذف وحينئذ يجلد القاذف . فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درأ عنه الحد . فإذا لم يقم البينة ترتب على ذلك ثلاثة أحكام :

(أحدها) : أن يجلد ثمانين جلدة .

(الثاني) : أن ترد شهادته .

(الثالث) : أن يكون فاسقا ليس يعدل لا عند الله ولا عند الناس^(٣) .

وقد لعن الله القاذف وتوعده بالعذاب العظيم .

قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾^(٤) .

والقذف أحد السبع الموبقات التي أمرنا رسول الله ﷺ باجتنابها .

(١) المغنى (٩ : ٨٣) لابن قدامة الى محمد عبد الله بن احمد بن محمد بن قدامة، الناشر مكتبة القاهرة .

(٢) النور : ٤ — ٥ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٣ : ٢٦٤) .

(٤) النور : ٢٣ .

أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ
(اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله ما هن قال الشرك بالله، والسحر، وقتل
النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ،
وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)^(١) .

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٥ : ١٩٨) كتاب الحدود باب رمى المحصنات .

حكمة التشريع

لقد حارب الاسلام جميع الرذائل حتى جعل من الأمة الاسلامية (خير أمة أخرجت للناس) . ومن تلك الجرائم والرذائل التي حاربها جريمة القذف . فإن اتهام الناس بالباطل والوقوع في أعراضهم دون رادع وزاجر يمنعهم من ذلك يجعل المجال فسيحا لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئا بتلك التهمة الشنيعة فتصبح أعراض الأمة الاسلامية مجرحة وسمعتها ملوثة .

لذلك وصيانة للأعراض من التهجم وحماية لأصحابها من إهدار الكرامة وسدا لباب الذين يريدون تلطيخ سمعة الآخرين . شدد في عقوبة القذف فجعلها قرية من عقوبة الزنى (ثمانين جلدة مع اسقاط الشهادة والوصف بالفسق) وغرض الاسلام من هذه العقوبة صيانة الأعراض ، وحفظ الكرامة ، وتطهير المجتمع من مقالة السوء لتظل (الأسرة المسلمة) موفورة الكرامة مصونة الجانب^(١) .

(١) انظر تفسير آيات الأحكام للشيخ محمد علي الصابوني (٢ : ٧٥) .

حد السرقة

السرقة لغة : أخذ المال في خفاء وحيلة (والسارق عند العرب من جاء مستترا إلى حرز فأخذ منه ما ليس له)^(١) .

وفي الشرع (أخذ العاقل البالغ مقدارا من المال خفية من حرز معلوم بدون حق ولا شبهة)^(٢) .

قال تعالى ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءَ بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٣) .

وعموم الآية يقتضى قطع كل سارق إلا أن الفقهاء اشترطوا في القطع شروطا خصصوا بها العموم فمن ذلك من اضطره الجوع إلى السرقة أو سرق من غير حرز ، أو سرق أقل من النصاب .. الخ .

أما ما ذكر في الآية عن توبة السارق فهو أن يندم على ماضى ويقنع فيما يستقبل ويرد ماسرق إلى من يستحقه^(٤) .

(١) لسان العرب (١٠ : ١٥٥) .

(٢) تفسير آيات الأحكام للشيخ الصابوني (١ : ٥٥٣) .

(٣) المائدة : ٣٨ — ٣٩ .

(٤) انظر تفسير التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبى (١ : ١٧٦) .

الحكمة التشريعية

عقوبة السارق (قطع اليد) وهى عقوبة رادعة زاجرة . تقتلع الشر من جذوره فيسود الأمن والاستقرار ويهنا المجتمع بحياة كريمة فيأله من تشريع حكيم وعندما خالف القانون الشريعة فجعل السجن عقابا للسارق ازدادت الجرائم وكثرت العصابات للصوصية وأصبحت تلك الدول مهددة فى أمنها واستقرارها فلا يأمن الانسان على ماله ولا على نفسه .

قال ابن القيم (إن من بعض حكمته سبحانه ورحمته أن شرع العقوبات فى الجنايات الواقعة بين الناس بعضهم على بعض ، فى النفوس والأبدان والأعراض والأموال كالقتل والجرح والقتل والسرقة فأحكم سبحانه وجوه الزجر الرادعة عن هذه الجنايات غاية الاحكام ، وشرعها على أكمل الوجوه المتضمنة لمصلحة الردع والزجر مع عدم المجاوزة لما يستحقه الجانى من الردع ..) .

وإن فى حد السرقة معنى آخر ، وهو أن السرقة تقع من فاعلها سرا كما يقتضيه إسمها . والعازم على السرقة مخفف كاتم خائف أن يشعر بمكانه فيؤخذ به ثم هو مستعد للهرب والخلاص بنفسه إذا أخذ الشيء ، واليدان للانسان كالجنحين للطائر فى إعانته على الطيران ، فعوقب السارق بقطع اليد قصا لجناحه .. وعقوبة السارق بالقطع أبلغ وأردع من عقوبته بالجلد ، ولم تبلغ جنايته حد العقوبة بالقتل فكان أليق العقوبات به إبانة العضو الذى جعله وسيلة إلى أذى الناس وأخذ أموالهم^(١) .

(١) أنظر إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢ : ١١٤ — ١١٥ — ١٢٦) .

حد الحراة

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

وسبب نزول هذه الآية هو ما أخرجه البخارى بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : قدم على النبي ﷺ نفر من عكل فأسلموا فاجتووا (٢) المدينة فأمرهم أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوالها وألبانها ففعلوا فصحوا فارتدوا وقتلوا رعاتها واستاقوا فبعث في آثارهم فأتى بهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل (٣) أعينهم ، ثم لم يحسمهم (٤) حتى ماتوا .

قال ابن حجر : (المعتمد أن الآية نزلت أولاً فيهم وهى تتناول بعمومها من حارب المسلمين بقطع الطريق) (٥) .

قال الرازى : كلمة (أو) هنا ليست للتخير بل هى لبيان أن الأحكام تختلف باختلاف الجنايات ، فمن اقتصر على القتل قتل ، ومن قتل وأخذ المال قتل وصلب ، ومن اقتصر على أخذ المال قطع يده ورجله من خلاف ومن

(١) المائدة : ٣٣ — ٣٤ .

(٢) فاجتووا المدينة : أى أصابهم الجوى وهو المرض وداء الجوف اذا تطاول . لسان العرب (١٤ : ١٥٨) .

(٣) سمل أعينهم : سمل العين فقوؤها — السمل أن تفقأ العين بمديدة عماء . لسان العرب (١١ : ٣٤٧) .

(٤) الحسم : المنع . أى أنه لم يمنع نزيه دمهم وذلك بكويهم بل تركهم ينزفون حتى ماتوا . لسان العرب (١٢ : ١٣٥) .

(٥) فتح البارى (١٥ : ١١٩) .

أخاف السبل ولم يأخذ المال نفى من الأرض . وهذا قول الأكثريين من العلماء وهو
مذهب الشافعي رحمه الله^(١) .

(١) تفسير الرازي (١١ : ٢١٥ — ٢١٦) .

الحكمة التشريعية

لقد حافظ الاسلام على كرامة الانسان . وجعل للاعتداء على النفس أو المال أو العرض وقطع الطريق وإثارة الفزع والخوف بالنهب والقتل أشد العقوبات وأزجرها (القتل ، والصلب ، وتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف والنفسى) كل ذلك حتى ينعم المسلم بالأمن والاستقرار .

قال ابن القيم : ولما كان ضرر المحارب أشد من ضرر السارق وعداوته أعظم ضم إلى قطع يده قطع رجله ليكف عدوانه وشر يده التى يبطش بها . ورجله التى تسعى بها ، وشرع أن يكون ذلك من خلاف لئلا يفوت عليه منفعة الشق بكماله ، فكف ضرره وعدوانه ، ورحمه بأن أبقى له يدا من شق ورجلا من شق^(١) .

(١) اعلام الموقعين عن رب العالمين (٢ : ١٢٦) .

جرمة القتل

قال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعِ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ . فَمَنْ اغْتَدَى بِغَدِّ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ (١) .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ يَبْغُونَكُمْ وَيَبْغُونَكُمْ مِيثَاقَ فِدْيَةٍ مُسَلَّمَةٍ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا . وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ۝ (٢) .

تعتبر جرائم التعدي على النفس من أخطر الجرائم وأهمها في حياة البشر فالاعتداء فيها يقع على الجسد الانساني . وقد يتجاوز الجاني إلى إزهاق الروح . وقد سما القرآن بالانسان لمجرد آدميته قال تعالى ﴿ ولقد كرّمنا بنى آدم ۝ (٣) ﴾ وقال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ۝ (٤) ﴾ .

وعلى قدر ما أعلى الاسلام من قدر الانسان فإنه قد اشتد في النكر على من يتعدى على حياته بغير حق . فجعل الله قتل النفس الواحدة بمثابة قتل الناس جميعا واحياء النفس الواحدة بمثابة إحياء الناس جميعا هكذا في شريعة بنى إسرائيل

(١) البقرة : ١٧٨ .

(٢) النساء : ٩٢ — ٩٣ .

(٣) الاسراء : ٧٠ .

(٤) التين : ٤ .

وليس في شرعنا ما يخالفه . يقول تعالى ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (١) .

ولقد اعتبر القرآن أيضا أن قتل الشخص للآخر هو قتل لنفسه هو حيث إن النفس المسلمة واحدة في الجميع قال تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (٢) .

ولم يأت القرآن بوعيد على المسلم أشد من الوعيد الذي أنذر به قاتل النفس . قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (٣) .

وقد جاءت السنة المطهرة مشددة في قتل المؤمن .

أخرج الترمذى بسنده عن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم) (٤) .

ومن أجل تكريم الاسلام للنفس البشرية من أن يمسه آخر بغير حق كانت شريعة القصاص التى كتبها الله لعباده .

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾ (٥) الآية .

وشريعة القصاص فعالة في سد منافذ الجريمة .

(١) المائدة : ٣٢ .

(٢) النساء : ١٢ .

(٣) النساء : ٩٣ .

(٤) سنن الترمذى (٤ : ١٦) .

(٥) البقرة : ١٧٨ .

قال ابن كثير : (وفي شرع القصاص لكم وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهي بقاء المهج وصونها لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه فكان في ذلك حياة للنفوس وفي الكتب المتقدمة (القتل أنفى للقتل)^(١) فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز ﴿ ولکم فی القصاص حياة یا أولى الألباب ﴾ قال أبو العالية : كم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل^(٢) .

(١) هذا مثل مشهور من كلام فصحاء العرب .

(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٢١١) .

الحكمة التشريعية في إقصاص

القصاص هو جزاء جريمة تعمد الاعتداء على النفس التي حرم الله إلا بالحق وهي من أكبر الجرائم التي نهى الشارع الحكيم عنها .

قال تعالى ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

ذلك لأن الانسان أفضل خلق الله في الأرض ، وأناط به تعمير الكون والرقى به . فحفظ النفس وصيانتها واجب شرعى كما أقرته العقول السليمة منذ بدء الخليقة وارتضته الفطر السليمة وشعرت بفداحة الاعتداء عليه وحرمة منذ بدء الخليقة (٢) .

ولقد كان من حكمة الشريعة الاسلامية أن شرعت القصاص في العمد وجعلته حقا للمجنى عليه أو أوليائه كما قال تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ (٣) .

ثم جعلت أهل القتل بخير النظيرين من استرضاء لنفوسهم وشفاء لما بها من الغيظ والألم ثم حببت إليهم العفو استجلابا لمحبة النفوس وإبقاء على أواصر التآلف بين القلوب وإغلاقا لباب التقاطع والنفرة . فرب قاتل جنى على قريب أو صديق فكادت جريمته تقطع أواصر الالفة بين الأقارب والأصحاب فإذا مكن أولياء المجنى عليه من الأخذ بحقوقهم وأصبحوا بالخيار بين أن يأخذوا بثأرهم أو يعفوا عن الجانى وعلموا مافى العفو من مرضاة الله تعالى رضيت نفوسهم أن يتنازلوا عن

(١) النساء : ٩٣ .

(٢) وذلك ما ذكرته من الآيات من سورة المائدة من آية ٢٧ — ٣١ من حادثة ابني آدم .

(٣) الاسراء : ٣٣ .

القصاص إلى غيره من دية أو دونهما لأن عفوهم حيثئذ من عفو القادرين وهو كما يشفى النفس يدل على سماحة العاق وكرمه ، ثم جعلت في الخطأ الدية على عاقلة الجاني وهم أهله وعشيرته الذين يتعاونون فيما بينهم ويتناصرون عند نزول الخطب .

قال تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

فانه قد جعل تشريع القصاص ظرفا للحياة وهو يفيد أن مجرد شرعيته يتسبب عنها الحياة المثلّي إما بإحياء الجاني إن عفى عنه أو إحياء غيره من الكثيرين الذين ربما لو لم يشرع القصاص من الجاني لأقدموا على الجريمة التي تشيع الفساد في الأرض وتفتح باب الأخذ بالثأر الذي يجبر في ذيله الجاني وغيره ظلما وعدوانا فكان تشريع القصاص حاجزا دون ذلك كله وسبحان العليم الحكيم (٢) .

(١) البقرة : ١٧٩ .

(٢) باختصار من كتاب اثر تطبيق الحدود في المجتمع (القسم الرابع بحث الدكتور عبد السميع امام) طبعة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية المجلس العلمى . وهو من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الاسلامى الذى عقدته الجامعة بالرياض سنة ١٣٩٦ هـ طبعة عام ١٤٠١ هـ .

الفصل الثاني
م حاجة اهل الكتاب و بيان اصفات
التي وصفهم بها القرآن الكريم

الفصل الثاني

بنو إسرائيل

ومن مقاصد السور المدنية الحديث عن أهل الكتاب .

لقد فصل القرآن الكريم الحديث عن بنى إسرائيل تفصيلا وافيا ووصف عقائدهم وأخلاقهم ومواقفهم من الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — وصفا مستفيضا .

ولقد اعتنت الآيات والسور المكية أكثر عناية بذكر قصصهم وأحوالهم المختلفة ومواقفهم مع رسلهم إلى غير ذلك من أحداث سبقت بعثة خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام .

أما الآيات والسور المدنية والتي نحن بصدد الحديث عنها فقد تحدثت عن مواقفهم تجاه الدعوة الإسلامية ، ومحاربتهم لها ، وعما أسبغ الله عليهم من النعم ، وما أنزله الله بهم من النقم ، جزاء كفرهم وإعراضهم عن أوامر ربهم كما تحدثت بالتفصيل عن أخلاقهم وذنابلهم والرد على جميع ما وجهوه من الدعاوى الباطلة . وعن مسالكهم المتنوعة لكيد الإسلام والمسلمين قال الشيخ المراغى : (وأمها ما جاء في السور المدنية قواعد التشريع التفصيلية ومحااجة أهل الكتاب وبيان ما ضلوا فيه من هداية كتبهم ورسلمهم فكثرو فى سورة البقرة محااجة اليهود . وكثرو فى سورة آل عمران محااجة النصارى وكثرو فى سورة المائدة محااجة الفريقين ..) (١) .



(١) تفسير المراغى (١٠ : ٤٦) .

من هم بنو إسرائيل

بنو إسرائيل: نسبة إلى أبيهم إسرائيل وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم - عليهم الصلاة والسلام - وإسرائيل: كلمة عبرانية مركبة من (إسرا) بمعنى عبد أو صفوة، ومن (إيل) وهو الله. فيكون معنى الكلمة عبد الله، أو صفوة الله^(١).

وكان يعقوب يقيم في أرض كنعان (الشام) وقد أنجب من الولد إثني عشر ولدا: يوسف، بنيامين، شمعون، لاوى، رأوبين، يهوذا، يساكر، زبولون، دان، نفتالى، جاد، أشير.

هؤلاء هم أبناء يعقوب عليه السلام المشار إليهم في القرآن بالأسباط قال تعالى، داعيا المؤمنين إلى الايمان بالله والايان بهم وبأنبيائهم:

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾^(٢).

قال صاحب الفتوحات الالهية (الأسباط في بنى إسرائيل كالقبائل في العرب من بنى إسماعيل فأسباط بنى إسرائيل هم قبائلهم . وهذا كله بالنظر إلى أصل اللغة في إطلاق السبط على ولد الولد مطلقا وإلا فالعرف الطارىء خصص السبط بولد البنت والحفيد بولد الابن)^(٣) .أ.هـ .

(١) أنظر كتاب بنو إسرائيل في القرآن والسنة د. محمد سيد طنطاوى (١ : ٦) ط/ الاولى

١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩ م توزيع دار حراء بالقاهرة . وكذلك تفسير القرطبي (١ : ٣٣١) .

(٢) البقرة : ١٣٦ .

(٣) أنظر الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية تأليف سليمان بن عمر العجيل

الشهير بالجمال المتوفى سنة ١٢٠٤ (١ : ١١١) ط/ بمطبعة عيسى البابى الحلبي بمصر .

وتوضيحا لما سبق : المراد بالأسباط : تلك القبائل المتناسلة من هؤلاء
الأبناء الاثنى عشر قال تعالى عنهم ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا
أُمَمًا ﴾ (١) .

وهؤلاء الأبناء الاثنا عشر كانوا جميعا أنبياء دل على ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّا
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّاسِ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى
وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ﴾ (٢) .

أما عن سبب تسميتهم يهود فقد اختلف في ذلك :

(١) قيل إنهم سمو بذلك حين تابوا عن عبادة العجل . وقالوا (إنا هدنا
إليك) (٣) أى تبنا ورجعنا .

قال ابن منظور (اليهود : التوبة ، هاد يهود هوذا وتهود : تاب ورجع إلى
الحق) فهو هائد ... وفى التنزيل العزيز ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاكَ إِلَيْنَا ﴾ أى تبنا
إليك . وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وإبراهيم (٤) .

(٢) وقيل إنهم سمو بذلك لأنهم يتهودون ، أى يتحركون عند قراءة التوراة .

(٣) وقيل إنهم سمو يهودا نسبة إلى (يهوذا) الابن الرابع ليعقوب عليه السلام وقد
رجع بعض العلماء هذا القول . قال البيرونى مؤيدا هذا القول :

(إنما سمو باليهود نسبة إلى يهوذا أحد الاسباط . فإن الملك استقر في
ذريته وابدلت الذال المعجمة دالا مهملة ، لأن العرب كانوا إذا نقلوا أسماء
أعجمية إلى لغتهم غيروا بعض حروفها ...) (٥) .

(١) الاعراف : ١٦٠ .

(٢) النساء : ١٦٣ .

(٣) الاعراف : ١٥٦ .

(٤) لسان العرب لابن منظور (٣ : ٤٣٩) بتصرف ط/دار صادر بيروت .

(٥) تاريخ الملل والنحل (٢ : ٤) للمرحوم الامتاز أمين الخولى . وانظر تفسير القرطبي (١ : ٤٣٢) .

وعن تسمية المسيحيين -- بالنصارى -- وأصل اشتقاقها وسبب تسميتهم بذلك :

فالنصارى : جمع ، واحده نصراني وقيل نصران بإسقاط الياء . وهذا قول سيبويه . والأنتى نصرانة ، كندمان وندمانه . وهو نكرة يعرف بالألف واللام . ولا يستعمل نصران ونصرانة إلا بياء النسب ، لأنهم قالوا : رجل نصراني وامرأة نصرانية . وفي الحديث (فأبواه يهودانه أو ينصرانه)^(١) أ . هـ .

والديانة المسيحية امتداد للديانة اليهودية وكناهما كانتا في بنى اسرائيل ولذا نرى أن المسيح عليه السلام كان يحكم بنى اسرائيل بالتوراة مع الانجيل قال تعالى ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا يَدَيُّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾^(٢) .
على لسان عيسى ابن مريم (عليه السلام) .

قال القرطبي^(٣) : أما سبب التسمية :

(١) فقل نسبة إلى قرية تسمى « ناصرة » كان ينزلها عيسى ابن مريم فنسب إليها فقل : عيسى الناصري ، فلما نسب أصحابه إليه قيل النصارى . قاله ابن عباس وقتادة .

وقال الجوهري : نصران قرية بالشام ينسب إليها النصارى ، ويقال ناصرة .

(٢) وقيل سموا بذلك لنصرة بعضهم بعضا .

(٣) وقيل سموا بذلك لقوله تعالى ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ ﴾^(٤) نحن أنصارُ الله^(٥) .

(١) أنظر لسان العرب (٥ : ٢١١) ، تفسير القرطبي (١ : ٤٣٣) .

(٢) آل عمران : ٥٠ .

(٣) تفسير القرطبي (١ : ٤٣٣ - ٤٣٤) .

(٤) الخواريون : هم أنصار المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، وخاصته الذين استجابوا له ولدعوته .

(٥) آل عمران : ٥٢ .

اليهود وهجرة تهم الى الحجاز

اختلفت آراء المؤرخين حول أصل يهود المدينة المنورة — والحجاز عامة — والمكان الذى هاجروا منه والزمان الذى قدموا فيه ، ولكن أقواها يميل إلى أن بداية نزوحهم من الشام فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد بعد أن نجح الرومان فى السيطرة على سوريا ومصر فى القرن الأول ق.م وعلى اليهود ودولة الأنباط فى القرن الثانى بعد الميلاد مما أدى باليهود إلى الهجرة إلى شبه الجزيرة العربية التى كانت بعيدة عن سيطرة الرومان الذين أفرعهم .

غير أن هجرة اليهود إلى الحجاز اشتدت بعد فشل التمرد اليهودى ضد الرومان والتى أخمدها الامبراطور تيتوس فى عام ٧٠م ، وقد وصل بعض هؤلاء اليهود المهاجرين إلى المدينة (يثرب) كما وصلت مجموعة أخرى من اليهود إلى المدينة (يثرب) بعد فشل ثورة أخرى قاموا بها فى زمان الامبراطور هادريان بين عامى ١٣٢ — ١٣٥م .

وشكل هؤلاء اليهود الجالية اليهودية فى المدينة والحجاز^(١) .

ولاشك أن المجتمع المدنى تأثر باليهود اقتصاديا وسياسيا وفكريا .

لقد حملوا معهم خبراتهم الزراعية والصناعية والعمراية مما أثر فى ازدهار بساتين المدينة حيث النخيل والأعناب والرمال واشتغلوا بتربية المواشى والدواجن وبرزت صناعات عديدة يدوية فكانت نساؤهم يشتغلن بنسج الأقمشة ومن أهم الصناعات التى اشتهروا بها صناعة الصباغة واشتهر منهم بنو قينقاع حتى لقد عرف سوق خاص باسمهم . كما كانوا يزاولون صناعة السيوف والدروع وسائر الآلات الحربية .

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام (٦ : ٥١٣ — ٥١٤) بتصرف ، د. جواد على ، ط/ بيروت ١٩٦٨م .

وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على المراهنات وتعاطى الربا وكان لهم من طبيعة منطقة المدينة الزراعية فرصة إلى ذلك . لأن الزراع عادة يحتاجون إلى اقتراض الأموال لحين الحصاد وقد ويخهم القرآن الكريم على أخذهم الربا الذى نهاهم الله عن أخذه فقال تعالى ﴿ فَيُظْلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ، وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١) .

وقد ترتب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصادية فى المدينة وضواحيها أن قوي نفوذهم المالى ، وصاروا يتحكمون فى الاسواق تحكمًا فاحشًا ، ويحتكرونها لمصلحتهم ومنفعتهم . ولقد أقام اليهود مساكن خاصة بهم تمتاز بعزلتها ومتانتها . ومن تلك المساكن الآطام حيث بلغ عددها فى يرب تسعا وخمسين اطمًا (٢) . وقد أقاموها ليتحصنوا فيها عند الاخطار وليدافعوا عن أنفسهم من ورائها (٣) .

قال شاعرهم فيها :

وَأَطَامُنَا عَالِيَةً مُشْمَخِرَةً تلوح فتنكى من نعاذى وتنع (٤)
وقد أخبر عن ذلك القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ لَا يَقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ﴾ (٥) .

(١) النساء : ١٦١ — ١٦٢ .

(٢) وفاء الوفاء للسهمودى (١ : ١٦٥) .

(٣) قال الشهرستانى صاحب الملل والنحل (٣ : ١١ — ١٢) : وإنما بنى اسلافهم الحصون والقلاع بقرب المدينة لنصرة رسول آخر الزمان فامروهم بمهاجرة أوطانهم بالشام الى تلك القلاع والبقاع حتى اذا ظهر واعلن الحق بعد أن هاجروا إلى يرب هجره وتركوا نصره . وذلك قوله تعالى ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾

(٤) وفاء الوفاء للسهمودى (١ : ١٦٣) .

(٥) الحشر : ١٤ .

أحوالهم الدينية وكتبهم المقدسة :

وقد كان لليهود الذين سكنوا جزيرة العرب مدارس يتدارسون فيها أمور دينهم وأحكام شريعتهم كما كانت لهم أماكن خاصة يقيمون فيها عباداتهم وشعائر دينهم وكانت هذه الأماكن تسمى (المدراس) أى المكان الذى تدرس فيه نصوص التوراة وأمور الشريعة . وكذلك كانت تلك الأماكن ، المكان الذى يجتمع فيه اليهود لتبادل المشورة فى سائر أحوالهم الدينية والدنيوية . وقد يراد منه كبير اليهود الذى يعلمهم شريعتهم .

وقد جاءت الأخبار الصحيحة بأن الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة كان يذهب إلى (مدراسهم) ليدعوهم إلى الاسلام ويحذرهم من الكفر به فقد أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (بينما نحن فى المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : انطلقوا إلى يهود . فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس^(١) فقام النبی ﷺ فناداهم يامعشر يهود أسلموا تسلموا ، فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم ، فقال ذلك أريد ، ثم قالها الثانية فقالوا : قد بلغت يا أبا القاسم ، ثم قال الثالثة فقال اعلمو أن الأرض لله ورسوله وأنى أريد أن أجليكم فمن وجد منكم بماله شيئاً فليعه ، والا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله)^(٢) .

وقد كانت لليهود تشريعاتهم ونظمهم الخاصة بهم فيما يتعلق بالذبائح ، والقصاص ، والميراث ، والختان ، والنكاح ، وما يخص المرأة وغيرها من التشريعات التى بعضها أخذوه عن كتبهم وبعضها وضعه لهم كهانهم وأخبارهم من عند أنفسهم بما يلائم أهواءهم .

ولنضرب مثلاً عن بعض تشريعاتهم الخاصة بهم . أخرج مسلم فى

(١) المدراس : بكسر الميم وآخره مهملة مفعول من الدرس . والمراد به كبير اليهود ، ونسب البيت إليه لأنه هو الذى كان صاحب دراسة كتبهم أى قراءتها . وفسره بعضهم بالبيت الذى تقرأ فيه التوراة . فتح البارى لابن حجر (١٥ : ٣٥٠) .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٥ : ٣٥٠) كتاب الاكراه .

صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت — أى لم يخالطوهن ولم يسكنوهن في بيت واحد — فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ . إِنْ اللَّائِي يَحِبُّ التَّوَائِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (١) .

فقال رسول الله ﷺ (اصنعوا كل شيء إلا النكاح) .

فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه فجاء أسيد بن حضير ، وعبادة بن بشر فقالا : يا رسول الله تقول كذا وكذا أفلا نجامعهن ؟ فتغير وجه النبي ﷺ حتى ظننا أن قد وجد (٢) عليهما فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاها فعرفا أنه لم يجد عليهما (٣) .

وكانت لليهود أعيادهم الخاصة بهم . كما كانت لهم معينة يصومونها كيوم عاشوراء .

أخرج الامام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود صياما يوم عاشوراء . فقال لهم رسول الله ﷺ (ماهذا اليوم الذى تصومونه ؟) فقالوا: هذا يوم عظيم. أنجى الله فيه موسى وقومه وغرق فرعون وقومه فصامه موسى شكرا . فنحن نصومه. فقال رسول الله ﷺ (فنحن أحق وأولى بموسى منكم) فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصيامه (٤)

(١) البقرة : ٢٢٢ .

(٢) (قد وجد عليهما) أى غضب عليهما . ولم يجد عليهما أى لم يفضب . لسان العرب

(٣ : ٤٤٦) .

(٣) صحيح مسلم بتحقيق الاستاذ محمد فؤاد عبد الباقي (١ : ٢٤٦) — كتاب الحيض

(٤) صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٢ : ٧٩٦) باب صوم يوم عاشوراء .

هذه نبذة مختصرة عن أحوال اليهود في المدينة حيث كانوا يسكنون أما النصارى فكانوا يسكنون في نجران في جنوب الجزيرة العربية في نحو ثلاث وسبعين قرية^(١) .

وكان أهل نجران أعظم النصارى في عيسى قولا فكانوا يجادلون النبي ﷺ فيه .

أخرج الطبري بسنده عن ابن عباس قوله ﴿ إِنْ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(٢) وذلك أن رهطا من أهل نجران ، قدموا على محمد ﷺ وكان فيهم السيد والعاقب فقالوا لمحمد : ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ فقال : من هو ؟ قالوا : عيسى تزعم أنه عبد الله . فقال محمد : أجل إنه عبد الله ، قالوا له : فهل رأيت مثل عيسى ، أو أنبت به ؟ ثم خرجوا من عنده ، فجاءه جبريل بأمر ربنا السميع العليم فقال : قل لهم : إذا أتوك (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) .. إلى آخر الآية^(٣) . إلى قوله ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَلْفُسَنَا وَأَلْفُسَكُمْ ثُمَّ تَبَتَّلْ فَنَجْعَلَ لَعْنَةً اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾^(٤) .

وقوله (تبتل) أى نتضرع في الدعاء . وأصل الابتهال الاجتهاد في الدعاء باللعن وحكى أبو عبيدة : بهله الله يبهله بهلة أى لعنة^(٥) .

قال القرطبي : (هذه الآية من أعلام نبوة محمد ﷺ لأنه دعاهم إلى المباحلة فأبوا منها ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كبيرهم العاقب أنهم إن باهلوهم

(١) أنظر البداية والنهاية (٥ : ٥٤) .

(٢) آل عمران : ٥٩ .

(٣) تفسير الطبري (٣ : ٢٩٥) وأنظر البداية والنهاية لابن كثير (٥ : ٥٢ — ٥٥) .

(٤) آل عمران : ٦١ .

(٥) أنظر تفسير القرطبي (٣ : ١٠٤) .

اضطرم عليهم الوادى نارا فإن محمدا نبى مرسل ، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل
فى أمر عيسى ، فتركوا المباهلة وانصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدوا كل عام ألف حلة
فى صفر وألف حلة فى رجب فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك بدلا من
الاسلام^(١) . ١. هـ .

ولاشك أن العقيدة التى شرعها عيسى عليه السلام هى عقيدة التوحيد .
قال الشيخ محمد أبوزهره^(٢) : (ينص القرآن الكريم على أن عقيدة المسيح هى
التوحيد الكامل بكل شعبه ، التوحيد فى العبادة ، فلا يعبد إلا الله . والتوحيد فى
التكوين لخالق السماء والأرض وما بينهما هو الله وحده لا شريك له التوحيد فى
الذات والصفات فليست ذاته مركبة وهى منزهة عن مشابهة الحوادث سبحانه
وتعالى .

فالقرآن يثبت أن عيسى ما دعا إلا إلى التوحيد الكامل وهذا ما يقوله الله
تعالى عما يكون من عيسى يوم القيامة من مجاوبة بينه وبين ربه .

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ
الْهَيْمَنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ
كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ
الْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٣)

(١) تفسير القرطبى (٣ : ١٠٤) .

(٢) محاضرات فى النصرانية (ص ١٢ — ١٣) للأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة . ط / الرابعة ١٣٩٢ هـ طبع

ونشر دار الفكر العربى .

(٣) المائدة (١١٦ — ١١٧) .

صفات بني إسرائيل كما تحدث عنها القرآن الكريم

لقد سجل القرآن الكريم في آياته وسوره الكريمة وبالأخص المدنية منها كثيرا من أخلاق بني اسرائيل السيئة وطباعهم القبيحة ونواياهم الخبيثة .

فقد وصفهم بنقضهم للعهد والمواثيق ، وبالكفر والجحود والأنانية والغرور ، والجبن والكذب والخداع وانحراف الطباع ، وقسوة القلب والعصيان والتعدي وأكل أموال الناس بالباطل ، والمساورة في الاثم والعدوان .. إلى غير ذلك من الرذائل والصفات الممقوتة والقبيحة التي سطرها القرآن الكريم . واستحقوا الطرد بسببها من رحمة الله .

إن هذه الصفات الدميمة التي سطرها القرآن الكريم يراها ويلمسها البشر واضحة جلية فيهم على مر السنين والدهور وعصرنا الحاضر خير شاهد على رسوخها فيهم وتمكنها منهم . وسوف أذكر بعضها على وجه الاجمال ثم أتحدث عنها تفصيلا فيما سيأتى إن شاء الله .

أولا : سوء أديهم مع الله ، وعداوتهم للملائكة ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونبذهم لكتاب الله واتباعهم السحر .

ثانيا : تحريفهم للكلم عن مواضعه ، وتحايلهم على استحلال محارم الله .

ثالثا : نقضهم العهود ، وجحودهم الحق .

رابعا : تنطعهم في الدين وإلحافهم في المسألة .

خامسا : حرصهم على الحياة وجبنهم عند الجهاد .

أولا : سوء أدبهم مع خالقهم جل وعلا — وعداوتهم للملائكة
وقتلهم لأنبيائه ، ونبذهم لكتاب الله واتباعهم السحر .

قال تعالى ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ،
سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ . وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَلِكَ
بِمَا قَدَّمْتُمْ أُيْدِيكُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (١) .

أخرج الطبري وابن اسحاق عن ابن عباس رضى الله عنهما قال دخل
أبو بكر الصديق رضى الله عنه بيت المدراس فوجد من يهود ناسا كثيرا قد
اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فنحاص ، كان من علمائهم وأجبارهم ومعه حبر
يقال له : اشيع ، فقال أبو بكر رضى الله عنه لفنحاص : ويحك
يا فنحاص ، اتق الله واسلم ، فو الله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله ، قد جاءكم
بالحق من عند الله ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والانجيل . قال فنحاص :
والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع
إلينا وإننا عنه لأغنياء ، ولو كان غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم . ينهاكم عن
الربا ويعطينا . ولو كان غنيا ما أعطانا الربا فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فنحاص
ضربة شديدة . وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت
عنقك يا عدو الله ، فاكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين فذهب فنحاص إلى
رسول الله ﷺ فقال : يا محمد انظر ما صنع بى صاحبك ، فقال رسول الله ﷺ
لأبى بكر ما حملك على ما صنعت ؟ فقال يا رسول الله إن عدو الله قال قولا عظيما ،
زعم أن الله فقير ، وأنهم عنه أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت
وجهه . فجحذ ذلك فنحاص ، وقال : ما قلت ذلك ، فأنزله الله تبارك وتعالى
فيما قال فنحاص ردا عليه وتصديقا لأبى بكر ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ الآية (٢) .

(١) آل عمران : ١٨١ — ١٨٢ .

(٢) تفسير الطبري (٤ : ١٩٤) .

فهذا الأثر يدل على أن اليهود كانوا يتهكمون على القرآن الكريم عندما يحض الناس على البذل والعطاء والجود والسخاء والاتفاق في سبيل الله — ويصفون الله عز وجل — بما هو منزّه عنه ويحاولون بشتى الطرق تحريض المؤمنين على الشح وعدم الاتفاق لتشكيكهم في دينهم ، وصرفهم عن الاستجابة لكتاب ربهم وسنة نبينهم . وليس هذا القول القبيح غريبا على اليهود . فقد سجل القرآن الكريم أمثال ذلك قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ قال ابن عباس (مغلوله) أى بخيلة . فهم لا يعنون أن يد الله موثوقة ولكن يقولون بخيل . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً^(١) .

ومن جملة إساءتهم مع الله عز وجل (نسبة الابن إلى الله) وقالوا أنهم هم أبناء الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُل فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾^(٢) .

أخرج ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ نعمان ابن أضا وبحرى بن عمرو وشاس بن عدى فكلّموه فكلّمهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا ما نخوفنا يا محمد ، نحن والله أبناء الله وأحباؤه كقول النصارى فأنزل الله عز وجل فيهم ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾^(٣) .

قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَسَى يُوَفُّكَونَ ائْتَحَدُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ

(١) انظر تفسير ابن كثير (٢ : ٧٥) .

(٢) المائدة : ١٨ .

(٣) تفسير ابن جرير الطبرى (٦ : ١٦٤) . انظر تفسير ابن كثير (٢ : ٣٥) .

وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مُبْحَاثُهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١﴾ .

أخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضى الله عنهما — أنه قال أتى رسول الله ﷺ (سلام بن مشكم ، ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس ، ومالك ابن الصيف) فقالوا : كيف تتبعك يا محمد ، وقد تركت قبلتنا وأنت تزعم أن عزيزاً ليس ابن الله ، فأنزل الله في ذلك قولهم ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ (٢) . الآية .

وقال تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ . إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٣) .

فقله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ ﴾ التقدير : وَلَا تَقُولُوا هُوَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ . فحذف المبتدأ والمضاف .

والنصارى مع فرقهم مجمعون على التثليث ويقولون : إن الله جوهر واحد وله ثلاثة أقانيم فيجعلون كل أقنيم إلهًا ويعنون بالأقانيم الوجود والحياة، والعلم. وربما يعبرون عن الأقانيم بالاب والابن وروح القدس .. ومحصول كلامهم يؤول إلى التمسك بأن عيسى إنه بما كان يجريه سبحانه وتعالى على يده من خوارق العادات على حسب دواعيه وإرادته وقالوا قد علمنا خروج هذه الأمور عن مقدور البشر . فينبغي أن

(١) التوبة : ٣٠ — ٣٣ .

(٢) تفسير الطبري (١٠ : ١١٠) .

(٣) النساء : ١٧١ .

يكون المقتدر عليها موصوفا بالإلهية^(١) .

وقد رد الله عليهم بقوله ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .

وقال تعالى ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٢) .

فقوله تعالى (ثالث ثلاثة) أى أحد ثلاثة . ولا يجوز فيه التنوين .

وهذا قول فرق النصارى من الملكية والنسطورية واليعقوبية لأنهم يقولون أب وابن وروح القدس إله واحد . ولا يقولون ثلاثة آلهة وهو معنى مذهبهم ، وإنما يمتنعون من العبارة وهى لازمة لهم .

فأكفرهم الله بقولهم هذا وقال (وما من إله إلا إله واحد) أى أن الإله لا يتعدد وهو يلزمهم القول بثلاثة آلهة كما تقدم وإن لم يصرحوا بذلك لفظاً^(٣) .

ثم توالى الآيات الكريمة تبين لهم حقيقة الأمر وأن المسيح عليه السلام رسول من عند الله وإن ظهرت الآيات على يديه فإنما جاء بها كما جاءت بها الرسل . فإن كان إلهها فليكن كل رسول إلهها . فهذا رد لقولهم واحتجاج عليهم .

وأنه عليه السلام مولود مربوب ، ومن ولدته النساء وكان يأكل الطعام مخلوق محدث كسائر المخلوقين . وقال بعض المفسرين (كانا يأكلان الطعام) إنه كناية عن الغائط والبول . وفى هذا دلالة على أنهما بشران^(٤) .

(١) أنظر تفسير القرطبي (٦ : ٢٣) .

(٢) المائدة : ٧٣ — ٧٤ .

(٣) تفسير القرطبي (٦ : ٢٤٩ — ٢٥٠) .

(٤) أنظر تفسير القرطبي (٦ : ٢٥٠) .

قال تعالى : ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (١) .

وخلاصة القول أن أهل الكتاب أساءوا الأدب مع الحق سبحانه وتعالى حيث نسبوه للفقر وقالوا إنه فقير ونحن أغنياء ، وقالوا إنه ثالث ثلاثة ، وأنكروا الحق الذى جاء به الرسول ﷺ ونسبوا الولد إلى الله فقال اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله .

وعن عداوتهم للملائكة . قال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ . قال الامام أبو جعفر الطبرى رحمه الله أجمع أهل العلم بالتأويل أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بنى إسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولى لهم (٢) .

أخرج البخارى بسنده عن أنس بن مالك قال : سمع عبد الله بن سلام بقدم رسول الله ﷺ وهو فى أرض يخترق فألقى النبى ﷺ فقال : إني أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى فما أول أشرار الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : أخبرنى بهن جبريل آنفا قال : جبريل ؟ قال نعم قال ذاك عدو اليهود من الملائكة . فقرأ هذه الآية . (قل من كان عدوًّا لجبريل ...) . الحديث (٣) .

وأخرج الامام أحمد عن ابن عباس (أن اليهود بعد أن سألوا النبى ﷺ أسئلة أجابهم عنها ، قالوا صدقت فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك قال ولى جبريل ، ولم يبعث الله نبيا قط إلا هو وليه .

(١) المائدة : ٧٥ .

(٢) تفسير الطبرى (١ : ٤٣١) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٩ : ٢٣٢) كتاب التفسير .

قالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك سواه من الملائكة لتابعناك
وصدقناك قال : فما يمنعكم أن تصدقوه ؟ قالوا إنه عدونا . فأنزل الله قوله ﴿ قُلْ
مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ ﴾ الآيات (١) .

حقا إنها صفة عجيبة من صفات اليهود وهى عداوتهم للملك من ملائكة الله
وهو من الملائكة المقربين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .
أما عن قتلهم لأنبياء الله ..

قال تعالى : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا
عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ
وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ
خَطِطْتُ أَعْمَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٣) .

اشتملت الآياتان الكريمتان على صفتين قبيحتين لبنى إسرائيل .
الصفة الأولى : هى كفرهم بآيات الله التنزيلية والكونية .

الصفة الثانية : هى قتلهم النبيين بغير حق . وهذا قد تكرر منهم فى
مختلف الأزمنة والعصور وقد أزهقت أرواح الكثير من أنبيائهم استهتاراً بمقام النبوة
وذلك بسبب عمى بصيرتهم وعتوهم واستكبارهم .

وكان قد صدر هذا القتل منهم (بغير حق) فليس هناك أى مُبرر
يحملهم على ارتكاب مثل هذا الجرم الشنيع . وقد ارتكبوا ذلك مع
علمهم أنهم على الباطل . وهذا هو غاية الكبر .

(١) مسند الامام أحمد (١ : ٢٧٨) .

(٢) البقرة : ٦١ .

(٣) آل عمران : ٢١ ، ٢٢ .

أخرج ابن جرير الطبري رحمه الله بسنده عن أبي عبيدة الجراح قال : قلت يا رسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامة ؟ قال : رجل قتل نبيا . أو رجل أمر بالمنكر ونهى عن المعروف ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بَعِيرَ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ إلى أن انتهى إلى (وما لهم من ناصرين) ثم قال ﷺ : يا أبا عبيدة قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار في ساعة واحدة . فقام مائة واثنا عشر رجلا من عباد بنى اسرائيل فأمرؤا من قتلهم بالمعروف ونهؤهم عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار في ذلك اليوم وهم الذين ذكر الله عز وجل .

وقوله تعالى (فبشرهم بعذاب أليم) أى موجه مهين^(١) .

أما ما جاء من الذكر الحكيم في نبذهم لكتاب الله وإتباعهم السحر . فقال تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَشَرٌ مِنْ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ كَاتِبٌ لَا يَعْلَمُونَ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرُ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِإِبْلِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَعْلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يَفْرُقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْلَمُونَ مَا يَصْرِفُهُمْ وَلَا يَتَنَفَّهَهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾^(٢) .

تشير هذه الآية الكريمة إلى أن اليهود لهم جذورهم في التاريخ حيث تعلموا من قديم السحر وعلموه الناس ليفتنوهم عن دين الله ونبذوا كتاب الله وتعاليمه وما جاءهم به أنبياءهم وراء ظهورهم وهلكوا وأهلكوا غيرهم ممن اتبعهم من الناس بتعليمهم وتعليمهم السحر .

(١) تفسير الطبري (٣ : ٢٦٦) ، تفسير ابن كثير (١ : ٣٥٥) .

(٢) البقرة : ١٠١ — ١٠٢ .

ثانيا : تحريفهم للكلم عن مواضعه وتحاييلهم على استحلال محارم الله

من أشنع صفات بنى إسرائيل التى كررها القرآن الكريم وويخهم عليها
ووعدهم بالويل والعذاب الأليم هى تحريفهم للكلم عن مواضعه . وحمله على غير
وجهه الصحيح . وإنما حملهم على ذلك قسوة قلوبهم ، وجشعهم وحجبهم لحطام
الدنيا وعمى بصيرتهم .

قال تعالى ﴿ أَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ
كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا
قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضَمِهِمْ إِلَى بَعْضِ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا
يُعْلِنُونَ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . فَوَيْلٌ
لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (١) . صدق الله
العظيم .

فقله تعالى ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴾ .

قال ابن كثير : (قال السدى : هى التوراة حرفوها . وقد اختاره ابن
جرير . وقال مجاهد الذين يحرفونه والذين يكتُمونه هم العلماء . وقال أبو العالية :
عمدوا إلى ما أنزل الله فى كتبهم من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه ..
حرفوا التوراة التى أنزلها الله عليهم يجعلون الحلال فيها حراما والحرام حلالا . والحق
فيها باطلا والباطل فيها حقا (٢) .

(١) البقرة : ٧٥ — ٧٩ .

(٢) أنظر تفسير ابن كثير (١ : ١١٥) .

قلت : والسنة المطهرة قد روت لنا الكثير من تحريفهم لكتبهم بما يناسب أهواءهم . أخرج البخارى بسنده عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال لهم : كيف تفعلون بمن زنى منكم : قالوا : نحممهما^(١) ونضربهما فقال : ألا تجدون فى التوراة الرجم ؟ فقالوا : لا نجد فيها شيئا . فقال لهم عبد الله بن سلام : كذبتم فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فوضع مدراسها الذى يدرسها منهم كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم ، فنزع يده عن آية الرجم فقال : ما هذه ؟ فلما رأوا ذلك قالوا : هى آية الرجم فأمر بهما فرجما قريبا من حيث موضع الجنائز عند المسجد . فرأيت صاحبها يحنأ^(٢) عليها يقبها الحجارة^(٣) .

ونختم حديثنا بقوله تعالى فى سورة النساء حيث صرحت الآية الكريمة بتحريفهم للكلم عن مواضعه وبإساءتهم للنبي ﷺ بلسان حالهم ومقالمهم . قال تعالى ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَزَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَفْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾^(٤) .

فقوله تعالى عن اليهود (يحرفون الكلم عن مواضعه) أى يتأولونه على غير تأويله ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل قصدا منهم وافتراء (ويقولون سمعنا) أى سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه (واسمع غير مسمع) أى اسمع ما نقول لا سمعت . وهذا استهزاء منهم واستهتار عليهم لعنة الله^(٥) .

(١) نحممهما — تحميم الوجه : أى يصب عليه ماء حار مخلوط بالرماد والمراد تسخيم الوجه بالحميم وهو الفحم وفى رواية أخرى للبخارى (تحميم الوجه والتجبية) والمراد بالتجبية : من جهة الرجل إذا قابلته بما يكره من الأغلاظ فى القول والفعل .. وقال عياض فسر التجبية فى الحديث بانهما يجلدان ويحمم وجوههما ويحملان على دابة مخالفا بين وجوههما . فتح البارى (١٥ : ١٤٠) .

(٢) يحنأ : جنأ عليه جنوا أو جانأ عليه وتجانأ عليه . اكب وفى الحديث فجعل الرجل يحنأ عليها أى يكب ويميل عليها ليقبها الحجارة . لسان العرب (١ : ٥٠) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٩ : ٢٩٢) كتاب التفسير .

(٤) النساء : ٤٦ . (٥) أنظر تفسير ابن كثير (١ : ٥٠٧) .

ثالثاً : نقضهم العهود وجحودهم الحق

ان من أبرز صفات اليهود التى اشتهروا بها منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا هى نقضهم العهود والمواثيق وجحودهم للحق . وقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم تحدثنا عن هذه الخصلة الذميمة التى أصبحت طبيعة فيهم .

فقد أخذ الله عز وجل عليهم كثيراً من المواثيق على لسان أنبيائه ورسله ولكنهم نقضوها وعاهدتهم صلوات الله وسلامه عليه مرات كثيرة فكانوا ينقضون عهدهم فى كل مرة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَذَى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (١) .

فقد أخذ العهد عليهم بألا يعبدوا سوى الله وأن يحسنوا إلى آبائهم وبإداء جميع الحقوق لنحوهم وكذلك الاحسان إلى ذى القربى واليتامى والمساكين ومخاطبة الناس بالحسنى بما فيه صلاحهم ونفعهم وكذلك المحافظة على فريضة الصلاة وإيتاء الزكاة ولكنهم نقضوا عهدهم إلا قليلا منهم حافظوا على ذلك العهد .

وهناك نوع آخر من الميثاق الذى أخذ عليهم ولم يحافظوا عليه فكان عقابهم الخزى فى الدنيا والعذاب الشديد فى الآخرة .

قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ . ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ

(١) القرءة : ٨٣ .

الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِعَافٍ لِمَنْ تَعْمَلُونَ .
أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١﴾ .

وخلاصة الميثاق الذى أخذ عليهم : هو عدم التعرض لبعضهم البعض بالقتل . وألا يخرج أحدهم الآخر من مسكنه وإذا وقع أحدهم فى الأسر فادوه وبذلوا أموالهم لفدائه وأقروا العهد وشهدوا على الوفاء به والالتزام بما جاء فيه . ولكنهم خرجوا على تعاليم التوراة فنقضوا عهدهم وأراق بعضهم دماء بعض وأخرجوا إخوانهم فى الملة والدم من ديارهم ظلما وعدوانا إذ أنه لما نشبت الحرب بين الأوس والخزرج انضمت بنو قريظة إلى الأولى وانضمت بنو قينقاع وبنو النضير إلى الخزرج وصارت كل قبيلة تقاتل الأخرى مع حلفائها . ومع ذلك إذا وقع إخوانهم الذين قاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم فى الأسر فادوهم . فقال تعالى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) إن هذا التفريق بين أحكام الله جزاء فاعله الهوان فى الدنيا والعذاب الأليم الشديد فى الآخرة .

تلك هى بعض العهود التى نقضوها مع الله عز وجل . ومع أنبيائه عليهم السلام فلما بعث النبى ﷺ الذى يعرفونه كما يعرفون أبناءهم كفروا به ونقضوا عهودهم معه فى كل مرة وحاربوه بكل وسيلة لذلك حذر الله تعالى نبيه ﷺ من اليهود المعاصرين له والذين ورثوا رذائل آبائهم ونقضهم لعهودهم وغدرهم وخيانتهم وانحرافهم عن الطريق المستقيم . لذلك لعنهم الله وطردهم من رحمته وجعل قلوبهم قاسية وهى فى قساوتها أشد من الحجارة^(٢) .

قال تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَّخِذُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ﴾^(٣) .

(١) البقرة : ٨٤ — ٨٦ .

(٢) أنظر بنو إسرائيل فى القرآن والسنة ، د. محمد سيد طنطاوى (٢ : ٤٣٩) .

(٣) البقرة : ٧٤ .

قال تعالى ﴿ فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ . وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ فَاغْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

أما عن جحودهم للحق : فقد تكرر في القرآن هذا الوصف الذميمة وهو جحودهم الحق عن معرفة وعلم ونكتفى بهذه الآية الكريمة :

قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ . بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِثْنَا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

قال أبو العالية : كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركى العرب يقولون : اللهم ابعث هذا النبى الذى نجده مكتوبا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم . فلما بعث الله محمداً ﷺ ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ ، فقال الله تعالى ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ (٢) .

وأخرج محمد بن إسحق بسنده عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ماكانوا يقولون فيه . فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء يامعشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل الشرك وتخبرونا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته فقال سلام بن مشكم اخو بنى النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه وماهو الذى كنا نذكر لكم (٣) .

(١) المائدة : ١٣ .

(٢) تفسير ابن كثير (١ : ١٢٤) .

(٣) نفس المرجع السابق .

رابعاً : تنطعمهم في الدين وإلحافهم في المسألة

ومن الصفات الذميمة التي اشتهرت في بنى إسرائيل تنطعمهم في الدين . ومحاولتهم تضيق ماوسعه الله عليهم . وتهربهم من الانصياع لكلمة الحق وتشككهم في صدق أنبيائه وتعنتهم في السؤال . إما للتحلل من الامتثال وإما لانطماس بصيرتهم عن فهم مقاصد الشريعة وقصة أمرهم بذبح بقرة على لسان نبيهم موسى عليه السلام خير دليل على ما وصفهم الله به من رذائل ومن فسوق عن أمر ربه ، وسوء تقبل لنعم خالقهم^(١) .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ؟ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قَالُوا اذْغُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ؟ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ . قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَهَا ؟ قَالَ أَنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقْعَ لونها تسر الناظرين قَالُوا اذْغُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ؟ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْنَا بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ . وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُرِيكُم آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ .

وتؤخذ من القصة العبر والعظات الآتية :

- (١) دلالتها على ماجبل عليه بنو اسرائيل من فظاظة وغلظة وسوء أدب مع مرشديهم واحفاء في الأسئلة بلا موجب ، وعدم الاستعداد للتسليم بما يأتيهم به رسلهم .

(١) انظر بنو اسرائيل في القرآن والسنة د. محمد سيد طنطاوى (٢ : ١٦٧) .

(٢) الآيات من ٦٧ — ٧٣ سورة البقرة .

(٢) دلالتها على صدق النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه فقد أخبر عن هذه القصة الواقعية التي لم يشاهد حوادثها بما أوحاه الله إليه وهذا الاخبار من أعلام نبوته ﷺ كما أنها تدل على صدق نبوة موسى عليه السلام وأنه رسول من رب العالمين .

(٣) دلالتها على أن التنطع في الدين والالحاف في المسألة يؤديان إلى التشديد في الأحكام لأن بنى اسرائيل لو أنهم من أول الأمر عمدوا إلى ذبح أية بقرة لأجزأتهم . ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم .

(٤) دلالتها على قدرة الله تعالى في إحياء الميت . وصدق تعالى حيث يقول ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِنَعْصِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّبُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَيَرْيِكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

(١) انظر كتاب (بنو اسرائيل في القرآن والسنة) د. محمد سيد طنطاوى (ص ١٨٧ — ١٨٩) .

خامسا : حرصهم على الحياة وجنبهم عن الجهاد

ومن الصفات الممقوتة التي جبل عليها بنو إسرائيل في كل مكان وزمان هي تهالكهم على الدنيا وحرصهم على الحياة مما أدى بهم هذا الحب الشديد للحياة إلى الجبن والهلع . والاعتذار عن القتال بشتى أنواع وألوان المعاذير وقد صورها القرآن في آياته الكريمة . قال تعالى :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْخِزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

يخبر تعالى نبيه ﷺ عن اليهود بأنهم أحرص الناس والمراد بالناس جميعهم على (حياة) وتكبر سبحانه الحياة التي يحرصون عليها زيادة في تحقيرهم تلك الحياة التي يضحون من أجلها بدينهم وكرامتهم حتى إنهم أحرص عليها حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث . وهم في حرصهم هذا على الحياة يتمنون أن تطول أعمارهم دهورا طويلة (يود أحدهم لو يعمر الف سنة) ثم بين سبحانه أن تعميرهم الطويل لن ينجيهم من العقوبة لأن الموت لن يتركهم مهما طال عمرهم . ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ تهديد ووعيد لهم وأن الله سيجازيهم عن كل ذلك بما يستحقون (٢) .

وقد أشار القرآن الكريم إلى جنبهم قال تعالى :

﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي فُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

المعنى الاجمالى للآية : يخبر تعالى عن اليهود الجبناء أنه من شدة هلعهم لا يقدرّون على قتال المسلمين إلا إذا كانوا متحصنين في قلاعهم وحصونهم وخنادقهم لفرط جنبهم . (بأسهم بينهم شديد) أى عداوتهم فيما بينهم شديدة ﴿تحسبهم جميعا

(١) البقرة : ٩٦ .

(٢) انظر بنو إسرائيل في القرآن والسنة (٢ : ١١٤) .

وقلوبهم شتى ﴿ أى تظنهم مجتمعين على أمر ورأى وهم مختلفون غاية الاختلاف .
قال قتادة : أهل الباطل مختلفة آراؤهم . مختلفة أهواؤهم مختلفة شهاداتهم
وهم مجتمعون فى عدواة أهل الحق ^(١) .

وهم فى خوفهم وجبنهم هذا ضاهوا آباءهم وأجدادهم عندما أمرهم نبيهم
موسى عليه السلام بأن يدخلوا الأرض المقدسة ^(٢) فأجابوه : بأن فيها قوما جبارين
وأنهم لا يدخلونها حتى يخرج منها أهلها . وقالوا له إنهم لا يدخلونها ما داموا فيها
وقالوا له : ﴿ فَأَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ .

واليك بيان الآيات الكريمة :

﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى
أَذْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ . قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن لَدْخُلُهَا حَتَّى
يَخْرُجُوا مِنْهَا . فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَأِنَّا دَاخِلُونَ . قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ
اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ إِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ
فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن لَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَأَذْهَبَ
أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ . قَالَ رَبِّ لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَجْسِي
فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . قَالَ فَإِنَّهَا مُخِرمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ
فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ ^(٣) .

فتلك الآيات الكريمة تصور لنا ما فطر عليه بنو إسرائيل من جبن شديد
وعزيمة خواراة وعصيان لرسولهم . وإيثار للذل مع الراحة على العزة مع الجهاد .

(١) انظر تفسير القرطبي (١٨ : ٣٥) .

(٢) اختلف بالمراد منها قيل هى اريحاء ، وقيل الشام ، وقيل الطور وقيل فلسطين . وقال ابن جرير الطبرى
(واولى الأقوال فى ذلك بالصواب ان يقال هى الأرض المقدسة كما قال نبي الله موسى عليه السلام لأن
القول فى ذلك بأنها أرض دون ارض لا تدرك حقيقة صحته إلا بالخبر ولا خبر بذلك يجوز القطع به
غير انها لا تخرج عن أن تكون من الارض التى بين الفرات وعريش مصر لاجماع جميع أهل التأويل
والسير والعلماء بالانخبار على ذلك) . (٦ : ١٧٢) .

(٣) المائدة : ٢١ — ٢٦ .

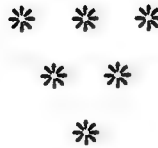
الفصل الثالث

بيان ضلال المنكافقين وحقيقة امرهم
وما اتصفوا به من الصفات القبيحة
وما أُعد لهم من العذاب والنكال وما هو موقف
الرسول صلى الله عليه وسلم تجاههم واشهر
مواقفهم العديدة

الفصل الثالث

المنافقون

- من مقاصد السور والآيات المدنية الحديث عن المنافقين وصفاتهم .
وسوف أتحدث بمشيئة الله عن هذه العناصر الآتية :
أولا : صفات المنافقين كما تحدث عنها القرآن الكريم والسنة المطهرة .
ثانيا : حقيقة المنافقين وخطرهم وما أعد لهم من العذاب .
ثالثا : موقف الرسول ﷺ من المنافقين .



اولاً : صفات المنافقين كما تحدث عنها القرآن الكريم والسنة المطهرة

المنافق :

هو الذى يظهر الإسلام ويبطن الكفر والعداء والبغضاء للإسلام .
والنفاق هو مخالفة الباطن للظاهر .
واختلف فى اشتقاقه .

قال الأنبارى : وهو مأخوذ من النفق وهو السرب . فهم يتسترون بالإسلام
كما يستتر الرجل فى السرب .

وقال غيره : إنه مشتق من النافقاء ، وهو جحر اليربوع . أو أحد بابه
قال أبو عبيدة : إنه يجعل لجحره باين أحدهما القاصعاء . والآخر النافقاء . فإذا
طلب من أحدهما خرج من الآخر . وهكذا شأن (المنافق) يظهر للمؤمنين من
باب الايمان . وللكافرين من باب الكفر . فإذا أصابته مشقة من أحدهما لجأ إلى
الآخر .. وهو إسم إسلامى لم تعرفه العرب بالمعنى الخصوص . وهو الذى يستتر
كفره ويظهر إيمانه وإن كان أصله فى اللغة معروفاً^(١) .

والنفاق مرض نشأ مع بداية ظهور الإسلام فى المدينة ولا زال هذا المرض
الخطير يجوب كثيراً من المجتمعات حتى وقتنا الحاضر .

وهو مرض قلبى وكثيراً ما جمع القرآن بين المنافقين ومرضى القلوب .
قال تعالى ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا
اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾^(٢) .

(١) أنظر لسان العرب (١٠ : ٣٥٩) .

(٢) الاحزاب : ١٢ .

وقال تعالى ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ (١) الآية .

وقد يذكر في الآية مرضى القلوب وحدهم وحينئذ يكون المراد بهم المنافقون .

قال تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ (٣) .

وقال تعالى ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ (٤) .

ولا بد أن نتعرف على بعض صفات المنافقين وحقيقة أمرهم . وقد أفصح عنها القرآن الكريم في عدد من سوره وآياته واكدتها السنة المطهرة .

(١) الكذب :

هو الأخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه . قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (٥) .

فهو السبيل للمنافقين في إظهار خلاف ما يطنون فيظهرون الايمان بقولهم .. قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٦) . وقال تعالى يبين لنا أساليب كذبهم : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا فَلَجَأُوا إِلَى الْكَذِبِ لِتُثَبِّتَ إِيمَانَهُمْ﴾ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿ (٧) .

(١) الاحزاب : ٦٠ .

(٢) البقرة : ١٠ .

(٣) المائدة : ٥٢ .

(٤) محمد (ﷺ) : ٢٩ .

(٥) النحل : ١٠٥ .

(٦) البقرة : ٨ .

(٧) البقرة : ١٤ .

وقال تعالى متوعدا لهم العذاب جزاء لكذبهم ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾^(١) .

وقد وضحت السنة أن الكذب أحد خصال النفاق .

أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب (... الحديث)^(٢) .

(٢) الخلف فى الوعد والغدر فى المعاهدة :

وكلاهما من الصفات القبيحة الممقوتة التى اتصف بها المنافقون وذلك بأنهم يعدون الناس ويعاهدونهم وفى نيتهم عدم الوفاء . لكن لو كان الانسان عازماً على الوفاء فعرض مانع فلا إثم عليه ولا يعد من المنافقين بمجرد إخلاف الوعد .

قال النووى : هذا الحديث عده جماعة من العلماء مشكلاً من حيث إن هذه الخصال قد توجد فى المسلم المجمع على عدم الحكم بكفره ، قال وليس فيه إشكال بل معناه صحيح ، والذى قاله المحققون إن معناه أن هذه خصال نفاق ، وصاحبها شبيه بالمنافقين فى هذه الخصال ومتخلى بأخلاقهم^(٣) قال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾^(٤) .

(٣) الخيانة :

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُخَوِّنُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتُخَوِّنُوا أَمَانَاتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٥) .

(١) البقرة : ١٠ .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١ : ٩٧) .

(٣) أنظر شرح مسلم للنووى (٢ : ٤٦ - ٤٧) .

(٤) التوبة ٧٥ - ٧٧ .

(٥) الانفال : ٢٧ .

وهى من الصفات القبيحة التى ارتداها المنافقون وتحلوا بها . وقد مقت الله الخائنين قال تعالى ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَلَا يَزِيدُ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ (١) . وفى الحديث (وإذا أوتمن خان) (٢) .

(٤) الضلال والحيرة :

فهم غارقون فى الظلمات ، يغتالهم اليأس ، ويعميهم الشك ماضيهم ذكريات سوداء معتمة ، وحاضرهم رعب قاتل مدمر ، ومستقبلهم الخيبة والضيق والناس من حولهم أعداء . وقد ضرب الله لضلالتهم وحيرتهم الأمثال .

قال تعالى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ، صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣) .

(٥) الجبن :

قال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ يَخْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوِّ فَاحْذَرْهُمْ فَوَاللَّهِ اللَّهُ أَلْبَنَى يُؤْفَكُونَ ﴾ (٤) .

يقول جل ذكره لنبيه محمد ﷺ : وإذا رأيت هؤلاء المنافقين تعجبك أجسامهم لتناسب أشكالهم وحسن منظرهم وإن يتكلموا تسمع للين كلامهم وحسن منطقهم كأنهم خشب مستندة لا خير فيهم ولا فقه لهم ولا علم . يحسب هؤلاء المنافقون من خبيثهم وسوء ظنهم وقلة يقينهم كل صيحة عليهم لأنهم دوما على وجل من أن ينزل الله فيهم أمراً يهتك أسرارهم ويفضحهم ويبيح للمؤمنين قتلهم وسبى ذرارهم . (فاحذروهم) فإن ألسنتهم معكم وقلوبهم مع أعدائكم أخزاهم الله إلى أى وجه يصرفون عن الحق .

(١) الانفال : ٥٨ .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١ : ٩٧) .

(٣) البقرة ١٧ — ٢٠ .

(٤) المنافقون : ٤ .

قال تعالى ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنْكُم ، وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأَ أَوْ مَعَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ الْحَوْفَ رَأَيْتَهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (٢) .

يصف الله تعالى المنافقين الجبناء بأنهم إذا حضر البأس وجاء القتال خافوا الهلاك والقتل رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم خوفا من القتل وفراراً منه كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت النازل به) .

قال تعالى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُخَكَّمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ تَطَرَّ الْمَعْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ (٣) الآية .

وهناك الكثير من الصفات التي وردت بحقهم في القرآن .

قال ابن القيم رحمه الله (٤) : (لما ذكر تعالى أقسام الخلق في أول سورة البقرة (٢ — ٢٠) قسمهم إلى مؤمن ظاهراً وباطناً ، وكافراً ظاهراً وباطناً ، ومؤمن في الظاهر كافر في الباطن وهم المنافقون ، ذكر في حق المؤمنين ثلاث آيات (٣ — ٥) وفي حق الكافرين آيتين (٦ — ٧) فلما انتهى إلى ذكر المنافقين ذكر فيهم بضعة عشرة آية (٨ — ٢٠) ذمهم فيها غاية الذم وكشف عوراتهم وقبحهم وفضحهم) .

(١) التوبة : ٥٦ — ٥٧ .

(٢) الاحزاب : ١٩ .

(٣) محمد (ﷺ) : ٢٠ — ٣١ .

(٤) كتاب طريق الهجرتين وباب السعادتین تأليف الامام شمس الدين محمد بن القيم الجوزية . حققه خادم

العلم عبد الله الانصارى طبع على نفقة الشيخ حمد بن فالح آل ثاني (ص : ٧٠١) .

وصفهم بالخداع (وهو إظهار خير يتوسل به إلى إبطان شر يؤول إليه أمر ذلك الخير المظهر^(١)) .

قال تعالى ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾^(٢) .

وصفهم بأنهم مرضى القلوب — قال القرطبي (المرضي عبارة مستعارة للفساد الذي في عقائدهم وذلك إما أن يكون شكاً ونفاقاً . قال تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ الآية . وإما جحداً وتكديباً^(٣) . والله عز وجل يزيدهم مرضاً على مرضهم .

وصفهم بالافساد في الأرض والاستهزاء بدينه وعباده وبالطغيان .

قال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُنَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾^(٤) .

قال تعالى ﴿ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾^(٥) .

ونعتهم بأنهم المغبونون في اشتراكتهم الضلالة بالهدى وأنهم صم بكم عمى فهم لا يرجعون . قال تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾^(٦) .

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (١ : ١٧) .

(٢) البقرة : ٩ .

(٣) القرطبي (١ : ١٩٧) .

(٤) البقرة : ١١ — ١٥ .

(٥) التوبة : ٦٥ .

(٦) البقرة : ١٦ .

وقال تعالى ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرِجُونَ﴾ (١) .

وأنهم كسالى عند عبادته وفى أعمال الخير وقلة ذكره .

قال تعالى ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٣) .

ومن صفاتهم أنك إذا دعوتهم عند المنازعة للتحاكم إلى القرآن والسنة أبو ذلك وأعرضوا عنه ودعوك إلى التحكم إلى طواغيتهم .

قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنزِلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُونَ عَنْكَ صُدُودًا . فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (٤) .

وأنهم مذبذبون مترددون بين المؤمنين والكفار فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

قال تعالى ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٥) .

وقال تعالى ﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ (٦) .

ومن صفاتهم الحلف بالله كذبا وباطلا فهم جناء كاذبون كما قال تعالى

(١) البقرة : ١٨ .

(٢) التوبة : ٥٤ .

(٣) النساء : ٦٠ — ٦٣ .

(٤) النساء : ١٤٢ . (٥) النساء : ١٤٣ .

﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ اَنْفُسَهُمْ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ اِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ^(١) .

وإن من عداثهم للمؤمنين أنهم يحزنون لما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر . ويفرحون بما يحصل لهم من المحنة والابتلاء .

قال تعالى ﴿ اِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَاِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ اَحْذَانَا اَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ ^(٢) .

وأنهم يترصدون الدوائر بالمسلمين . قال تعالى ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا اِلَّا اِخْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَلَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ اَنْ يُصِيبَكُمْ اللّٰهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ اَوْ بِاَيْدِنَا فَتَرَبَّصُوا اِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ ^(٣) .

والمراد بقوله (قل هل ترصدون بنا) أى تنتظرون بنا (إلا احدى الحسينين) شهادة أو ظفر بكم ^(٤) .

ومن جهلهم وعمى قلوبهم أنهم يعيرون على النبى ﷺ فى قسم الصدقات . قال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَاِنْ اَعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَاِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا اِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ ^(٥) .

فهم عبيد الدنيا إن أعطوا منها رضوا وإن منعوا سخطوا .

ومن صفاتهم الايذاء . فهم يؤذون رسول الله ﷺ وينسبونه إلى ما برأه الله منه ويعيبونه مما هو من كماله وفضله .

قال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ اُذُنٌ قُلْ اُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّٰهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ اٰمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ

(١) التوبة : ٤٢ .

(٢) التوبة : ٥٠ .

(٣) التوبة : ٥٢ .

(٤) ابن كثير (٢ : ٣٦٣) .

(٥) التوبة : ٥٨ .

رَسُولُ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ .

والمراد بقوله (ويقولون هو أذن) أى من قال له شيئاً صدقه ومن حدثه صدقه فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا . وقوله تعالى (قل أذن خير لكم) أى هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب (٢) .

ومن أقبح صفاتهم أنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم عن الانفاق في مرضاته عز وجل . وقد نسوا الله فنسيهم وأنهم فاسقون . قال تعالى ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣) .

وأنهم يعيبون المؤمنين ويرمونهم بما ليس فيهم . فيلمزون المتصدقين ويعيبون مزهدهم ، ويرمون بالرياء وإرادة الثناء مكترهم .

قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٤) .

أخرج البخارى بسنده عن أنس مسعود قال لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل (٥) فجاء أبو عقيل بنصف صاع وجاء إنسان بأكثر منه . فقال المنافقون إن الله لغنى عن صدقة هذا وما فعل هذا الآخر إلا رياء . فنزلت ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ (٦) الآية .

(١) التوبة : ٦١ .

(٢) ابن كثير (٢ : ٣٦٦) .

(٣) التوبة : ٦٧ .

(٤) التوبة : ٧٩ .

(٥) تحامل فى الأمر أى تكلفه على مشفه .

(٦) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٩ : ٤٠٠) .

وأنهم يفرحون إذا تخلفوا عن رسول الله ﷺ ويكرهون الجهاد في سبيل الله
فهم جبناء .

قال تعالى ﴿ قَرَحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ
يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ
جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١) .

وأنهم أحلف الناس قد اتخذوا أيمانهم جنة تقيهم من إنكار المسلمين
ووصفهم الله بأنهم رجس . والرجس من كل جنس أخبثه وأقذره فهم أخبث بنى
آدم وأقذرهم وأرذلهم وبأنهم فاسقون .

قال تعالى ﴿ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا
عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . يَخْلِفُونَ لَكُمْ
لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢) .

وأنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين فيلطخون أعراض المؤمنين التزهاء
الأبرياء بأشنع التهم وذلك يتجلى في قصة أهل الافك والبهتان المنافقين حين رموا
السيدة عائشة فأنزل الله براءتها صيانة لعرض الرسول ﷺ .

قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ
بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ
مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ
فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .

(١) التوبة : ٨١ — ٨٢ .

(٢) التوبة : ٩٥ — ٩٦ .

(٣) النور : ١١ — ٢٠ .

ووصفهم الله بعدم الفقه في الدين وبالبلادة وقلة الفهم وأنهم يخرجون من مجلس رسول الله ﷺ لا يفهمون منه شيئا فإذا خرجوا من عنده (قالوا للذين أوتوا العلم) من الصحابة رضى الله عنهم (ماذا قال آنفا) أى الساعة .

قال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١) .

وأنهم قد استحوذ عليهم الشيطان أى استولى عليهم وغلب عليهم حتى أنساهم ذكر الله فلا يذكرونه إلا قليلا . (علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهرة من المآكل والمشارب والملابس ويشغل قلبه عن التفكير فى آلاء الله ونعمائه والقيام بشكرها ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبهتان ويشغل لبه عن التفكير والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها) (٢) .

وهؤلاء هم حزب الشيطان وأعوانه . وأنهم يوادون من حاد الله ورسوله . قال تعالى ﴿ اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ فَإِنَّ سَاهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٣) .

وقال تعالى ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (٤) الآية .

وإن من استكبارهم واحتقارهم إذا عرضت عليهم التوبة والاستغفار أبوها وزعموا أنهم لا حاجة لهم إليها .

قال تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ

(١) محمد (ﷺ) : ١٦ .

(٢) تفسير النسفى (٤ : ٢٣٦) .

(٣) المجادلة : ١٩ .

(٤) المجادلة : ٢٢ .

وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٠﴾ .

تلك صفات المنافقين التي وردت في القرآن الكريم وقد أشار إليها ابن القيم رحمه الله في كتابه طريق المهجرتين وباب السعادتين^(١) .

* * *

(١) المنافقون : ٥ .

(٢) بتصرف من الكتاب المذكور (ص ٧٠١ — ٧٢٦)

ثانياً : حقيقة المنافقين وخطرهم على المسلمين وما أعد لهم من عذاب

المنافقون : هم قوم أظهروا الاسلام ومتابعة الرسل وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسوله .

وقد توعدهم الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بأشد أنواع الوعيد :
(١) قال تعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ ^(١) .

فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف عذابا . وهم فوقهم في درجات النار لأن الطائفتين إشتراكا في الكفر ومعاداة الله ورسوله وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق والخداع . وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين .

والذى أنزلهم في الدرك الأسفل من النار هو شدة كفرهم . فقد خالطوا المسلمين وعاشروهم ، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الايمان ما لم يباشروا الأعداء ، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة ، فإذا كفروا مع هذه المعرفة كانوا أشد كفرا وأخبث قلوبا ، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم ، وإن كان البعداء متصدين لحرب المسلمين . ولهذا قال تعالى عنهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ ^(٢) . وقال تعالى فيهم ﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ ^(٣) . وقال تعالى في الكفار ﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ^(٤) .

(١) النساء : ١٤٥ .

(٢) المنافقون : ٣ .

(٣) البقرة : ١٨ .

(٤) البقرة : ١٧١ .

فالكافر لم يعقل ، والمنافق أبصر ثم عمى وعرف ثم تجاهل وأقر ثم أنكر
وآمن ثم كفر ومن كان هكذا كان أشد كفرا وأخبث قلبا وأعتى على الله
ورسوله . فاستحق الدرك الأسفل .

(٢) ولهذا قال تعالى في حقهم ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ فَأَتْلَهُمُ اللَّهُ أَلْسِي
يُؤْفَكُونَ ﴾^(١) .

ومثل هذا اللفظ يقتضى الحصر ، أى لا عدو إلا هم . ولكن لم يرد ههنا
حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم ، بل هذا من إثبات الأولوية
والأحقية لهم في هذا الوصف ، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهرا
وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم
في الدار ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها . لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياما ثم
ينقضى ويعقبه النصر والظفر . وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحا ومساء يدلون
العدو على عوراتهم ويتربصون بهم الدوائر فهم أحق بالعداوة من المباين الجاهر
فلهذا قيل (هم العدو فاحذرهم) .

(٣) وهؤلاء المنافقون أشقى الأشقياء ، ولهذا يستهزأ بهم في الآخرة فيعطون نورا
يتوسطون به على الصراط ثم يطفئ الله نورهم ويقال لهم ﴿ ازْجَعُوا وَرَاءَكُمْ
فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ ويضرب بينهم وبين المؤمنين ﴿ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ
وظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُوهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ
أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ
الْغُرُورُ ﴾^(٢) .

وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والصلاح
حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه القسوة ونعوذ
بالله من غضبه وعقابه^(٣) .

(١) المنافقون : ٤ .

(٢) الحديد : ١٣ - ١٤ .

(٣) باختصار وتصرف من كتاب طريق الهجرتين و . اسعادتین لابن القيم (ص ٦٩٨ - ٧٠٠)

(٤) وقد أمر الله نبيه ﷺ بأن يشرهم بالعذاب الأليم قال تعالى ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(١) .

ومن الوعيد الذى ورد فى المنافقين قول الله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾^(٢) .

وقال تعالى ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٣) .

(١) النساء : ١٣٨ .

(٢) التوبة : ٦٨ .

(٣) الفتح : ٦ .

ثالثاً : بيان موقف الرسول ﷺ - من المنافقين

قال ابن القيم (وأما سيرته في المنافقين : فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكلم سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدكم بالعلم والحجة ، وأمره أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ونهاه أن يصلى عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم)^(١) . أ هـ .

أخرج البخارى بسنده عن زيد بن أرقم قال : كنت في غزاة^(٢) فسمعت عبد الله بن أبي يقول : لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا من حوله ، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل . فذكرت ذلك لعمي أو لعمر فذكره للنبي ﷺ فدعاني فحدثته ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قاله فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه فأصابني هم لم يصبنى مثله قط . فجلست في الدار فقال لي عمي : ما أردت إلى أن كذبت رسول الله ﷺ ومقتك . فأنزل الله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ فبعث إلى النبي ﷺ فقرأ فقال إن الله قد صدقك يا زيد^(٣) .

وفي الحديث السابق نرى أن رسول الله ﷺ قبل منه علانيته ووكّل سريره إلى الله تعالى^(٤) . فهو علام الغيوب يعلم سرهم ونجواهم . قال تعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾^(٥) .

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد لابن القيم الجوزية . تحقيق شعيب الأرنؤوط ، وعبد القادر .
الإنشأوط (٣ : ١٦١) .

(٢) اختلف فيها فقيل تبرك . والذي عليه أهل المغازي أنها غزوة بنى المصطلق .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٢٦٩) .

(٤) انظر حقائق الأنوار ومطالع الأسرار لابن الديبع الشيباني (٢ : ٥٥٨ — ٥٥٩) .

(٥) التوبة : ٧٨ .

وأما مجاهدته ﷺ بالعلم والحجة وإعراضه عنهم وأن يغلظ عليهم وتبليغه القول البليغ إلى نفوسهم ، فتوضحه الآية الكريمة .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً ﴾ (١) .

أما ما ورد في نبيه ﷺ عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم وعدم قبول إستغفارهم لهم إن استغفروا لهم :

قال تعالى ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا تَأْوُوا لَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٣) .

وسبب نزول الآيات ما أخرجه البخارى بسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال لما توفى عبد الله بن أبى جاء ابنه عبد الله بن عبد الملك إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أتصلى عليه وقد هناك ربك أن تصلى عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ إنما خيرنى الله فقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة . وسأزيد على سبعين . فقال : إنه منافق ، قال : فصلى رسول الله ﷺ . فأنزل الله ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ (٤) .

قال الخطابى : (إنما فعل ذلك النبى ﷺ مع عبد الله بن أبى ما فعل لكمال شفقتة على من تعلق بطرف من الدين ولتطيب قلب ولده عبد الله الرجل

(١) النساء : ٦٣ .

(٢) التوبة : ٨٤ .

(٣) التوبة : ٨٠ .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٩ : ٤٠٣) كتاب التفسير سورة التوبة .

الصالح ولتألف قومه من الخزرج لرياسته فيهم فلو لم يجب سؤال ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهى الصريح لكان سبة على ابنه وعارا على قومه فاستعمل أحسن الأمرين في السياسة إلى أن نهى فانتهى (١).

وهناك المواقف الكثيرة التي تحدث عنها القرآن والتي وقعت بين الرسول ﷺ والمنافقين واكتفى بذكر ثلاثة منها وهي :

(١) موقف المنافقين في غزوة أحد .

(٢) قصة الألفك .

(٣) قصة مسجد ضرار .



(١) فتح الباري (٩ : ٤٦) .

موقف المنافقين من غزوة أحد

ذلك أن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر ، علت هيبتهم في نفوس القبائل وعندئذ دخل في الاسلام ظاهرا من ليس معهم فيه باطنا . فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق فأظهر المنافقون نفوسهم في هذه الغزوة وتكلموا بما كانوا يكتمونه . وعاد تلويحهم تصرّحا . وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ، ومنافق انقساما ظاهرا . وعرف المؤمنون أن لهم عدو في نفس دورهم وهو معهم لا يفارقهم ، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم . قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ۖ ﴾ (١) .

أى ما كان ليذكركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين حتى يميز أهل الايمان من أهل النفاق . فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ . وهتك به ستر المنافقين فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ بانخذاهم مع عبد الله بن أبى بنحو ثلث العسكر وقال (ما أرى أن يكون قتال ولو علمنا أن يكون قتال لكننا معكم) . قال تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتْيِ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ اذْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَا كُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ۖ ﴾ (٢) . أى ما يخفون من النفاق .

(١) آل عمران : ١٧٩ .

(٢) آل عمران : ١٦٧ .

قصة الافك

قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْأَفْكِ غَصْبَةً مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ .

إلى قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (١) .

أخرج البخارى بسنده عن عروة عن عائشة رضى الله عنها — والذى تولى كبره — قالت عبد الله بن أبى بن سلول . وقيل غير ذلك والصحيح ما رواه البخارى وقصة الافك مشهورة (٢) وهى أيضا نوع من أنواع الابتلاء حتى يتميز المؤمن من المنافق ، ذلك المنافق الذى يجب أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا . وقد أشاعوها هنا فى أم المؤمنين زوج سيد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وكان إمتحان وابتلاء عظيم واقتضى تمام الامتحان أن يحبس الوحي عن رسول الله ﷺ شهراً لم ينزل عليه شيء فى أمر (الافك وأصحابه) وكذلك توقف النبى ﷺ فى أمر زوجته الطاهرة المبرأة حتى نزلت براءتها من فوق سبع سموات .

(١) النور : ١١ — ٢٦ .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٦٧) كتاب التفسير .

(٣) تراجع فى صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٦٧) تفسير سورة النور .

وإنما حبس الوحي هذه الفترة المديدة حتى تنبئ القلوب عن مكنونها ويعرف المؤمن من المنافق والبار من الفاجر . وهنا تتطلع قلوب المؤمنين إلى ما يوحيه الله إلى رسوله ﷺ . فوق منهم أعظم موقع وأكرمه . ولقد تولى سبحانه الدفاع عن نبيه والرد على أعدائه المنافقين .

والقصد من رمي السيدة عائشة هو ايداؤه ﷺ وتلطيف طهارة فراشه وهو معلم الناس الطهارة ، وكذلك رمى صفوان بن المعطل المسلم المجاهد الذى كان لا يملك إلا أن يقول فى مواجهة هذا الاتهام الأليم (سبحان الله ما كشفت كتف أنثى قط) .

ثم تنزل براءتها رضى الله عنها وكان البكاء لا يفارقها .

وتروى لنا السيدة عائشة ذلك الموقف (ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحياً يتلى ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يرئى الله بها . قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو فى يوم شات من ثقل القول الذى ينزل عليه قالت فلما سرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها يا عائشة أما الله عز وجل قد برأك وأنزل عز وجل (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه) — العشر الآيات كلها ^(١) . أ.هـ .

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٩٢) .

مسجد الضرار

قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْوَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَخْلُقَنَّ إِنَّ أَرْذَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدَ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ . أَقَمَنْ أُسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مِنْ أُسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(١) .

وهذا المسجد أعده المنافقون وكرا لاجتماعهم . ومنطلقا لدسائسهم ولنشر روح الفرقة بين صفوف المسلمين .

وقد جاءوا إلى رسول الله ﷺ بعد أن بنوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا يا رسول الله .. إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه فقال ﷺ (انى على جناح سفر وحال شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه) .

فلما نزل بعد رجوعه من تبوك فى (ذى أوان) جاءه خبر المسجد من السماء فدعا مالك بن الدخشم آخا بنى سلمة بن عوف ، ومعن بن عدى العجلانى فقال (انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرقاه فخرجا مسرعين حتى أتيا بنى سالم بن عوف وهم رهط مالك الدخشم فقال مالك لمعن أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى ، ودخل إلى أهله ،

(١) التوبة : ١٠٧ — ١١٠ .

فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه النار ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه — وفيه أهله — فحرقاه وهدماه ، ففترقا عنه .

وذكر ابن اسحاق الذين بنوه وهم اثنا عشر رجلا منهم ثعلبة بن حاطب^(١) .

قال الطبرى فى تفسير الآية الكريمة ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية . فتأويل الكلام : (والذين ابتنوا مسجدا ضاراً لمسجد رسول الله ﷺ وكفرا بالله لمخادتهم بذلك رسول الله ﷺ ، ويفرقوا به المؤمنين ليصلى فيه بعضهم دون مسجد رسول الله ﷺ ، وبعضهم فى مسجد رسول الله ﷺ ، فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا) وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل (يقول : وأعداداً له ، لآبى عامر الكافر الذى خالف الله ورسوله وكفر بهما) وقاتل رسول الله من قبل يعنى من قبل بنائهم ذلك المسجد ، وذلك أن أبى عامر هو الذى كان حزب الأحزاب ، يعنى حزب الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ فلما خذله الله ، لحق بالروم يطلب النصر من ملكهم على نبي الله وكتب إلى أهل مسجد الضرار يأمرهم ببناء المسجد الذى كانوا بنوه فيما ذكر عنه ليصلى فيه فيما يزعم إذا رجع إليهم . ففعلوا ذلك ، وهذا معنى قول الله جل ثناؤه (وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى) يقول جل ثناؤه وليحلفن بانوه إن أردنا إلا الحسنى بينائهم إلا الرفق بالمسلمين والمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعلّة من عجز على المسير إلى مسجد رسول الله ﷺ للصلاة فيه ، وتلك هى الفعلّة الحسنة (والله يشهد إنهم لكاذبون) فى حلفهم ذلك ،

(١) انظر زاد المعاد لابن القيم (ص ٥٤٩) ، بهجة المحافل وبغية الامائل (٢ : ٣٥) ، تفسير الطبرى (١١ : ٢٣) تفسير سورة التوبة .

وقيل لهم ما بيننا وإلا ونحن نريد الحسنى ، ولكنهم بنوه يريدون
بينائمه السوء أى ضراراً لمسجد رسول الله ﷺ ، وكفـراً بالله
وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لأئى عامر الفاسق (١) .



(١) تفسير الطبرى (١١ : ٢٣) تفسير سورة التوبة .

الفصل الرابع

بيان قواعد الجهاد وحكمة تشريعه
والاحكام المتعلقة بالحروب والغزوات
والصلح والمعاهدات

الجهاد

من مقاصد السور والآيات المدنية الحديث عن الجهاد .
وسوف أتحدث عنه بإذن الله تعالى من نواح ثلاث :

- (١) تعريف الجهاد وأنواعه ومتى فرض .
- (٢) بيان قواعد التشريع الخاصة بالجهاد وحكمة تشريعه .
- (٣) ذكر الأحكام المتعلقة بالحروب والغزوات من الصلح والمعاهدات والغنائم والفىء وفك الأسرى .

أولاً : تعريف الجهاد وبيان أنواعه ومتى فرض :

الجهاد لغة : مصدر جاهد . وهو مشتق من الجهد ، وهو المشقة .

والجهاد بالكسر : القتال مع العدو كالمجاهدة وهو المبالغة واستفراغ مافي الوسع والطاقة من قول أو فعل^(١) .

قال الراغب الاصفهاني (الجهاد والمجاهدة) استفراغ الوسع في مدافعة العدو^(٢) .

الجهاد شرعاً : بذل الوسع والطاقة بالقتال في سبيل الله عز وجل بالنفس والمال واللسان وغير ذلك^(٣) .

(١) تاج العروس (٢ : ٣٢٩) .

(٢) مفردات القرآن للاصفهاني (١ : ١٤٢) (الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني الناشر مكتبة الانجلو المصرية .

(٣) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للامام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفى المتوفى سنة ٥٨٧ هـ ، ط / الأولى ١٣٢٨ هـ / الثانية ١٣٣٤ هـ الناشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان (٧ : ٩٧) .

انواع الجهاد

أولا : مجاهدة العدو الباطن .

هى عبارة عن :

(أ) مجاهدة النفس

(ب) مجاهدة الشيطان .

ثانيا : مجاهدة العدو الظاهر . ويتحقق ذلك بما يلى :

(أ) المجاهدة بالمال .

(ب) المجاهدة بالنفس (الروح) .

(ج) المجاهدة باللسان .

أولا : مجاهدة العدو الباطن .

(أ) مجاهدة النفس :

الجهاد يتبدىء بجهاد النفس بتخليصها من الأهواء والشهوات وإتجاهها إلى الحق فى ذاته ، لا حبا فى شهرة ولا رغبة فى متعة ولا رجاء أى شأن من شئون الدنيا .

وإنما اعتبر المجاهد من يجاهد لإرضاء الله وطلب ما عنده ، ولرفعة الحق وجعل كلمة الله هى العليا وكلمة أعداء الله هى السفلى ، وأن ذلك لا ريب لا يكون إلا إذا جاهد نفسه وأخضع أهواءه وشهواته لأحكام الله . وتبعها لما جاء به النبى ﷺ .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله فى كتابه (الفوائد) تعليقا على قوله عز وجل ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ^(١) علق سبحانه الهداية بالجهاد فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادا . وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الدنيا . فمن جاهد هذه الأهواء الأربعة فى الله ،

(١) العنكبوت : ٦٩ .

هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته ... ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنا ، فمن نصر عليها نصر على عدوه ، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه (١) أ.هـ .

وقال تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (٢) .

قال القرطبي : قوله (حق جهاده) إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به والانتفاء عن كل مانى الله عنه ، أى جاهدوا أنفسكم في طاعة الله وردها عن الهوى ، وجاهدوا الشيطان في رد وسوسته ، والظلمة في رد ظلمهم والكافرين في رد كفرهم (٣) .

وقد ذكر العلامة ابن القيم مراتب جهاد النفس فقال :

أحدها : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق .

الثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه والا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها .

الثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبيئات .

الرابعة : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله فإن استكمل هذه المراتب الأربعة صار من الربانيين (٤) .

والنفس الانسانية أشبه ماتكون بالمريض الذى وضع تحت المراقبة . فقد كلفنا حفظها ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التى تقيمها ، لا بد من إعطائها ما يقيمها .. ونحن كالوكلاء فى حفظها . لأنها ليست لنا بل هى وديعة عندنا فمنعها حقوقها على الإطلاق خطر . ثم رب شد أوجب استرخاء ورب

(١) الفوائد لابن القيم (ص ٥٩) لشمس الدين محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية ط/ دار مصر للطباعة . طبع على نفقة عمر عبد الجبار .

(٢) الحج : ٧٨ .

(٣) تفسير القرطبي (١٢ : ٩٩) .

(٤) زاد المعاد لابن القيم (٣ : ١٠) .

مضيق على نفسه فرت منه فصعب عليه تلافيها ، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل يحملها على مكروهاها في تناول ماترجو به العافية ويذوب في المرارة قليلا من الخلوة ويتناول من الأغذية مقدار ما يصفه الطبيب ، ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعم ربما جر جوعا ، ومن لقمة ربما حرمت لقمات ، فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها ، ولا يهمل مقودها ، بل يرخى لها في وقت والطول^(١) بيده ، فما دامت على الجادة لم يضايقها في التضييق عليها ، فإذا رآها قد مالت ردها باللفظ فإن ونت وأبت فبالعنف ، ويحبسها في مقام المداراة ، كالزوجة التي مبنى عقلها على الضعف والقلّة ، فهي تدارى عند نشوزها بالوعظ ، فان لم تصلح فبالهجر ، فان لم تستقم فبالضرب . وليس في سياط التأديب أجود من سوط عزم^(٢) .

قال البوصيرى في قصيدته (البردة) :

فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها إن الطعام يقوى شهوة النهم
والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفضمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه إن الهوى ماتولى يصم أو يصم
وراعها وهى فى الأعمال سائمة وإن هى استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة من حيث لم يدر أن السم فى الدسم
إلى أن قال :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصيح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما فأنت تعرف كيد الخصم والحكم^(٣)

(١) الطول الزمام . قال ليبد (كالطول المرنخي وثنيه فى اليد) .

(٢) صيد الخاطر (ص ٨٤) للإمام ابن الجوزى . راجعه على الطنطاوى وحققه ناجى الطنطاوى ، ط / دار الفكر بدمشق ط / الثانية ١٣٩٨ هـ .

(٣) مجموع أمهات المتنون (ص ٨١) ، قصيدة البردة أو الكواكب الدرية لشرف الدين محمد بن سعيد الصنهاجى البوصيرى ، مطبعة البائى الحلبي بمصر الطبعة الرابعة ١٣٦٩ هـ (ص ٦٠٨ — ٦٩٦) .

(ب) مجاهدة الشيطان :

إن الشيطان العدو اللبود للإنسان منذ أن كان آدم عليه السلام في الجنة . فحين خلق الله آدم عليه السلام أسكنه الجنة ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾^(١) فطرده الله من الجنة وتوعده بالعقاب الشديد .

قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ . قَالَ أُنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَأَأْتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ . قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ بَعَثَكَ مِنْهُمْ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾^(٢)

قال الطبري : في قوله تعالى (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ...) الآية .

أى لآتينهم من جميع وجوه الحق والباطل فاصدهم عن الحق ، وأحسن لهم الباطل^(٣) .

وكان آدم عليه السلام وزوجه قد أسكنهما الله الجنة فوسوس لهما الشيطان فكان سببا لارتكابهما ما نهاهما الله عنه من أكل الشجرة .

قال تعالى ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . قَوَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيَبْدِيَ

(١) الاعراف : ١٢ .

(٢) الاعراف : ١١ — ١٨ .

(٣) تفسير الطبري (٨ : ١٣٧) .

لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِيَّيْ لَكُمْ لِمَنِ النَّاصِحِينَ فَلَدَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿١﴾ .

والشيطان وأعوانه سواء من الجن أو الانس . لأن هناك من الانس من جند نفسه لخدمة الشيطان لذلك جاءت الآيات تعيدنا منهم ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ ﴿٢﴾ . وقال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ ﴿٣﴾ . وهؤلاء الشياطين هم سبب الهلاك والضلال للانسان لذلك حذرنا الله عز وجل من اتباع خطواتهم والانقياد لما يزينونه لنا من الملمات . قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٤﴾ .

وقال تعالى ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٥﴾ .

وهو يحض الانسان على الكفر والخروج عن الملة ثم يتبرأ منه ويقول أنا بريء منك . قال تعالى ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٦﴾ .

(١) الاعراف : ١٨ — ٢٤ .

(٢) الناس : ٤ — ٦ .

(٣) الانعام : ١١٢ .

(٤) البقرة : ١٦٨ — ١٦٩ .

(٥) البقرة : ٢٦٨ .

(٦) الحشر : ١٦ .

أخرج مسلم في صحيحه عن أنى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله وليتته)^(١) .

وخير سلاح يتسلح به المؤمن لمواجهة مكاييد الشيطان هو الاستعاذة بالله .
قال تعالى ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾^(٢) .

وكذلك آية الكرسي^(٣) فانها حافظة من الشيطان . كما ورد في صحيح البخارى فى قصة أنى هريرة رضى الله عنه حينما قال الشيطان له :

(إذا أويت إلى فراشك فاقرا آية الكرسي ، لم يزل معك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح . وقال النبى ﷺ : صدقك وهو كذوب ، ذاك شيطان)^(٤) .

قال ابن القيم : وأما جهاد الشيطان فمرتبتان :

(إحداهما : جهاده على دفع مايلقى إلى العبد من الشبهات والشكوك القاذحة فى الايمان .

الثانية : جهاده على دفع ما يلقي إليه من الارادات الفاسدة والشهوات . فالجهاد الأول يكون بعده اليقين .. والثانى يكون بعده الصبر)^(٥) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (٢ : ١٥٤) ، ط/ دار الفكر .

(٢) الاعراف : ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٣) البقرة : ٢٥٥ وهو قوله تعالى ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ الآية

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٠ : ٤٣٢) .

(٥) زاد المعاد لابن القيم (٣ : ١٠) .

ثانيا : مجاهدة العدو الظاهر :

(أ) المجاهدة بالمال :

لقد ورد الأمر بالجهاد بالمال والنفس في القرآن معا . قال تعالى ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ولقد ضرب الله الأمثال في تضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته . قال تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا انْفَقَوْا مَتًى وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بَرْنِوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ ﴾ (٣) .

ولا شك أن مقابلة الأعداء تتطلب أصناف السلاح والعتاد لذلك أمر المولى عز وجل عباده المؤمنين بإعداد القوة للأعداء وختم قوله جل وعلا بأن ما ينفقه المؤمن مهما كان ذلك الانفاق سوف يجازى به الجزاء الأوفى .

قال تعالى ﴿ وَاعْتَدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ .

قال القرطبي^(٤) : قال ابن عباس : القوة هاهنا السلاح والقسى .

(١) التوبة : ٤١ .

(٢) البقرة : ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٣) البقرة : ٢٦٥ .

وقوله وابل : المطر الشديد . فطل : المطر الضعيف المستدق من القطر الخفيف . تفسير القرطبي

(٣ : ٣١٧) .

(٤) تفسير القرطبي (٨ : ٣٥) .

وفي صحيح مسلم^(١) عن عقبة بن عامر قال سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة . ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي) . فقد فسر رسول الله ﷺ (القوة) في الآية الكريمة بالرمي . والرمي لا بد له من سلاح وبدون بذل الأموال لا يتوفر السلاح .

ولقد سطر لنا التاريخ مواقف الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في إنفاقهم الأموال الطائلة في سبيل تجهيز الجيوش للجهاد في سبيل الله ..

فهذا سيدنا عثمان بن عفان جهز جيش العسرة بأحلاسها^(٢) وأقتابها^(٣) .

أخرج البخارى بسنده عن أبي عبد الرحمن أن عثمان رضى الله عنه حين حوصر أشرف عليهم وقال : أنشدكم الله ولا أنشد إلا أصحاب النبي ﷺ أستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال من حفر رومة فله الجنة فحفرتها ؟ أستم تعلمون أنه قال : من جهز جيش العسرة فله الجنة ؟ فجهزته . قال : فصدقوه بما قال^(٤) .

وأخرج البخارى بسنده عن أبي سعيد قال : سمعت سعيداً المقبرى يحدث أنه سمع أبا هريرة رضى الله عنه يقول : قال النبي ﷺ من احتبس فرسا في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شيعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة^(٥) . وبهذا يتضح لنا الشواب العظيم الذى أعده المولى عز وجل للمنفقين في سبيل الله من خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة .

(١) صحيح مسلم وبهامشه شرح النووى (١٣ : ٦٤) .

(٢) احلاس : جمع حلس : كل شئ ولى ظهر البعير والدابة تحت الرجل والقتب والسرّج . لسان العرب (٦ : ٥٤) .

(٣) اقتابها : جمع قتب : اكاف البعير وفي الصحاح : رحل صغير على قدر السنام . لسان العرب (١ : ٦٦٠) .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٦ : ٣٣٦) .

(٥) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٦ : ٣٩٧) .

(ب) المجاهدة بالنفس (الروح) :

قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيُكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) .

لما كان الجهاد ذروة سنام الاسلام . جاءت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة مبينة لمنازل أهله . فهم الأعلون في الدنيا والآخرة ، وكان المثل الأعلى والتمودج الأمثل للمجاهد هو المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فلقد جاهد في الله حق جهاده .

أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى ، أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيأ ، ثم أقتل ثم أحيأ ثم أقتل (٢) .

وأخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : دلنى على عمل يعدل الجهاد قال : لا أجده . قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر ؟ قال : ومن يستطيع ذلك (٣) .

وأخرج البخارى أيضا عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها (٤) .

(١) التوبة : ١١١ .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١ : ١٠٠) كتاب الايمان .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٦ : ٣٤٥) كتاب الجهاد .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٦ : ٣٥٤) كتاب الجهاد .

وقد ترجم البخارى أيضا فى كتاب الجهاد باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله . وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قيل يا رسول الله أى الناس أفضل ؟ فقال رسول الله ﷺ مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله قالوا : ثم من ؟ قال مؤمن فى شعب من الشعاب يتقى الله ويدع الناس من شره (٢) .

(١) الصف : ١٠ - ١٢ .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٦ : ٣٤٦) كتاب الجهاد .

(ج) المجاهدة باللسان :

الدعوة إلى دين الله وتبليغ ما أنزل الله من الذكر الحكيم وإقامة الحجة بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة أمام الملحدين وأعداء الاسلام من الكافرين والمنافقين والفاسقين . كل ذلك وغيره إنما يكون الجهاد به بواسطة اللسان فهو الوسيلة لنشر دين الله وتوصيله إلى القلوب ويلزم للداعى التحلى بالحكمة والرفق واختيار أنسب الأساليب لذلك .

قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(١) .

وقال تعالى فى حق المجاهدين بأنهم يقومون بمهمة الرسل الذين يبلغون رسالات الله .. ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيُحْشِنُوهُ وَلَا يُخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾^(٢) .

أخرج الامام أحمد فى مسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألستكم)^(٣) .

وأخرج الامام مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فليسانه) . فإن لم يستطع فبقوله وذلك أضعف الايمان^(٤) .

هذا وإن كانت المجاهدة باللسان موجودة فى القرآن المكى إلا أن وجودها فى القرآن المدنى أظهر حيث إن الظروف فى المدينة كانت مهيأة لتبليغ الدعوة حيث أرسل الرسول عليه الصلاة والسلام رسله للأقاليم المجاورة وكتب الكتب إلى الملوك والقيصرة .

(١) فصلت : ٣٣ .

(٢) الأحزاب : ٣٩ .

(٣) مسند الامام أحمد — الفتح الربانى مع مختصر شرحه بلوغ الأمانى للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا (١٣ : ٧) الناشر دار الحديث بالقاهرة .

(٤) صحيح مسلم . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي — كتاب الايمان — باب كون النهى عن المنكر من الايمان (١ : ٦٩) .

فرضية الجهاد

ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح (إن أول ما شرع الجهاد بعد الهجرة النبوية إلى المدينة اتفاقاً)^(١) .

وقد ورد أن أول آية فرض فيها القتال نزلت في السنة الثانية للهجرة وهي قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾^(٢) .

وهكذا نفهم أن المسلمين الأوائل منعوا من القتال قبل الهجرة وأذن لهم فيه بعد الهجرة بدليل قوله تعالى ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلُمُوا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ لَقْدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾^(٣) .

فقوله تعالى (الذين أخرجوا) يدل على أن الاذن في القتال كان بعد هجرة النبي ﷺ . ومع ذلك فنضيف أن فرضية الجهاد كانت بآية البقرة (كتب عليكم القتال ...) الآية وكان نزولها في السنة الثانية من الهجرة ... والله أعلم .

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٦ : ٣٧٧) .

(٢) البقرة : ٢١٦ ، انظر تفسير الميراثي (٢ : ١٣٢) .

(٣) الحج : ٣٩ — ٤٠ .

ثانياً : بيان قواعد التشريع الخاصة بالجهاد وحكمة تشريع (مفهوم الجهاد)

لا بد لنا قبل الخوض في بيان قواعد التشريع الخاصة بالجهاد وحكمه وتشريعه أن نتعرف على مفهوم الجهاد في الاسلام . حيث ان أعداء الاسلام شوهوا الصورة الحقيقية الواضحة . والغاية السامية من الجهاد . ورموها في صورة بشعة من شراسة الطبع والخلق والهمجية وسفك الدماء . ولأسف إن كثيراً من أبناء المسلمين والمثقفين بالثقافة الغربية قد انخدعوا وعلقت هذه الصورة البشعة في أذهانهم فوقعوا في الحيرة والشك وقد يعتريهم الحجل والندامة من تاريخهم المجيد الذي كان عنوانه الجهاد .

إن القتال في الاسلام لا يكون قط إلا في سبيل الله . لإعلاء راية الاسلام ونشر دعوته والدفاع عن حربه والحفاظة على المسلمين عامة وبلادهم وممتلكاتهم من الطامعين في اغتصاب خيرات بلادهم أو انتهاك مقدساتهم ونشر مبادئهم . فهو دفاع عن العقيدة وإحقاق الحق وإبطال الباطل ومطاردة الكفر وقطع دابر الظالمين .

والاسلام لم يعمد إلى القتال كوسيلة من وسائل نشره . وإنما كان ذلك تطوراً تقتضيه طبيعة الدعوة واضطرت إليه نتيجة لموقف الكافرين منها ولم يتقرر إلا بعد أن مرت الدعوة الاسلامية بمراحل متعددة وهي :

أولاً : مرحلة الدعوة سرا .

ثانياً : مرحلة الدعوة جهراً .

ثالثاً : مرحلة القتال للدفاع .

رابعاً : مرحلة القتال الخاصة ببعض الأماكن والأزمنة دون غيرها وذلك بمواجهة القوة بالقوة واستخلاص الحقوق المغتصبة والتمكن للحق في غير الأشهر الحرم

والبيت الحرام . قال تعالى ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾^(١) . وقال تعالى ﴿ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾^(٢) .

خامسا : القتال مطلقا في كل زمان ومكان : وهى للتخلص من العدو الداخلى كاليهود والمشركين وتأديب العدو الخارجى كالفرس والروم وتأمين المسلمين على دعوتهم ودولتهم ووطنهم وللتفرغ للإصلاح العام ونشر الدعوة . قال تعالى ﴿ فَإِنْ لَمْ يَغْتَرِزْ لَكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَعُدُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴾^(٣) .

فالجهاد الاسلامى ليس حربا استعمارية كمثل الحروب التى اصطلى العالم بها في القديم والحديث .

إن الخلط بين الجهاد والحروب الاستعمارية خطل في الرأى وجور في الحكم ومخافة للحق وتجن على الإسلام . لأن الحروب الاستعمارية انطلاقا إلى التوسع والتطلع إلى الاحتكار والسلب والاستيلاء على خيرات البلاد والقبض على ينابيع ثروتها وليست لها غاية نبيلة تسوغ ما تقتطفه من جرائم وآثام .

على حين نرى الجهاد لا يذكر إلا مقترنا بلفظ (في سبيل الله) وسبيل الله في المصطلح الاسلامى لفظ جامع لأصول الخيرات شامل لمهمات المبرات . فكل عمل تقوم به للمصالح العامة وسعادة المجتمع ابتغاء لمرضاة الله لا تريد به مغنا أو مكسبا في الحياة العاجلة فهو في سبيل الله فما قيد الشارع الجهاد بهذا الشرط إلا للدلالة على هذا المعنى .

(١) التوبة : ٥ .

(٢) البقرة : ١٩١ — ١٩٣ .

(٣) النساء : ٩١ .

وصدق الله جل وعلا حيث يقول في كتابه الكريم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾^(١) . أ.هـ^(٢) .

وإذا نظرنا في هديه ﷺ وما جاء عنه من التشريعات الحكيمة والتي جعلته بحق أعظم القادة العسكريين الذين عرفوا في التاريخ أدركنا الفرق الشاسع بين الجهاد والحروب الاستعمارية وذلك نظرا للاختلاف الكلي بين قواعدها ومقوماتها .

فمن تلك القواعد التشريعية :

(أ) مبايعته ﷺ لأصحابه على عدم الفرار في الجهاد وربما بايعهم على الموت . قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوِّوِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾^(٣) .

وقال تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا رَحُّوا فَلَا تُلْهُوهُمْ الْأَذْبَارَ . وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ ذُبُرُهُ إِلَّا الْمُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾^(٤) . فلا جماعة إلا ببثبات . وكذلك لا بثبات إلا بجماعة . قال تعالى ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ فِتْنَةً فَاقْبَلُوهَا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾^(٥) أى تتلاشى قوتكم .

(١) النساء : ٧٦ .

(٢) باختصار وتصرف من كتاب الدعوة الاملاحية تأليف فضيلة الشيخ الدكتور السيد محمد علوى مالكي .

(٣) الفتح : ١٠ .

(٤) الانفال : ١٥ — ١٦ .

(٥) الانفال : ٤٥ .

(ب) وأمر المجاهدين بالصبر . وأن يكون القصد من خروجهم إعلاء كلمة الله وإحقاق الحق وإزهاق الباطل ولا يكون خروجهم لبث الفزع والطغيان على العباد والمفاخرة بين الناس لإظهار قوتهم وعدتهم وعتادهم . قال تعالى ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝ ﴾^(١) .

(ج) وكان يشاور أصحابه في أمر الجهاد وأمر العدو وتخير المنازل .

ومن ذلك مشاورته لأصحابه يوم بدر فكان يقول : (أسيروا على) فقام سعد بن معاذ فقال إيانا تريد يا رسول الله . والذي نفسى بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا .

ونزل بدرًا على أدنى ماء إلى العدو ونزلت المياه كلها خلفه بمشورة الحباب ابن المنذر وبنى له عريشا يستظل فيه بمشورة سعد بن معاذ^(٢) .

وكان يتخلف في ساقتهم في المسير ، فيزجى الضعيف ، ويردف المنقطع . وكان أرقى الناس بهم في المسير .

(د) ومن هديه أنه إذا أراد غزوة ورى بغيرها . أخرج البخارى بسنده عن كعب ابن مالك رضى الله عنه (كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها)^(٣) .

وأخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال سمى رسول الله ﷺ الحرب خدعة^(٤) .

(هـ) وكان يبعث العيون يأتونه بخبر عدوه ويطلع الطلائع . وكان إذا لقى عدوه وقف ودعا واستنصر الله . وأكثر هو وأصحابه من ذكر الله^(٥) .

(١) الأنفال : ٤٥ — ٤٧ .

(٢) بهجة المحافل وبغية الامثال (١ : ١٨١ — ١٨٣) .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب الجهاد (٦ : ٤٥٤) .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب الجهاد (٦ : ٤٩٩) .

(٥) انظر بهجة المحافل (١ : ١٨٣) .

(و) وكان ﷺ ينظم الجيش وقسمه إلى ميمنة وميسرة ويجعل في كل جهة كفاً لها قال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ (١) .

(ز) وأخيراً فإن الاسلام لم يشرع القتال لذاته ولا حباً له ، بل شرعه لدرء الشر ، ودفع البغى والعدوان وحماية الدعوة ، وكف الطغيان والباطل عنها . لذلك فهو يفضل استخدام الطرق السلمية لتحقيق أهدافه وغاياته .

فمن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : (اغزوا باسم الله في سبيل الله ، فاتلوا من كفر ولا تغلوا (٢) ولا تغدروا ، ولا تمثلوا (٣) ، ولا تقتلوا وليداً . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال . فأيتهم ما أجبوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ادعهم إلى الاسلام فإن أجبوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم مال المهاجرين وعليهم ماعلى المهاجرين ، فإذا أبوا أن يتحولوا منها فاخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء ، الا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فسلهم الجزية ، فإن هم أجبوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم) . الحديث (٤) .

ولقد حرم الاسلام محاربة غير المحاربين . فهو لا يميز قتل المرأة والصبي والشيخ والعجزة أو من انقطعوا للعبادة .

(١) الصف : ٤ .

(٢) لا تغلوا : أى لا تخونوا فى الغنيمة .

(٣) لا تمثلوا : لا تشوهوا القتلى بقطع الانوف والاذنان ونحوها .

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب الجهاد والسير (٣ : ١٣٥٧) باب تأمير الامراء على البعوث — تحقيق

محمد فؤاد عبد الباقي .

فعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ولا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ولا تغلوا ، وضموا غنائمكم ، واصلحوا إن الله يحب المحسنين)^{(١)(٢)} .

والجهاد فى الاسلام لا يمتد إلى قتل الحيوان أو تخريب البيوت أو قطع الأشجار . ما لم تكن هذه وسائل لكسب المعركة كالحيوانات التى تساعد فى الحرب أو البيوت والأشجار التى تتخذ حصونا ومعقل .

(١) رواه أبو داود بسند صالح (٢ : ٣٦) .

(٢) انظر كتاب المؤتمر الرابع لجمع البحوث الاسلامية بحث الشيخ محمد أبو زهرة .

حكمة مشروع الجهاد

القتال سنة من سنن الكون منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها فهو أمر فطرى فى الانسان لأن الظلم والعدوان طبيعة البشرية منذ حلت على الأرض . وقد بين القرآن الكريم طبيعة هذا الظلم حيث قال جل شأنه ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (١) .

لذا فإن القوى يحاول أن يتعدى على الضعيف . ولعل هذا هو الأمر السائد اليوم . وهذا الأمر ليس قاصرا على الانسان ، بل لو نظرنا إلى الحيوان الأعجم نجده يدافع عن نفسه إذا اعتدى عليه بدافع غريزة حب البقاء قال ابن خلدون : (أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تنزل واقعة فى الخليقة منذ برأها الله ، وأصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ، فهى إذن أمر طبيعى فى البشر لا تكاد تخلو منه أمة ولا جيل ، وسبب هذا الانتقام فى الأكثر إما غيرة ومنافسة ، وإما عدوان ، وإما غضب لله ولدينه ، وإما غضب للملك وسعى فى تمهيده (٢) .

وقد جاءت الأديان السماوية لتهديب هذه الطبيعة وتقويمها ، دعوة الناس للتعاون والمسالمة لكن الذين اعتنقوا هذه الأديان حرفوها لتلائم طابعهم فاستمر الظلم والعدوان حتى جاء الاسلام بتنظيم دقيق مبدع للجهاد وتحديد لاسبابه وأهدافه ومحاولة لجعل الجهاد وسيلة اذا عجز السلام المحض أن يمنح البشرية الأمن والسلامة . فعلى مر التاريخ لم يسعد قوم إلا بعد أن دافعوا عن أنفسهم وأثبتوا لمن حولهم أنهم يستطيعون حماية الديار حتى لقد ارتبط عز الأقوام بجهادهم (٣) .

(١) ابراهيم : ٢٤ .

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون (ص ٢٧٠ - ٢٧١) ، ط/ دار احياء التراث العربى - بيروت .

(٣) انظر الجهاد فى التفكير الاسلامي (ص ٥٧) للدكتور أحمد شلبى ط/ الثانية ١٩٧٤م ط/ ونشر مكتبة النهضة المصرية .

انظر الجهاد فى التشريع الاسلامي (ص ٤٢ - ٤٣) د. محمود محمد على ط/ أولى ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧م ط/ دار الاتحاد العربى للطباعة القاهرة .

وأخيرا فان الأحكام المثالية التى شرعها تعالى قبل القتال وفى أثناءه لتخفيف
ويلات القتال والنهى عن الاعتداء والعدوان ، لتدل دلالة واضحة على أن الاسلام
ماقصد من تشريع الجهاد ازهاق الأرواح وتخريب الديار والثمار وسلب الأموال
وتعذيب الناس ، وإنما أراد من تشريع الجهاد دفع الشر وحماية المؤمنين ودعوتهم
وبلادهم وأموالهم من العدوان ، وأراد هداية الناس وحسم شرهم لا إبادةهم
وسحقهم^(١) .

(١) انظر كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية — بحث فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة
(ص ٢٤٩) .

ثالثاً : الاحكام المتعلقة بالغزوات من اصلاح والمعاهدات والغنائم والفى وفك الاسرى

لقد أمر الاسلام بالمحافظة على الوفاء بالعهد والميثاق فى الحرب والسلم . حتى إن الله لم يبيح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا على المعاهدين من الكفار كما جاء فى قوله تعالى ﴿ وَإِنْ اسْتَفْضَرْتُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ (١) .

لأن هؤلاء المعاهدين يجب الوفاء بعهدهم ، وعدم نقض موافيقهم قال تعالى ﴿ إِلَّا الدِّينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

ولقد حافظ النبى ﷺ والخلفاء من بعده على العهد حتى إن عهد الحديبية الذى قست شروطه على المسلمين وجاء فيه (على انه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليه ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يرده عليه، إلى آخر ما ورد فيه) قدم عليه الصلاة والسلام على تنفيذه تنفيذاً دقيقاً ، يدل على ذلك أنه بينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف فى الحديد (٣) وقد انفلت إلى رسول الله ﷺ ، فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتليبيه، ثم قال يا محمد قد لجت (٤) القضية بينى وبينك قبل ان ياتيك هذا ، قال : صدقت ، فجعل ينتره بتليبيه ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته ، يامعشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوننى

(١) الانفال : ٧٢ .

(٢) التوبة : ٤ .

(٣) اى يمشى مشى المقيد (رسف) انظر لسان العرب (٩ : ١١٨) .

(٤) قال ابن منظور (وفى حديث الحديبية : قال سهيل بن عمرو : قد لجت القضية بينى وبينك أى وجبت ، قال هكذا جاء مشروحا ، قال : ولا أعرف اصله) . لسان العرب (٢ : ٣٥٥) .

فى دىنى؟ فقال ﷺ (يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا أنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله وإنا لا نغدر بهم)^(١)

فالوفاء بالعهد من فرائض الاسلام مادام العهد معقودا والعهد المؤقت يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته ، وشروط وجوب الوفاء به علينا محافظة العدو المعاهد لنا عليه بخذافيه فإذا خيف من العدو المعاهد لنا أن يخون فى عهده ، وظهرت آية ذلك فى قوله أو عمله فحينئذ يجب على الامام أن ينبذ إليه عهده ، على طريق عادل سوى صريح لاختداع فيه ولا استخفاء ولا خيانة ولا ظلم .

قال تعالى : (وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَلَبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ)^(٢) .

وذلك بأن يعلمهم بفسخه وعدم التقيد به ، قبل حرهم^(٣) .

(١) سيرة ابن هشام بتحقيق مصطفى السقا — ابراهيم الاييارى — عبد الحفيظ شلبى (٣ : ٣٣٢ —

٣٣٣) دار احياء التراث العربى .

(٢) الانفال : ٥٨ .

(٣) انظر كتاب المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية بحث فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله

(ص ٢٤٥ — ٢٤٧) .

الغنائم

الغنيمة : لغة : ما يناله الرجل أو الجماعة بسعى — تقول غنمت الشيء أغنمته غنما إذا أصبته غنيمة والجمع الغنائم^(١) .

وفي عرف الفقهاء : كل ما أخذ من العدو عنوة بطريق القهر والغلبة^(٢) .

وفي هذا يقول الشافعي رحمه الله (ما أخذ من مشرك بوجه من الوجوه فهو على وجهين لا يخرج منهما : الغنيمة : وهي الموجف عليها بالخيال والركاب ولن حضر من غنى أو فقير ، والفىء : وهو ما لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب)^(٣) .
ويقول ابن القيم : (والأرض لا تدخل في الغنائم المأمور بقسمتها بل الغنائم هي الحيوان والمنقول)^(٤) .

وهذه هي التي تخمس لله وللرسول والباقي للغنائمين بينهم .

وقد وضع الحق سبحانه وتعالى تشريعا محكما في توزيع الغنائم حيث قال جل وعلا : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٥) .

قال ابن القيم : (وكان ﷺ إذا ظفر بعده أمر مناديا فجمع الغنائم كلها فبدأ بالأسلاب فأعطاهما لأهلها ، ثم أخرج خمس الباقي فوضعه حيث أراه الله ،

(١) لسان العرب (١٢ : ٤٤٦) .

(٢) راجع تفسير ابن كثير (٢ : ٣١٠) وانظر تفسير القرطبي (١ : ٨) .

(٣) بتصرف واختصار من كتاب الأم للشافعي ، (٤ : ١٣٩) ط/دار المعرفة بيروت .

(٤) راجع زاد المعاد (٣ : ١١٨) .

(٥) الانفال : ٤١ .

وأمره به من مصالح الإسلام ، ثم يرضخ^(١) من الباقي لمن لا سهم له من النساء والصبيان والعبيد ثم قسم الباقي بالسوية بين الجيش ، للفارس ثلاثة أسهم . سهم له ، وسهمان لفرسه ، وللراجل سهم هذا هو الصحيح الثابت عنه^(٢) .

قلت : وهذا ما عليه الجمهور خلافا للأحناف . واحتج الجمهور بما أخرجه البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ جعل للفرس سهمين ولصاحبه سهم^(٣) .

والفء كما سبق أن عرفته : وهو مالم يوجف عليها بخيل ولا ركاب .

قال القرطبى فى الفء هو : (مارجع للمسلمين من أموال الكفار عفوا صفوا من غير قتال ولا إيجاب — كالصلح . والجزية والخراج والعشور المأخوذة من تجار الكفار . ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم أو يموت أحد منهم فى دار الإسلام ولا وارث له ...

وكانت الغنائم فى صدر الإسلام للنبي ﷺ يصنع فيها ما شاء كما قال تعالى فى سورة الأنفال (قل الانفال لله والرسول) ثم نسخ بقوله تعالى (واعلموا انما غنمتم من شىء) الآية .

وأما الفء فقسمته وقسمة الخمس سواء ، والأمر عند مالك فيهما للإمام^(٤) .

قال تعالى ﴿ وَمَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(١) الرضخ : العطية القليلة . انظر لسان العرب (٣ : ١٩) .

(٢) زاد المعاد لابن القيم (٣ : ١٠٠ — ١٠١) .

(٣) أنظر عمدة القارى شرح صحيح البخارى (١٤ : ١٥٤) كتاب الجهاد باب (سهام الفرس) .

(٤) تفسير القرطبى (١٨ : ١٤ — ١٥) .

شَيْءٍ قَدِيرٍ . مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ كَيْ لَا يَكُونَ ذُوْلَةً يَتَرِ الْأَغْيَا مِنْكُمْ وَمَا أَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾ .

والذى عليه الجمهور أن الفىء لجميع المسلمين الفقير والغنى وأن الامام يعطى منه للمقاتلة وللحكام والولاة وينفق منه فى النوائب التى تنوب المسلمين كبناء القناطر وإصلاح المساجد وغير ذلك ولا خمس فى شىء منه (٢) .

ولقد نهى رسول الله ﷺ عن الغلول .

والمراد من الغلول : الخيانة فى المغنم — وقد نقل ابن حجر سبب تسميته بذلك فقال : (قال ابن قتبية : سمى بذلك لأن آخذه يغله فى متاعه أى يخفيه ونقل النووى الإجماع على أنه من الكبائر) (٣) . قال تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِتُبَيِّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غُلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٤) .

أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قام فىنا رسول الله ﷺ فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ، قال لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء (٥) على رقبته فرس له حمحمة (٦) يقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك ، وعلى رقبته بغير له رغاء (٧) يقول

(١) الحشر : ٦ — ٧ .

(٢) بداية المجتهد لابن رشد القرطبى (١ : ٣٤٢) ط/المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

(٣) فتح البارى (٦ : ٥٢٥) ، شرح النووى (١٢ : ٢١٧) .

(٤) آل عمران : ١٦١ .

(٥) ثغاء : صوت الشاة .

(٦) حمحمة : صوت الفرس عند العلف وهو دون الصهيل .

انظر فتح البارى (٦ : ٥٢٦) .

(٧) رغاء : صوت البعير .

يا رسول الله أغثنى ، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك وعلى رقبته صامت^(١)
فيقول : يا رسول الله أغثنى . فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك وعلى رقبته
رقاع تخفق^(٢) فيقول : يا رسول الله أغثنى فأقول : لا أملك لك من الله شيئا قد
أبلغتك^(٣) .



(١) صامت : أى الذهب والفضة .

(٢) رقاد تخفق : أى تتعقعق وتضطرب إذا حركتها الرياح . وقيل معناه تلمع والمراد بها الثياب .

(٣) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٦ : ٥٢٦) .

الأسرى ومعاملتهم في الإسلام

الأسير : مشتق من الاسار وهو القيد الذى يشد به الحمل فسمى أسيرا لأنه يشد وثاقه — فهو أسير ومأسور والجمع أسرى وأسار .

والأسير : الأخير وأصله من ذلك . وكل محبوس فى قد أو سجن أسيرا^(١) .

قال تعالى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا مِنَّمَا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٢) .

وسبب نزول هذه الآيات : ما أخرجه الامام مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال ابن عباس : فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر (ما ترون فى هؤلاء الاسارى ؟) فقال أبو بكر : يا نبي الله . هم بنو العم والعشيرة . أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار . فعسى الله أن يهديهم للإسلام . فقال رسول الله ﷺ : (ما ترى يا ابن الخطاب ؟) قلت : لا والله يا رسول الله . ما أرى الذى رأى أبو بكر . ولكنى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم . فتمكن علينا من عقيل فيضرب عنقه . وتمكنى من فلان (نسيبا لعمر) فاضرب عنقه . فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها^(٣) . فهوى رسول الله ﷺ ما قاله أبو بكر ولم يهو ما قلت . فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ

(١) لسان العرب (٤ : ١٩) .

(٢) الانفال : ٦٧ — ٦٩ .

(٣) يعنى أشرافها .

وأبو بكر قاعدان يكيان قلت يا رسول الله . أخبرني من أى شيء تبكى أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تبكيت لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ : (أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء . لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قرية من نبي الله ﷺ) وأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ . إلى قوله تعالى : فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا .. فأحل الله الغنيمة لهم ^(١) .

فكانت تلك الآيات عتابا من الله عز وجل لأصحاب نبيه ﷺ .

(والمعنى : ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذى أوجب أن يكون للنبي ﷺ أسرى قبل الاثخان . والاثخان : كثرة القتل . والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ولا أراد قط عرض الدنيا . وإنما فعله جمهور مباشرى الحرب ، فالتوبيخ والعتاب إنما كان متوجها بسبب من أشار على النبي ﷺ بأخذ الفدية — هذا قول المفسرين وهو الذى لا يصح غيره ، وجاء ذكر النبي ﷺ حين لم ينه عنه حين رآه من العريش وأذكره سعد بن معاذ وعمر بن الخطاب وعبد الله بن رواحه ، ولكنه عليه السلام شغله بغت الأمر ونزول النصر فترك النهي عن الاستبقاء ولذلك بكى هو وأبو بكر حين نزلت الآيات والله أعلم) ^(٢) .

أقول : ولعل عتاب الله تعالى لنبيه ﷺ كان لأنه قبل الفداء قبل أن ينزل القرآن ولم يكن ذلك فى الشرائع السابقة . وهذا لا ينقص من قدر رسول الله ﷺ لأنه من باب خلاف الأول وحسنات الأبرار سيئات المقربين .

قال القرطبي : فأعلم الله سبحانه وتعالى نبيه أن قتل الأسرى الذين فودوا بيدر كان أول من فذائهم . وقال ابن عباس رضى الله عنه كان هذا يوم بدر والمسلمين يومئذ قليل فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل بعد

(١) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٣ : ١٣٨٥) .

(٢) انظر تفسير القرطبي (٨ : ٤٦ — ٤٨) .

هذا في الأسارى ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا . ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ يَبْغِضَ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (١) .

اختلف العلماء في تأويل هذه الآية ف قيل إنها منسوخة . وهى فى أهل الأوثان لا يجوز أن يفادوا ولا يمن عليهم وقيل إنها فى الكفار جميعا وهى منسوخة . وقيل إنها ناسخة .

والذى ارجحه ما قاله القرطبى أن الآية محكمة والامام مخير فى كل حال . رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس وقاله كثير من العلماء منهم ابن عمر والحسن وعطاء ، وهو مذهب الامام مالك والشافعى والثورى والأوزاعى وأبى عبيد وغيرهم وهو الاختيار . لأن النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين فعلوا كل ذلك ، فقتل النبى ﷺ عقبه بن معيط والنضر بن الحارث يوم بدر صبرا ، وفادى سائر أسارى بدر ، ومن على ثمامة بن أثال الحنفى ، وهبط عليه (عليه السلام) قوم من أهل مكة فأخذهم النبى ﷺ ومن عليهم وقد من على سبى هوازن . وهذا كله ثابت فى الصحيح... (٢) .

قال أبو جعفر النحاس : (وهذا على أن الآيتين محكمتان معمول بهما وهو قول حسن لأن النسخ إنما يكون بشئ قاطع فأما إذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى فى القول بالنسخ إذ كان يجوز أن يقع التعبد إذا لقينا الذين كفروا قبل الأسر قتلناهم فإذا كان الأسر جاز القتل والمفاداة والمن على ما فيه الصلاح للمسلمين وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعى وأبى عبيد وبالله التوفيق) (٣) أ.هـ .

(١) محمد ﷺ : ٤ .

(٢) تفسير القرطبى (١٦ : ٢٢٨)

(٣) الناسخ والمنسوخ لآبى جعفر النحاس (ص ٢٢٢) .

معاملة الأسير :

لقد دعت تعاليم الإسلام إلى الرفق بالأسارى والرحمة بهم والعناية بشأنهم ، ولم يعرف التاريخ معاملة حسنة للأسير كمعاملة المسلمين الأولين للأسرى .

قال عليه الصلاة والسلام فى أسارى بدر (استوصوا بالأسارى خيرا)^(١) .

وإذا كان الإسلام يأمر بشد الوثاق على من أسر من الأعداء فهذا كناية عن قيد الأسر . والشد المشار إليه إن دل على شئء فإنما يدل على أن الأسير يجب منعه من الفرار .

وكان الأسير فى صدر الإسلام يوضع فى المسجد كما حبس ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة فربط بسارية من سواري المسجد^(٢) .

والقرآن الكريم حض على إطعام الأسرى . قال تعالى ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴾^(٣) .

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير عن ابى عزيز (حسن) .

(٢) شرح مسلم (١٢ : ٨٧) .

(٣) الدهر : ٨ — ١٠ .

الختاتمة

الحمد لله الذى بفضلله تتم الصالحات . والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

فبعد أن أنهيت هذا البحث أود أن أخص أهم ماورد فيه من البحوث والاستنتاجات .

أولا : بعد أن عرفت كلا من المدنى والمكى رجحت أشهر الأقوال وهو الذى اتخذ الزمان حدا ضابطا .

وهو (ان المدنى مانزل بعد الهجرة . وإن كان نزوله بمكة . والمكى مانزل قبل الهجرة) . وبينت الضوابط التى يعرف بها المدنى والفرق بين تلك الضوابط وضوابط المكى . وتحدثت عن خصائص السور والآيات المدنية من الناحية الأسلوبية والموضوعية .

وقد يتساءل شخص ما هى الفائدة من معرفتنا بالمدنى والمكى ؟

أقول إن معرفتنا بالمدنى والمكى من القرآن له أهميته الكبرى : —
(١) أنه به يتميز الناسخ والمنسوخ فى كتاب الله . فلو وردت آيتان متعارضتان وإحدهما مكية والأخرى مدنية فإننا نحكم بنسخ الثانية للأولى لتأخرها عنها .

(٢) أنه هو السبيل لمعرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام والوقوف على سنة الله الحكيمة فى تشريعه بتقديم الأصول على الفروع والاجمال على التفصيل .

ثانيا : بينت السور المتفق على مدنيها والمختلف فيها .

ولابد من الاشارة إلى أن العمدة فى معرفتنا للمدنى والمكى هو النقل الصحيح عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين الذين كانوا يشاهدون أحوال الوحي والتنزيل . وكذلك عن التابعين الآخذين عنهم وأنه لم يرد عن النبى ﷺ فى ذلك قول .

ثالثا : بينت الآيات المدنية في السور المكية والآيات المكية في السور المدنية .

ولابد من الإشارة إلى أن السورة قد تسمى مكية أو مدنية بحسب الغالب فيها من الآيات .

رابعا : قمت بالرد على الشبه التي أثبت حول المدنى والمكى من القرآن الكريم .

خامسا : تحدثت عن المقاصد الأساسية للسور والآيات المدنية :

(١) التشريعات التفصيلية والأحكام العملية في العبادات والمعاملات . وغالبا ما كنت أتطرق للحكمة التشريعية في تلك العبادات والتي حفل بها القسم المدنى .

(٢) أهل الكتاب . إلى من ينتمون ؟ ومتى هاجروا إلى الجزيرة العربية ؟ وماهى أشهر صفاتهم الذميمة التى جاء بها القرآن الكريم ؟ ومحااجة القرآن لهم .

(٣) ثم تحدثت عن ضلال المنافقين وحقيقة أمرهم وأشهر صفاتهم القبيحة التى وردت فى القرآن الكريم . وما أعد لهم من العذاب والنكال وماهو موقف الرسول ﷺ تجاههم . وذكرت أشهر مواقفهم العدائية .

(٤) وبينت أيضا قواعد الجهاد وحكمة تشريعه والأحكام المتعلقة بالحروب والغزوات والصلح والمعاهدات .

سادسا : لابد من التنبيه إلى أن المصاحف التى بين أيدينا قد كتب فى مطلع كل سورة (مدنية أو مكية أو أنها مدنية بها آيات مكية أو العكس) ... ولا نستطيع أن نسلم به ولا يمكن الاعتماد عليها فى الحكم على مدنية السورة أو مكيها . وأقترح أن تشكل لجنة من كبار العلماء المتخصصين فى التفسير وعلوم القرآن لدراسة تلك الأقوال المذكورة فى مطلع كل سورة وإعادة وضعها فى المصحف . ولا يمكن أن يقوم بهذا العمل فرد واحد لأهمية هذا الموضوع حيث يتعلق بكتاب الله .

واضرب على ذلك مثلاً . سورة الرحمن يشير المصحف الذى بين يدي أنها
مدنية (وهو طبعة دار المصحف) بالقاهرة « المصحف المعلم » .

وكذلك (مصحف الحرمين) طباعة (شركة الشمري بالقاهرة) طبع
بتصريح من مشيخة الأزهر . ومن خلال دراستي للآثار وأقوال العلماء من
المفسرين وغيرهم رجحت أن سورة الرحمن مكية . ومن الأمثلة كذلك سورة
يوسف عليه السلام^(١) .

وأخيراً أبتهل إلى الله العلى القدير أن يفيض علينا من بركات القرآن ولا
يحرمننا من خيراته ويرزقنا فهما فى كتابه العزيز يرضاه عنا . ويرزقنا تلاوته آتاء الليل
وأطراف النهار . وأن يغفر لنا ولوالدينا ولأهلينا ولمشايخنا ولكل من يتمسك بحبل الله
المتين ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ
أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾^(٢)
والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .. وصلى الله على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه باحسان إلى يوم الدين .. آمين ..

رجاء

هذا وأرجو من القارئ الكريم الذى يطلع على هذا الكتاب ويجد ملاحظات
عليه أن يصلحها ويرشدني إلى إصلاحها وله من الله تعالى الأجر والثواب ومنى
خالص الدعاء وجزيل الشكر ..

والله الموفق

(١) انظر (ص ١٣٩) من بحثنا هذا .

(٢) الاحقاف : ١٥ .

فهرس الاعلام

الموضوع	صفحة
(١) أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن النجيبى الحرالى (ت ٦٣٧)	١١
(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤)	٢٢
(٣) ميمون بن مهران (ت ١١٧)	٢٢ — ٢٣
(٤) بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤)	٢٩
(٥) أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى (ت ٤٠٣)	٢٩
(٦) الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى (ت ٤٠٦)	٣١
(٧) عكرمة أبو عبد الله مولى ابن عباس رضى الله عنه	٥٦
(٨) محمد بن أيوب بن يحيى الضريسى (ت ٧٤٨)	٥٧
(٩) على بن أبى طلحة (ت ١٤٣)	٥٧
(١٠) هبة الله بن سلامة	٥٨
(١١) عقبة بن عامر الجهنى	١١٤
(١٢) الحسين بن الفضل بن عمير البجلي (ت ٢٨٢)	١٤٣
(١٣) جندب الخير الازدى	١٥٦
(١٤) أبو عمر عثمان بن سعيد الدارمى	١٧٩
(١٥) عبد الله بن رواحه الأنصارى	١٨٤
(١٦) سعد بن هشام بن عامر الأنصارى	١٨٤
(١٧) فروة بن مسيك المرادى	١٨٧
(١٨) خباب بن الارت (ت ٣٧)	١٩٨
(١٩) عبد الله بن سلام (ت ٤٣)	٢٠٣
(٢٠) أبو سعد البقال	٢٠٦
(٢١) يوسف بن ماهك (ت ١٠٣)	٢١١
(٢٢) خالد الجهنى (ت ٧٨)	٢١٢
(٢٣) الشهاب الخفاجى	٢١٦
(٢٤) أم بشر بن البراء	٢٧٥
(٢٥) محمد بن عمر الواقدى	٢٧٦
(٢٦) عاصم بن بهدلة الأسدى (ت ٨٣٣)	٢٧٨
(٢٧) أبو أمامة الباهلى	٣١٣

ثبت المراجع

- (١) الاتقان في علوم القرآن .
للمحافظ جلال الدين السيوطي
دار الفكر بيروت .
- (٢) أثر تطبيق الحدود في المجتمع .
طبعة جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية — المجلس الاعلى
ط/١٤٠١ هـ .
- (٣) الأحكام السلطانية والولايات الدينية .
على بن محمد بن حبيب الماوردي
ط/٣ القاهرة شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٩٣ هـ .
- (٤) أحكام القرآن .
لابي بكر محمد بن عمر بن العربي .
تحقيق على محمد البجاوي — ط/عيسى البابي الحلبي .
- (٥) احياء علوم الدين .
للامام أنى حامد الغزالي
ط/دار إحياء الكتب العربية البابي الحلبي وشركاه .
- (٦) ارجوزة في المكى والمدني .
بدر الدين الحلبي التادفي
مخطوط في مركز البحث العلمي مصور عن المكتبة الظاهرية تحت رقم
٧٦٥٩ .
- (٧) ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود) لقاضي
القضاة أبي السعود محمد العمادى ت ٩٥١ هـ) — دار إحياء التراث
العربي — لبنان .

- (٨) الاستيعاب في معرفة الاصحاب .
للشيخ ابن عبد البر الترمي القرطبي ت ٤٦٣ هـ . طبع على هامش
الاصابة ط/الأولي ١٣٢٨ هـ — دار صادر بيروت .
- (٩) أسباب النزول .
لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري ت ١٦٨ هـ
ط/دار الفكر — مكتبة الرياض الحديثة .
- (١٠) أسباب النزول
محمد أسعد العراقي
مخطوط مكتبة دبلن برقم ٥١٩٩ ومنه نسخة مصورة لدى مركز البحث
العلمي بأم القرى .
- (١١) أسباب النزول .
للواحدى
تحقيق الأستاذ سيد صقر
اسعاف أهل الاسلام بوظائف الحج إلى بيت الله الحرام
للعلامة الشيخ حسن مشاط
ط/٣ ، ١٣٩٧ هـ .
- (١٢) الاعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره
د . محمد أحمد يوسف القاسم
ط/ ، ١٣٩٩ هـ .
- (١٤) اعجاز القرآن .
للأقلاني
تحقيق سيد صقر — طبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٣ م .
- (١٥) الاصابة في تمييز الصحابة
لابن حجر العسقلاني
بهامشه الاستيعاب ط/الأولي ١٣٢٨ هـ دار صادر بيروت .

- (١٦) الاعلام
خير الدين الزركلى
ط/دار العلم للملايين ، ط/الرابعة ١٩٧٩ م .
- (١٧) اعلام الموقعين عن رب العالمين
محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ت ٧٥١ هـ
المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ١٣٧٤ هـ .
- (١٨) الام
للإمام محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ — ٢٠١)
ط/ دار المعرفة بيروت — ط/الثانية ١٣٩٣ هـ .
- (١٩) البحر المحيط
للإمام محمد بن يوسف بن علي بن حيان الاندلسي الغرناطي
المتوفى سنة ٧٥٤ هـ بالقاهرة .
الناشر مكتبة ومطابع النصر الحديث — الرياض .
- (٢٠) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع
للإمام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي ت ٨٧ هـ
ط/الاولى ١٣٢٨ هـ الناشر دار الكتاب العربي — لبنان .
- (٢١) بداية المجتهد
لابن رشد القرطبي
ط/دار المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
- (٢٢) البداية والنهاية
للحافظ ابن كثير ت ٧٧٤ هـ
ط/مكتبة المعارف بيروت — ط الرابعة ١٩٨١ م
- (٢٣) البرهان في علوم القرآن
بدر الدين الزركشي
ط/٢ عيسى البابي الحلبي مصر سنة ١٣٩١ هـ تحقيق محمد أبو
الفضل ابراهيم

- (٢٤) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب
للعلامة محمود شكري الألوسي
شرح محمد بهجة الأثري ط/٣ القاهرة دار الكتب ١٣٤٢ هـ .
- (٢٥) بنو إسرائيل في القرآن والسنة
د . محمد سيد الطنطاوى
ط/ الاولى ١٣٨٩ هـ توزيع دار حراء — القاهرة .
- (٢٦) بهجة المخافل وبغية الأمثال في تلخيص المعجزات والسير والشمائل
يحيى بن أبي بكر العامري ت ٨٩٣ هـ
المدينة المنورة — المكتبة العلمية
- (٢٧) بينات المعجزة الخالدة
د . حسن ضياء الدين عتر
ط/دار النصر — حلب — الطبعة الأولى ١٩٧٠ م .
- (٢٨) تاج العروس من جواهر القاموس .
للعلامة محمد بن محمد مرتضي الزبيدي ت ١٢٠٥ هـ
ط/منشورات دار مكتبة الحياة بيروت — لبنان .
- (٢٩) تاريخ ابن معين رواية الدورى
تحقيق د . أحمد محمد نور سيف — ط/الأولى — مركز البحث العلمي
جامعة أم القرى ١٣٩٩ هـ .
- (٣٠) تاريخ بغداد أو مدينة السلام
أحمد بن علي الخطيب البغدادي ت ٤٦٣ هـ
بيروت — دار الكتاب العربي
- (٣١) تاريخ العرب قبل الاسلام
د . جواد على
ط/بيروت ١٩٦٨ م .
- (٣٢) تأملات في تفسير سورة النور
د . محمد أحمد يوسف القاسم
ط/الاولى ١٣٩٩ هـ — دار الطباعة المحمدية .

- (٣٣) التسهيل لعلوم التنزيل
لابن جزي الكلبي
ط/الثانية ١٣٩٣ هـ — دار الكتاب العربي .
- (٣٤) تفسير الدر المنثور
للسيوطي
ط/دار المعرفة للطباعة والنشر — بيروت
- (٣٥) تفسير القرآن العظيم
لابن كثير ت ٧٧٤ هـ
ط/دار الفكر — بيروت .
- (٣٦) التفسير الكبير
فخر الدين الرازي
ط/٢ دار الكتب العلمية — طهران .
- (٣٧) تفسير المراغي
أحمد مصطفى المراغي
ط/٣ القاهرة — مكتبة الحلبي ١٣٩٤ هـ .
- (٣٨) تلخيص المستدرك
للذهبي
مطبوع بذيّل المستدرك — ط/دار الكتاب العربي — بيروت .
- (٣٩) تهذيب التهذيب
لابن حجر العسقلاني
دائرة المعارف النظامية — الدكن — حيدر أباد — الهند ط/١ ،
١٣٢٥ هـ .
- (٤٠) جامع البيان عن تأويل آي القرآن
لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري م ٣١٠ هـ
ط/الثالثة ١٣٨٨ هـ — مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر .

- (٤١) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)
 لأبي عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي
 ط/٢ دار الكتب المصرية ١٣٥٦ هـ .
- (٤٢) الجهاد في التشريع الاسلامي
 د . محمود محمد علي
 ط/الاولى ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م — ط/دار الاتحاد العربي للطباعة
 بالقاهرة .
- (٤٣) الجهاد في التفكير الاسلامي
 د . أحمد شلبي
 ط/الثانية ١٩٧٤ م — نشر مكتبة النهضة المصرية .
- (٤٤) حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الرازي على تفسير
 البيضاوي ط/المكتبة الاسلامية أزميز — تركيا .
- (٤٥) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار صلى الله عليه وآله
 المصطفين الأخيار .
- عبد الرحمن بن علي بن الديع الشيباني
 دمشق مطبعة محمد هاشم الكتبي .
- (٤٦) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة
 للسيوطي
 المطبعة الشرفية ١٣٢٧ هـ — القاهرة .
- (٤٧) الدر المنثور في التفسير بالمأثور
 للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي ت ٩١١ هـ
 ط/دار المعرفة للطباعة والنشر — بيروت .
- (٤٨) الدعوة الاصلاحية .
- الدكتور السيد محمد علوي مالكي
 الرحيق المختوم (٤٩)
- الشيخ صفى الرحمن الماركفوري
 ط/الاولى ١٤٠٠ هـ منشورات رابطة العالم الاسلامي .

- (٥٠) روائع البيان تفسير آيات الأحكام
للشيخ محمد على الصابوني
ط/١٩٣١ م دار القرآن الكريم — الكويت .
- (٥١) روح الصلاة في الاسلام .
للاستاذ عفيف عبد الفتاح طيارة
ط/الثامنة — دار العلم للملايين — بيروت .
- (٥٢) روح المعاني .
للألويسى البغدادى
دار الطباعة المنيرية — تصوير دار إحياء التراث العربى — بيروت .
- (٥٣) زاد المعاد في هدى خير العباد
لابن القيم الجوزية
تحقيق شعيب الانزاووط — عبد القادر الانزاووط — ط/الثانية
١٤٠٢ هـ .
مؤسسة الرسالة .
- (٥٤) سنن ابن ماجه
للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢١٧ — ٢٧٥ هـ)
ط/دار إحياء الكتاب العربى — عيسى البابى الحلبي .
- (٥٥) سنن أبي داود
لأبي داود السجستاني
ط/الاولى ١٣٧١ هـ — مطبعة البابى الحلبي مع تعليق الشيخ أحمد
سعد على
سنن الترمذي
- (٥٦) لأبي عيسى الترمذي المتوفى ٢٧٩ هـ
تحقيق أحمد شاكر — نشر المكتبة الاسلاميه لصاحبها الحاج رياض
الشيخ .

- (٥٧) سنن الدارقطني
الدارقطني
تحقيق السيد عبد الله هاشم يماني المدني — ط/دار المحاسن القاهرة
١٣٨٦ هـ .
- (٥٨) سنن النسائي .
بشرح الحافظ السيوطي
ط/دار إحياء التراث العربي — بيروت .
- (٥٩) سير أعلام النبلاء .
للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي
مؤسسة الرسالة — ط/١ بيروت ١٤٠١ هـ .
- (٦٠) السيرة النبوية
لإبن هشام
تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الانباري وعبد الحفيظ شلبى — دار
إحياء التراث العربي — بيروت .
- (٦١) السيرة النبوية
للشيخ أبو الحسن على الندوى
ط/دار الشروق — ط/الثانية ١٩٧٩ م .
- (٦٢) شرح فتح القدير
لإبن الهمام
المطبعة الأميرية .
- (٦٣) شذرات الذهب
عبد الحى بن أحمد بن العماد الحنبلى ت ١٠٨٩ هـ
القاهرة — مكتبة القدسي ١٣٥٠ هـ .
- (٦٤) شريعة الله الخالدة
الدكتور السيد محمد علوى المالكي

- (٦٥) الصحاح (للجوهري)
بتحقيق أحمد عبد الغفور عطار — ط/الثالثة ١٤٠٢ هـ .
- (٦٦) صحيح ابن خزيمة
للامام محمد بن اسحاق بن خزيمة ت ٣١١ هـ
تحقيق د . محمد مصطفى الاعظمي — ط/المكتب الاسلامي .
- (٦٧) صحيح البخاري
محمد بن اسماعيل البخاري
طبع مصطفى الباي الحلبي وأولاده بمصر ط/الاولى ١٣٨٣ هـ .
- (٦٨) صحيح مسلم
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي — دار إحياء التراث العربي — بيروت
ط/الأولى ١٣٧٤ هـ .
- (٦٩) صحيح مسلم
شرح الامام النووي
ط/٢ دار الفكر — بيروت ١٣٩٢ هـ
- (٧٠) الصحيح المسند في أسباب النزول
مقبل الوداعي
ط/مكتبة المعارف — الرياض — ط/الأولى ١٤٠٠ هـ .
- (٧١) صفوة التفاسير
للشيخ محمد علي الصابوني
ط/الرابعة ١٤٠٢ هـ — دار القرآن الكريم — بيروت .
- (٧٢) صيد الخاطر
للامام ابن الجوزي
راجعته على الطنطاوي — حققه ناجي الطنطاوي — ط/دار الفكر بدمشق
ط/الثانية ١٣٩٨ هـ .
- (٧٣) الطبقات الكبرى
لابن سعد
ط/دار صادر — بيروت

- (٧٤) طريق المهجرتين وباب السعادتين
للامام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية
تحقيق الشيخ عبد الله الأنصاري — مطابع الدوحة الحديثة .
- (٧٥) العبادة أحكام وأسرار
للدكتور عبد الحليم محمود
ط/٢ دار الكتاب اللبناني — بيروت ١٩٧٥ م .
- (٧٦) العبادة في الاسلام
د . يوسف القرضاوى
ط/مؤسسة الرسالة ، ط/التاسعة ١٤٠٢ هـ .
- (٧٧) علوم القرآن
د . عبد المنعم النمر
ط/الأولى دار الكتاب المصري — دار الكتاب اللبناني .
- (٧٨) علوم القرآن الكريم
للدكتور محمد أحمد يوسف القاسم وآخرون
ط/الأولى ١٤٠١ هـ مطبعة الحضارة العربية بالقاهرة
- (٧٩) عمدة القارى شرح صحيح البخارى
للعامة بدر الدين أبي محمد محمود العيني الحنفى
دار الطباعة العامة — الشركة الصحافية العثمانية في دار السلطنة
السنة ١٣٠٨ هـ .
- (٨٠) غاية النهاية في طبقات القراء
لأبي الخير شمس الدين الجزرى ت ٨٣٣ هـ .
ط/١ القاهرة — مكتبة الخانجي ١٩٣٣ م .
- (٨١) فتح الباري
للمحافظ أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلانى
تحقيق ومراجعة ابراهيم عطوة عوض — مطبعة مصطفى البانى الحلبي
وأولاده
بمصر ط/الأولى ١٣٨٣ هـ .

- (٨٢) الفتح الرباني
أحمد عبد الرحمن البنا
الناشر دار الحديث — القاهرة ط/الثانية .
- (٨٣) فتح القدير
محمد بن علي الشوكاني ت ٢١٥٠ هـ
مصطفى الباي الحلبي بالقاهرة ١٣٤٩ هـ .
- (٨٤) الفتوحات الالهية
سليمان بن عمر العجلي المعروف بالجمل
ط/عيسى الباي الحلبي — القاهرة .
- (٨٥) فضائل القرآن لابن كثير
وهو ذيل تفسير الحافظ لابن كثير ت ٧٤٤ هـ
ط/دار الفكر
- (٨٦) فقه الزكاة
د . يوسف القرضاوى
مؤسسة الرسالة — ط/الخامسة ١٤٠١ هـ .
- (٨٧) فقه السيرة
للشيخ محمد الغزالي
ط/السادسة — دار الكتب الحديثة .
- (٨٨) الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامى
لمحمد بن الحسن الحجوى الفاسى
الناشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة
- (٨٩) الفوائد
محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ت ٧٥١ هـ
دار مصر للطباعة — طبع على نفقة عمر عبد الجبار
- (٩٠) في ظلال القرآن
للامام الشهيد سيد قطب
دار لإحياء التراث العربي ط/٧ سنة ١٣٩١ هـ .

- (٩١) قادة الأديان وأقوامهم
لتوماس كارليل
ط/نيويورك ١٩١٩ م .
- (٩٢) القرآن المعجزة الكبرى
محمد أبو زهرة
ط/دار الفكر العربي
- (٩٣) الكامل في التاريخ
للامام العلامة أبي الحسن على المعروف بابن الأثير م ٦٣٠ هـ
ط/الثانية ١٣٨٧ هـ دار الكتاب العربي — لبنان .
- (٩٤) كتاب المناسك وأماكن طرق الحج
تحقيق الشيخ حمد الجاسر
من منشورات وزارة الحج والإوقاف ١٤٠١ هـ .
- (٩٥) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل
لأبي القاسم جار الله محمود الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧ — ٥٣٨ هـ)
ط/الاولى ١٣٩٧ هـ دار الفكر .
- (٩٦) كشف الغمة عن جميع الأمة
لأبي المواهب عبد الوهاب الشعراني الانصارى
ط/الأخيرة ١٣٧٠ هـ الباني الحلبي — القاهرة .
- (٩٧) كشف القناع على متن الاقناع
للشيخ منصور بن يونس البهوتي ت ١٠٥١ هـ
مطبعة الحكومة بمكة ١٣٩٤ هـ .
- (٩٨) لباب النقول في أسباب النزول
جلال الدين السيوطى
دار إحياء العلوم — بيروت ط/٣ سنة ١٤٠٠ هـ .
- (٩٩) لسان العرب
لابن منظور
ط/دار صادر — بيروت

- (١٠٠) مجموع أمهات المتون
مطبعة الباي الحلبي بمصر ط/الرابعة ١٣٦٩ هـ .
- (١٠١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)
للعلامة محمد جمال الدين القاسمي
ط/الأولى عيسى الباي الحلبي ١٣٧٩ هـ ، تعليق وتخرىج محمد فؤاد
عبد الباقي .
- (١٠٢) محاضرات في الثقافة الاسلامية
للاستاذ أحمد محمد جمال
- (١٠٣) محاضرات في النصرانية
للشيخ محمد أبو زهرة
ط/الرابعة ١٣٩٢ هـ طبع ونشر دار الفكر العربي .
- (١٠٤) مختصر المنذرى على سنن أبي داود .
للمحافظ عبد العظيم المنذري .
- تحقيق محمد حامد الفقي مكتبة السنة المحمدية بالقاهرة .
- (١٠٥) المدخل لدراسة القرآن الكريم .
الدكتور محمد محمد أبو شهبه
٢ مطابع القاهرة الحديثة ١٩٧٣ م .
- (١٠٦) المدخل لدراسة القرآن والسنة والعلوم الاسلامية .
د . شعبان محمد اسماعيل .
ط/دار الانصار بالقاهرة ط/الأولى ١٤٠٠ هـ .
- (١٠٧) المستدرك على الصحيحين .
للأمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري
بيروت دار الكتاب العربي .
- (١٠٨) مسند أبي داود الطيالسي .
نسخة مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ١٣٢١ هـ .

- (١٠٩) مسند الامام أحمد
للإمام أحمد بن حنبل الشيباني
دار صادر — بيروت .
- (١١٠) المستشرقون بين الانصاف والعصبية .
للدكتور السيد محمد علوي المالكي
مطابع سحر ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- (١١١) المصنف
لِلْحَافِظِ أَبِي بَكْرٍ عَبْدِ الرَّزَّاقِ الصَّنْعَانِي (١٢٦ — ٢١١ هـ)
تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي — من منشورات المجلس العلمي
ط/الأولى ١٣٩٠ هـ ، المكتب الاسلامي — لبنان .
- (١١٢) معالم التنزيل تفسير البغوي
للأمام البغوي ت ٥١٦ هـ
ط/الأولى مطبعة المنار بمصر ١٣٤٧ هـ على هامش تفسير ابن كثير .
- (١١٣) معجم البلدان
لياقوت الحموي
ط/دار الكتاب العربي بيروت
- (١١٤) مغنى المحتاج إلى معرفة الفاظ المنهاج
للأمام شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني الخطيب ت ٩٧٧ هـ .
مطبعة البابي الحلبي ١٩٥٨ م القاهرة .
- (١١٥) المغنى
ابن قدامة .
- (١١٦) مفردات القرآن للاصفهاني .
الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني
الناشر مكتبة الانجلو المصرية .
- (١١٧) مقدمة ابن خلدون
ط/دار إحياء التراث العربي — بيروت .

- (١١٨) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ
للاستاذ أحمد الشريف
- (١١٩) الملل والنحل
لشهرستاني ت ٢٤٨ هـ
- على هامش الفصل لابن حزم — مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده
بالقاهرة .
- (١٢٠) مناهل العرفان في علوم القرآن
عبد العظيم الزرقاني
ط/٢ عيسى البابي الحلبي بالقاهرة
- (١٢١) المؤتمر الرابع لمجمع البحوث الاسلامية (في مقال لعبد الله بن كنون)
رجب ١٣٨٨ هـ القاهرة ط/المدني .
- (١٢٢) مؤتمر رسالة المسجد
ط/رابطة العالم الاسلامي ١٣٩٥ هـ .
- (١٢٣) الموافقات في أصول الشريعة
لأبي اسحاق الشاطبي
- (١٢٤) ميزان الاعتدال
لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي
دار المعرفة — بيروت — لبنان .
- (١٢٥) الناسخ والمنسوخ
لأبي القاسم هبة الله بن سلامة
ط/الثانية البابي الحلبي ١٣٨٧ هـ .
- (١٢٦) الناسخ والمنسوخ .
لأبي جعفر النحاس
مطبعة السعادة ط/الأولى ١٣٢٣ هـ .
- (١٢٧) النجوم الزاهرة
لابن تغري بردي
مطبعة دار الكتب المصرية .

- (١٢٨) نظام التجريم والعقاب في الاسلام مقارنا بالقوانين الوضعية
للمستشار على منصور
- (١٢٩) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور
للبقاعى
- (١٣٠) وفاء الوفاء في أخبار دار المصطفى
للإمام نور الدين على بن أحمد السمهودى ت ٩١١ هـ
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد — ط/دار إحياء التراث
العربي — بيروت
- (١٣١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
لابن خلكان
تحقيق د . احسان عباس ط/دار صادر — بيروت .
- (١٣٢) اليهود في بلاد العرب وصدر الاسلام
للدكتور اسرائيل ولفنسون
مطبعة الاعتماد بالقاهرة ١٩٢٧ م .
وغيرها من المراجع

فهرس الموضوعات

الموضوع	صفحة
تقريظ الأمين العام لرابطة العالم الاسلامي معالي الدكتور عبد الله عمر نصيف	٥
تقريظ العلامة قاضي القضاة فضيلة الشيخ محمد المتقي الكشناوى	٧
تقريظ سعادة الدكتور محمد أحمد يوسف القاسم	٩
المقدمة	١١
منهج البحث في هذه الرسالة	١٤
الباب الأول	١٩
الفصل الأول :	
المراد من المدني ، والفرق بينه وبين المكي	٢١
الضوابط التي يعرف بها المدني ، والفرق بين تلك الضوابط وضوابط المكي	٢٩
ضوابط السور والآيات المدنية	٣٥
ضوابط السور والآيات المكية	٣٧
خصائص السور والآيات المدنية	٣٨
الفصل الثاني :	
في بيان السور المتفق على مدنيها والمختلف فيها	٥٣
سورة الفاتحة	٦٣
سورة الرعد	٦٦
سورة النحل	٦٩
سورة الحج	٧١
سورة العنكبوت	٧٤
سورة محمد ﷺ	٨٢
سورة الرحمن	٨٤
سورة الصف	٨٧

الموضوع	صفحة
سورة التغابن	٨٩
سورة الانسان	٩٢
سورة عبس	٩٤
سورة المطففين	٩٦
سورة الفجر	٩٨
سورة الليل	١٠٠
سورة القدر	١٠٣
سورة البينة	١٠٦
سورة الزلزلة	١٠٨
سورة النصر	١٠٩
سورة الصمد (الاخلاص)	١١٠
سورتا المعوذتين	١١٢
الفصل الثالث :	
بيان الآيات المدنية في السور المكية والآيات المكية في السور المدنية (تمهيد)	١١٧
ترتيب سور القرآن وآياته	١١٧
أولا : بيان الآيات المدنية في السور المكية	١٢٧
سورة الأنعام	١٢٨
سورة الأعراف	١٣٢
سورة يونس	١٣٤
سورة هود	١٣٦
سورة يوسف	١٣٩
سورة الرعد	١٤١
سورة ابراهيم عليه السلام	١٤٢
سورة الحجر	١٤٣

الموضوع	صفحة
سورة النحل	١٤٥
سورة الاسراء	١٤٧
سورة الكهف	١٥٢
سورة مريم	١٥٨
سورة طه	١٥٩
سورة الأنبياء	١٦١
سورة الحج	١٦٢
سورة المؤمنون	١٦٥
سورة الفرقان	١٧٣
سورة الشعراء	١٧٤
سورة القصص	١٧٦
سورة لقمان	١٨٠
سورة السجدة	١٨١
سورة سبأ	١٨٧
سورة يس	١٨٩
سورة الزمر	١٩٢
سورة غافر	١٩٤
سورة الشورى	١٩٦
سورة الزخرف	١٩٩
سورة الجاثية	٢٠٠
سورة الاحقاف	٢٠٣
سورة ق	٢٠٥
سورة النجم	٢٠٩
سورة القمر	٢١١

٢١٢	سورة الواقعة
٢١٤	سورة الماعون
٢١٥	سورة الكوثر
٢١٧	ثانياً : الآيات المكية في السور المدنية
٢١٨	سورة الأنفال
٢٢٣	سورة التوبة
	الفصل الرابع :
٢٢٩	دحض الشبهة التي أثبتت حول المدني والمكي من القرآن الكريم
٢٢٩	لمحة موجزة عن المستشرقين
٢٣٢	الشبهة الأولى
٢٣٧	الشبهة الثانية
٢٣٩	الشبهة الثالثة
٢٤٢	الشبهة الرابعة
٢٤٣	الشبهة الخامسة
٢٤٥	الباب الثاني
	مقدمة (بيان حالة المجتمع المدني وقت
٢٤٧	هجرة النبي عليه أفضل الصلاة والتسليم)
٢٦٢	الفصل الأول : التشريعات التفصيلية والأحكام العملية في العبادات والمعاملات
٢٦٣	أولاً : الصلاة
٢٦٧	مشروعية الأذان
٢٧٠	صلاة الجماعة
٢٧٢	التوجه إلى القبلة والحكمة منها
٢٧٧	أنواع الصلوات
٢٧٧	صلاة الجمعة

٢٨٤ صلاة المسافر
٢٩٠ صلاة الخوف
٢٩٦ صلاة الجنائز
٢٩٨ ثانيا : الزكاة
٢٩٩ مكانة الزكاة في الاسلام
٣٠٤ فرضية الزكاة
٣٠٥ الزكاة في العهد المدني
٣١٠ نموذج من السور المدنية في عنايتها بالزكاة (سورة التوبة)
٣١٢ اثم مانع الزكاة
٣١٥ مصارف الزكاة
٣١٧ حكمة مشروعيتها
٣٢١ ثالثا : الصيام
٣٢١ فرضيته
٣٢٢ ما جاء في وجوب صوم رمضان
٣٢٦ الحكمة من مشروعية الصيام
٣٢٩ الاعتكاف
٣٣١ رابعا : الحج
٣٣٥ الحكمة من مشروعية الحج
٣٣٧ المعاملات
٣٣٨ البيع
٣٤٠ الربا
٣٤١ منهج الاسلام في تحريم الربا والأدوار التي مر بها
٣٤٤ الحكمة في تحريم الربا
٣٤٥ المداينة والقرض الحسن

٣٤٧	الرهن
٣٤٨	النكاح
٣٥٠	الخطبة
٣٥٢	الخلع
٣٥٣	الطلاق
٣٥٧	حكمة تشريع الطلاق
٣٥٩	الظهار
٣٦١	الحجاب والاستئذان
٣٦٣	الخمر والتدرج في تحريمه
٣٦٨	الحكمة في تحريم الخمر
٣٧٠	الوصية
٣٧٣	حكمة مشروعيتها
٣٧٤	الفرائض
٣٧٧	الحكمة في تشريع هذه القسمة
٣٧٩	الحدود
٣٧٩	حد الزنى
٣٨٢	الحكمة التشريعية
٣٨٤	حد القذف
٣٨٦	حكمة التشريع
٣٨٧	حد السرقة
٣٨٨	الحكمة التشريعية
٣٨٩	حد الحراة
٣٩١	الحكمة التشريعية
٣٩٢	جرمة القتل
٣٩٥	الحكمة التشريعية في القصاص

الموضوع

صفحة

٣٩٧	الفصل الثاني
٣٩٩	بنو اسرائيل
٤٠٠	من هم بنو اسرائيل
٤٠٣	اليهود وهجرتهم إلى الحجاز
٤٠٥	أحوالهم الدينية وكتبهم المقدسة
٤٠٩	صفات بني اسرائيل كما تحدث عنها القرآن الكريم
	أولاً : سوء أديهم مع خالقهم جل وعلا — وعداوتهم للملائكة والأنبياء ونبذهم
٤١٠	لكتاب الله واتباعهم السحر
٤١٧	ثانياً : تحريفهم للكلم عن مواضعه وتحايلهم على استحلال محارم الله
٤١٩	ثالثاً : نقضهم العهود وجحودهم الحق
٤٢٢	رابعاً : تنطعمهم في الدين والخافهم في المسألة
٤٢٤	خامساً : حرصهم على الحياة وجنبهم عن الجهاد
٤٢٧	الفصل الثالث
٤٢٩	المنافقون
٤٣٠	أولاً : صفات المنافقين كما تحدث عنها القرآن الكريم والسنة المطهرة
٤٣٠	المنافق
٤٣١	الكذب
٤٣٢	الخلف في الوعد والغدر في المعاهدة
٤٣٢	الخيانة
٤٣٣	الضلال والحيرة
٤٣٣	الجبين
٤٤٢	ثانياً : حقيقة المنافقين وخطرهم على المسلمين وما أعد لهم من العذاب
٤٤٥	ثالثاً : بيان موقف الرسول ﷺ من المنافقين
٤٤٨	(١) موقف المنافقين من غزوة أحد

٤٤٩	(٢) قصة الافك
٤٥٠	(٣) مسجد الضرار
٤٥٥	الفصل الرابع
٤٥٧	الجهاد
٤٥٨	أنواع الجهاد
٤٥٨	أولاً : مجاهدة العدو الباطن
٤٥٨	(أ) مجاهدة النفس
٤٦١	(ب) مجاهدة الشيطان
٤٦٤	ثانياً : مجاهدة العدو الظاهر
٤٦٤	(أ) المجاهدة بالمال
٤٦٦	(ب) المجاهدة بالنفس (الروح)
٤٦٨	(ج) المجاهدة باللسان
٤٦٩	فرضية الجهاد
٤٧٠	بيان قواعد التشريع الخاصة بالجهاد وحكمة تشريعه
٤٧٠	مفهوم الجهاد
٤٧٦	حكمة مشروعية الجهاد
٤٧٨	ثالثاً : الأحكام المتعلقة بالغزوات من الصلح والمعاهدات والغنائم الفىء وفك الأسرى
٤٨٠	الغنائم
٤٨٤	الأسرى ومعاملتهم في الاسلام
٤٨٧	معاملة الأسير
٤٨٨	الخاتمة
٤٩١	فهرس الأعلام
٤٩٣	ثبت المراجع
٥٠٩	فهرس الموضوعات